دكتور
عبد المنعم ابراهيم الدسوقي الجميعي

مصر
في التاريخ الحديث والمعاصر
١٧٩٨ - ١٩٧٣

مع مجموعة بحوث ودراسات



تاريخ مصر خط متصل قد
يصعد أو يهبط وقد يدور
حول نفسه أو ينحنى ولكنه
أبداً .. لا ينقطع

دكتور
عبد المنعم ابراهيم الدسوقى الجميعى
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
بجامعة القاهرة ــ فرع الفيوم

مصر
فى التاريخ الحديث والمعاصر

١٧٩٨ - ١٩٧٣

مع مجموعة بحوث ودراسات

الطبعة الأولى

١٩٩٢

تاريخ مصر خط متصل قد يصعد أو يهبط وقد يدور حول نفسه أو ينحنى ولكنه أبداً .. لا ينقطع


بسم الله الرحمن الرحيم

sharif mahmoud

مقدمة

مصر امة عريقة يمتد تاريخها الى ماض موغل فى القدم وقد مر بها على مسار ذلك الماضى الطويل عصور ازدهار وانحطاط فمن تقدم حثيث فى مجال الفكر والحضارة حينا الى جثوم جحافل الطامعين والغزاة على أرضها حينا آخر ، وهى فى كلتا الحالتين كانت مصدرا للحياة الفكرية والحضارية . وظلت أوربا حتى أواخر القرن الثامن عشر تحفظ لمصر الكثير من الاحترام حتى تأمل نفر من السائحين الاوربيين أحوالها ، وتعرفوا على ما تملكها من ضعف فى ظل الحكم العثمانى وكتبوا عن ذلك مما دفع بعض دول أوربا بخاصة فرنسا الى التفكير فى غزوها

وعلى الرغم من أن الحملة الفرنسية على مصر لم تستمر سوى ثلاث سنوات تقريبا ، فقد كانت لها نتائج مهمة جعلت بعض المؤرخين يعدها البداية الحقيقية لتاريخ مصر الحديث [1] ويستندون فى ذلك الى أنها أنهت العزلة القائمة التى عاشتها مصر ، واظهرت أهميتها كمنطقة استراتيجية هامة بالنسبة للقوى المتصارعة حتى أن بريطانيا أخذت تتحين كل الفرص المواتية للاستيلاء على مصر ، هذا الى جانب انها كانت نقطة التحول الواضحة بين مصر العصور الوسطى ومصر الحديثة . وعلى الرغم من فشل حملة فريزر ، ومحاولات محمد على ابعاد مصر عن حلبة الصراع الاوربى ، وجعلها ركيزة لدولة قوية خاضعة له فقد وقفت له بريطانيا بالمرصاد وعرقلت مشروعاته ،

---

(١) بداية العصور التاريخية ليست واحدة فى كل مكان ، وانما سبقت بعض الأقطار غيرها وتأخر بعضها الآخر ، وان كان البعض يعد الفتح العثمانى هو بداية تاريخ العالم العربى الحديث .

واجبرته فى النهاية على قبول معاهدة لندن ١٨٤٠ ، ثم اخذت تتحين الفرص فى عهد خلفائه للسيطرة على مصر حتى تحقق لها ذلك ، وتمكنت من احتلالها فى عام ١٨٨٢ ، كما انتهزت فرصة قيام الحرب العالمية الاولى وانضمام تركيا الى جانب المانيا ، واعلنت حمايتها على مصر .

وللشعب المصرى كفاح طويل ضد الاستعمار البريطانى رغم اساليب القمع والعنف ومناورات السياسة البريطانية ابتداء من تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ الى معاهدة ١٩٣٦ وكانت نظرته منذ ظهور حركة مصطفى كامل ومحمد فريد واشتعال ثورة ١٩١٩ ان عماد الاستعمار فى مصر هو الاحتلال الجاثم على صدر البلاد وأن محور الحل هو الجلاء .

وخلال الحرب العالمية الثانية ازداد التدخل البريطانى فى شئون مصر الداخلية لضمان سياستها الموالية له ، وابرز الأمثلة على هذا التدخل السافر كان حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ الذى حاصرت فيه القوات البريطانية قصر عابدين وارغمت الملك على تكليف النحاس بتاليف الوزارة .

وفى اعقاب الحرب وانتصار الحلفاء شهدت مصر العديد من القلاقل السياسية ، وزاد الطين بلة ما حدث للجيش المصرى خلال حرب فلسطين ١٩٤٨ وتطورت الأمور بقيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وانهيار الملكية وقيام الجمهورية ودخول مصر فى مرحلة جديدة من تاريخها ، وحملها لواء الدفاع عن قضايا العرب التاريخية وبسبب اتساع هذه الموضوعات وتشعبها وتشابكها فان عمل دراسة متكاملة عنها فى مجلد واحد ليست من الأمور الهينة ولذا اضطررنا الى الاقتضاب فى معالجة بعض نواحيها حتى لا يخرج الكتاب عن الحجم المعقول ، وعذرنا فى ذلك ان كل فصل من فصول الكتاب كان من الجائز أن يكون مجلدا قائما بذاته .

يضاف الى ذلك اننا رأينا من المفيد اعادة طبـــع بعض البحـــوث والدراسات الخاصة بتاريخ مصر الحديث والتى كانت قد نشرت فى بعض الدوريات العلمية بعد أن تم الاشتراك بها فى ندوات علمية خشية ضياعها فى زحمة التأليف والتواليف التى يزخـــر بها ســـوق النشر فافردنا لهـــا فصلا خاصا ، كما أفردنا فصلا لبعض رجالات النهضة المصرية فى العصر الحديث ولنـــا عظيم الرجـــاء فى أن نكون قد وفينا تـــاريخ مصر الحديث والمعاصر بعض حقه .

والله ولى التوفيق

د. عبد المنعم الجميعى

القاهرة — المهندسين أغسطس ١٩٩٢

الفصل الأول

الحملة الفرنسية على مصر والشام

اسبابها – وقائعها – سياسة بونابرت الاسلامية – ثورة القاهرة الأولى – حملة بونابرت على بلاد الشام – الجنرال كليبر يتولى قيادة الحملة بعد نابليون – مينو وقيادة الحملة نتائج الحملة :

– الآثار والنتائج السياسية

– الآثار والنتائج العلمية .

– الآثار والنتائج الاجتماعية .

– الآثار والنتائج الصحية .

– الآثار الادارية للحملة .

اولا : اسبــاب الحملة :

تختلف آراء المؤرخين حــول أسباب الحملة الفرنسية على مصــر وفيما يلى نعرض لوجهات نظرهم :

١ ـــ رغبة حكومة الادارة فى فرنسا فى التخلص من بونابرت بعـد انتصاراته الباهرة فى ايطاليا ، وذلك عن طريق ارســاله فى حملة جديدة تبعــده عن باريس حتى ينســاه الشعب الفرنسى ، وقد وجدت فــى تعيينه لقيــادة الحملة على مصر فرصة مواتية لتحقيق رغبتها .

٢ ـــ رغبة الفرنسيين الملحة فى انشـــاء مستعمرة لهم فى الشــرق تعوضهم عن ضياع مستعمراتهم فى أمريكا وكندا والهند وعلى الخصوص انه كان من المتعــذر عليهم ان ينبذوا فكرة انشاء امبراطورية استعمارية لهم ، وتشــجيع دى شــوازيل Choiseul احد وزراء خــارجية فرنســا ، وتاليران Talleyrand عضو المجمع الفرنسى على ذلك .

٣ ـــ معــاقبة البكوات المماليك المسيطرين على زمام الأمور فــى مصر والذين أقاموا الصــلات الودية الوثيقـــة مع الانجليز ، وأســاءوا معاملة التجار الفرنسيين ونهبوهم[١] ، وتشجيع القنصل الفرنسى شارل ميجالون Magallon على ذلك[٢] .

٤ ـــ القضــاء على سيطرة الانجليز على البحر الأحمر والهند ، والقيــام بشق برزخ السويس واتخاذ الوسائل اللازمة لضمان استيلاء فرنســا كليا على البحر الأحمر وامتلاكه .

٥ ـــ المنافسة القديمة بين فرنسا وبريطانيا على التجارة الشرقية، ومحاولة فرنسا الاقتصاص من الانجليز الذين يناصبونها العداء بتقويض نفوذهم فى ممتلكاتهم بالهند ، واجبارهم على عقد الصلح معهم بعـــد احتلالهم لمصر .

٦ — توقع انهيار الدولة العثمانية وتقسيم أملاكها بين الدول الكبرى وخشية الفرنسيين من أن تسبقهم احدى الدول الكبرى فى الاستيلاء على مصر التى يرغبون أن تكون من أملاكهم لما تربطهم بها من صلات تجارية قديمة (*) .

٧ — رغبة بونابرت فى كسب أكاليل جديدة من الشهرة والمجد والتشبه بالاباطرة والقياصرة القدامى أمثال الاسكندر المقدونى ويوليوس قيصر وغيرهما وذلك بتشييد امبراطورية فى الشرق (٣) .

٨ — تنمية علاقات فرنسا التجارية مع الشرق ، وذلك عن طريق ارسال حملة للاستيلاء على مصر كى تمكنهم من المحافظة على تجارتهم بها وصيانتها وتنميتها وبخاصة وان بريطانيا كانت منافسا خطيرا لهم فى مصر ، وان هذه التجارة كانت تدر عليهم الأرباح الوفيرة نظرا لانها كانت تنقل البهارات والتوابل من الهند الى أوربا (٤) وقد اكد ذلك « تاليران » فى خطابه الموجه الى بونابرت فى سبتمبر ١٧٩٧م بقوله « ان مصر كطريق تجارى ستعطينا تجارة الهند ، لأن المعول فى التجارة على الوقت ، وبالاستيلاء على مصر نستطيع أن نقوم بخمس رحلات مقابل ثلاث بالطريق المعتاد حول راس الرجاء الصالح » .

٩ — التقارير المشجعة للقناصل والرحالة الفرنسيين وخاصة بعد أن كشفت تقارير هؤلاء القناصل سواء فى مصر أو استنبول حقيقة الأوضاع التى تعانى منها الدولة العثمانية كما اكد ذلك كتابات الرحالة الفرنسيين مثل « سفارى » و « فولنى » و « توت » الذين أكدوا قرب انهيار الدولة العثمانية ، وان اسراع فرنسا فى الاستيلاء على مصر يخدم المصالح الفرنسية ، ويحد من طغيان المماليك بها .

ثانيا : وقائع الحملة :

ونتيجة لمجمل هذه الأسباب اصدرت حكومة الادارة فى ١٢ من ابريل ١٧٩٨م قرارها بوضع جيش الشرق تحت قيادة بونابرت للاستيلاء على مصر . وتحت ستار من الكتمان غادر بونابرت باريس فى صباح اليوم الرابع من مايو عام ١٧٩٨ متوجها الى ميناء «طولون»

حيث قام بانتقاء القادة والضباط والعلماء والجغرافيين والمهندسين الذين سيصحبونه فى حملته كما اظهر مهارة فائقة فى تجهيز الحملة بكافة المعدات والأدوات العلمية ، وجلب من روما المطبعة العربية واليونانية وأحضر معها مجموعة من المتخصصين بصف الحروف العربية وطباعتها ، والى جانب ذلك أحضر معه العديد من الكتب الخاصة بمصر وبلاد الشرق للاستفادة منها خلال رحلته[٥] . وقد خرجت الحملة من ميناء طولون متوجهة الى مالطة فى عام ١٢١٣هـ الموافق التاسع من يونيو ١٨٩٨م واستطاع بونابرت الاستيلاء عليها وتأديب فرسانها بحجة انهم لا يقيمون وزنا لأوامر الجمهورية الفرنسية ، وفى صبيحة التاسع عشر من يونيو تحركت الحملة من مالطة الى الاسكندرية ولم تتبع الحملة — خلال ذلك — فى سيرها طريقا مستقيما بل حولت اتجاهها خشية أن يفاجئها الأسطول الانجليزى فى عرض البحر المتوسط فابحرت صوب جزيرة كريت[٦] وهناك علم بونابرت أن الأسطول الانجليزى بقيادة الاميرال « نلسن » Nelson يجد فى البحث عنه ، ونتيجة لذلك بدأت الحملة تاخذ اتجاهها الى الجنوب الشرقى قاصدة الاسكندرية رأسا، وبعد أن بلغتها علم بونابرت ان الأسطول الانجليزى الذى سبقه الى الاسكندرية بثلاثة أيام فقط قد غادرها للبحث عن حملته فى مياه ازمير التركية . ونتيجة لذلك قرر بونابرت انزال جنده فى الحال الى البر خشية ظهور الأسطول الانجليزى مرة ثانية ، وكانت خطته تتركز فى توزيع قواته فى عدة مواقع والاستيلاء على الاسكندرية ودمياط فى وقت واحد ثم التوغل من هذين المركزين الى الدلتا ، والوصول الى القاهرة باقصى سرعة ولكنه سرعان ما عدل عن هذه الخطة بعد أن وصلته الأخبار عن اقتراب الاسطول الانجليزى من الاسكندرية فأمر بانزال جنوده ومهماته بسرعة والزحف على الاسكندرية واحتلالها . وكانت توصيات بونابرت الى قواته تنحصر فى قوله لهم « أيها الجنود انكم توجهون الآن ضربة مؤلمة الى بريطانيا وانى لمؤمن بالنجاح فيما شرعنا به وسنفنى المماليك الذين أهانوا فرنسا بعد بضعة أيام واعلموا أن الرغبة الأولى للشعب الذى ستعيشون بينه هى « لا اله الا الله محمد رسول الله » فلا تعاكسوهم فى معتقدهم واعلموا أن النهب يحقر الجيش، وأن المدينة التى هى الآن أمامكم وغدا ستحتلونها قد بناها الاسكندر[٧] ».

وقد قاوم أهل الاسكندرية بقيادة حاكم مدينتهم « محمد كريم » الجيش الفرنسى ودافعوا عن أسوار مدينتهم غير أن هذه المقاومة لم تستمر سوى ساعات قليلة نزلت بعدها القوات الفرنسية الى الاسكندرية فى الثالث من يوليو ١٧٩٨م وكانت الخطوة التالية لهم هى الزحف على القاهرة فأرسل بونابرت حملة للاستيلاء على رشيد ، كما أرسل بعض ضباطه البحريين باسطول صغير من المراكب الخفيفة الى مصب النيل أما باقى الجيش فقد زحف على القاهرة بالطريق الصحراوى ، ولم يكن هذا الزحف نزهة عسكرية بل لقى الفرنسيون فى اثنائه الشدائد والأهوال(٨) وقبل نزول الحملة الى القاهرة وعد بونابرت وهو على ظهر السفينة « أوريان » فى ١٨ من محرم ١٢١٣ الموافق الثانى من يوليو ١٧٩٨م بتأمين الأهالى على أرواحهم واعراضهم وأموالهم وشعائرهم الدينية ، كما وعد باحترام شعور أهالى البلاد وعاداتهم ، واكد على احترام الاسلام والمسلمين ، ومصادقة الدولة العثمانية ، وأن الفرنسيين ما جاءوا الى مصر الا للاقتصاص من المماليك الخارجين عن طاعة السلطان ، والذين يعذبون الأهالى ويستولون على أرزاقهم .

وقد حدث أول اشتباك كبير بين المماليك والجيش الفرنسى فى « شبراخيت » فى ١٤ من يوليو ، ومع أن المماليك كانوا قد اتخذوا العدة لمقابلة الفرنسيين ، وصمموا على مفاجأتهم قبيل الوصول الى القاهرة فوزعوا الى قسمين الأول برئاسة « ابراهيم بك » وقد ظل مرابطا على الضفة اليمنى للنيل فى بولاق أما القسم الآخر فكان بقيادة مراد بك على الضفة اليسرى وسرعان ما لاحظ « بونابرت » ضعف ترتيبات أعدائه فاعتمد على الحركة السريعة فى مناوراته العسكرية معهم ، ونجح فى اختراق صفوف المماليك حتى ولوا منهزمين ، ولم يستطع مراد بك السيطرة على زمام الأمور فتقهقر بقواته الى القاهرة(٩) ودخل بونابرت الجيزة ، وحينما رأى أهراماتها قال لقواته مشيرا بأصبعه الى قمم الأهرام « ان اربعين قرنا من الزمان تنظر اليكم » .

وفى ٢٤ من يوليو دخل الفرنسيون القاهرة ، واتخذ بونابرت مقر قيادته العامة فى سراى الألفى بميدان الأزبكية واخذ فى تنظيم شئون الحكم فى مصر(١٠) .

أما عن فلول المماليك فقد انسحبت الى الصعيد حاملة معها نفائسها وأموالها وحريمها ، وحذا حذوهم عديدون من كبار المصريين الذين كانوا على سعة من العيش تمكنهم من استئجار الدواب لنقل متاعهم وثرواتهم .

ولكى يقرب بونابرت المصريين منه أعرب عن حسن نواياه تجاههم وتجاه السلطان العثمانى بصفته خليفة للمسلمين ، وبدأ فى استمالتهم وتحريضهم ضد المماليك فعلق منشورا لأهالى القاهرة جاء فيه «اننى ما قدمت اليكم الا لأخلص حقكم من يد الظالمين واننى اكثر من المماليك أعبد الله سبحانه واحترم نبيه والقرآن العظيم » .

كما تظاهر بالاسلام بقوله « ان الفرنساوية هم ايضا مسلمون مخلصون .. والمصريون بأجمعهم ينبغى أن يشكروا الله سبحانه وتعالى لانقضاء دولة المماليك وعليهم أن يقولوا بصوت عال أدام الله اجلال السلطان العثمانى ادام الله اجلال العسكر الفرنساوى ، لعن الله المماليك واصلح حال الأمة المصرية »[١١] يضاف الى ذلك أن بونابرت صار ينشر المنشورات التى يطعن فيها على ديانة النصارى ويمدح الاسلام ، واشرك المصريين اشراكا محدودا فى الحكم فألف مجلسا نيابيا كان يحوى عددا كبيرا من رجال الأزهر ، كما شرع فى تنظيم الادارة الأهلية فشكلت الدواوين لمعاونة الحاكم الفرنسى على ادارة شئون البلاد واستتباب الأمور فيها ، ولم تمض أيام قليلة على ذلك حتى وصلت الأخبار الى بونابرت بوقوع كارثة « أبى قير » البحرية وهزيمة الأسطول الفرنسى هناك ، مما كان له أكبر الأثر على اضعاف مركز الحملة فى مصر ، والقضاء على هيبة الفرنسيين فى نفوس الأهالى ، ثم القضاء فى نهاية الأمر على مشروع ارسال الحملة المرتقبة الى الهند يضاف الى ذلك ان تحطيم الأسطول الفرنسى فى « أبى قير » أدى الى قطع المواصلات بين فرنسا وحملتها فى مصر ، واضعاف الروح المعنوية لدى القوات الفرنسية كما أدى الى التجاء الفرنسيين للاعتماد على موارد مصر الداخلية اعتمادا كليا مما ساعد على اثارة الاضطرابات فى الأقاليم وتحريك الثورة فى القاهرة[١٢] والى جانب ذلك فقد تشجعت

الدولة العثمانية على الانضمام الى بريطانيا والروسيا فى تحالف ضد فرنسا فى يناير من عام ١٧٩٩ [١٣] كما أعلن السلطان سليم الثالث الجهاد الدينى ضد الفرنسيين فى مصر ، وشارك العثمانيون فى الحملات التى أرسلت لطرد الفرنسيين من مصر ، وقاموا بقطع العلاقات مع فرنسا ، والى جانب ذلك فقد ضمنت انجلترا سيادتها على البحار، وعقدت تحالفات عديدة ضد فرنسا مما أدى الى تحرج موقفها .

ثالثا : سياسة بونابرت الاسلامية :

بعد تحطيم الأسطول الفرنسى فى أبى قير اختط بونابرت فى سياسته الداخلية لمصر خطة كانت لحمتها وسداها احترام شعائر أهل البلاد وتقاليدهم قولا وفعلا ثم الاعتماد فى حكومته على جماعة المشايخ والعلماء وهم العنصر الدينى صاحب النفوذ بين طبقات الشعب حتى يتمكن من تسكين الأهالى [١٤] ومن هنا تشعبت جهود بونابرت الاسلامية الى طرق متعددة نذكر منها .

١ — ان الأوامر والمنشورات التى أصدرها بونابرت لجنده ولأهل البلاد تتضمن احترامه العميق للاسلام ولعلماء وائمة المسلمين .

٢ — اشتراك بونابرت فى الاحتفالات الدينية والوطنية فاحتفل فى العشرين من اغسطس عام ١٧٩٨م بالمولد النبوى الشريف ارضاء للمسلمين واستجلابا لمساعدتهم وعن ذكر يذكر الجبرتى فى حوادث الخامس من ربيع الأول ١٢١٣هـ فيقول « سأل صارى عسكر عن المولد النبوى ولماذا لم يعملوه كعادتهم فاعتذر الشيخ البكرى بتعطيل الأمور وتوقف الأحوال، فلم يقبل وقال لابد من ذلك ، واعطى له ثلثمائة ريال فرنسى معاونة، وامر بتعليق تعاليق واحبال وقناديل ، واجتمع الفرنساوية يوم المولد ولعبوا فى ميادينهم وضربوا طبولهم »[١٥] .

وفى أول سبتمبر ١٧٩٨م احتفل بونابرت بتعيين أمير الحج[١٦] ، كما أخذ الفرنسيون اهبتهم للاحتفال بموكب كسوة الكعبة المشرفة ، وفى العاشر من فبراير ١٧٩٩م احتفل الفرنسيون بحلول شهر رمضان المبارك احتفالا ضخما ، وصاروا يترددون على كبراء المصريين ومشايخهم « ويأكلون

معهم فى وقت الافطار ويشاهدون نظامهم وترتيبهم ، ويحذون حذوهم»[(١٧)] كل ذلك فى محـــاولة لجذب قلوب المصريين اليهم باستمالتهم والتقرب منهم حتى يطمئن الأهالى اليهم .

والى جانب ذلك فقد احتفل الفرنسيون بعيد الأضحى فى ذى الحجة ١٢١٣هـ فضربوا مدافـــع من القلعة عند الشروق وذلك اعلاما بالعيد .

٣ — وفى محاولة من بونابرت لاضعـــاف مركز الدولة العثمانية فى مصر واحيـــاء مركز القاهرة الدينى عمل على اظهار السلطان العثمـــانى بمظهر غير المهتم بالمصلحة الدينية الاسلامية ، والعاجز عن الاضطـــلاع بأعباء مهـــام مناصبه الدينية ، كما قام بعزل القاضى العثمانى فى مصـــر فى يونيو من عام ١٧٩٩م وطـــالب المشايخ باختيار أحد المصريين فى هذا المنصب ، ولما اجتمعت كلمة العلماء على اختيـــار الشيخ «أحمد العريشى» الحنفى لتولى القضـــاء ألبسه بونابرت فروة ثمينة ، كمـــا أصدر منشورا بذلك طبع منه عدة نســخ الصقت بالأسواق[(١٨)] .

٤ — المكاتبات التى أرسلها بونابرت الى الأمراء المسلمين فى الحجاز والشـــام والعـــلاقات التى حاول تكوينها معهم تـــدل على محـــاولته اكتساب مودتهم وعلى ســـبيل المثال فقد عرض بونابرت على الشـــريف غـــالب فى مـــكة بعض الاتفاقات التجاريـــة كما أرســـل عـــدة رســـائل الى بعض أمراء العرب فى مسقط وغيرها يخطب فيها ودهم[(١٩)] .

٥ — اهتمام بونابرت باقناع المسلمين فى مصر ان الفرنسيين يعتنقون الاســـلام حقيقـــة .

وعلى الرغم من كل ذلك فقد أســـاء المصريون الظن بالفرنســـيين وشككوا فى نياتهم خصوصا وانهم ظلوا يشربون الخمر الذى حرم الاسلام شربه ، كمـــا انهم لم يختنون وقد أكد الجبرتى هذه الشـــكوك فى نـــوايا الفرنسيين بقوله ان الله أعلم بنواياهم الحقيقية ومقاصـــدهم من تـــلك المجـــاملات .

ونتيجة لذلك تدهورت العلاقات بينهما خصوصا بعد رفض العلماء تعليق شـــارة الثورة الفرنسية — ذات الألوان الثلاثة — على صدورهم

بنـــاء على أوامر بونابرت ، ثم حدثت بعد ذلك ثورة القاهرة الأولى ، ولم يبـــال المشايخ باخمادها مما جعل اسلوب بونابرت فى التعـــامل معهم يزداد سوءا .

رابعا : ثورة القاهرة الأولى :

وعلى الرغم من محاولات بونابرت المتعددة لاستمالة المصـــريين فقد ظل الأهالى على اعتقـــادهم بأن الفرنسيين انما هم اعداء الدين الاسلامى، والى جـــانب هذا النفور والعداء الدينى كانت هناك العديد من الأسباب نذكر منهـــا :

١ ـــ خروج الفرنسيين ومعهم النســـاء والبنـــات الفرنســـيات مكشوفات الوجوه فى الطرقات ، وشربهم الخمر ، واقامتهم حفلات الرقص علانية وعدم تقيدهم بتعاليم الدين الاسلامى وآدابه .

٢ ـــ هدم بعض الجوامع والمنارات فى بركة الأزبكية لأجل توسيع الطرقات ، واقاموا الحصـــون مما آثار مشاعر المصريين .

٣ ـــ ســـوء الاحوال الاقتصـــادية وتذمر المصريين من ترتيبـــات الفرنسيين الاقتصادية وتنظيماتهم المالية ، وبخاصة بعد اعتماد الفرنسيين على مـــوارد البلاد فى تموين جيشهم نظرا لتدمير الاسطول الفرنسى فى موقعة أبى قير البحرية [٢٠] .

٤ ـــ كتابات احمد باشـــا الجزار الى المصريين واستنهاضهم ضد الفرنسيين ، وحثهم على الثورة .

٥ ـــ فرض بونابرت للضرائب والغرامات على التجار ، واثقـــال كواهلهم بمطالبه ، وتذرعه بشتى الوسائل لجمع الأموال منهم .

ونتيجة لذلك تألفت فى الأزهر لجنة جمعت حولها النـــاقمين على الحكم الفرنسى والكارهين له ، وقد أذاعت هذه اللجنة أن بونابرت انما يريد ارغـــام المسلمين على اعتنـــاق المسيحية كما أعلنت أن جيشـــا من المماليك والعثمانيين ســـوف يحضر قريبـــا الى الشواطىء المصرية لطرد

الفرنسيين ، وقد اشترك فى التحريض على الثورة الأئمة والمؤذنون وغيرهم من رجال اندين حتى انفجر بركانها فهاجم المصريون القوات الفرنسية وقاموا بعمل المتاريس وقتلوا الكثير من الجند الفرنسيين .

وقد اتخذ بونابرت كافة الاجراءات العسكرية للقضاء على الثورة فوزع قواته لاحتلال الازبكية ، كما احتل جزءا من جيشه المرتفعات بين القاهرة والقبة ، واصدر أوامره الى قواده بمهاجمة الأزهر ، واطلاق المدافع عليه اذا اقتضى الأمر مما جعل الناس ينادون « ياسلام من هذه الآلام ياخفى الألطاف نجنا مما نخاف » (٢١) . وقد استطاع بونابرت اخماد الثورة بعد أن فقد حوالى الخمسين من جنوده بينما فقد الثوار ما يزيد على الألفين وخمسمائة ، وبعدها أرسل عددا من فرسانه بجيادهم فدخلوا الأزهر وحطموا قناديله ونهبوه ، وارتكبوا فيه المعاصى، وانتهكوا حرماته وجعلوه اصطبلا لخيولهم .

وبعد أن التمس العلماء من بونابرت اخراج خيوله من الأزهر ، والتوقف عن الضرب أجاب ملتمسهم بعد أن اخذ منهم المواثيق على عدم تنشيط حركة الثورة بين الأهالى ضد الفرنسيين ، واتهامه لهم بالتقصير فى معالجة الأمور .

وعن نتائج هذه الثورة فقد كانت جد خطيرة وفيما يلى نعرض لها .

١ — غيرت هذه الثورة من سياسة التودد الى الأهالى التى كان يتبعها بونابرت الى سياسة الشدة والصرامة مع المصريين ، فعطل الديوان لمدة شهرين ، كما شدد فى معاقبة المحرضين على الثورة لدرجة وصلت الى حد الاعدام ومصادرة الممتلكات .

٢ — امتداد الاضطرابات الى بقية انحاء القطر المصرى فى الوجهين البحرى والقبلى .

٣ — انتهاز النصارى والأروام الفرصة ، ومحاولاتهم الايقاع بالمسلمين .

٤ — سجن الفرنسيين لبعض المشايخ ، وقيام الشيخ السادات بالتشفع لهم .

خامسا : حملة بونابرت على بلاد الشام ١٧٩٩م :

على الرغم من حرص بونابرت عند خروجه للحملة على مصر بالاحتفاظ بعلاقات ودية مع الدولة العثمانية فان هزيمة أسطوله فى أبى قير قد شجع السلطان العثمانى على اعلان الحرب عليه وقطع العلاقات مع فرنسا مما أدى الى تأزم العلاقات بين الطرفين . وقد حاول بونابرت استمالة بعض أصحاب النفوذ فى البلدان التى توقع أن تغزوه منها الجيوش العثمانية فكتب الى عبد الله باشا العظم والى دمشق ، وكتب الى أحمد باشا الجزار رسائل يؤكد فيها انه لم يكن يوما ما عدوا للمسلمين ، وانه انما حضر الى مصر للانتقام من المماليك وليس لقتال المسلمين ونفى الشائعات التى تقول انه يريد الاستيلاء على بيت المقدس وتهديم الدين المحمدى (٢٢) . غير أن كافة هذه المساعى كان نصيبها الفشل التام خصوصا بعد أن أعلنت الدولة العثمانية الجهاد الدينى ضد فرنسا .

ونتيجة لذلك وخشية من مهاجمة العثمانيين وحلفائهم للقوات الفرنسية فى مصر ، قرر بونابرت مبادرة أعدائه بالهجوم والزحف على بلاد الشام ، وفى السادس من فبراير ١٧٩٩م بدأت مقدمة الجيش الفرنسى بالتقدم الى العريش ثم الى غزة ، وبعدها استولى بونابرت على الرملة ، وضرب نطاق الحصار حول يافا ، وبعد أن استسلمت حامية يافا وقع فى يده أربعة آلاف أسير فأمر بقتلهم بالرصاص ، وبعدها أباح لجنده تلك المدينة يومين يفعلون فيها وبأهلها ما يشاءون .

وفى الثامن عشر من مارس ١٧٩٩م بدأ بونابرت فى حصار عكا وكان حصارا طويلا شاقا استمر ثلاثة شهور ، وقد صمدت عكا أمام الفرنسيين نتيجة للاسباب الآتية :

١ — مناعة حصون عكا وصمودها أمام قصف المدفعية الفرنسية .

٢ — استبسال أحمد باشا الجزار ورجاله فى مقاومة الفرنسيين .

٣ — مساعدة الأسطول الانجليزى بقيادة « سدنى سميث » من البحر لأهالى عكا ، وامدادهم بالسلاح والمئونة .

٤ — انتشار وباء الطاعون بين أفراد الجيش الفرنسى .

ونتيجة لذلك أخفق بونابرت مع عكا على الرغم من الجهود التى بذلها وقد يرجع ذلك الى قلة معدات الحصار التى كان يمتلكها . ولما يئس بونابرت من ذلك قام برفع الحصار عنها والعودة الى مصر فى الخامس عشر من يونيو بعد أن تكبدت قواته خسائر كبيرة . ولكى يخفى بونابرت ما حدث له فى عكا دخل القاهرة فى موكب كبير بسط فيه انتصاراته فى يافا كما أوضح أن سبب رجوعه الى مصر هو ما بلغه من قيام بعض المفسدين بتحريك الفتن والشرور فى غيابه . على أن المقام لم يطل ببونابرت طويلا فى القاهرة حيث جاءته الأخبار عن وصول حملة عثمانية الى مصر ، ونزول الأتراك الى شاطىء أبى قير فى ١٤ يوليو فانتقل بونابرت الى الرحمانية ، واتخذ مقر قيادته بالاسكندرية ، وهناك انقض على القوات العثمانية فى معركة حامية استطاع خلالها هزيمة العثمانيين فى معركة أبى قير واصابة قائدهم بجروح خطيرة[٢٣] ثم عاد بعدها الى القاهرة وهناك علم من الصحف أن فرنسا أصبحت على حافة الهاوية نتيجة لانتصار الدول الأوربية عليها وان واجبه يدعوه الى العودة الى وطنه لانقاذه من اعدائه . ومن هنا قرر العودة السريعة الى فرنسا[٢٤] .

وقبل ان يغادر بونابرت مصر اختار الجنرال كليبر Klebere للقيادة حيث كان يرى أنه أكفأ القواد الموجودين مع الحملة فى مصر وانه يستطيع أن يحفظ هذه المستعمرة من الضياع حتى تعقد فرنسا صلحا مشرفا مع أعدائها .

سادسا : الجنرال كليبر يتولى قيادة الحملة بعد نابليون :

غادر بونابرت مصر فى التاسع عشر من أغسطس ، وهو يحس فى أعماقه أن مصير الحملة آيلا للزوال ، لذلك خير كليبر بين أمرين هما :

١ — ابرام الصلح مع العثمانيين حتى ولو كان الجلاء عن مصر واعادتها الى السلطنة العثمانية من شروط الصلح الأساسية .

٢ — ارجاء الخروج من مصر ، أو اخلائها أكبر مدة ممكنة الى أن يتم نهائيا عقد الصلح العام مع أعداء فرنسا[٢٥] .

وقد أقبل كليبر على مهمته الجديدة بكل نشاط ، كما أصدر فى الثلاثين من اغسطس منشورا خاطب فيه الجند فأعلن عليهم الأسباب القهرية التى حملت بونابرت على تقرير الرحيل الى فرنسا ، ومناهم بوصول نجدة قوية لهم من فرنسا عن قريب ، أو صلح مظفر يفسح لهم الطريق للعودة الى بلادهم . ولما أحس كليبر بحرج موقفه ، وثقل التبعة التى القيت على عاتقه خصوصا وانه لا يمكنه البقاء فى مصر طويلا بل يجب اخلائها ، والعودة بجنوده الى فرنسا فقد وطد عزمه على المفاوضة من أجل الجلاء عنها ، وأراد أن يستند فى عزمه هذا على أن حالة الجيش والادارة قد بلغت درجة من السوء والارتباك تقضى على كل أمل فى البقاء بمصر ، وأن أحوال الحملة فى مصر تزداد سوءا يوما بعد يوم .

ونتيجة لذلك قرر كليبر فتح باب المفاوضات مع الصدر الاعظم العثمانى « يوسف ضيا باشا » فى السابع عشر من سبتمبر ١٧٩٩م بغرض الوصول الى صلح مع الدولة العثمانية . وقد تمسك ضيا باشا بعدم رغبته فى الدخول فى أية مفاوضة الا على اساس اجلاء الفرنسيين عن مصر من غير قيد أو شرط وقد كتب اليه كليبر يقول ان « الصلح أعظم خدمة يمكن أن تؤديها لوطنك ، والفرنسيون لا يخشون أعداءهم .. ولكنهم يعتبرون الحرب القائمة بينهم وبين الباب العالى صديقهم التقليدى حربا ضد أنفسهم .. ومصر كانت لكم وستبقى لكم بل هى لكم اليوم أكثر منها بالأمس لأن المماليك قد أقصوا عن حكمها ولن يحكموها بعد الآن » .

وقد رد الصدر الأعظم على رسالة كليبر بقوله « ان الفرنسيين اعتدوا على مصر دون سابق انذار ، واحتلوا هذا البلد التابع مباشرة للباب العالى .. اما وقد بدأ من جانب فرنسا ميل صحيح الى الصداقة القديمة مع الباب العالى فان الصدر الأعظم يقبل أن يعفو عنها ، ويعيد جميع الفرنسيين الموجودين فى مصر الى بلادهم آمنين سالمين »[٢٦] .

وعندما علم سدنى سميث بأمر هذه الاتصالات قرر مباشرة التدخل فى المفاوضات ، وأعلن أنه من المتعذر انسحاب الفرنسيين من مصر ، وعودتهم الى وطنهم من غير موافقة بريطانيا فهى صاحبة السيطرة البحرية والكلمة العليا ، وان الموقف السياسى فى أوربا لا يدعوه الى

الرغبة فى السلام مع الفرنسـيين . ونتيجة لذلك أرسل كليبر الى مفاوضيه بمقترحات جديدة تنازل فيها عن أكثر الشروط المقيدة للجلاء عن مصر ، ورحب بتدخل « سيدنى سميث » فى المسألة لاقناعه بأن المفاوضات من المحتمل أن تصبح مقدمة لعقد السلام العام كما أعلن أن تركيا ستستعيد مصر بمجرد عقد الصلح بين فرنسا وبريطانيا والباب العالى ولكن سميث تشدد فى موقفه خصوصا وانه رأى خطورة السماح للجيش الفرنسى بالعـودة الى بلاده بسلاحه ومهماته فى وقت تحارب فيه بلاده فرنسا ، أن هذا الجيش بوجوده فى مصر يكون أقل ضررا من وجوده فى فرنسا خصوصا وأن كليبر كان يرى اهمية خروج جيشه من مصر بسلاحه وذخائره وامتعته مع حقه فى العمـل العسكرى فى أى مكان بعد عودته الى فرنسا وخلال هذه الآونة سقطت قلعة العريش فى أيدى العثمانيين ، مما كان له أكبـر الأثـر فى ازدياد رغبـة كليبر فى ابرام الصلح بكل سرعة ممكنة[٢٨] ، ولهذا طلب من مفاوضـيه التساهل فى الأمر وضرورة الاهتمام بالمسائل التالية :

١ — الا تدخل الجيـوش العثمانية أو الانجليزية مصر الا عند وصول سـفن النقل الى الموانىء المصرية التى ترحـل منها الحملة وهى السـفن التى ينبغى على الصـدر الأغظم اعدادها وتجهيزها بالمئون .

٢ — يجب اعطـاء التعهدات اللازمة لضمـان ملاحظة تنفيذ المعاهدة والهدنة التى تتبعها ملاحظة دقيقة .

٣ — لا ينبغى أن يقيد حق جيش الحملة عند عودته الى فرنسـا فى العمل ضد كافة الأعداء .

ومعنى ذلك أن كل هموم كليبر قد انحصرت فى مجـرد الجـلاء دون قيد أو شرط سـوى اعطـاء الجيش العـائد الى وطنه حرية العمـل فى الميدان الأوربى ، ثم نقل جيشـه على سفن العدو الى بلاده .

وفى هذه الاثنـاء انتقل كليبر من القاهرة الى الصـالحية ، ثم جمع قواته على الحـدود ، وكان غرضـه تأييد المفاوضات من جهـة ثـم الاستعداد لمواجهة الطوارىء من جهة اخرى .

وفى ٢٤ من يناير ١٨٠٠م تم توقيع اتفاقية العريش وهى تتألف من مقدمة ، و٢٢ بندا تبين كيفية انسحاب الجيش الفرنسى من مصر بسلاحه وعتاده فى غضون ثلاثة اشهر من تاريخ الاتفاق فتضمن البند الأول « ان الجيش الفرنساوى يلزمه أن يتنحى بالأسلحة والعزال بالأمتعة الى الاسكندرية ورشيد وابو قير لأجل ان يتوجه ، وينتقل بالمراكب الى فرنسا ان كان ذلك فى مراكبهم الخاصة بهم ، أم فى تلك التى يقتضى الباب العالى أن يقدمها لهم »[٢٨] .

أما باقى البنود فقد كان أهمها :

١ — تتوقف العمليات الحربية فى مصر لمدة ثلاثة اشهر من توقيع الاتفاق يقوم الباب العالى خلالها باستحضار السفن اللازمة لنقل الفرنسيين الى بلادهم .

٢ — الاتفاق على مواعيد اخلاء المدن والأقاليم المصرية من الجيوش الفرنسية .

٣ — عدم التعرض للقوات الفرنسية فى اثناء انسحابها ، ووجوب وسائط بين الطرفين ، وأخذ الضمانات اللازمة بذلك .

٤ — الافراج عن المسجونين والمحجوزين من كلا الطرفين ، ورد الأموال والممتلكات العامة لأصحابها .

٥ — عدم التعرض للنصارى الذين ساندوا الفرنسيين .

٦ — تقديم ما يلزم الجيش الفرنسى من الطعام والغذاء خلال فترة الانسحاب[٢٩] .

وهكذا فرض الفرنسيون على الجانب العثمانى التزامات معينة فى سبيل الجلاء عن مصر ، كما اشترطوا أن ينسحب الجيش الفرنسى بكامل أسلحته وامتعته وأن يتوفر له الامان خلال عودته الى فرنسا ، يضاف الى ذلك أن المفاوض الفرنسى اشترط رعاية مصالح فرنسا فى ممتلكات الدولة العثمانية .

وقد وافق بونابرت الذى كان قد تبوأ مركز القنصل الأول فى فرنسا على هذه المعاهدة مقدرا صعوبة موقف كليبر ، والى جانب ذلك كان سرور أهل القاهرة عظيما بعد ذيوع اتفاقية العريش ، وقد وصف الجبرتى ذلك بقوله ان الناس « نظروا للفرنسيين بعين الاحتقار ، وانزلوهم من درجة الاعتبار ، وكشفوا نقاب الحياء معهم بالكلية ، وتطاولوا عليهم بالسب واللعن والسخرية ، ولم يفكروا فى عواقب الأمور ، ولم يتركوا معهم للصلح مكانا حتى أن فقهاء المكاتب كانوا يجمعون الأطفال ويمشون بهم فرقا وطوائف ، وهم يجهرون ويقولون كلاما مقفى بأعلى أصواتهم ، بلعن النصارى وأعوانهم وأفراد رؤسائهم »[٣٠] .

وقد بدأ الفرنسيون فى تنفيذ معاهدة العريش عقب ابرامها فنقلوا معداتهم وأمتعتهم الى الاسكندرية ، وبداوا فى الاستعداد للرحيل بنشاط كما سلموا دمياط ، وعزبة البرج الى الأتراك ووافقوا على وصول الجيش العثمانى الى بلبيس واقترابه من القاهرة [٣١] ولكن الأمور سرعان ما تطورت فى غير صالح الاتفاقية حيث هدمت بريطانيا ثمرات المجهودات التى بذلها المفاوضون ، واعترضت على عودة الجيش الفرنسى بأجمعه دفعة واحدة الى فرنسا لما فى ذلك من الخطر على مصلحة الحلفاء فى الحرب الأوربية الدائرة ضد فرنسا .

وقد يتساءل البعض على السبب الذى دفع الانجليز الى ذلك وهم الذين جاءوا أصلا لمحاصرة الفرنسيين بهدف اخراجهم من مصر .

الواقع انه بجانب ما ذكر حول خطورة السماح لقوات كليبر بالعودة الى فرنسا فى وقت يحارب فيه بونابرت أوربا فان الأسطول البريطانى كان قد اعتقل سفينة فرنسية تحمل رسائل من كليبر الى حكومته يوضح فيها الحالة المؤلمة لجيشه ، وانتشار الأمراض بين أفراده ، وقلة عدده ، ونتيجة لذلك حاول الانجليز انتهاز هذه الفرصة وأصروا على تسليم الفرنسيين المحاصرين فى مصر كأسرى حرب أو بقائهم محصورين بها وممنوعين من الاتصال بفرنسا حتى يفنوا فى هذه البلاد عن آخرهم [٣٢] .

ونتيجة لذلك أوقف كليبر عملية سحب قواته ، وقرر تأجيل اخلاء القاهرة ، كما اعتبر وصول الجيش العثمانى الى مشارف القاهرة عملا عدوانيا ينبغى مقاومته . ولما تمسك العثمانيون بضرورة اخلاء القاهرة ، وتسليم كافة القلاع واخلاء الوجه البحرى بدعوى ان رفض الانجليز للمعاهدة غير ذات أهمية وبدأوا فى توزيع المنشورات ضد الفرنسيين أعداء الاسلام قرر كليبر قتالهم ، وأوقع بهم هزيمة كبيرة عند هليوبولس اجبرتهم على الفرار وخلال ذلك اشتعلت ثورة القاهرة الثانية (١٨٠٠م) وأعمل الاهالى القتل فى الفرنسيين[٣٣] واقاموا المتاريس حول الأزهر ، وشرعوا فى مهاجمة المواقع الفرنسية ، كما امتدت الثورة الى الوجه البحرى ، وقد استخدم كليبر أساليب القمع والتدمير لاخماد هذه الثورة وكان على راس هذه الأساليب احراق احياء القاهرة مما أجبر أهلها على التسليم ، ثم بدأ فى الاقتصاص منهم ومن مشايخهم ففرض عليهم الغرامات الباهظة للانفاق منها على جيشه ، كما فرض الغرامات على العديد من مدن الوجه البحرى والى جانب ذلك جمع الديوان ووبخ أعضاءه وأنبهم لاشتراكهم فى الثورة وقد وصف الجبرتى ذلك بقوله « أغلق بينه وبينهم الباب .. فبهتت الجماعة وانتقعت وجوههم ، ونظروا بعضهم الى البعض ، وتحيرت أفكارهم .. ولم يزالوا على ذلك الحال الى قرب العصر ، حتى بال أكثرهم فى ثيابه » .

ونتيجة لهذه السياسة القاسية نفرت قلوب الناس من كليبر وازداد سخطهم ضد الفرنسيين ، وادى فى النهاية الى مصرعه على يد سليمان الحلبى ذلك الشاب السورى الذى كان يتلقى العلم فى الأزهر . وقصة ذلك أن كليبر ذهب فى الرابع عشر من يونيو ١٨٠٠م مع المهندس «بروتان» لتفحص أعمال الترميمات الجارية فى مقر القيادة العامة بالازبكية وبينما هما يسيران طلع عليها سليمان الحلبى فى صورة شاب متسول يطلب صدقة ، فاشار اليه كليبر بالرجوع فلم يرجع بحجة أن له حاجة وهو مضطر فى قضائها فلما دنا منه مد اليه يده اليسار كأنه يريد تقبيل يده فمد اليه الآخر يده فقبض عليه ، وضربه بخنجر كان قد أعده فى يده اليمنى أربع ضربات متوالية فشق بطنه وسقط كليبر على الأرض مضرجا بدمه ، ولما حاول بروتان مساعدته ضربه سليمان بالخنجر

ثم فـر منزويا فى البستان المجـاور لبيت سـارى العسكر حتى تم القبض عليه [٣٤] .

وقد أظهر الفرنسـيون فى اثناء محاكمتهم لسـليمان الحلبى قدرا كبيرا من ربـاطة الجاش ، كمـا أصروا على محاكمة سليمان الحلبى وشـركائه محاكمة عـادلة قبل تنفيذ الحـكم فيهم .

وقد وصف الجبرتى ذلك المسلك بقوله « قبضوا عليه — يقصد سليمان — وقرروه ولم يعجلوا بقتله ، وقتل من أخبر عنهم بمجرد الاقرار بعد أن عثروا عليه ، ووجدوا معه آلـة القتل مضمخـة بدم سـارى عسكرهم وأميرهم بل رتبوا حكومة ومحـاكمة ، وأحضروا القـاتل ، وكرروا عليه السؤال والاستفهـام مرة بالقول ومرة بالعقوبة ، ثم أحضروا من أخبر عنهـم ، وسالوهم على انفـراد ومجتمعين ثم نفذوا الحـكم فيهم بمـا اقتضـاه التحكيم »[٣٥] حيث صدر فى السادس عشر من يونيو حكم بادانة سليمان الحلبى قاتل كليبر ، وبادانة اربعـة من المشـايخ كشركاء للقـاتل بحجة انهم علموا بنوياه ولم يبلغوا عنها .

مينـو وقيـادة الحملة :

وبوفاة كليبر انتقلت القيادة الى مينو Menou أحد انصـار التجربة الاستعمارية فى مصـر والذى كان يعتقد أن التمسـك ببقاء الفرنسـيين فى مصر الى النهـاية سيعود على فرنسـا بأعظم الفوائد ، والذى قطـع فى سـياسته تجاه التقرب من المسـلمين شوطا بعيدا حيث اعتنق الاسلام دينـا وسمى نفسـه « عبد الله » وعقد قرانه على السيدة زبيـدة بنت السيد محمد البـواب احدى سـيدات البيوت المعروفة فى رشيد ، وانجب منهـا ابنـا اسماه « سليمان مراد » .

وقد وجد مينـو من بين ضباط الحملة من يشـاطره الآراء حـول البقاء فى مصر والاستقرار فيها [٣٦] .

وبعد أن تمكن مينـو من زمام الأمور كان أمامه أن يختار بين أمـرين هما اما التخـلى عن سياسته الاستعمارية وهى سياسة البقاء فى مصر ، واما الاستمرار عليها .

وقد أوضح مينو فى ندائه الى جيشه أنه اختار المضى فى سياسته الاستعمارية حتى تأتيه أوامر صريحة فى هذا الشأن من فرنسا واذا كان الانجليز أو العثمانيون لهم رأى آخر فى ذلك الموضوع فعليهم مواصلة سعيهم لدى حكومة القنصل الأول فى باريس . وقد استرشد مينو فى سياسته الداخلية طريقة أنه صاحب الحق فى أن ينفرد بصفة المشرع واختصاصاته الذى يحق له معالجة أمهات المسائل الاقتصادية والاجتماعية فى البلاد ونتيجة لذلك وجه عنايته فى بداية الأمر الى الاصلاح الادارى ، ومراقبة كل ما يتصل بتموين جيشه ، والضرب على أيدى المتلاعبين بالأسعار ، وتنظيم مالية الحملة ، وضبط وسائل الاشراف عليها كما شكل مجلسا خاصا يضم الرؤساء العسكريين والمدنيين للنظر فى شئون الحملة ، ولكن الأمور لم تكن فى صالح مينو حيث جاء النيل منخفضا مما زاد من استمرار الضيق الاقتصادى ، كما عمد الفلاحون بسبب ذلك الى الفرار من قراهم تخلصا من دفع الضريبة ، يضاف الى ذلك أن الحصار الذى فرضه الانجليز على الشواطىء المصرية ومنعهم لتجارة الوارد والصادر قد زاد من ضيق الأهالى وتذمرهم من ادارة مينو ، وشكواهم من الضرائب [٣٧] مما أدى الى توقف النشاط الاقتصادى وتعطيل الانتاج .

وخلال تلك الفترة تعرض مصير الحملة الفرنسية لمخاطر اتفاق الانجليز مع العثمانيين على اخراج الانجليز من مصر عن طريق الحرب بعد فشلهم فى اقناع مينو بالجلاء على مصر بالطرق الدبلوماسية فقد أرسل العثمانيون والانجليز ثلاث حملات على مصر لطرد الفرنسيين منها تم توزيعها كالآتى :

١ — قوات بحرية مشتركة يتم انزالها الى الشواطىء المصرية

٢ — قوات عثمانية تزحف من يافا على الحدود الشرقية وتنزل فى السويس .

٣ — قوات انجليزية تأتى من الهند .

ومعنى ذلك أن هذه القوات سوف تطبق على الجيوش الفرنسية

من الشمال والشرق والجنوب مما كان له أكبر الأثر على خطط مينو واجراءاته . ومع انه كان فى استطاعة الفرنسيين تعطيل زحف الجيوش الغازية الى داخل البلاد ، فان عجز مينو ، وعدم درايته بفنون القتال ، وفشل قيادته قد أدى فى النهاية الى هزيمة الفرنسيين فى معركة « كانوب » الحاسمة تلك المعركة التى قضت على مصير جيش الشرق فى مصر والتى جاءت خسارتها فى الحقيقة مؤذنة باجلاء الفرنسيين عن مصر ، وطردهم منها فى عام ١٨٠١م فقد سقط من الفرنسيين فى هذه المعركة حوالى الألف ، وجرح منهم حوالى المائة والف[٣٨] ونتيجة لذلك بدأ الجنود الفرنسيون يرفضون أوامر قوادهم بعد أن نفد صبرهم . واستمر الزحف الانجليزى العثمانى داخل مصر حيث اقتربوا من أهرامات الجيزة ، ثم بدأوا فى الزحف على القاهرة من الشمال والشرق والجنوب ، كما قطعوا كل الطرق بينها وبين البلدان المجاورة . ولما ضيقت الجيوش الزاحفة الخناق على القاهرة « عزت الاقوات وشحت زيادة على قلتها وخصوصا السمن والجبن والأشياء المجلوبة من الريف »[٣٩] وانتهى الأمر بقرار القائد الفرنسى « بليار » بتسليم القاهرة لاستحالة قواته الدفاع عنها ، على أن يتم ذلك بعد اتفاق مع الانجليز بشأن تقديم كل الوسائل التى تمكن الفرنسيين من العودة الى بلادهم بسلام .

وقد نصت شروط الاتفاق بين الطرفين على ذلك حيث تعهد الانجليز والعثمانيون بتقديم كل وسائل النقل وما يحتاج اليه الجيش المنسحب من اغذية ومؤن الى جانب اعداد السفن الحربية اللازمة لحراسة الفرنسيين فى اثناء عودتهم الى بلادهم بطريق البحر المتوسط ، كما تعهدوا أيضا بأن يحمل أعضاء لجنة العلوم والفنون الفرنسية كل ما لديهم من أوراق متعلقة ببحوثهم واعمالهم الى جانب أوراقهم الخاصة وغير ذلك من الأشياء التى يملكونها .

وهكذا حصل « بليار » على الشروط التى سبق أن قبلها كليبر فى اتفاقية العريش ، ورفضها الانجليز .

وعلى الرغم من كل ذلك فقد رفض مينو الانسحاب من الاسكندرية

وقرر تحصينها ، ولكن الانجليز شددوا حصارهم عليها ، مما اضطر مينو فى النهاية الى التسليم والجلاء عن مصر فى عام ١٨٠١م وبذلك انطوت صفحة الحملة الفرنسية كمغامرة جريئة وعادت مصر الى حوزة العثمانيين.

نتائج الحملة الفرنسية على مصر :

على الرغم من فشل الحملة من الناحية العسكرية وعلى الرغم من قصر مدتها فقد كان لها آثار عديدة من النواحى السياسية والاقتصادية والعلمية ليست على مصر فحسب بل على البلدان المحيطة بها أيضا فقد خلف الفرنسيون وراءهم آثارا عديدة غيرت من حياة الأهالى ، وشجعتهم على ترك الماضى وتفهم أنماط الحكم الحديثة والانتاج والبحث العلمى ، ومع ذلك فان عدم فهم الفرنسيين لنفسية الشعب المصرى كان السبب الرئيسى فى حدوث العديد من الاضطرابات والثورات ضدهم ، كما كان من اكبر الأسباب فى فشل تجربتهم الاستعمارية فى بلاد الشرق . وعلى الرغم من محاولات الفرنسيين استمالة المسلمين بسياستهم الاسلامية وايهامهم للمصريين بأنهم انما جاءوا الى مصر لتحريرهم من نير البكوات المماليك ، واقامة حكومة عادلة تهتدى بهدى القرآن الكريم وتسترشد بتعاليمه فانهم فوجئوا بثورات القاهرة والأقاليم ضدهم [٤٠] مما دفعهم الى تغيير سياستهم تجاه المصريين واتخاذ العنف وسيلة للتعامل معهم وفيما يلى نعرض لأهم نتائج الحملة .

أولا — الآثار والنتائج السياسية :

١ — وجهت الحملة الأنظار الى أهمية موقع مصر الجغرافى مما جعلها ميدانا للسياسة الدولية ، وبابا لطريق الهند والشرق الأقصى [٤١] ومنذ ذلك الوقت ظهرت المسألة المصرية وأخذت انجلترا تتطلع للاستيلاء على مصر.

٢ — لفتت الحملة أنظار أوربا الى ضعف الدولة العثمانية ، وعدم قدرتها على حماية ولاياتها ، مما شجع على دفع عجلة الهجوم الاستعمارى على البلاد العربية والاسلامية .

٣ — ظهور الصراع بين المماليك والعثمانيين حول السيطرة على زمام الأمور فى مصر مما مهد الطريق لظهور محمد على .

٤ — ظهور الوعى القومى بين المصريين المتمثل فى معارضتهم للاحتلال الفرنسى ، والقيام بالثورات ضدهم ، مما كان له أبلغ الأثر فى بلورة الشخصية المصرية واشتراكها فى معترك الحياة السياسية بعد خروج الحملة .

٥ — اشراك بونابرت للمصريين فى الحكم عن طريق الدواوين فتح أمامهم الطريق لادارة شئون بلادهم بأنفسهم وايقظ الشعور الوطنى لديهم .

ثانيا : الآثار والنتائج الاقتصادية :

١ — توقفت التجارة الخارجية بين مصر وعالم البحر المتوسط وتدهورت امور مصر الاقتصادية نتيجة لحصار الأسطول الانجليزى لشواطئها ، وامتناع ورود التجارة أو تصدير المحصولات الى الخارج .

٢ — ادى تحطيم الاسطول الفرنسى فى أبى قير عام ١٢١٣هـ الى اعتماد الفرنسيين على موارد مصر الاقتصادية اعتمادا كاملا بعد انقطاع سبل الاتصال بينهم وبين فرنسا ونتيجة لذلك فرضوا الضرائب التى اثقلت كاهل الأهالى مما ساعد على اضطراب أحوال البلاد وزيادة الفوضى .

ثالثا : الآثار والنتائج العلمية :

١ — لقد خلفت الحملة الفرنسية آثارا واضحة فى ميدان العلوم والفنون والتاريخ ويرجع السبب فى ذلك الى قيام العلماء الفرنسيين بالعديد من الدراسات لكشف النقاب عن تاريخ مصر القديم وآثارها ودراسة مناخها وطبيعة ارضها ونيلها ، وحيوانها ونباتها واجناسها وعادات شعوبها وغير ذلك وسجلوا كل ما كتبوه فى كتاب ضخم عنوانه وصف مصر Descripion De L'Egypte . وهذا الكتاب يعتبر وبحق من اكبر الموسوعات التى وضعت فى تاريخ مصر وجغرافيتها ووصف أرضها وتربتها ونيلها وترعها وآثارها وموارد ثروتها ومناخها وعادات أهلهم وتقاليدهم وتجارتهم وزراعتهم وصناعتهم ولا شك فى أن هذا الاثر العلمى كان أعظم آثار الحملة الفرنسية على مصر ، وابقاها خلودا على مر الدهور والعصور[٤٢] .

٢ — أمر بونابرت بتأسيس المجمع العلمى فى مصر Institut d'Egypte يهدف اشاعة العلم والعرفان ودراسة المسائل والأبحاث الطبيعية والصناعية والتاريخية الخاصة بمصر ونشرها .

وقد قسم المجمع الى أربعة اقسام هى الرياضيات ، والطبيعيات ، والاقتصاد ، والآداب والفنون وكل قسم يتكون من ١٢ عضوا .

٣ — عرفت مصر الطباعة عن طريق الحملة حيث جلب بونابرت معه الى مصر آلتين للطباعة بقيت احداهما بالاسكندرية وكانت تحتوى على ثلاثة مجموعات من الحروف عربية وفرنسية ويونانية وقد عمل عليها المستشرق « مارسيل Marcel » ومعه واحد وثلاثون من المساعدين ، وقد طبع عليها أول كتاب صدر فى مصر وهو « تطبيقات فى العربية الفصحى » أما المطبعة الثانية فكانت بالقاهرة وطبعت عليها جريدة Le Courrier de L'Egypte لوكورييه دى ليجبت أى « بريد مصر » وكذلك صحيفة Le Décade Egyptien لاديكاد اجبسين أى « العقد المصرى » وهاتان الصحيفتان تعتبران البداية الأولى للصحافة المصرية .

ولقد كان ادخال الطباعة الى مصر بمثابة نهاية لعزلتها عن أوربا [٤٣].

٤ — كان من أهم آثار الحملة العلمية هو اكتشاف حجر رشيد الذى فك رموزه العالم الفرنسى « جان فرانسوا شامبليون » Champollin مما أدى الى الكشف عن أصول الكتابة المصرية القديمة والى انقشاع الغموض الذى كان يحيط بحياة المصريين القدماء وبتاريخهم وحضارتهم [٤٤].

٥ — دراسة مشروع شق قناة تصل بين البحرين المتوسط والأحمر.

٦ — كون العلماء الفرنسيون مكتبة كبيرة فى مصر ، كما ترجموا العديد من العلوم الطبيعية والطبية .

رابعا : الآثار والنتائج الاجتماعية :

نتيجة لعدم تعرف الفرنسيين على اخلاق المصريين وما درجوا عليه

من أساليب الحياة القائمة على التمسك بالتقاليد الاسلامية فان ما استحدثوه من اصلاحات لم يرض عنها المصريون بل اعتبروها من البدع المستهجنة، وازداد الحال سوءا عندما تعمد الأروام والشوام واليهود جرح شعور المسلمين ، والاستهزاء بعاداتهم وتقاليدهم وفيما يلى نعرض لذلك :

١ — ارتكاب الفرنسيين للمعاصى والمخازى جهرة ودون احتشام فكانوا يأكلون ويشربون خلال الصوم وعلى مرأى من المسلمين .

٢ — اعتداء ارزال الفرنسيين على حرمات المسلمين وعدم احترامهم لعاداتهم وتقاليدهم ودينهم مما أدى الى استثارة روح النخوة والشهامة بين الأهالى وثورتهم الجامحة على الفرنسيين ، وجعل اقامة الفرنسيين فى القاهرة غير محتملة .

٣ — الاستهتار بالقيم الاسلامية ، وخروج بعض الفرنسيين مع نسائهم فى الشوارع وهن حاسرات الوجوه لابسات الفستانات والمناديل الحرير الملونة ، ويركبن الخيول والحمير ويسوقونها سوقا عنيفا مع الضحك والقهقهة ومداعبة المكاريه معهم وحرافيش العامة مما اعتبره المصريون فحشا وفجورا .

٤ — قيام الفرنسيين بهدم أبواب الحارات والدروب والأزقة لسهولة الحركة فى الشوارع ، وحرصا على سلامة جنودهم وعدم تحصن الأهالى داخلها كل ذلك أدى الى ازعاج القاهريين وتذمرهم .

٥ — ارغام الفرنسيين للاهالى على اضاءة الشوارع والأسواق والحارات والقناديل أدى الى ازدياد روح التذمر بينهم[٤٥] .

٦ — استعلاء اسافل الشوام والأروام واليهود على المسلمين وانتهازهم استخدام الفرنسيين لهم فى جباية الضرائب فى الاشتطاط فى طلب الأموال والسخرية من المسلمين وايقاعهم شتى المظالم بهم[٤٦] .

٧ — ظهور الطبقة الوسطى المصرية المتمثلة فى العلماء والتجار واختفاء طبقة الحكام العثمانيين والمماليك ساعد على حدوث تغييرات

اجتماعية هامة داخل مصر حيث قام ممثلوا الطبقة الوسطى بدور أساسى فى ادارة شئون بلادهم الداخلية بعد رحيل الفرنسيين .

خامسا : الآثار والنتائج الصحية :

١ ـــ ساعد اهتمام الفرنسيين بالشئون الصحية وانشائهم المستشفيات فى وقف انتشار الأوبئة والأمراض الخطيرة وحافظ على الصحة العامة مما كان له اكبر الأثر على صحة المصريين ، كما أن قيام أطباء الحملة بدراسة مختلف الأمراض والأوبئة المنتشرة فى مصر قد ساعد فى التعرف على كيفية القضاء على هذه الأمراض (٤٧) .

٢ ـــ ساعدت الاجراءات التى اتخذها الفرنسيون للمحافظة على الصحة العامة كارغام الأهالى على نشر أمتعتهم وملابسهم على أسطح المنازل وفى أفنائها حتى تقتل الشمس الجراثيم العالقة بها ، وارغامهم على تطهير منازلهم وتنظيفها ورشها وتبخيرها ، ومراقبة تنفيذ الأهالى للارشادات الصحية ، كل ذلك ساعد على وقف انتشار الأوبئة والأمراض الفتاكة ، وقلة الوفيات بها (٤٨) .

٣ ـــ ساعد قيام الفرنسيين بالتشديد على دفن الموتى فى المقابر البعيدة عن المنازل فى وقف انتشار الأمراض والأوبئة وحصرها فى أضيق الحدود (٤٩) .

سادسا : الآثار الادارية للحملة :

١ ـــ عرف المصريون ولاول مرة نظام شهادات الميلاد وذلك بقيد أسماء المواليد فى سجلات خاصة بهم .

٢ ـــ انشاء الارشيفات لحفظ صور الشكاوى والمظالم .

٣ ـــ محاربة التسول والشعوذة ، وتخصيص دار للمتسولين .

٤ — التبليغ عن المرضى فى حالة انتشار الأوبئة ، وفرض نظام الحجر الصحى .

٥ — انشاء الديوان واختيار أعضائه بالانتخاب[٥٠] .

ومما سبق يتضح الأثر العميق الذى أحدثه الفرنسيون خلال احتلالهم لمصر فى مجالات الحكم والسياسة والاقتصاد والاجتماع والادارة وغيرها مما كان له أكبر الأثر فى ظهور فكرة تنازع الولاء بين الفكرة الدينية القائمة على طاعة الخليفة العثمانى والفكرة القومية التى تنادى بالتحرر من التبعية العثمانية .

مراجـــع الفصـــل الأول

(١) محمد فؤاد شكرى : الحملة الفرنسية وظهور محمد على ، القاهرة، مطبعة المعـــارف ، ١٩٤٢م ص ١٢٥ — ١٢٦ .

(٢) عدد ميجالون فى رســـالة الى الحكومة الفرنسية مزايا الاستيلاء على مصر والسيطرة على البحر الأحمر ، واكد أهمية موقعها الجغـــرافى والتجارى بالنسبة لفرنسا .

(*) محمد فؤاد شكرى : الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر ، القاهرة ، دار الفكر العربى ص ٣٠ .

(٣) فيشر : تاريخ أوربا فى العصر الحديث — ترجمة أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع — القاهرة ، دار المعارف ، الطبعة السادسة ص ٥٣ .

(٤) حول هذا الموضوع انظر . طلال المهتار : آثار حملة بونابرت على مصر ، بيروت ، الجامعة اللبنانية ص ١٣ .

(٥) أحمد حافظ عوض : فتح مصر الحديث أو نابليون فى مصر ، القاهرة، مطبعة مصر ، ص ٨٣ .

(٦) شكرى : الحملة الفرنسية وظهور محمد على ص ١٣٣ .

(٧) المهتار : المرجع السابق ص ٥٤ .

(٨) شكرى : المرجع السابق ص ١٣٥ .

(٩) حافظ عوض : المرجع السابق ص ١٢٤ .

(١٠) عبد المجيد نعنعى : أوربا فى بعض الأزمنة الحديثة والمعاصرة ١٤٥٣هـ — ١٨٤٨م ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٨٣م ص ٢٨٥ .

(11) Correspondance de l'armée d'Egypte, interceptée par l'escadre de Nelson, Paris An VIII, iv 191 — 2 .

(١٢) شكرى : المرجع السابق ص ١٦٢ .

(١٣) عوض : المرجع السابق ص ١٩٣ .

(١٤) شكرى : المرجع السابق ص ١٦٣ .

(١٥) عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ج ٣ حوادث يوم الجمعة خامس ربيع الأول ١٢١٣ هـ .

(١٦) شكرى : المرجع السابق ص ١٦٧ .

(١٧) الجبرتى : المصدر السابق ج ٣ ص ٤٥ — ٥٠ .

(١٨) شكرى : المرجع السابق ص ١٦٩ .

(١٩) أحمد السباعى : تاريخ مكة ، مطبوعات نادى مكة الثقافى ١٤٠٤هـ ص ٤٩٠ ، وأحمد عزت عبد الكريم : البحر الأحمر فى التاريخ والسياسة الدولية ، القاهرة ، ١٩٨٠ ص ٣٣٧ .

(٢٠) شكرى : المرجع السابق ص ١٧٦ — ١٧٧ .

(٢١) الجبرتى : المصدر السابق ج ٣ .

(٢٢) شكرى : المرجع السابق ص ١٩٢ .

(٢٣) شكرى : المرجع السابق ص ٢٠٨ .

(٢٤) فشر : تاريخ أوربا فى العصر الحديث ص ٥٤ — ٥٥ .

(٢٥) شكرى : المرجع السابق ص ٢٣٧ .

(٢٦) أميل الخورى وعادل اسماعيل : السياسة الدولية فى الشرق العربى من ١٧٨٩م الى ١٩٥٨م ج ١ ، بيروت ، دار النشر للسياسة والتاريخ ، ١٩٥٩ ص ١٣٠ — ١٣٦ .

(٢٧) شكرى : المرجع السابق ص ٢٨٤ .

(٢٨) الجبرتى : المصدر السابق ج ٣ حوادث ١٢١٤ هـ .

(٢٩) الجبرتى : المصدر السابق ج ٣ حوادث ١٢١٤ هـ .

(٣٠) الجبرتى : المصدر السابق .

(٣١) شكرى : المرجع السابق ص ٣٣٠ .

(32) Charles Roux : L'Angleterre et l:Expedition Française en Egypte. Caire 1925, Vol II. 52 .

(٣٣) للتفاصيل انظر الجبرتى : المصدر السابق ج ٣ ص ٩٥ — ٩٦ .

(٣٤) الجبرتى : المصدر السابق ج ٣ حوادث ١٢١٥ هـ ، وشكرى : الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر ص ٢٢٤ .

(٣٥) الجبرتى : المصدر السابق ، حوادث ٢١ محرم ١٢١٥/١٤ يونية ١٨٠٠م .

(٣٦) شكرى : المرجع السابق ص ١٧٧ .

(٣٧) شكرى : المرجع السابق ص ٢٤٢ ، والجبرتى : عجائب الآثار ﺣ ٣ ، ص ١٤٥ .

(٣٨) شكرى : المرجع السابق ص ٤٣٨ .

(٣٩) الجبرتى : المصدر السابق ﺣ ٣ ص ١٩٠ .

(٤٠) شكرى : المرجع السابق ص ٥٩٧ .

(٤١) فيليب حتى وآخران : تاريخ العرب ﺣ ٣ بيروت ، دار الكشاف ١٣٧٠ﻫ / ١٩٥١م ، ص ٨٥١ .

(٤٢) شكرى : المرجع السابق ص ٦٥٢ ، والجدير بالذكر أن الأستاذ زهب الشايب قد ترجم جزءا لا بأس به من هذا الكتاب الى العربية .

(٤٣) جون مارلو : تاريخ النهب الاستعمارى لمصر من الحملة الفرنسية الى الاحتلال البريطانى — ترجمة عبد العظيم رمضان — القاهرة الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٦ ص ١٥ — ١٦ .

(٤٤) الهيئة العامة للآثار المصرية : شامبليون — الاحتفال بذكرى مرور مائة وخمسين عاما على رموز اللغة الهيروغيلفية ، ١٩٧٢ ، ص ٥ — ٦ .

(٤٥) الجبرتى : المصدر السابق ص ٢٠ .

(٤٦) شكرى : المرجع السابق ص ٥٩١ .

(٤٧) نفسه ص ٥٨٣ .

(48) Charles Roux : op. cit., p. 105 .

(٤٩) الجبرتى : المصدر السابق حوادث ١٦ ربيع الثانى ١٢١٣ﻫ .

(٥٠) محمود الشرقاوى : مصر فى القرن الثامن عشر ج ١ ، القاهرة ، الأنجلو المصرية ، ١٩٥٧ ، ص ١٨٥ .

الفصـــل الثانى

عصر محمـد عـلى

١ ــ تمهيد : النزاع على الســلطة فى مصر من خروج الحملة الفرنسية حتى تولية محمــد على •
٢ ــ مذبحــة القلعة •
٣ ــ حروب محمد على فى الجزيرة العربية •
٤ ــ محمد على وفتح الســودان •
٥ ــ محمد على وحرب استقلال اليونان •
٦ ــ حروب محمد على فى بلاد الشام •
٧ ــ محمد على وبناء الدولة الحديثة فى مصر •
أولا : محمد على والنهضة التعليمية •
ثانيا : محمد على وتكوين الجيش الحديث •
ثالثا : محمد على والــزراعة •
رابعا : محمد على والنهضة الصناعية •
خامسا : محمد على والتطور التجارى •
سادسا : محمد على والاهتمام بالشئون الصحية •
سابعا : تقييم عصر محمد على •

تمهيـــد

النزاع على السلطة فى مصر من خروج الحملة الفرنسية حتى تولية محمد على .

لما جلا الفرنسيون عن مصر بقى بها ثلاث قوى متصارعة وهى المماليك والانجليز والعثمانيون ، وكان ضمن أفراد القوة العثمانية ضابطا صغيرا من ضباط الفرقة الألبانية وهو محمد على الذى ظل يرقب عن كثب الصراع الذى قام بين هذه القوى من أجل الفوز بالسلطة والسيطرة دون النظر الى مصلحة الشعب المصرى الذى ظل يعانى من الفوضى والارتباك والاضطراب بدرجة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ مصر الحديث اذ تدهورت أحوال البلاد حتى وصلت الى الحضيض فقد قام المماليك باهلاك الحرث والنسل اينما حلوا ، وقام العثمانيون بالسطو على محال التجارة والتعدى على الأشخاص وبخاصة عندما يتأخر صرف رواتب جنودهم بسبب افلاس خزانة الوالى . وقد انتهى الصراع بين القوى الثلاث بخروج الانجليز من مصر نتيجة لعقد صلح اميان فى عام ١٨٠٢م بين انجلترا وفرنسا وهولندا وأسبانيا [(١)] .

وعلى الرغم من انسحاب الانجليز من مصر ، فقد حاولوا أن تكون لهم ركائز بها وبخاصة بعد أن شعروا بأهمية موقع مصر الجغرافى، ومن هنا حاولوا التقرب من المماليك فقاموا بدعوة الزعيم محمد بك الألفى الى انجلترا واتفقوا معه على أن تسعى الحكومة الانجليزية لدى الباب العالى ليترك السلطة له فى مصر فى نظير أن يترك لهم ادارة الاسكندرية والسواحل المصرية ، ولكن هذه المحاولة لم تنجح وبخاصة أن عثمان البرديسى وبعض زعماء المماليك ومحمد على نجحوا فى افشالها .

وبالنسبة لموقف القوتين المملوكية والعثمانية فقد أضعفهما التنازع المستمر بينهما وخلال ذلك وقف محمد على فى صف الشعب

المصرى وبخاصة عندما اشتد الأمر بينه وبين الباشا العثمانى ، واخذ يتظاهر بالعطف على الناس والتودد الى مشائخهم ولما ازدادت مخازى ومساوىء الجند الولاة التابعين للوالى ذهب العلماء والمشايخ برئاسة السيد عمر مكرم فى مايو ١٨٠٥م الى بيت محمد على وطالبوه بعزل الوالى العثمانى خورشيد باشا ، ولما سألهم محمد على عمن يريدونه واليا عليهم ؟ قالوا له : لا نرضى الا بك ، وتكون واليا علينا بشروطنا لما نتوسمه فيك من العدالة والخير ، فامتنع أولا ثم رضى ، واحضروا له « كركا » وعليه قفطان ، وقام اليه السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى فألبساه له « أمام قاعة المحكمة » وذلك وقت العصر ، ونادوا بذلك فى تلك الليلة فى المدينة » (٢) .

وفى أعقاب ذلك سار هؤلاء العلماء والمشايخ نحو القلعة لمطالبة الوالى العثمانى بالنزول على الولاية لمحمد على ، وقد رفض خورشيد باشا هذا المطلب بقوله انه معين من قبل السلطان ولا ينزل عن كرسيه بأمر الفلاحين ، واستمر محصورا فى القلعة حتى اضطر السلطان العثمانى أن يقر محمد على واليا على مصر فى يوليو ١٨٠٥ (٣) ويأمر بانهاء ولاية خورشيد باشا بعد حكم استمر ستة أشهر وأربعة عشر يوما (٤) .

وهكذا كانت مبايعة الشعب لمحمد على من الأيام التاريخية المعدودة فى تاريخ الحركة القومية المصرية ، ففيها وضعت مصر لنفسها أساس حريتها واستقلالها ، وفيها أعلنت عن حقها فى تقرير مصيرها، وفيها تجلت سلطة الأمة ممثلة فى اشخاص زعمائها وذوى الرأى فيها فى خلع الوالى المعين من قبل السلطان ، واسناد الحكم الى من انتخبه زعماء الشعب ووكلاؤه ، يضاف الى ذلك أن ما حدث لم يكن مقصورا على مجرد انتخاب زعماء الشعب لمحمد على بل كان مقرونا باشتراطهم أن يرجع اليهم فى شئون الدولة فوضعوا بذلك قاعدة الحكم الشورى فى البلاد ، هذا الى جانب انه تم فى دار المحكمة اى فى ساحة العدالة ، فاتخذ معنى الاحتكام الى العدالة والتمسك بالحق (٥) .

وعلى الرغم من وصــول محمد على الى قمة الســلطة فى مصــر فان الطريق أمامه لم يكن ســهلا فهناك المماليك فى الصعيد يهــددون مركزه ، وهناك مشــكلة عدم تمكنه من دفع رواتب جنوده المتأخرة .

وقد نجح محمد على فى تذليل هــذه المشــاكل بعد اقناعه للمشايخ بضرورة جمع المــال اللازم كى يتمكن من وقف اعتــداءات المماليك على الشعب ، وليمنع تألب الجنــود عليه وخلال ذلك حدثت محــاولة لنقل محمد على من ولاية مصر ، فارســلت الدولة العثمــانية مرسوما يقضى بتولية موسى باشــا ولاية مصر ونقل محمد على الى ولاية « سالونيك » .

وقد تظــاهر محمد على بالقبــول فى حين تمســك العلماء والمشايخ به ، وكتبــوا التماســا الى السلطان طلبوا فيه ابقــاء محمد على على ولاية مصر ، وقد وافق الســلطان على طلبهم بحجــة أن الخاصة والعامة راضيــة باحكام محمد على ، وعدله بشــهادة العلماء واشراف الناس[٦] وصــدرت الأوامر الشــاهانية بتثبيت محمد على باشــا على ولاية مصر مع الايعــاز اليه أن لا يتعرض للماليك لصــدور العفو عنهم وخلال ذلك ارسلت انجلترا حملة الى مصر بقيادة الميجور جنرال ماكنــزى فــريزر Mackenzie Fraser فى محرم ١٢٢٢هـ/مارس ١٨٠٧م بهدف تخويف الباب العــالى والضغط عليه للانفصــال عن فرنســا والانضمام الى عدوتيها انجلترا وروســيا هذا بالاضــافة الى تأييد جمــاعة الألفى من المماليك الموالين للانجليز[٧] ، وبعد ان وصلت الحمــلة الى الاسكندرية ســلمت المدينة دون مقــاومة تذكر .

وفى التــاسع والعشرين من مارس اتجه نحو الف واربعمائة جندى انجليزى لاحتــلال رشيد وتمكنوا من احتلالها بسهولة مما اعطى للانجليز الأمــان ، وتصوروا أنفسهم وكأنهم فى نزهــة حربية وبدأوا يلقــون اسلحتهم وينتشرون فى شــوارع المدينة ، وبينمــا هم على هذا الحال أمر حــاكم رشيد أهــالى المدينة باطــلاق النار عليهم « من الأزقــــة والعطف وطيقان البيوت »[٨] ومن فوق اســطح المنازل فأبيد الكثيرون من أفــراد القــوة الانجليــزية ، وســاد الهرج والمــرج بينهــم .

ولما وصل خبر الحملة الى محمد على اثناء تواجده بأسيوط لمحاربة المماليك تلكأ فى اتخاذ قرار محدد فى بداية الأمر ، ثم مالبث أن اتخذ الأهبة للسفر ومواجهة الانجليز .

وفى أثناء ذلك أرسل فريزر قوة أخرى الى رشيد للانتقام مما اصاب جنوده من هزيمة ، ولكن هذه القوة لم تفلح فى تحقيق اهدافها واخذت فى التقهقر الى الاسكندرية .

ولما خرجت قوات محمد على لمقاتلة الانجليز وجدت منهم ميلا الى عقد الصلح ، فدارت مفاوضات بين الفريقين واتفق فيها على اخلاء سبيل الاسرى الانجليز فى مقابل الجلاء عن الاسكندرية[٩]، ونتيجة لذلك تخلص محمد على من اكبر خطر كان يتهدده ، مما أدى الى تثبيت حكمه وتمكينه من الاستيلاء على الاسكندرية التى كانت خارجة عن سلطته وازدياد تقدير المصريين له فاصبح عزيز الجانب وصاحب الأمر والنهى فى البلاد يضاف الى ذلك علو منزلة محمد على لدى السلطان ورجالات الباب العالى الذى اصبحوا يقدرونه حق قدره[١٠] .

وفى اعقاب ذلك رأى محمد على ضرورة التخلص من كافة العوائق التى تحول بينه وبين الانفراد بالحكم فعمل على التخلص من زعماء الشعب الذين مهدوا له طريق الوصول للحكم وذلك عن طريق الوقيعة وبث روح التحاسد والنفور بينهم[١١] ، كما قام بفرض الضرائب على المصريين دون الرجوع اليهم ، ولما عارضه السيد عمر مكرم فى ذلك أمر بنفيه الى دمياط فى أوائل رجب ١٢٢٤هـ/اغسطس ١٨٠٩[١٢] ثم انقلب على باقى العلماء وقضى على قوتهم ، وحطم ارستقراطيتهم ولم يبق امامه من قوة تنافسه سوى المماليك ، فبدأ يعد العدة للتخلص منهم .

٢ — مذبحة القلعة :

وبعد أن رحلت الحملة الانجليزية عن مصر أتت المكاتبات من السلطان العثمانى الى محمد على بضرورة الاستعداد لمقاتلة رجالات الدعوة السلفية فى الجزيرة العربية .

وقد بذل محمد على جل جهوده فى تجهيز الحملة ، وبدأ يتفقد امور الاعداد لها ، وبعد أن سافر الى السويس فى أواخر يناير ١٨١١م لتفقد الأعمال التى تعمل فى مرفأها وليشاهد نزول بعض السفن الى البحر اضطر للعودة الى القاهرة مسرعا بعد أن ضبطت مكاتبات بين امراء المماليك فى الوجه القبلى ونظرائهم فى القاهرة للاطاحة به وهدم سلطانه [١٣] لذلك رأى أن المسألة بينه وبين زعماء المماليك أصبحت مسألة مصير وانه يستحيل أن يرسل قواته الى الجزيرة العربية قبل أن يتخلص منهم نهائيا فدبر مذبحة القلعة فى أول مارس ١٨١١م فأذاع انه سيلبى نداء السلطان ويرسل حملة الى الجزيرة العربية ، ودعا الأمراء وكبار العسكر والأعيان للحضور بملابسهم الرسمية للمشاركة فى تقليد ابنه طوسون رياسة الحملة ، فجاءوا الى القلعة راكبين الجياد المطهمة ومرتدين الثياب الحريرية المزركشة وعلى رءوسهم العمائم الضخمة المرصعة بالجواهر وبينما كان أمراء المماليك سائرون وسط الموكب الى « باب العزب » [١٤] بدأ الموكب فى الانحدار من أعلى القلعة وسط ممر وعر تحيط به الصخور من كل جانب وخلال ذلك أمر « صالح قوج » قائد قوات الألبان باغلاق الباب الحديدى الكبير ثم أعطى أوامره لعساكره بتسلق الصخور بعيدا عن الممر الوعر ، والاستعداد لاطلاق النار على المماليك . ولما وصل المماليك الى الباب الحديدى وجدوه مغلقا ، فحاولوا التقهقر الى الخلف ، ولكنهم لم يتمكنوا لضيق الممر ، ولأن خيولهم كانت تسير فى نظام خلف بعضها ، واثناء ذلك انهمرت النيران عليهم من كل جانب ، فارتبكوا وبدأوا يتساقطون من فوق جيادهم وسالت الدماء، واصبحت القلعة ميدانا للذبح والقتل ، وتكدست الجثث فى الممر الضيق وبعدها قطعت رءوس أمراء المماليك ليراها الباشا وسحبت اجسادهم بالحبال ، ولم ينج من هذه المذبحة سوى مملوك واحد هو « أمين بك » الذى كان قد تأخر لظرف طارىء فلم يلحق غير الصف الأخير ولما سمع صرير الباب الحديدى وهو يغلق ودوى الرصاص رجع بجواده الى داخل القلعة واخذ يبحث عن منفذا للهرب فلم يجد امامه الا أسوارا ارتفاعها حوالى عشرين مترا فجرى بجواده الى قمة عالية ثم استنفر

الحصان فوثب به فى الهاوية التى تحت قدميه فتهشم الجواد ، واصيب أمين بك باغماء وكسور ، أفاق منها بسرعة وهرب الى اقليم الشرقية ومنها الى خارج مصر (١٥) .

ونتيجة لهذه المذبحة استطاع محمد على ان يتخلص من اربعمائة وسبعين مملوكا من زعماء المماليك .

وبعد هذه المذبحة أمر محمد على جنوده بسلب قصور المماليك وقتل ابنائهم والاعتداء على نسائهم كما أمر بادخال بعض ابنائهم فى خدمته ، وأجرى الارزاق على نسائهم وزوج بعضهن لضباطه واتباعه، وبذلك قضى محمد على على كل اثر للمماليك فى مصر الى غير رجعة .

وقد برر محمد على هذه المذبحة أمام الباب العالى بأنها كانت ضرورية قبل قيامه بالحملة على الجزيرة العربية وبخاصة أنه كان يخشى من قيام المماليك بالاطاحة به بعد تحرك قواته الى الحجاز (١٦) .

وعلى اى حال فقد اختلف المؤرخون والباحثون فى تقييمهم لهذه المذبحة فمنهم من قال انها كانت نقطة سوداء فى تاريخ محمد على ذلك الحاكم التركى الذى لا يحجم عن اى شىء فى سبيل مصلحته واغراضه الشخصية ومنهم من قال انها كانت ضرورية لاستقرار البلاد وسلامتها بعد أن عاث المماليك فى أرض مصر فسادا دون أى رادع أو واعز فى ضمير أو شرف ، وانه كان لابد من التضحية بهم فى سبيل بناء حكومة مستقرة فى مصر وصفوة القول أن مجزرة القضاء على المماليك على الرغم مما فيها من غدر وسفك دماء واخذ البرىء بجريرة المذنب فانها كانت لا مفر منها لمحمد على اذا شاء أن يدعم أركان سلطانه فى مصر .

٣ — حروب محمد على فى الجزيرة العربية :

بعد أن فشلت الدولة العثمانية فى مواجهة رجالات الدعوة السلفية عن طريق ارسال ولاة الشام والعراق لمحاربتهم طلب السلطان مصطفى الرابع من محمد على والى مصر القيام بهذه المهمة على أمل اعادة السيادة العثمانية على الحجاز ، ويبدو أن محمد على لم يكن راغبا فى القيام بهذه المهمة فى بداية الأمر حيث تذكر الوثائق أن محمد على كان يماطل فى تنفيذها ويتلكأ فى ارسال هذه الحملة بحجة

سوء احوال مصر الاقتصادية التى لا تمكنه من الاعداد لهذه الحرب ورغبة فى قيام الدولة العثمانية بامداده بالاخشاب التى تمكنه من انشاء السفن اللازمة لعبور البحر الأحمر ، وامداده بالذخائر والمهمات التى تمكنه من خوض المعركة (١٧) ونتيجة لتكرار مطلب الدولة العثمانية، وخشية من أن يستثير محمد على غضب السلطان العثمانى اضطر الى ان يصدر اوامره بارسال الحملة تحت قيادة ابنه احمد طوسون .

وفى الثالث من سبتمبر ١٨١١م أبحرت قوات محمد على من السويس الى ينبع ومنها اتجهت نحو المدينة المنورة ، وقد استولت هذه القوات فى طريقها على قريتى « بدر » « والصفراء » الا أن رجالات الدعوة وقفوا لها بالمرصادعند « الحديدة » وكادوا يقضون عليها مما اضطرها للتراجع الى « ينبع » وقد وصف انجبرتي ذلك بقوله « انهزموا جميعا وولوا الأدبار وطلبوا جميعا الفرار » (١٨) .

ونتيجة لتحرج موقف قوات طوسون باشا قام محمد على بتعزيز قواته ، كما عمل على ضم بعض القبائل الى صفه مما أدى فى نهاية الأمر الى نجاح قوات طوسون فى الوصول الى مكة وجدة .

وفى أواخر عام ١٨١٣م سافر محمد على الى الحجاز لتولى القيادة بنفسه ، وخلال ذلك منيت قواته بهزيمة منكرة عند بلدة « تربة » بالقرب من الطائف (١٩) ولكنها سرعان ما استطاعت تحقيق انتصارا كبيرا فى « بسل » (٢٠) .

وخشية من تطور الموقف ضد محمد على فى مصر ، وما تردد حول هروب نابليون من منفاه فى « البا » عاد محمد على الى مصر . ونظرا لتدهور أحوال قوات محمد على فى الحجاز ونتيجة لفشل طوسون فى الامساك بزمام الموقف جمع محمد على قواده ورجال الحكم والسلطة واعرب لهم عن رغبته فى اختيار قائد جديد للحملة بدلا من طوسون وخلال ذلك امر ببسط احدى الطنافس الكبيرة فى قصره ووضع فى وسطها تفاحة ، وقال ان الذى يتناول التفاحة بيده ، ويقدمها لى دون أن يمس السجادة أكلفه بقيادة الحملة ، فأخذ الحاضرون يتطاولون على التفاحة

بلا جدوى الى أن جاء دور ابراهيم وكان قصير القامة ، فلم يزد على أنه تناول طرف الطنفسة بيده ، وطواها الى أنوصل الى التفاحة فتناولها واعطاها لأبيه فولاه قيادة الجيش [٢١] وبعد أن وصل ابراهيم باشا الى بلاد الحجاز بدأ فى بناء الحصون ، كما عمل على جذب البدو اليه فدفع لهم رواتب منتظمة وهدايا مما مكنه من جذب أكبر عدد من القبائل البدوية اليه ، وبعد ذلك بدأ فى زحفه صوب نجد وتمكن فى نهاية الأمر من الوصول الى الدرعية واسقاط الدولة السعودية الأولى فى عام ١٢٣٣هـ سبتمبر ١٨١٨ .

وعند تحليلنا لأسباب الصدام العسكرى بين الدولة العثمانية والدولة السعودية الأولى يتضح ما يلى :

١ — انه كان هناك سوء فهم للدعوة من قبل العثمانيين فبعد أن احدثت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب فزعا لدى مناهضيها حاولوا مقاومتها فشنوا عليها حربا نفسية وفكرية لا هوادة فيها بهدف ابعاد المسلمين عنها فذكروا أن رجالات الدعوة عطلوا سبل الحج الى الحرمين الشريفين والحقيقة ان اتباع الدعوة لم يمنعوا احدا من الحج الا اذ كان مخالفا للطرق الشرعية[٢٢] .

٢ — انه على الرغم من الصدام بين العثمانيين واتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب فانه لم يعلن أحد من الامراء السعوديين الخروج على دولة الخلافة أو اعلان الخلافة على المسلمين كما ادعى بعض اعداء الدعوة وجعل السلطان يرسل الجيوش لمحاربتها .

حقيقة لقد بايع الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب الامير محمد بن سعود على الامارة ، ولكنه لم يبايعه على الخلافة العامة للمسلمين والدليل على ذلك أن الأمراء السعوديين ظلوا ينعتون السلاطين العثمانيين فى مراسلاتهم بالخلفاء والسلاطين فى الوقت الذى كانوا ينعتون فيه انفسهم بالتابع المخلص للسلطان [٢٣] .

وعلى كل حال فقد عم الفرح والسرور عاصمة الدولة العثمانية بعد سقوط الدرعية [٢٤] كما كافأ السلطان العثمانى ابراهيم باشا على

هذا الانتصار بتعينه واليا على الحجاز ، ونتيجة لهذا الانتصار وعودة ابراهيم باشا الى القاهرة فى ٢٢ صفر ١٢٣٥هـ الموافق ٩ ديسمبر ١٨١٩ بدا محمد على يعد عدته لفتح السودان .

٤ — محمد على وفتح السودان :

اختلف المؤرخون فى اسباب حملة محمد على لفتح السودان وفيما يلى نعرض لأهم هذه الآراء :

١ — اعتقاد محمد على بأن ارتباط مصر والسودان ضرورة هامة لتحقيق بناء دولته الحديثة .

٢ — رغبته فى مطاردة بقايا المماليك الفارين من مصر الى دنقلة لشعوره انهم يمثلون خطرا ضده .

٣ — رغبته فى اكتشاف مناجم الذهب والماس والمعادن التى أشيع تواجدها بكثرة فى السودان .

٤ — رغبته فى تجنيد السودانيين فى جيشه النظامى[٢٥] .

٥ — سعيه الى اكتشاف منابع النيل .

٦ — توسيع نطاق المعاملات التجارية بين شطرى الوادى .

٧ — رغبته فى التخلص من بقايا جنوده الألبان والارناؤد وغيرهم من الفرق غير النظامية التى كانت تقض مضاجعه ، وتعيق عملية تحديث الجيش التى ينشدها ونتيجة لذلك بدا محمد على فى اعداد الحملة فى يونيو ١٨٢٠م وتوغلت قواته فى السودان دون أن تجد مقاومة تذكر مع أن هذه الحملة لم تحقق أطماع محمد على فى الحصول على مناجم الذهب ، وفى اتساع نطاق العمليات التجارية ، وفى تجنيد السودانيين، فقد اهتم الباشا بتأسيس مدينة الخرطوم عند ملتقى النيل الأزرق بالأبيض وادخال الزراعات المصرية الى السودان[٢٦] كما اهتم بارسال البعثات العلمية ، واصلاح الادارة والغاء تجارة الرقيق ونشر الأمن والحضارة .

٥ ــ محمد على وحرب استقلال اليونان :

بعد أن قامت الثورة فى بلاد اليونان ضد الحكم العثمانى فى ١٨٢١ بتشجيع من الدول الأوربية وبخاصة الروسيا أرسلت الدولة العثمانية جيشا بقيادة خورشيد باشا لقمعها ، ولكنه منى بالفشل مما جعل السلطان محمد الثانى يفوض محمد على أمر القضاء على هذه الثورة فى نظير اضافة باشويتها اليه .

وعلى الرغم من أن بلاد اليونان لم تكن مطمعا لآمال محمد على فى أى وقت من الأوقات فانه حاول اقتناص الفرصة ليثبت للعالم مدى تعاظم قواته العسكرية وقدرتها على مساندة السلطان فى ميادين القتال .

وفى عام ١٨٢٥ أرسل محمد على قواته بقيادة ابراهيم باشا الى أرض المورة [٢٧] واستطاعت بعد عدة محاولات النزول الى بلاد اليونان، وضرب الحصار على منطقة نفارين Navarine وتمكن من اسقاطها ودخول قواته اليها فى الثامن عشر من مايو ١٨٢٥ [٢٨] ونتيجة لذلك خشيت الحكومات الأوربية من عواقب انتصار القوات المصرية ، وبدأت القضية اليونانية تستحوذ انتباه الراى العام الأوربى ، وبينما كانت الحكومات الأوربية تتهم ابراهيم باشا بخرق حرمة قوانين الحرب كان القائد المصرى يصلى اليونانيين نارا حامية ، حتى سقطت مسولنجى Missolonghi فى الثامن والعشرين من ابريل ١٨٢٦م وفتح بذلك الطريق الى اثينا [٢٩] مما جعل الدول الأوربية تتدخل فى الأمر ، فقامت أساطيلها بمظاهرة بحرية مشتركة لايقاف القتال واجبار السلطان العثمانى على اخلاء المورة ، وكانت الروسيا اكثر الدول الأوربية رغبة فى التدخل العسكرى ضد قوات محمد على ، وفى السادس من يوليو عام ١٨٢٧م اتفقت انجلترا وفرنسا والروسيا فى معاهدة عقدت بلندن على فرض هدنة حربية بين الطرفين ، ومع ان ابراهيم باشا احترم الهدنة ، فان اليونانيين قاموا باستفزاز قواته مما اضطر القوات

المصرية الى الرد عليهم ونشوب معركة بحرية بين أساطيل الدول الأوربية والاسطولين المصرى والعثمانى فى العشرين من أكتوبر ١٨٢٧م انتهت بتحطيم الأسطول المصرى الناشىء وفقدان حوالى ثلاثين الف جندى [٣٠] .

ولما رأى محمد على أنه لا فائدة من استمرار القتال وشعر بالمخاطر التى يمكن أن تسببها الدول الأوربية له تم الاتفاق بينه وبين قائد الأساطيل الأوربية المتحالفة على سحب قواته من المورة ، وتبادل الاسرى بين الطرفين [٣١] ونتيجة لذلك أرسل محمد على ابنه ابراهيم يأمره بالجلاء عن المورة دون انتظار لأوامر السلطان ، فسحب ابراهيم قواته وترك الباب العالى وحيدا مما أحرج موقفه .

ومع أن خسارة مصر كانت فادحة فى هذه الحرب من الناحية العسكرية فان مكاسبها السياسية كانت كبيرة [٣٢] فقد فاوضت الدول الأوربية لأول مرة مصر دون وساطة الدولة العثمانية مما اكسب مصر منزلة معنوية كبيرة ، كما أن هذه الحرب كانت أول حرب يخوضها الجيش المصرى فى أوربا ويثبت من خلالها قدرته على مواجهة الموقف ، ويؤكد فيها تمتعه بأساليب الحرب الحديثة وفنونها .

وعلى كل حال فقد اشتد ضيق السلطان من محمد على لتفاوضه مع الدول الأوربية دون اذنه ، وسحب قواته دون الرجوع اليه ، كما بدأ محمد على يراجع خطته تجاه الباب العالى الذى لم يكافأه على خدماته رغم تحطيم اسطوله ولم يمنحه سوى حكم جزيرة كريت مما جعله يفكر جديا فى الاستيلاء على بلاد الشام وتوسيع رقعة املاكه على حساب الدولة العثمانية .

٦ — حروب محمد على فى بلاد الشام :

من المعروف أن بلاد الشام كانت مطمح انظار محمد على منذ حروبه فى الجزيرة العربية فقد طلب من السلطان اضافة منصب ايالة الشام الى منصب والى مصر مبررا ذلك بامكانية الحصول على الاخشاب وجمع الجنود من هناك ولكن طلبه كان مصيره الاهمال . ولما قامت

حرب المورة كرر محمد على طلبه بحجة تعويضه عما تكبده الجيش المصرى من خسائر فى هذه الحرب ، ونظرا لرفض السلطان لهذا الطلب للمرة الثانية حاول محمد على ضم هذه البلاد بالقوة مستغلا فى ذلك انهماك الدول الأوربية فى مسائلها الداخلية وانشغال الدولة العثمانية بالثورات الداخلية وحروبها المتعددة التى خرجت منها منهوكة القوى .

وقد تذرع محمد على فى ذلك بنزاعه مع عبد الله باشا الجزار والى صيدا الذى رفض تسليم آلاف الفلاحين المصريين اللاجئين اليه[٣٤] . وعدم وفائه بدين عليه ، وابتزازه لأموال بعض التجار المصريين واستيلائه على تجارتهم فى بلاد الشام[٣٥] ومن هنا قام بارسال حملته لتأديبه فارسل طلائع جيشه الى عكا فى ١٤ من أكتوبر ١٨٣١م فاستولت فى طريقها على يافا وحيفا دون مقاومة تذكر وفى الثامن من ديسمبر من نفس العام ضربت الحملة المصرية حصارها حول عكا وارسل ابراهيم باشا انذارا الى واليها يطالبه فيه بتسليم قلعة المدينة حقنا للدماء ، ونتيجة لرفض عبد الله باشا لهذا الانذار أمر ابراهيم باشا بضرب عكا بالقنابل من جميع الجهات[٣٦] .

ونظرا لفشل المحاولات التى بذلتها السلطنة العثمانية لتسوية المشكلة طلب السلطان من والى حلب اعداد العدة لمحاربة محمد على مما أدى الى تحرج الموقف وجعل ابراهيم باشا يتحرك بجزء كبير من قواته لمواجهة الجيوش العثمانية قبل وصولها الى عكا ، وقد نجح ابراهيم باشا خلال حروبه مع القوات العثمانية فى انتزاع طرابلس منهم وتعقبهم فى حمص وهزيمتهم فى سهل الزراعة مما أوقع الاضطراب فى صفوفهم والجأهم الى الفرار[٣٧] وبعدها واصل ابراهيم باشا حصاره لعكا حتى سقطت قلعتها فى السابع والعشرين من مايو ١٨٣٢[٣٨] وكان ذلك بداية لانتصارات ساحقة لقوات ابراهيم باشا حتى تم له الاستيلاء على بلاد الشام كلها والوصول الى الحدود الفاصلة بين المتحدثين بالعربية والمتكلمين بالتركية فقد تقدمت القوات المصرية بسرعة هائلة داخل بلاد الشام واحتلت دمشق وانزلت الهزائم بالجيش العثمانى بالقرب من حمص وواصل ابراهيم باشا تقدمه فدخل حلب ثم التقى مع القائد العثمانى حسين باشا فى معركة فاصلة عند مضيق

بيلان والحق به الهزيمة [٣٩] وبعدها تقدمت قواته داخل الأناضول وهزمت القوات العثمانية فى « قونية » فى نوفمبر ١٨٣٢م ثم مضى ابراهيم باشا فى زحفه تجاه كوتاهيه فوصلها فى الثالث من فبراير ١٨٣٣م وأصبح الطريق الى الآستانة مفتوحا أمامه مما أزعج الدول الكبرى فأبدت روسيا قلقها من هذه الانتصارات كما ابدت استعدادها لمساندة الدولة العثمانية ولما ترددت الأخبار بأن القوات الروسية قد ابحرت لنجدة السلطان العثمانى محمود انزعجت انجلترا وفرنسا التى وجدتا أن تدخل روسيا يمثل خطرا كبيرا يهدد التوازن العام فى أوربا ، ورأت الدولتان وجوب اتخاذ اجراء سريع للحيلولة دون وصول النفوذ الروسى الى الآستانة فقابل قنصلا انجلترا وفرنسا فى مصر محمدا عليا ونصحاه بضرورة وقف زحف جيوشه والتفاهم مع السلطان . كما أوضحت الحكومة البريطانية لمحمد على اصرارها على ضمان استمرار كيان الدولة العثمانية وعدم تفككه [٤٠] مما جعل محمد على يرسل الى ابراهيم باشا أمرا بان يتوقف زحفه حيثما كان » وانتهى الأمر بصلح كوتاهية الذى نزل فيه السلطان لمحمد على عن كريت وسورية ماعدا أطنة وبعد قبول السلطان العثمانى لصلح كوتاهية فى مايو ١٨٣٣ بدأت آمال محمد على فى تكوين دولة مستقلة تمتد حدودها الى أقصى بلاد الشام شمالا تبدو واضحة للعيان ، خصوصا وان امتلاك الشام يحميه من تربص السلطان به ، ويستر جناحه الأيمن ، ويمنحه السيادة على بيت المقدس حصن الأديان الثلاثة ، ويعطيه دمشق احدى المدن العامرة بالثقافة الاسلامية ، كما يوفر له معظم حاجياته الاقتصادية [٤١] .

ولما فاتح محمد على الدول الكبرى بشأن تطلعاته هذه عارضته انجلترا أشد المعارضة ، وحذرته من عواقب هذه الخطوة وهددته باستخدام القوة ضده اذا تمسك برأيه [٤٢] وقد استغلت الدولة العثمانية ذلك الموقف ، وبدأت فى استفزاز محمد على والتحرش بقواته المرابطة فى بلاد الشام ، وترقب الفرصة السانحة للانتقام منه . ولما كانت الحرب واقعة لا محالة بين الطرفين فقد بدأت القوات العثمانية تستفز القوات المصرية ، وتغير على مواقعها ، كما بدأ محمد على يطالب

السلطان محمود الثانى بأن يكون حكم مصر والشام وراثيا فى ذريته مما أغضب السلطان ، وجعله يسرع باعلان الحرب عليه فبعثت الدولة العثمانية الى بلاد الشام جيشا كبيرا فى عام ١٢٥٥هـ تحت قيادة حافظ باشا وذلك لمقاتلة القوات المصرية وطردها من هناك ، ونتيجة لذلك زحف ابراهيم باشا بقواته حيث تجمع الجيشان بالقرب من سهل « نزيب » وهناك تم الاشتباك بينهما فى الحادى عشر من ربيع الثانى ١٢٥٥ هـ الموافق الرابع والعشرين من يونيو ١٨٣٩م فى معركة حامية انتهت بهزيمة القوات العثمانية ، وفتحت أبواب عاصمة الخلافة على مصراعيها لاستقبال الجيوش المصرية المنتصرة ، مما أزعج الدول الأوربية ودفعها الى التدخل بكل ثقلها فى المسألة لانقاذ الدولة العثمانية من السقوط حتى لا يتعاظم نفوذ محمد على الى الحد الذى يضعف نفوذها فى المنطقة ، وقد تزعمت انجلترا هذه الحركة ضد محمد على وطلبت من السلطان العثمانى الا يبرم اى اتفاق مع محمد على ما لم توافق عليه الدول الكبرى [٤٣] . وفى أعقاب ذلك بدات انجلترا وفرنسا تعملان على ايجاد المصاعب أمام قوات محمد على فى بلاد الشام فشجعت الأهالى على العصيان وامدوهم بالسلاح للوقوف ضدها [٤٤] وفى أعقاب ذلك بدأت انجلترا فى التشاور مع الدول الأوربية بهدف العمل على اخضاع محمد على للسلطان وانتهى الأمر بعقد معاهدة لندن فى الخامس عشر من يوليو ١٨٤٠ والتى تضمنت أن يعرض السلطان على محمد على حكومة مصر وراثية له ولابنائهمن بعده ، وحكم عكا طوال حياته ، ويحرمه من السيطرة على الجزيرة العربية ، وسورية ، وكريت فى نظير أن يكون له الاستقلال الداخلى بمصر فى ظل قيود معينة مثل دفع الأموال المربوطة على مصر للآستانة سنويا وعدم تمثيل مصر فى الخارج وتحديد الجيش والأسطول وسلطة منح الألقاب وصك النقود ، فاذا لم يقبل هذه الشروط فى مدة عشرة أيام تنقص من حقوقه ولاية عكا ، واذا تأخر عشرة أيام أخرى ولم يقبل ما عرض عليه فللسلطان

الحق فى اتخاذ اى طريق تشير به عليه مصالحه الخاصة ونتيجة لرفض محمد على لهذه الشروط فى الأيام العشرة الأولى ضاعت منه ولاية عكا ، ولما بدأ العد التنازلى للأيام العشرة الثانية ، ولم يجد محمد على المساندة من فرنسا او غيرها قبل شروط الدول الكبرى [٤٥] ، وعلى اثر ذلك صدر فرمان ١٨٤١ واهم شروطه .

١ — ان يعطى محمد على ولاية مصر وتكون وراثية فى أسرته .

٢ — ان يتولى حكم مصر بعد وفاة محمد على أكبر افراد أسرته سنا .

٣ — تحجيم عدد الجيش المصرى بحيث لا يزيد عن ١٨ الف جندى.

٤ — قيام مصربدفع مبالغ سنوية للدولة العثمانية مقدارها ٣٢٠ الف جنيه .

ومما سبق يتضح ان هذه التسوية لم تكن اجراء داخليا بين السلطان ومحمد على وانما كانت تسوية دولية نجحت الدول الكبرى فيها فى تحطيم آمال محمد على فعادت مصر الى حدودها القديمة باضافة السودان اليها ، كما اهملت مشروعات محمد على الاقتصادية والعمرانية.

٧ — محمد على وبناء الدولة الحديثة فى مصر :

اختلف المؤرخون فى تقدير أعمال محمد على بين مادح وقادح فمنهم من راى فيه الرجل الذى أسس مصر الحديثة ، وجعل منها بلدا يسير فى ركب الحضارة والمدنية بعد أن كانت عبارة عن ضيعة تابعة للدولة العثمانية يتعرض أهلها لأفدح الأعباء واشد المظالم . ومنهم من نظر اليه بمنظار اسود قاتم وحط من قيمة جهوده واصلاحاته ورأى فيه الرجل المستبد الذى استأثر بكل السلطات من أجل مصلحته ، ومصلحة اسرته الشخصية وتحقيقا لأهدافها .

وحين تختلف الآراء حول شخصية معينة ، فلا يجد المؤرخ مناصا من الرجوع الى كتابات المعاصرين لهذه الشخصية حتى يتعرف منها على

حقـــائق الأمور ، ويستقى منها المعلومات التى تســـاعد على الوصـــول الى الحقيقة ومن هنا فقد اعتمدنا على جل المصـــادر التى عاصر أصحابها فترة حـــكم محمد على ، لتروى لنـــا أحوال مصر فى تلك الفترة بمثاليهـــا ومشاربها دون أى تحامل او محـــاباه .

وقد اتضح لنا منها ان محمد على اقبل على اصـــلاح احوال مصر التعليمية والعسكرية والاقتصادية ، وغيرها وبذل كل الجهود من اجـــل تحقيق ذلك لاعتقاده ان مصر ليست الا ملكا خاصا له ولأسرته وفيما يلى نعرض لذلك .

أولا — محمد على والنهضة التعليمية :

على الرغم من أن محمد على لم يتعلم القراءة والكتابة الا بعـــد أن تجـــاوز الأربعين من عمره ، وبالرغم من أن التعليم فى مصر قبل عهـــده كان قد انزوى فى أروقة الأزهر وصحـــون بعض المساجد وابنية الكتاتيب واقتصر على اتقـــان الأحكام الشرعية والاعتقادية [٤٦] فقد وجه محمد على جل اهتمامه الى التعليم فى مصر بكافة مراحـــله متبعا فى ذلك أحدث نظم التعليم الأوربية فى ذلك الوقت حيث أيقن أن بنـــاء الدولة الحـــديثة التى ينشـــدها يحتاج الى جيش قوى لا تكتمل كفاءته الا على الأســـاليب الحربية الحديثة التى تقوم على العلم والمعرفة ، وبنـــاء الدولة الحديثـــة التى ينشدها يحتاج الى أعداد من المهندسين والأطباء والمعلمين والمترجمين ونتيجة لذلك رأى محمد على ضرورة تـــأسيس المدارس المتخصصة للوفاء باحتياجات حكومته من المتخصصين وتوفير متطلباتها من الموظفين كما قام بايفاد البعثات العلمية فى مختلف التخصصات الى الخارج [٤٧] وامر بترجمة العديد من الكتب الأجنبية الى التركية والعربية فى قسم ملحق بمكتبة بالقلعة ليسهل الافادة منها [٤٨] . وبهذه الوسائل الثلاث حاول محمد على أن ينقل الغـــرب الى مصر ليحقق أهدافه فى بنـــاء الدولـــة الحديثـــة . ولكنه لم يحـــاول أن ينقـــل مصـــر الى الغرب بل احتفظ لها بتراثها وتقاليدها الشرقيـــة وان كان قـــد مزجهـــا بحضـــارة الغـــرب وعلومه ، وبذلك أوصـــل حاضرها بغابرها واقـــام النهضـــة المصرية الحـــديثة على أسس مزجت بين التطور فى العالمين الشرقى والغربى [٤٩] .

والجدير بالذكر أن التعـليم الحـديث وجد من المصريين اعراضا فى بـداية الأمر ، وبخـاصة أن التلاميذ كانوا يعيشـون فى المدارس بعيـدا عن أهلهم [٥٠] ولكن ذلك لم يستمر طويلا فبعد ان راى الأهـالى ان خريجى هذه المدارس يتقلدون المنـاصب الحكومية ويتقاضـون المرتبات الكبيرة ، ويرتدون الملابس الجيدة اقبلوا على تعليم أولادهم .

فيما يلى نعرض لمراحل تطور التعليم الحديث فى عصر محمد على :

المرحلة الأولى ١٨١١ — ١٨٣٦م :

بدأ محمد على فى هـذه المرحلة بانشـاء المدارس العالية والخاصـة والمدارس الحربية وكذلك المدارس الابتدائية [٥١] التى وصـل عددها خلال هذه المرحلة سبعة وستين مدرسة [٥٢] وفى هذه المرحلة أيضا قام محمد على بارسـال البعثات العلمية الى أوربا وبخاصة ايطاليا وفرنسا [٥٣] .

والمتتبع لحركة تطور التعليم خلال تلك الفترة يلاحظ ما يلى :

١ — ان المدارس كانت تابعة لديوان الجهـادية وكان الغرض الأساسى منها حربيـا بالدرجة الأولى .

٢ — ان نظام التعليم لم يكن مركزيا ، بحيث كان كل مدير مدرسـة يضع اللوائح التى يراها مناسـبة لمدرسته .

٣ — اهتمام الحكومة بتخريج الموظفين بغض النظر عن جنسـياتهم جعل العنصر المصرى بين الطلاب ضعيفا .

٤ — سيطرة النفوذ الايطـالى الثقافى على هذه المرحـلة حيث كانت الايطالية هى أولى اللغـات التى درست بالمدارس المصرية ، وكانت أولـى البعثات الى أوربا توفد الى ايطاليا .

٥ — قيام الأجانب بالتدريس فى هذه المدارس [٥٤] .

المرحلة الثانية ١٨٣٦ — ١٨٤١م :

بدأ التعليم فى هذه المرحلة يصبح أكثر تنظيما حيث أصبح هناك ترابطا أكثر بين المدارس ، كما عاد الكثير من طلاب البعثات للمشاركة فى تنظيم التعليم ببلادهم والعمل فى المصالح والدواوين الحكومية ، والى جانب ذلك فقد رأى محمد على فصل تبعية دور العلم عن ديوان الجهادية، وتشكيل لجنة فنية لتنظيم أمور التعليم حتى يتحقق له التنظيم الجيد ، وهى ما أطلق عليها فيما بعد « ديوان المدارس » وقد قامت هذه اللجنة بوضع لائحة لكل مرحلة من مراحل التعليم فبالنسبة للتعليم الابتدائى اقتصرت مدة الدراسة فيه على ثلاث سنوات وحصر الغرض منه فى أمرين هما :

١ — نشر التعليم بين الأهالى .

٢ — اعداد التلاميذ للمدارس التجهيزية .

وبالنسبة للمرحلة التجهيزية فقد انحصر الغرض منها فى أمرين :

١ — توسيع درجة التعليم بين خريجى المدارس الابتدائية .

٢ — اعداد الطلاب للمدارس الخصوصية التى يكون الغرض منها اعداد الموظفين للادارات والمصالح الحكومية المختلفة وكان عدد المدارس التجهيزية فى ذلك الوقت مدرستين واحدة فى القاهرة واخرى فى الاسكندرية ومدة الدراسة بها اربع سنوات [٥٥] .

أما عن المدارس الخصوصية والتى كان الهدف منها تكوين كوادر مهنية خاصة فسنعرض لأهمها :

اولا : المدارس الطبية :

مدرسة الطب البشرى :

انشئت فى عام ١٢٤٢هـ/١٨٢٧م لتخريج اطباء من ابناء البلاد وكان معظم اساتذتها من الفرنسيين والايطاليين [٥٦] وكان المترجمون ينقلون

دروس هؤلاء الأساتذة الى اللغة العربية حتى يفهمها الطلاب ، والى جانب ذلك قام المترجمون بترجمة بعض كتب الطب الى العربية وكان باكورة ذلك كتاب القول الصريح فى علم التشريح .

مدرسة الصيدلة :

انشئت فى عام ١٢٤٥هـ/١٨٣٠م وكان كل طلبتها من المصريين ، وكانت فرعا من فروع مدرسة الطب .

مدرسة الولادة :

أنشئت فى عام ١٢٤٧هـ/١٨٣٢م ، وقد التحق بها فى السنوات الأولى من حياتها الحبشيات والسودانيات ثم انضم اليها المصريات ، وكانت طالبات هذه المدرسة يدرسن العلوم الطبية المختلفة وبخاصة ما كتب فى فن التوليد [٥٧] .

مدرسة الطب البيطرى :

التحقت بمدرسة الطب البشرى فى عام ١٢٤٦هـ/١٨٣١م وكان معظم اساتذتها من مدرسة الطب البشرى ، وقد ترجمت فى هذه المدرسة العديد من كتب الطب البيطرى والى جانب هذه المدرسة الطبية كانت هناك مدرسة المارستان ، والمدرسة التجهيزية للطب [٥٨] .

ثانيا : المدارس الزراعية :

تأسست فى عصر محمد على العديد من المدارس المتخصصة فى فنون الزراعة كان أولها «الدرسخانة الملكية» التى انشئت فى عام ١٢٤٥هـ/١٨٣٠م وكان تلاميذها يدرسون المواد الزراعية الى جانب اللغتين العربية والفارسية ، ومدرسة الزراعة بشبرا الخيمة التى انشئت فى عام ١٢٤٨هـ/١٨٣٣م والتى كان يقوم بالتدريس فيها المبعوثون الزراعيون الذين عادوا من أوربا ، ومدرسة الزراعة بنبروه التى انشئت فى عام ١٢٥١هـ/١٨٣٦م وكان طلابها جميعا من المصريين [٥٩] .

ثالثا : المدارس الهندسية والصناعية والفنية :

أ ــ المدارس الهندسية :

بلغ عدد المدارس الهندسية التى أمر محمد على بانشائها خمس مدارس كان أولها مدرسة المهندسخانة التى انشئت فى عام ١٢٣١هـ/١٨١٥م بعد أن رأى محمد على قابلية لدى ابناء مصر للدراسة فى هذا المجال ومما يروى عن ذلك حادثة وقعت فى عام ١٢٣١هـ مفادها « أن شخصا من أبناء البلد يسمى حسين جلبى عجوة ابتكر بفكره صورة دائرة وهى التى يدقون بها الأرز ، وعمل لها مثالا من الصفيح تدور بأسهل طريقة بحيث أن الآلة المعتادة اذا كانت تدور بأربعة أثوار ، فيدير هذه ثوران ، وقدم ذلك المثال الى الباشا ، فاعجبه وانعم عليه بدراهم ، وأمره بالمسير الى دمياط ، ويبنى بها دائرة ويهندسها برايه ومعرفته .. وراج أمره بسبب ذلك »(٦٠) .

وبعد أن رأى محمد على ذلك قال ان فى أولاد مصر نجابة وقابلية للمعارف وأمر ببناء مكتب بحوش السراية لتعليم ابناء البلد قواعد الحساب والهندسة وعلم المقاييس والمقادير ، وفى عام ١٢٣٥هـ/١٨١٩م أمر محمد على بانشاء مدرسة تسمى المهندسخانة .

اما عن أطول مدارس الهندسة عمرا فقد افتتحت فى المحرم ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م فى بولاق ، ونظمت على مثال مدرسة الهندسة بباريس، وقد نجحت هذه المدرسة فى تخريج أجيالا من المتخصصين الذين اعتمدت عليهم مصر فى نهضتها(٦١) .

ب ــ المدارس الصناعية :

انشئت المدارس الصناعية فى عهد محمد على لتعليم الشبان المصريين أصول الصناعة واهم هذه المدارس :

١ ــ مدرسة الكيمياء :

وقد انشئت فى عام ١٢٤٧هـ/١٨٣١م بمصر القديمة وكان طلابها يتعلمون فيها الصناعات الكيماوية .

٢ — مدرسة المعـادن :

وقد انشئت فى عام ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م .

٣ — مدرسة العمليات أو الفنون والصنائع :

وقد انشئت فى عام ١٢٥٢هـ/١٨٣٧م وكانت تعنى فى دراستها بالناحية العملية وقد حولت فى عام ١٨٤٤م الى ورشة صناعية [(٦٢)] .

جـ — المدارس العلمية والفنية :

لما كان محمد على فى حـاجة الى أعداد كبيرة من المثقفين لمساعدته فى تنفيذ قيـام الدولة الحديثة فقد بـادر بانشـاء عدد من المـدارس التى يمكن أن تحقق له هذا الغرض ومن أهمها :

١ — مدرسة الادارة الملكية :

وقد انشـئت فى عام ١٢٥٠هـ/١٨٤٣م وكان طلابها يدرسون فيهـا المحاسبة ومبادىء الهندسة واللغة الفرنسـية والجغرافيا ومبادىء الترجمة .

٢ — مدرسة التاريخ والجغرافيا :

وقد انشـئت فى عام ١٢٥٠هـ وكان القصـد من انشـائها تخـريج مدرسين للتاريخ والجغرافيا فى المدارس العسكرية .

٣ — مدرسة الألسـن :

نتيجة لاعتمـاد الحركة العلمية فى عصر محمد على اعتمادا كليا على الترجمـة ، ونظرا لرغبة البـاشا فى التعرف على تراجم القـواد والملوك السـابقين ليفيد من خبرتهم وتجـاربهم ويتجنب أخطاءهم [(٦٣)] فقد أمـر محمد على بانشـاء مدرسة الألسـن فى أوائل عام ١٢٥١هـ/١٨٣٥م بهدف تحقيق غرضين همـا :

١ — اعداد مترجمين فى مختلف العلوم والفنون .

٢ — اعداد مدرسـين للغة الفرنسية للتدريس فى المدارس التجهيزية والخصوصية .

وقد تولى رفاعة الطهطاوى ادارة هذه المدرسة أثر عودته من فرنسا واستطاع بهمته أن يحقق أهدافها لدرجة أن هذه المدرسة استطاعت تخريج العديد من المترجمين الذين ترجموا عصارة الفكر الأوربى للمصريين، وكانوا كما وصفهم على باشا مبارك «أطروفة مصرهم وتحفة عصرهم»(٦٤) .

ولما ظهر للباشا ما لهذه المدرسة من فوائد ذات تأثير كبير فى الحركة الثقافية العامة ظل يعمل على تنميتها كما زودها بمجموعة عجيبة من المترجمين فيهم اليونانى والتركى والسورى .

ومن أشهر المترجمين الذين عملوا بهذه المدرسة المترجم السورى انطون رفائيل زاخوره الذى ترجم كتاب « الأمير فى علم التاريخ والسياسة والتدبير » للمؤلف الايطالى نيقولا ميكافيللى من الايطالية الى العربية حتى يتعرف محمد على على ما يتضمنه هذا الكتاب الذى سمع عنه ثناء متعددا من بعض الأوربيين (٦٥) ، والذى يعد ايضا صاحب السبق فى ميدان الترجمة فى تاريخ مصر الحديث فهو صاحب أول كتاب ترجم عن الفرنسية الى العربية وطبع فى عهد الحملة الفرنسية وهو رسالة « ديجينت » عن مرض الجدرى ، وهو ايضا صاحب أول كتاب ترجم عن الفرنسية وطبع فى مطبعة بولاق فى عصر محمد على ، هذا الى جانب قيامه بوضع قاموس ايطالى عربى .

واحمد عاصم أفندى الذى ترجم كتاب مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس للجبرتى من العربية الى التركية وقد عاشت هذه المدرسة نحو الخمسة عشر عاما اخرجت ابانها الانتاج العلمى الوفير ، ولكن الأمور لم تستمر طويلا على هذا المنوال فبعد وفاة محمد على ، وتولية عباس الأول الحكم اندثرت أحوال هذه المدرسة وساءت أمورها ثم الغيت فى نوفمبر ١٨٤٩ (٦٦) وابعد مديرها رفاعة الطهطاوى الى السودان ليشرف على مدرسة ابتدائية فى الخرطوم .

والجدير بالذكر أن (محمد على) لم يغفل الاهتمام بالطباعة باعتبارها أهم وسائل نشر المعرفة فارسل نقولا مسابكى الى ايطاليا ١٨١٦ للتخصص فى فن الطباعة ، وقام بانشاء مطبعة بولاق الاميرية وجهزها



بكل لوازم الطباعة الحديثة ، واختار من علماء الأزهر طائفة للقيام بتصحيح مطبوعاتها .

والى جانب ذلك فقد أصبح ببعض المدارس العالية مطابع خاصة فكان لكل من مدرسة المدفعية بطره ومدرسة الطب بأبى زعبل ومدرسة المهندسخانة ببولاق مطبعة تتولى طبع الكتب الخاصة بها وكان بالقلعة أيضا مطبعة تقوم من وقت لآخر بطبع الكتب (٦٧) .

المرحلة الثالثة من ١٨٤١ الى نهاية عصر محمد على :

بعد أن تمت التسوية بين محمد على والدولة العثمانية عام ١٨٤٠/١٨٤١ وبدأ عهد الاستقرار السياسى وتحجيم اعداد القوات المصرية أخذ محمد على فى تسريح العديد من جنوده ، كما أغلقت العديد من المصانع المخصصة لخدمة الأغراض العسكرية على حين استمرت المدارس فى تخريج الموظفين اللازمين للحكومة ، ونتيجة لذلك تم اعادة النظر فى نظام التعليم ، وشكلت لجنة لبحث هذه الأوضاع فى ضوء الأوضاع السياسية والاقتصادية الجديدة فقامت بوضع لوائح جديدة للتعليم انخفضت بموجبها اعداد المدرس الابتدائية فأصبحت مدرسة واحدة بالقاهرة واربع بالأقاليم ، أما عن المدارس التجهيزية والخصوصية فقد ظلت كما هى وان انقص عدد طلابها وبخاصة أن حاجة الحكومة الى الموظفين قد خفت حدتها (٦٨) .

ومما سبق يتضح أن محمدا عليا أوجد نظاما جديدا من التعليم فى مصر يختلف عن النظام التعليمى الذى كان سائدا بها قبل ذلك وذلك بهدف سد حاجة الحكومة من الموظفين ومد الجيش والادارات والدواوين باحتياجاتهم من الضباط والموظفين ويتضح ان محمدا عليا اهتم بالتعليم العالى فى بادىء الأمر لانه لم يكن مرتاحا الى سيطرة الاجانب على التعليم ويريد التعجيل باحلال المصريين محلهم فارسل البعثات الى أوربا ولما عاد طلابها حلوا محل معظم الأجانب يضاف الى ذلك ان التعليم كان يتصف بالصبغة الحربية سواء فى نظام الحياة فى المدارس أو فى طريقة جمع التلاميذ لها او فى تبعية المدارس لديوان الجهادية مما أدى

الى نفور الاهـــالى من التعليم فى أول الأمر وامتناعهم عن ارســـال أولادهم الى المدارس كما يتضح ان الحكومة المصرية كانت تعتنى بالتلاميذ وتهيىء لهم السبل الكفيلة لمســـاعدتهم على اتمام الدراسة من النواحى المادية والصحية وغـــير ذلـــك .

ثانيا : محمد على وتكوين الجيش الحديث :

عندما وصـــل محمد على الى اريكـــة الحـــكم فى مصر كان جيشــه من الألبـــان والشراكسة والأرمن الذين كانت تنتشر الفـــوضى بين صفوفهم، ولما كان هذا الجيش لا يمكن محمدا عليا من بنـــاء الدولة الحديثة ولا يحقق له آمـــاله العريضة الواسعة التى ينشدها ، فقد رأى ضرورة التخلص من النظـــام العســـكرى القديم ، وبنـــاء جيش حديث عن طريق الاستعـــانة بالخبراء الأوربيين . ولم يكن تكوين هذا الجيش الحديث بالأمر الهين فقـــد صادف الباشا فى طريقه صعابا عديدة نذكر منها :

١ — معارضـــة الباشا فى محاولاته الأولى فى أغسطس ١٨١٥ عندما أعرب لجنـــوده عن رغبته فى تدريب احدى الفرق العســـكرية على النظم الحديثة ، وقيـــام بعض الجنود بالتمرد عليه وتآمرهم للاطاحة به [(٦٩)] .

٢ — وقوف بعض العلمـــاء بجـــانب الجنود الألبان ضد رغبة محمد على فى تحديث جيشـــه بحجة القضاء على بدعة النظـــام الجديد وترديدهم للحديث الشريف « كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضـــلالة فى النـــار » .

ونتيجـــة لذلك بدأ محمد على يصطنع الحذر فى معالجة الموقف فأخـــذ ينتحل المعـــاذير لتفريق الجند [(٧٠)] عن طريق ارســـال بعضهم على صورة نجدات لجيوشـــه فى شبه الجزيرة العربية والســـودان وابعـــاد البعض الآخر عن القـــاهرة بحجة حمـــاية الثغور الواقعة على البحر المتوسط حتى توطد سلطـــانه وفى عام ١٨١٩ بادر محمد على بجلب عدد من الســـودانيين لاحلالهم مكان جنـــوده من الألبـــان وغيرهم ، وعهد بتدريبهم الى ابراهيم اغا أحد قواده ، ولكن هـــذه المحاولة لم تفلح لذلك رأى محمد على أن يتجـــه صـــوب أوربا للاستعـــانة بالضباط المدربين على الطرق العسكرية الحديثة

فى بنـــاء جيشـــه ، وقد ســـاعده على ذلك انتهـــاء الحروب النابليونية فى أوربا ، ورغبـــة بعض الضبـــاط الفرنســـيين الخدمة فى بلاد أخرى ، وقـــد اختـــار محمد على الكولونيل سيف Seves ليشـــغل منصب المعلم الرسمى لنظـــامه الجديد وفى حـــوالى عام ١٨٢٠ بدأ محمد على فى انشاء المـــدارس العسكرية لتلقين قواته الأصـــول العسكرية الحديثة وفيما يلى نعرض لاهم هذه المدارس .

١ ـــ مدرسة المشاة العسكرية :

وقد انشئت فى عام ١٨٢٠ ووضعت تحت ادارة الكولونيل سيف واختار محمد على طلابها من أبناء المماليك ومن أفراد اسرته ليكونوا النواة الأولى من ضـــباطه وكان مكان هذه المدرســـة بالقلعة ثم انتقل الى اسوان حتى يبتعد الطـــلاب عن القاهرة ومؤثراتها من ناحيـــة ولتكون قريبة من السودان التى كان يتوقع أن تكون من مراكز التجنيد الأساسية لجيش محمد على .

وقد لقى الكولونيل سيف متـــاعب جمة خلال تدريب طـــلاب هـــذه المدرسة خصـــوصا وانهم لم يتعـــودوا على الطـــاعة المطلقة لرؤســـائهم كما انهم لم يعتـــادوا أن يتعلموا فنـــون الحرب على ايدى النصـــارى(٧١) ومع ذلك فقد ســـاعد الكولونيل سيف مؤازرة محمد على له فى تخطى هـــذه الصعـــاب وبعد ثلاث سنوات من التدريب الشـــاق تم تخريج مجموعة من الضبـــاط وصـــل عددهم حوالى ستة آلاف ضابط والى جـــانب ذلك اهتم محمد على بتدريب الجنـــود فى هذه المدرســـة وتعليمهم ، ولما كان من غـــير المعقـــول أن يختار هؤلاء الجنود من الألبـــان فقد فكر فى تجنيد السودانيين وعهد الى ابنـــه اســـماعيل ان يجمع له حشـــودا من الجنود الســـودانيين لتدريبهم على النظـــام الحديث ، ولكن هذه المحاولة لم تنجح لأسباب عديدة منها انتشـــار الأمراض بين هؤلاء الجنـــود ، ونفورهم من أعباء الخـــدمة العسكرية النظامية مما اضطر محمد على الى تجنيد الفلاحين من اهـل مصر فى جيشـــه الجديد (٧٢) وانشاء الثكنـــات لتمرينهم فى فرشوط واسوان وبنى عـــدى .

وقـــد وجد محمد على فى بـــداية الأمر مصاعب جمة فى تجنيد المصريين

خصوصا وانهم لم يتعودوا على الخدمة العسكرية قبل عصره لذلك قابل الفلاحون الانتظام فى سلك الجندية مكرهين كما قام بعضهم بسمل عيون أولادهم او بتر اصابعهم حتى يتم اعفاؤهم من التجنيد مما دفع محمد على الى أن يصدر أوامره بالقاء الأمهات اللاتى يقمن بهذا العمل فى النهر عقابا لهن[٧٣] ، وبمرور الوقت ألف المصريون الجندية ، وبداوا يعتزون بالانتساب اليها ، واتسعت دائرة تجنيدهم .

٢ — مدرسة اركان الحرب :

تأسست فى اكتوبر من عام ١٨٢٥ بهدف تخريج ضباط أركان الحرب وتنظيم التشكيلات الفنية لفرق المشاة .

٣ — مدرسة البيادة (المشاة) :

وقد انشئت فى عام ١٨٣٢ وظلت قائمة الى نهاية عصر محمد على حتى الغاها عباس الأول .

٤ — مدرسة السوارى :

وقد انشئت فى الجيزة عام ١٢٤٦هـ/١٨٣٠م وكان معظم تلاميذها من الأتراك والمماليك وقد نظمت هذه المدرسة على غرار المدارس الحربية الفرنسية ، واستمرت فى عصر محمد على حتى انغاها عباس الأول .

٥ — مدرسة الطوبجية (المدفعية) :

وقد انشئت فى طره عام ١٢٤٧هـ/١٨٣١م وكانت مواد الدراسة فيها هى المواد الحربية بالاضافة الى اللغات الأجنبية .

والجدير بالذكر ان محمدا عليا استعان فى بداية الأمر بالأساتذة الأجانب للقيام بالتدريس فى المدارس ، والعمل فى الادارات الحكومية وتدريب الجيش .

ومع أن نظام التعليم فى هذه المدارس كان اقتباسا من نظم التعليم الأوربية[٧٤] فان القسط الأكبر من اليوم الدراسى كان يخصص لتحفيظ القرآن الكريم ، وتدريس العلوم الدينية ، واللغات الشرقية .

يضـــاف الى ذلك أن (محمد على) أسس فى باريس مدرسة خاصــــة فى عام ١٨٤٤م لطلبة البعثة المصرية كى يتعلمون فيهـــا العـــلوم الحربيـــة وغيرها على نمط المدارس العليا بفرنسا ، وكانت هذه المدرسة تحت رئاسة وزير الحربية الفرنسية(٧٥) .

هذا عن تطـــور الجيش المصرى البرى وتنظيمه ، أما عن البحـــرية فى عصر محمد على فانه لم يكن فى مصر قبيـــل عصر محمد على وحتى أواخر عام ١٨٠٩ أى ســـفن حربية ، وان محمـــد على لم يشـــرع فى الاهتمـــام بالبحرية الا بعد تكليفه بخـــوض حروب الحجـــاز ، ولرغبته ايضا فى تدعيم صلاته بدول العـــالم ، وتيســـير تصدير المنتجات المصرية اليها . ونتيجـــة لذلك أمر محمد على ببنـــاء بحرية مصرية فى البحر الأحمر مستغلا فى ذلـــك وجـــود ترســـانة فى بولاق كان قد انشأها الفرنســـيون اثناء تواجـــدهم فى مصر وقد جمع محمد على فى هذه الترســـانة العمال المهرة ، واستقدم صنـــاعا من أوربا كما جلب الاخشـــاب من آســـيا الصغرى وكذلك اقام الباشـــا عدة منشئات فى السويس ليجرى فى مينائها تركيب اجزاء الســـفن بعد أن يتم نقلهـــا من بولاق على ظهـــور الجمال ، وهكذا لم تكد تنقضى عدة شـــهور حتى كانت ترسانة بولاق قد انجزت صنع قطع اسطـــول صغـــير نقلت الى الســـويس(٧٦) ، كما استمرت فى انشـــاء « المـــراكب الكبـــار والصغار التى تسرح فى النيل من قبلى الى بحرى ومن بحرى الى قبلى »(٧٦) .

وفى شهر أغسطس ١٨١١ تجمع فى مينـــاء السويس ثلاث وســـتون سفينـــة متعددة الأنواع والأشـــكال استطاع محمد على عن طريقها نقـــل الجنـــود والمهمات العسكرية الى الحجاز والاستيلاء على مناطقها الساحلية لتكون ارتكازا لعملياته الحربية بشبه الجزيرة العربية(٧٨) ، كمـــا كان لهذا الأســـطول الفضـــل فى تطهير البحر الأحمر من القراصـــنة الـــذين كانوا يهاجمون الســـفن ، وفى امتداد النفوذ المصرى على شواطىء البحر الأحمر.

ولم يقتصر اهتمام محمد على بالبحر الأحمـــر فحســـب بل امتد الى البحر المتوسط ، وبخاصة انه الواجهة المطلة على أوربا ، فاهتم بالاسكندرية لتكون القاعدة الرئيسية لاسطوله بالبحر المتوسط ، وعهد الى شـــاكر

افندى الاسكندرانى والى الحاج عمر بادارة ترسانة الاسكندرية كما انشأ محمد على ادارة خاصة للاساطيل المصرية وجعل اسماعيل جبل طارق أمير البحار الأول [٧٩] أول رئيس لها . وقد كان للبحرية المصرية فى البحر المتوسط دور فعال فى معاونة الجيش المصرى خلال حروبه فى بلاد اليونان ، وبعد أن قضى على هذه البحرية فى موقعة نفارين البحرية اعتزم محمد على انشاء اسطول جديد ، ووجه جل اهتمامه الى بناء ترسانة جديدة بالاسكندرية واستعان فى بنائها بالمهندس البحرى المسيو سريزى Cerisy وذلك فى عام ١٨٢٩ [٨٠] وقد تم بناء هذه الترسانة فى عام ١٨٣١ كما تم انشاء بارجة حربية ذات مائة مدفع ، وصارت ترسانة الاسكندرية من أعظم المنشئات البحرية ، كما كانت معهدا لتدريب الشبان المصريين فن بناء السفن وترميمها ولما استولى محمد على على السودان وانشأ مدينة الخرطوم عند ملتقى النيل الأبيض بالنيل الأزرق وجعلها العاصمة شيد فيها ترسانة كبيرة لبناء السفن النيلية والى جانب ذلك اهتم محمد على بالأسطول التجارى فقام بانشاء السفن التجارية لتكون الواسطة لنقل منتجاته من الموانىء المصرية الى الموانى الأجنبية .

ولتمكين ابناء مصر من فنون البحار وبناء السفن على النمط الحديث استعان محمد على بالضباط الفرنسيين فى انشاء المدارس البحرية لتدريب البحارة المصريين على السفن الحربية ، وتعليمهم فنون البحرية كما أوفد البعثات العلمية الى أوربا للتخصص فى أعمال البحرية وهندسة بناء السفن ، وليحلوا محل الفنيين الأجانب فى ترسانة الاسكندرية بعد انتهاء دراستهم .

ولتنظيم أمور البحرية المصرية والاشراف على قوات الاسطول وتدريباتها انشأ محمد على ديوانا للبحرية ونتيجة لهذا المجهودات برز دور الأسطول المصرى فى حروب الشام ، فقد حاصر الأسطول المصرى عكا لمدة ستة شهور حتى سقطت عنوة فى ٢٧ مايو ١٨٣٢ [٨١] كما تمكن هذا الاسطول من تعقب الأسطول العثمانى ومنعه من تقديم المساعدات للقوات العثمانية بالشام ، وانتهى الأمر بتسليم قائد الأسطول العثمانى

أحمد باشا فوزى اسطوله المكون من خمس وعشرين سفينة الى محمد على واستمرت حالة الأسطول المصرى فى الازدهار حتى عقدت معاهدة لندن ١٨٤٠ التى حرمت محمد على من بناء السفن الحربية دون اذن من الباب العالى .

ومما سبق يتضح أن محمدا عليا قد اهتم بالبحرية المصرية منذ ان شرع فى حروب الجزيرة العربية وحرب المورة تلبية لطلب السلطان ، ورغم تحطيم الأسطول المصرى فى بلاد اليونان فقد تمكن محمد على من بناء اسطول جديد استطاع به منازلة الدولة العثمانية خلال حروب الشام ، ولكن تدخل الدول الأوربية فى النزاع بين السلطان ومحمد على انتهى بالاتفاق على تحجيم قدرات محمد على العسكرية وتحديد قوة مصر البرية والبحرية .

محمد على والزراعة :

بعد أن تولى محمد على حكم مصر احدث انقلابا زراعيا كان من أهم مظاهره الغاء نظام الالتزام[٨٢] والاستيلاء على الأراضى واعتبارها ملكا للحكومة وتأجيرها للفلاحين ونتيجة لذلك أصبحت علاقة الفلاحين مرتبطة مباشرة بالحكومة [٨٣] كما انتقل محمد على الى الأراضى الموقوفة على المساجد ومؤسسات الخير فألغى أوقافها وضمها الى املاك الحكومة[٨٤]

وقد الزم محمد على الفلاحين ، باتباع الأساليب الحديثة فى الزراعة مما أدى الى ترقية أساليب الزراعة وزيادة الانتاج ، وادخال العديد من الزراعات الجديدة كما ساعدت مشروعات محمد على الخاصة بحفر الترع واقامة الجسور على سهوله رى الأراضى الزراعية .

والى جانب ذلك قام محمد على بتوزيع الأراضى البور على الأعيان وأعفاها من الضرائب لتشجيعهم على استصلاحها وقد سميت هذه الأراضى « ابعاديات » ، كما خص أفراد اسرته بأراضى سميت «جفالك» أو شفالك واعفاها من الضرائب .

وفى عام ١٨١٣م قام محمد على بمسح الأراضى الزراعية وحصرها

وفرض ضرائب ثابتة عليها سنويا وسمى ذلك بالتآريع ، وتعد دفاتر التآريع التى أمر محمد على بانشائها المصدر الأساسى الذى تحدد فيه مساحة أطيان مصر ، ومساحة الأراضى المستعملة للمنافع العمومية فعرف كل فلاح الضرائب المقررة عليه [٨٥] ، كما أعفى بمقتضاها مشايخ البلاد من دفع الضرائب عن خمسة أفدنة من كل مائة فدان من زمام البلد الذى يعيشون فيه نظير خدماتهم للحكومة ، واستضافة من يحضر اليهم من موظفيها ، وقد سميت هذه الأراضى « مسموح المشايخ » أو « مسموح المصطبة » [٨٦] .

وبعد أن فرض محمد على نظام الاحتكار فى عام ١٨١٦م الزم الفلاحين بزراعة المحاصيل الزراعية التى رأى انها ستحقق له مكاسب ضخمة ، وقيد حريتهم فى تصريف محصولاتهم وقام بشرائها منهم بالثمن الذى تحدده الحكومة .

وعلى الرغم من أن سياسة الاحتكار قد حققت لمحمد على أرباحا طائلة ساعدته فى تمويل نفقاته العسكرية والبحرية فان هذا النظام قد حرم المزارعين من التصرف فى ثمرة كدهم ومن الحصول على الربح المناسب لحاصلاتهم كما جعلهم عرضة لمظالم موظفى الشئون وتلاعبهم فى الكيل والميزان ورفع اسعار احتياجاتهم الضرورية مما أدى الى زيادة تكاليف معيشتهم .

محمد على والنهضة الصناعية :

عندما تولى محمد على حكم مصر كانت الصناعة الموروثة عن المماليك بدائية ولا تفى باحتياجات البلاد ، ومن هنا اقتضى النظام الاقتصادى الذى أدخله محمد على احتكار معظم الصناعات القائمة فى البلاد ، والاكثار من انشاء المصانع .

فقد احتكر صناعة الحصر وعمل الأوانى الفخارية ومصانع النسيج.

كما انشأ العديد من المصانع لكى تغنيه عن المصنوعات الأجنبية ، وتمكنه من الاعتماد عليها فى تسليح جيشه [٨٧] وقد جلب محمد على الصناع والمهندسين والخبراء من الخارج لتدريب العمال المصريين ،

وجلب الآلات من أوربا بكميات كبيرة كما قام بتشغيل آلاف العمال من المصريين فى هذه المصانع والجدير بالذكر أن المصريين نظروا الى تلك المصانع كما ينظر الانسان الى كارثة نزلت بساحته ، فقد اعتبروها سجونا اكثر منها اداة من أدوات الانتاج ، وابتعدوا عن العمل بها لفترة، وبخاصة أنهم كانوا يفضلون العمل فى الحقول الطليقة على جو المصانع وادارتها السيئة مما اضطر الباشا الى استخدام القوة لاجبارهم على العمل بالمصانع .

واهم المصانع التى شيدت فى عصر محمد على كانت مصانع للغزل والنسيج ، ومصنع للجوخ ببولاق ومصنع للحرير فى الخرنفش ، ومصنع للحبال ، ومصنع لنسج الصوف ، ومصنع للطرابيش ، ومصنع لنسج الكتان ، ومصنع لسبك الحديد ببولاق ، ومصانع لالواح النحاس ، ومصانع للسكر ، ومصانع للنيلة ، ومصانع للصابون ، ودبغ الجلود، والزجاج والصينى ، ومعاصر الزيوت وغيرها[(٨٨)] .

وقد اهتم محمد على بهذه المصانع اهتماما كبيرا ووضع بعضها تحت اشراف ديوان الجهادية والبعض الآخر تحت اشراف الخزينة مباشرة ، بيد أن هذه المصانع تطلبت عمالا مدربين واموالا طائلة ، مما جعلها تتعرض لخسائر كبيرة ، وبخاصة فى سنواتها الأولى ، ثم تغيرت الأمور بعد انتظام ادارة هذه المصانع واستطاع الباشا أن يجنى بعض الفائدة ، كما استطاع تصدير منتوجاته الصناعية الخاصة بالغزل والنسيج الى بعض ثغور ايطاليا وسورية والأناضول وبيع ما تبقى منها داخل مدن وقرى مصر[(٨٩)] .

وبعد أن نجح محمد على فى تشغيل مصانعه بدأ يحتكر بعض الصناعات التى يعمل بها الأهالى فعلى سبيل المثال احتكر صناعة الأقمشة ، ومنع الأهالى من تشغيل انوال الغزل والدوبارة[(٩٠)] .

ومع أن هذه المصانع كانت موضع عناية محمد على فى حياته ، فقد اغلق بعضها فى أواخر عصره وبخاصة بعد معاهدة لندن ١٨٤٠/١٨٤١ ، كما اغلق البعض الآخر فى عصر حفيده عباس الأول بسبب ضعف

الرقابة عليها ، وعدم توفر المواد الخام اللازمة لتشغيلها مثل الفحم والحديد ، وان استيرادها من الخارج يكلف البلاد نفقات كبيرة [٩١] .

خامسا : محمد على والتطور التجارى :

كانت التجارة موردا ثابتا من الموارد الأساسية لحكومة محمد على ، فقد استطاع أن يقبض بكلتا يديه على الحركة التجارية فى الداخل والخارج عن طريق استخدامه لأسلوب الاحتكار التجارى ، ففى الداخل سيطر على محاصيل البلاد الزراعية بأكملها عن طريق اجبار الفلاحين على أن يبيعوا للحكومة محصولات الأراضى التى يزرعونها بالأثمان التى تحددها لهم ، واذا أراد الفلاح أى شىء منها لغذائه ففى استطاعته أن يشترى من الحكومة بالاثمان التى تحددها هى أيضا [٩٢] .

وقد نجم عن ذلك ارتفاع أسعار الحاجيات والمواد الغذائية وعانى الفقراء بؤسا من جرائه أما فى الخارج فقد صار التجار الأجانب لا يستطيعون التعامل سوى مع شخص واحد هو الباشا نفسه وبذلك سيطر محمد على منذ بداية حكمه على التجارة الخارجية سيطرة تامة وكان القطن هو أهم السلع فى التجارة الخارجية ويليه فى الأهمية القمح لذلك اهتم محمد على بهذين المحصولين ، فادخل القطن الطويل التيلة محل القصير التيلة ، كما عمل على تنشيط زراعة القمح وزيادتها مما أدى الى فتح آفاق جديدة للتجارة المصرية فى الأسواق الأوربية وزيادة أرباح محمد على زيادة طائلة .

وقد عمم محمد على نظام الاحتكار فى كل ممتلكاته ففى السودان احتكرت الحكومة جميع محصولات البلاد ومنتجاتها وكادت تنفرد بشراء الصمغ وسن الفيل والجلود وغيرها وفى سوريا قام الباشا بتطبيق نظام الاحتكار على محصول الحرير مما أدى الى شكوى الأهالى من هذا النظام .

وفى كريت أراد محمد على أن يسيطر على تجارة الزيت يضاف الى ذلك أن رغبته فى الافادة من تجارة الشرق دفعته الى الرغبة فى الاستيلاء على اليمن والسيطرة على تجارة البن بها .

ولتنشـــيط العملية التجارية اهتم محمد على بالطرق البرية والبحرية ، فبدأ طريق الســـويس البرى يســـترد مكانته القديمة .

كما بدأت الاسكندرية تزدهر وبخـــاصة بعد حفر ترعة المحمودية[٩٣] التى ربطتها بالنيل ، وزاد نقل البضائع منها الى داخل البلاد مما أدى الى تقاطر التجار اليها من مختلف انحاء أوربا .

يضاف الى ذلك قيام محمد على باصـــلاح مرفأ بولاق وغيره من الموانى المصرية ، وانشاؤه مجلســـا تجاريا مؤلفا من المصريين والأجـــانب للحـــكم فى القضـــايا التجـــارية .

وقد هدف محمد على فى أن يكون الميزان التجارى فى صـــالحه وذلك عن طريق زيـــادة الصادرات المصرية على الواردات ، كما عمـــل على أن تقوم البـــلاد بانتاج حاجتها من الســـلع لتكتفى بمصنوعاتها ومنتجاتها فى ســـد مطالبها فلا يكون هناك حـــاجة للشراء من الخارج .

وقد فرض محمد على نظام الضرائب الجمركية على تجارة الصـــادر والوارد ، مما ضايق انجلترا ، ودفعها للضغط على الباب العالى وتوقيع المعاهدة الانجليزية العثمانية فى التاسع من أغسطس ١٨٣٨ والتى أدت فى النهاية الى اضعاف نظام الاحتكار فى ممتلكات الباشا والغاء هذا النظـــام فى النهاية[٩٤] ، ومن ثم ركود الحركة التجارية فى الفترة الأخيرة من حكم محمد عـــلى .

ومما سبق يتضح أن تجارة مصر الخارجية ازدهرت فى عصر محمد على اكثر من العصر الذى سبق وصوله الى اريكة الحكم فى مصر بشـــكل ملحوظ ولكن حروبه مع الدولة العثمانية ، وموقف انجلترا المناوىء له قد أديا فى النهاية أضمحلال هذه التجارة وركودها .

سادسا : محمد على والاهتمام بالشؤن الصحيـــة :

لـــما كانت مصر تعانى من انتشار الأوبئة واشتداد وطأتها وخاصـــة الرمد والدوسنطاريا والجدرى والطاعون والكوليرا ، فقد اهتم محمد على

بالشئون الصحية اهتماما كبيرا وكانت الوسائل التى لجأ اليها تشتمل على نوعين اما وقائية كالحجر الصحى ، واما علاجية كالاعتماد على معاونة الأطباء الأجانب أمثال « كلوت بك » و « جيطانى بك » فى بحث شئون الصحة العامة واتخاذ ما يلزم لمكافحة هذه الأمراض ، وكذلك انشاء مدرسة الطب ، واستحضار الكتب الطبية والأدوية واقامة المستشفيات وايفاد البعوث الطبية الى الخارج ، وتشجيع الأطباء والهيئات العلمية التى تفد الى مصر لمزاولة مهنة الطب[٩٥] .

كما قام محمد على بمطاردة المشعوذين والدجالين وادعياء الطب ، وكتاب الأحجبة الذين انتشروا فى البلاد .

وكذلك كان من اثر عناية محمد على بالصحة أنه أصدر أمرا بانشاء مارستان بأبى زعبل ، كما أنشأ المدارس الطبية والمستشفيات ومجلس الصحة العمومية وعمل على ردم البرك والمستنقعات وهدم الأكواخ القذرة وقفل مدابغ الجلود من وسط المدينة .

سابعا : تقييم عصر محمد علـى :

وهكذا يتضح أن محمد عليا قد نجح فى توطيد دعائم النهضة المصرية الحديثة حيث أرسى دعائم النهضة التعليمية الحديثة ، ووضع قواعد النهضة الاقتصادية ، وانشأ الحكومة المركزية بأنظمتها التى لم تعرفها مصر قبل عهده ، وبنى الجيش والأسطول بهدف الاحتفاظ بمصر وتقويتها ، والقدرة على الدفاع عنها ، وحاول اقامة دولة قوية تمتد حدودها من جبال طوروس شمالا الى اقاصى السودان جنوبا ومع ذلك فان من مثالبه أنه لم يؤمن بالحركة الشعبية التى مهدت له الوصول الى حكم مصر ، فقام بشل حركة رجال الدين فى كبح جماح الطبقة الحاكمة ، ونجح فى اشاعة روح الفرقة والنفور بينها[٩٦] . وقصر المناصب العليا على الارستقراطية العثمانية كما أنه قام باضعاف شأن طبقات الحرفيين والتجار بعد تنفيذه لنظام الاحتكار مما أدى فى نهاية الأمر الى تغلغل الرأسمالية الأجنبية داخل

البلاد ، وعدم القدرة فى السيطرة عليها ، وتزايد ارتباط المسألة المصرية بعجلة المؤثرات والدسائس التى كانت تحكيها أوربا .

يضاف الى ذلك فانه يمكن القول اذا كان الشعب المصرى قد عانى من الارهاق والمظالم المتعددة فى عصر محمد على ، فان هذه المظالم اذا قيست بالعصر الذى سبقه فاننا نجدها أخف وطأة .

وعلى كل حال فقد توفى محمد على فى الثانى من اغسطس ١٨٤٩ وخلفه حفيده عباس الأول فى الحكم .

مراجـــع الفصـــل الثـــانى

(١) للتفاصيل انظر عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القوميـــة وتطور نظام الحكم فى مصر حـ ٢ ، القاهرة ، مطبعة النهضة ، الطبعـــة الأولى ١٣٤٨هـ ١٩٢٩م ص ٣٢٨ .

(٢) الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار حـ ٣ ص ٣٥٠ .

٣ — عن تفاصيل وصول محمد على كرسى الحكم فى مصر انظر :
Dodwell, H : The Founder of Modern Egypt, A Study of Muhammad Ali, Cambride, 1932 .

(٤) محمد فؤاد شكرى : مصر فى مطلع القرن التاسع عشر حـ ١ ، القاهرة ١٩٥٨ ص ٣٣٤ .

(٥) الرافعى : المرجع السابق حـ ٢ ص ٣٧٠ — ٣٧١ .

(٦) الجبرتى : المصدر السابق حـ ٤ ، المطبعة الشرفية ١٣٢٢ هـ ص ١٩ .

(٧) شكرى : المرجع السابق حـ ٢ ص ٥٨٢ .

(٨) الجبرتى : المصدر السابق حـ ٤ ص ٤٩ .

(٩) للتفاصيل انظر :
Dodwel, H : op. cit., p. 25 — 26 .

(١٠) كريم ثابت : محمد على ، القاهرة ، مطبعة المعارف ، ١٩٤٣ ، ص ٥٣ .

(١١) للتفاصيل انظر : الجبرتى : المصدر السابق حـ ٤ ص ٦٩ .

(١٢) نفســـه ص ٢٠٦ .

(١٣) شكرى : المرجع السابق حـ ٣ ص ١٣٠٨ .

(١٤) بنى بالقلعة بعد الفتح العثمانى لمصر .

للتفاصيل انظر بول كازانوفا : تاريخ ووصف قلعة القاهرة — ترجمة أحمد دراج — القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٤ ص ١٨٦ .

(١٥) عن تفاصيل ذلك انظر :

عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق حـ ٣ ص ١٠١ — ١٠٨ .

(١٦) دار الوثائق القومية : سجلات عابدين ، سجل رقم (١) وثيقة رقم (٤٠) رسالة من محمد على الى الصدر الأعظم بتاريخ ٢٠ من ربيع الأول ١٢٢٦هـ / ٩ أبريل ١٨١١م .

(١٧) دار الوثائق القومية بالقلعة : دفتر تركى رقم (١) ترجمة الوثيقة رقم ٢٣ بتاريخ ١٦ ذى الحجة ١٢٢٤هـ رسالة من محمد على الى الدولة العليـة .

(١٨) الجبرتى : المصدر السابق حـ ٤ ص ١٤٦ تحت عنوان « واستهل شهر ذى الحجة ١٢٢٦ هـ » .

(١٩) لتفاصيل ذلك انظر مقالنا بمجلة العرب عدد شعبان ١٤١٠هـ تحت عنوان « امرأة عربية تقود الكفاح دفاعا عن الدعوة السلفية » .

(٢٠) بلدة واقعة بين الطائف وتربة ، وقد استطاعت قوات محمد محمد على احتلالها فى ٢٨ محرم ١٢٣٠هـ / ١٠ يناير ١٨١٥ بعد معركة عنيفة مع قوات الأمير فيصل بن سعود : للتفاصيل انظر الرافعى : عصر محمد على ص ١١٢ .

(٢١) داود بركات : البطل الفاتح ابراهيم وفتحه الشام ١٨٣٢ ، القاهرة ، المطبعة الرحمانية ص ٣ — ٤ .

(٢٢) للتفاصيل انظر بحثنا المعنون دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى كتابات الجبرتى ، مجلة جامعة الامام بن سعود الاسلامية العدد الأول ١٤٠٩هـ ص ٣١٠ — ٣١١ ، وانظر أيضا الجبرتى : المصدر السابق حـ ٤ ، ص ٥٤ .

(٢٣) احمد الشوابكة : حركة الجامعة الاسلامية ، الأردن ، مكتبة المنار ، الطبعة الأولى ١٤٠٤ ص ١٧ .

(٢٤) محافظ بحر برا — محفظة رقم ٦ وثيقة رقم ١٢ ، رسالة من احمد اديب كتخدا الصدارة العثمانية الى محمد على .

(٢٥) محمد فؤاد شكرى وآخران : بناء دولة مصر محمد على : القاهرة ، دار الفكر العربى ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م ص ١٥١ .

(٢٦) عبد الرحمن زكى : التاريخ الحربى لعصر محمد على الكبير ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٠ ص ٩٥ — ١٤٦ .

(٢٧) عن مدى حجم هذه القوات انظر : بيير كرابيتس : ابراهيم باشا — ترجمة محمد بدران ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٣٧ ص ٧٠ .

(٢٨) تاريخ البحرية المصرية ص ٦٣٥ — ٦٣٧ .

(٢٩) كرابيتس : المرجع السابق ص ٨١ .

(٣٠) تاريخ البحرية المصرية ص ٦٤٦ .

(٣١) عن نص شروط هذا الاتفاق انظر :

Dodwell, H. : op. cit., p. 22 .

(٣٢) الرافعى : المرجع السابق حـ ٣ ص ٢٢٩ .

(٣٣) عبد الرحمن زكى : المرجع السابق ص ٣٧٦ .

(34) Dodwell, H. : op. cit., p. 108 .

(٣٥) أسد رستم : المحفوظات الملكية المصرية — بيان بوثائق الشام المجلد الأول ١٢١٥ — ١٢٤٧هـ / ١٨١٠ — ١٨٣٢م بيروت ١٩٤٠ ص ١٢١ .

(٣٦) داود بركات : المرجع السابق ص ٧ ، ٩ .

(٣٧) سليمان عز الدين : ابراهيم باشا فى سورية ، بيروت ١٩٢٩ ص ٧٦ .

(٣٨) محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٣٤ ترجمة الوثيقة التركية رقم ١٥١ بتاريخ ٣٠ ذى الحجة ١٢٤٧هـ ، وانظر أيضا كتابنا الجيش المصرى وفتح عكا — دراسة فى ضوء وثائق عابدين .

(٣٩) جورج انطونيوس : يقظة العرب — ترجمة على حيدر الركابى ، دمشق ، ١٩٤٦ ، ص ١٣ .

(٤٠) كريم ثابت : المرجع السابق ص ٢٠٤ .

(٤١) عبد الرحمن زكى : المرجع السابق ص ٣٧٦ .

(٤٢) بيير كرابيتس : المرجع السابق — ص ٢٣١ .

(٤٣) محمد فريد : البهجة التوفيقية فى تاريخ مؤسس العائلة الخديوية القاهرة ، مطبعة بولاق ص ١٤١ .

(٤٤) محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٥٩ ترجمة الوثيقة التركية ١٦٤ — ١ بتاريخ ١١ من ربيع الآخر ١٢٥٦هـ ، وانظر أيضا كتابنا « ثورات الدروز والموارنة ضد حكم محمد على فى بلاد الشام » .

(٤٥) محمد بديع شريف وآخرون : دراسات تاريخية فى النهضة العربية الحديثة ص ٥٧١ .

(٤٦) رفاعة الطهطاوى : مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية ، القاهرة ، مطبعة الرغائب ، ١٢٣٠هـ ص ٣٧٢ .

(٤٧) أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى عصر محمد على ص ٣١ — ٣٦ وللتفاصيل انظر : عمر طوسون : البعثات العلمية فى عهد محمد على ثم فى عهدى عباس الأول وسعيد ، الاسكندرية ، مطبعة صلاح الدين ١٩٣٤م ، ومن الشخصيات الفذة التى اشتركت فى هذه البعثات رفاعه الطهطاوى الذى رافق أربعين طالبا من طلبة البعثة الى باريس عام ١٨٢٦ ليكون اماما لهم ثم فتحت باريس له عالما جديدا .

(٤٨) كان كتاب الأمير لمكيافللى Machiavelli من أوائل الكتب التى أمر محمد على بترجمتها : وقد قام بترجمته مترجم سورى هو الأب انطون رفائيل زاخورة راهبة .

(٤٩) جمال الدين الشيال : تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على القاهرة ، دار الفكر العربى ، ١٩٥١ ص ١٠ .

(٥٠) عن تفاصيل ذلك انظر عزت عبد الكريم : المرجع السابق ص ٣٧ .

(٥١) كانت هذه المدارس تسمى المبتديان وهى جمع مبتدىء فالألف والنون علامة الجمع فى التركية .

(٥٢) عزت عبد الكريم : المرجع السابق ص ٨٢ — ٨٤ .

(٥٣) كان محمد على شديد الاهتمام بأعضاء البعثات يتتبع أحوالهم ويتقصى أخبارهم ، يرسل اليهم الخطابات يحثهم فيها على الدراسة والمواظبة .

انظر : رفاعة الطهطاوى : تخليص الابريز ص ١٥١ .

(٥٤) الشيال : المرجع السابق ص ٩ .

(٥٥) عزت عبد الكريم : المرجع السابق ص ٩٣ — ١٠٣ .

(٥٦) للتفاصيل انظر : كلو تبك : لمحة عامة الى مصر حـ ٢ — ترجمة محمد مسعود ، القاهرة — مطبعة أبى المهول ص ٦٢٧ — ٦٢٨ ، وانظر أيضا :

Bowring : Report on Egypt and Candia, London 1840 p. 140.

(٥٧) كلوت بك : المرجع السابق حـ ٢ ص ٦٣٧ .

(٥٨) للتفاصيل انظر : أحمد عزت عبد الكريم : المرجع السابق ص ٩٦ — ١٠٣ .

(٥٩) أمين سامى : تقويم النيل وعصر محمد على حـ ٢ ، القاهرة دار الكتب المصرية ، ١٣٤٦هـ / ١٩٢٨م ص ٤٧٢ — ٤٧٣ .

(٦٠) الجبرتى : المصدر السابق ج ٤ ص ٢٧٢ .

(٦١) عزت عبد الكريم : المرجع السابق ص ٣٦٧ — ٣٦٨ .

(٦٢) جمال الدين الشيال : المرجع السابق ص ٢٨ .

(٦٣) ذكر محمد على فى حديث له مع الدكتور بورنج Bowring بأن أحد من يثق فيهم من الأوربيين نصحه بأنه اذا أراد ان يصبح رجلا عظيما فيجب عليه قراءة التاريخ ليتعلم منه فنون الحكم

Bowring : Report on Egypt and Candia p. 145 .

(٦٤) الخطط التوفيقية ج ٣ ص ٥٤ — ٥٥ .

(٦٥) لا يزال هذا الكتاب مخطوطا فى دار الكتب المصرية تحت رقم ٤٣٥ .

(٦٦) الشيال : المرجع السابق ص ٤٤ .

(٦٧) عزت عبد الكريم : المرجع السابق ص ٤٧٨ — ٤٧٩ .

(٦٨) عزت عبد الكريم : المرجع السابق صفحات ١٢٣ — ١٢٤ ، ١٢٩ .

(٦٩) لتفاصيل ذلك انظر الجبرتى : المصدر السابق : حوادث ٢٥ شعبان ١٢٣١ هـ .

(٧٠) محمد فؤاد شكرى وآخران : المرجع السابق ص ١٤٩ .

(٧١) الرافعى : عصر محمد على ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ص ٣٨٠ .

(٧٢) شكرى : المرجع السابق ص ١٥١ .

(٧٣) عزت عبد الكريم : المرجع السابق ص ٣٧ .

(٧٤) الرافعى : المرجع السابق ص ٤٦٤ .

(٧٥) عن تفاصيل ذلك انظر عمر طوسون : البعثات العلمية فى عهد محمد على ثم فى عهد عباس الأول وسعيد ص ١٧٥ وما بعدها .

(٧٦) شكرى : المرجع السابق ص ١٣١ .

(٧٧) الجبرتى : المصدر السابق جـ ٤ القاهرة ، المطبعة الشرفية ١٣٢٢ هـ ص ١٠٩ .

(٧٨) نخبة من أساتذة جامعة الاسكندرية : تاريخ البحرية المصرية فى العصر الحديث ، الاهرام التجارية ، ١٩٧٠ ص ٦١٠ .

(٧٩) قائد بحرى برز اسمه فى تاريخ البحرية المصرية للتفاصيل انظر : جميل خانكى : تاريخ البحرية المصرية ، القاهرة ، السلاح الملكى، ١٩٤٨ ص ٤٢٧ .

(٨٠) الرافعى : المرجع السابق ص ٤٢٧ .

(٨١) للتفاصيل انظر كتابنا الجيش المصرى وفتح عكا .

(٨٢) عن تفاصيل ذلك النظام انظر :

Gibb and Bowen : Islamic Society and the West. pp. 172 - 173 .

ومن المعروف أن الملتزم كان يلتزم بجباية الضرائب من الاهالى فى نظير أن يدفع للحكومة المال المحدد لسنة واحدة مقدما عن دائرة التزامه ثم يصبح حر التصرف فى دائرة التزامه فيستبد بالفلاحين كما يشاء ، وقد الغى محمد على هذا النظام وقام بتعويض الملتزمين باقطاعهم « أطيان الوسية » .

(٨٣) محمد أحمد الحته : تاريخ الزراعة المصرية فى عهد محمد على الكبير ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٥٠ ص ١٠٥ .

(٨٤) كريم ثابت : المرجع السابق ص ٨١ .

(٨٥) تراوحت الضريبة على الفدان ما بين أربعة قروش ونصف على الاقل وتسعة واربعون على الأكثر ثم عدلت هذه الضرائب بعد ذلك بغرض زيادتها .

(٨٦) الرافعى : عصر محمد على ص ٦٣٦ — ٦٣٧ .

(٨٧) على الجريتلى : تاريخ الصناعة فى مصر ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٢ ص ٣٥ .

(٨٨) للتفاصيل انظر : شكرى : المرجع السابق ص ٨١ — ٨٤ .

(٨٩) الرافعى : عصر محمد على ص ٥٩٧ .

(٩٠) أمين عفيفى مصطفى : تاريخ مصر الاقتصادى والمالى ، القاهرة الانجلو المصرية ، ١٩٥١ ص ٨٩ .

(٩١) أمين عفيفى : المرجع السابق ص ٩٥ .

(٩٢) محمد فؤاد شكرى وآخران : المرجع السابق ص ٤٧ .

(٩٣) نسبة الى السلطان محمد الثانى .

(٩٤) شكرى : المرجع السابق ص ٥٨ — ٥٩ .

(٩٥) شكرى : المرجع السابق ص ٨٨ .

(٩٦) للتفاصيل انظر الجبرتى : المصدر السابق جـ ٤ ص ٦٩ .

الفصل الثالث

عصر خلفاء محمد على

* عصر عباس الأول ١٨٤٨ — ١٨٥٤
* عصر سعيد ١٨٥٤ — ١٨٦٣
* عصر اسماعيل ١٨٦٣ — ١٨٧٩

عباس باشا وعصره ١٨٤٨ ـ ١٨٥٤

نص فرمان الوراثة فى أسرة محمد على أن وراثة العرش تكون لأكبر أفراد سلالة محمد على ، ومع أن مؤسس الأسرة كان يرغب فى أن يتولى ابنه ابراهيم الحكم من بعده فقد توفى ابراهيم فى حياة أبيه[١] مما أدى الى انتقال حكم مصر الى عباس باشا حفيد محمد على[٢] فى ٢٤ نوفمبر ١٨٤٨ . ويعتبر عصر عباس الأول عهد رجعية ففيه أوقفت حركة التقدم والنهضة التى تبناها محمد على ولهذا يجمع مؤرخو عصره على وصفه بالجمود والرجعية والاستبداد والتقلب .

فيرى كرابيتس أن عصر عباس كان « مزيجا من الجهل والجبن والتعصب » وان عباسا كان « كثير التقلب متأخرا رجعيا ، يكره الأساليب الأوربية وكل ما هو غربى »[٣] ، ويرى انجلو ساماركو Sammarco أن أكثر ما تتسم به ادارة عباس هو العداء الوحشى للحضارة الأوربية وكرهه الشديد لانجازات جده محمد على[٤] .

ويرى الرافعى انه كان شاذا وفيه ميل الى القسوة ، وسوء الظن بالناس والعزلة[٥] .

والى جانب ذلك فقد وصف الدكتور عزت عبد الكريم سيرته فى الاصلاح الداخلى بأنها كانت فشلا متصلا[٦] .

وعلى أى حال فقد كان عباس الأول يفضل أن يعيش فى عزلة عن الناس ، ولا يرغب فى أن يراه أحد ، لذلك كان يقيم فى قصور حصينة بعيدة عن الأنظار فى الصحراء أو فى سواحل البحر وحوله العديد من عبيده ومجموعة من الوحوش الضارية التى كان يلهو بجمعها وترويضها[٧] فقد بنى قصرا بالعباسية وكانت اذ ذاك فى جوف الصحراء ، وقصورا أخرى فى أماكن نائية[٨] .

وقد انتشرت الجاسوسية فى عهده انتشارا كبيرا لدرجة ان الشخص كان لا يأمن على نفسه حتى من أقرب المقربين اليه ، وخاصة وان النفى الى السودان كان من الأمور المألوفة فى ذلك الوقت[٩] .

والى جانب ذلك فقد فرض عباس باشا القيود على الأجانب المقيمين فى مصر وتخلص ممن كان يعمل منهم فى المصالح والمؤسسات الحكومية وأغلق معظم المدارس الخصوصية ومنها مدرسة الألسن ونقل اساتذتها الى السودان ، واستدعى معظم أعضاء البعثات الذين كانوا يتلقون العلم فى الخارج كما أغلق المصانع والمعامل بحجة الاقتصاد فى النفقات ، وساءت حالة الجيش والبحرية ومعظم شئون العمران .

أما عن أهم أعماله التى تحققت خلال حكمه فكانت اصلاح الطريق بين القاهرة والسويس ، ومد السكة الحديدية من الاسكندرية الى القاهرة فى عام ١٨٥٢ ، هذا الى جانب اهتمامه بالأمن وقطع دابر قطاع الطرق والأشقياء ، والاهتمام ببناء الاستحكامات الحربية وانشاء الطرق الحربية ، ومد الخطوط التلغرافية .

كما وضع حجر الأساس الأول لمسجد السيدة زينب بالقاهرة [١٠] وفى عهده اشترك الجيش المصرى فى حرب القرم التى أبلى المصريون فيها بلاء حسنا ، واستطاعوا صد هجمات الروس .

ومما يذكره التاريخ لعباس الأول انه لم يفتح على مصر أبواب التدخل الأجنبى ، ولم يمد يده للاستدانة منهم كما فعل سلفيه سعيد واسماعيل بعد ذلك .

ولم يستمر حكم عباس الأول طويلا حيث لم يزد على خمس سنوات . وتتعدد الأقاويل حول وفاة عباس الأول وان كان الرأى الشائع هو أن أحد أقربائه[١١] أرسل اليه من الأستانة اثنين من عبيده انقضا عليه هو نائم وخنقاه فى شوال ١٢٧٠هـ / ١٤ من يوليو ١٨٥٤ وبعدها تلقى « ألفى بك » محافظ القاهرة دعوة فجائية للاسراع ليلا الى قصر بنها الكائن على بعد عشرين ميلا من القاهرة ، حيث وقع الحادث . فأصدر أوامر

مشددة بألا يذيع أحد خبر وفاة عباس . كما أمر باحضار المركبة الرسمية الى مدخل القصر الخاص ووضع فيها بمساعدة رئيس الخصيان جثة الميت جالسة كما يجلس الحى ، وجلس هو مواجها لها بحسب العادة . ثم سارت بهما المركبة عشرين ميلا الى القاهرة يحيط بهما الحرس بالأبهة المعتادة ووصلا الى القاهرة دون أن يدرى أحد بالحقيقة ، ولم يكن ذلك مستغربا اذا تذكرنا أن عباسا أعتاد أن يسير فى طريقة لا يلتفت يمنه ولا يسره . ولما وصل الموكب الى القلعة أمر « الفى بك » بتصويب مدافعها الى مدينة القاهرة ، وكانت تحرسها حامية قوية ، ثم أعلن الحقيقة للأهالى وقال انه سوف ينادى بالبرنس الهامى نجل عباس حاكما على مصر ، ولم يعبء بحقوق سعيد باشا[١٢] ، ولما كان الهامى وقتذاك فى أوربا ، فقد تم استدعاؤه لتولى الحكم .

ونظرا لأن فرمان الوراثة يحتم أن يتولى أمور الحكم سعيد باشا ابن محمد على وليس الأمير الهامى الابن الأكبر لعباس باشا فان الفشل ما لبث أن أحاط بهذه الفكرة وخاصة وان ممثل انجلترا فى مصر قد تدخل فى الأمر ونصح بتنصيب الوارث الشرعى بلا ابطاء .

ومما سبق يتضح أن مصر فى عصر عباس الأول قد تردى بها الحال الى درجات سحيقة من السوء ، ويكفى أن نذكر أن عباسا قضى على مشروعات محمد على الاصلاحية الا ما ندر ، وان عصره تميز بالقسوة وايقاع الظلم بالأهالى حتى جاء عصر سعيد باشا فتغيرت الأمور الى حد كبير .

سعيد باشا وعصره ١٨٥٤ ـ ١٨٦٣م

اشتهر سعيد باشا ابن محمد على برحابه الصدر والعطف على الأوربيين كما امتاز بقدر كبير من النشاط والمهارة والقدرة على ادارة البلاد وكثيرا ما اقتبس عادات الأوربيين وآدابهم الا انه كان يفضل عادة تعدد الأزواج على الاقتصار على زوجة واحدة وكان يتكلم الفرنسية بطلاقة ، ومن رفاق صباه فردينان ديلسبس[١٣] .

والى جانب ذلك يتميز عصر سعيد بظهور وطنية جديدة بأن نعتبرها من بواكير الحركة القومية فى تاريخ مصر الحديث ، وساعد على ذلك ميزل سعيد الوطنية ورغبته فى تحرير المصريين من المظالم الواقعة على كواهلهم وتخفيف عبء الضرائب المفروضة عليهم ، وتشجيعهم على تقلد المناصب الكبرى سواء فى الجيش او فى الادارة وعن ذلك يذكر أحمد عرابى وهو أحد شهود العيان فى ذلك الوقت أن نزعة سعيد باشا الوطنية برزت فى خطبة له القاها فى حفل جمع كثيرا من كبراء القوم حيث قال « وحيث اننى أعتبر نفسى مصريا فوجب على أن أربى أبناء هذا الشعب واهذبه تهذيبا حتى اجعله صالحا لأن يخدم بلاده خدمة صحيحة نافعة ، ويستغنى بنفسه عن الأجانب وقد وطدت نفسى على ابراز هذا الرأى من الفكر الى العمل » ويقول عرابى « لما انتهت الخطبة خرج المدعوون من الأمراء والعظماء غاضبين حانقين مشدوهين مما سمعوا ، وأما المصريون فخرجوا ووجوههم تتهلل فرحا استبشارا »[١٥] .

وقد بذل سعيد باشا جهودا ملحوظة لاصلاح احوال الفلاحين فسمح لهم بحق الملكية العقارية للأراضى الزراعية ، وأصدر لهذا الغرض قانونه المعروف باللائحة السعيدية[١٦] ، كما الغى نظام احتكار الحاصلات الزراعية فصار للفلاح حرية التصرف فى حاصلاته وحرية اختيار انواع المزروعات التى يرغب فى زراعتها وخفف عن الأهالى عبء الضرائب واعفاهم من المتأخرات القديمة عليهم ، واهتم بتطهير ترعة المحمودية ، وانشأ الخطوط التلغرافية ، ومد الخط الحديدى بين القاهرة والسويس واهتم بترقية شئون الجيش ، وقلل مدة الخدمة العسكرية ثم عممها بين كافة الشبان

بحيث يذهب الى الجندية أبناء المشايخ والعمد واقاربهم كسائر أبناء الفلاحين ، وكان سعيد باشا ميالا الى ترقية الضباط المصريين واعطائهم حقهم فى التقدم وفى عهده ارتقى انكثيرون منهم الى الرتب العسكرية العالية ومن هؤلاء أحمد عرابى . كما وجه سعيد باشا جل اهتمامه الى ترقية شأن الأسطول المصرى ، ولكن الدول الأوربية وقفت حجر عثرة أمامه مما أدى الى اضمحلال البحرية المصرية فى عهده(١٧) .

وفى عهده اشتركت مصر فى حربين هما حرب القرم التى استمرت بعد وفاة عباس الأول ، وأرسل سعيد باشا نجدات الى الجيش المصرى خلالها حتى تم انتصار الدولة العثمانية على الروسيا وابرام معاهدة الصلح فى عام ١٨٥٦ فى مؤتمر باريس الذى سلمت فيه الروسيا بمطالب العثمانيين ، أما عن الحرب الثانية فكانت حرب المكسيك وموضوعها انه نتيجة لاصرار نابليون الثالث على عدم الجلاء عن المكسيك بعد صدور مبدأ مونرو ، كان الصعوبة التى تواجهه هى أن جنوده لا يستطيعون احتمال جو المكسيك حيث كانت الحمى الصفراء تحصدهم حصدا ، ونتيجة لذلك سعى لدى صديقه سعيد باشا بأن يقدم القوات اللازمة لحرب المكسيك . وبعد موافقة سعيد باشا على اشراك مصر فى هذه الحرب التى ليس لها فيها لا ناقة ولا جمل ، غادرت حملة مؤلفة من أربعمائة وخمسين جنديا(١٨) ميناء الاسكندرية فى ٢٨ ديسمبر ١٨٦٢ على ظهر بارجة حربية فرنسية الى المكسيك ، وقد أبلت هذه القوات بلاء حسنا حتى فنى معظم رجالها ، واضطر الجيش الفرنسى الى الجلاء عن المكسيك .

وهكذا ورط سعيد باشا بلاده فى حرب طاحنة فى بلاد نائية ليس فيها مصلحة على الاطلاق اذ لم يكن معقولا أن بلاد المكسيك تهم مصر بأى شكل من الأشكال .

وعلى كل حال فقد عاد من تبقى من هذه المجموعة الى مصر فى مايو ١٨٦٧ حيث كان الخديو اسماعيل قد تولى زمام الأمور ومما يؤخذ على سعيد باشا ثقته المفرطة بالأجانب بحيث لم يكن يقوى على أن يخالف لهم رأيا أو يرد لهم طلبا مما شجع على فتح الثغرات أمام التدخل الأجنبى وكانت أهم هذه الثغرات امتياز قناة السويس والاستدانة من البيوت المالية الأوربية .

ويرجع موضوع امتياز قناة السويس الى أن سعيد باشا كان مولعا بأكل المكرونة ، وانه أثناء تواجده بفرنسا لاتمام تعليمه التقى بالشاب فرديناند دلسبس واستحكمت عرى المودة بينهما وخاصة وان كل منهما كان مغرما بالتهام قصاع المكرونة .

وخلال ذلك لم يخطر ببال دلسبس أن صداقته للأمير سعيد ستحدث انقلابا هاما فى طرق التجارة العالمية ، ولكن الفرصة واتته بعد أن علم بوفاة عباس باشا وارتقاء سعيد العرش ، فأرسل الى صديقه سعيد يهنئه بارتقاء العرش ، فاستدعاه الى مصر فوصل الى الاسكندرية فى الخامس من نوفمبر ١٨٥٤م وفى جيبه مذكرة توضيحية عن فكرته لحفر قناة السويس[١٩] ، وقد قابله الباشا بحفاوة كبيرة ثم اصطحبه معه فى رحلة من الاسكندرية الى الصحراء الغربية كان يقودها بصحبة جيش مؤلف من عشرة آلاف جندى[٢٠] وفى هذه المرحلة بدأ جنود سعيد باشا يتمرنون على اطلاق النار على أهداف تبعد حوالى خمسمائة متر ، ولكن لم يستطيع أحد منهم اصابة الهدف وعندئذ أخذ ديلسبس يشرح لهم الأخطاء التى أبعدتهم عن تسديد الهدف فاستهوى لب سعيد بحديثه .

ولما طلب منه سعيد باشا اثبات مهارته أصاب رميته ، والى جانب ذلك استطاع دلسبس اثبات مهارته فى الفروسية أمام الباشا مما زاد من اعجابه بشجاعته ، وقد انتهز دلسبس هذه الفرصة وبسط عليه مشروعه ، فوافق عليه ووعد بمساندته وتحقيقه ، ووقع على مرسوم الامتياز اللازم لهذا المشروع فى ٣٠ نوفمبر ١٨٥٤[٢١] ، والذى يقضى بمنح دلسبس امتياز شركة عامة لحفر قناة السويس واستثمارها لمدة ٩٩ سنة ابتداء من تاريخ افتتاحها وقد صدر المرسوم بالكلمات الآتية « حيث ان صديقنا المسيو فرديناند ديلسبس قد وجه نظرنا الى الفائدة التى سوف تعود على مصر من توصيل البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر بترعة مائية تستطيع السفن اجتيازها ، ولما كان حضرته قد أعلمنا بأن فى الامكان انشاء شركة مالية لهذا الغرض يكون أعضاؤها رجالا ماليين من جميع الأمم ، فقد نظرنا الى الاقتراح الذى عرضه صديقنا بعين العطف وخولناه بموجب هذه الوثيقة السلطة التامة لتأليف شركة عامة لخرق برزخ السويس»[٢٢] .

والجدير بالذكر أن هذا المشروع لم يكتمل فى عهد سعيد بل انتهى فى عهد اسماعيل(٢٣) .

أما عن لجوء سعيد باشا الى الاستدانة من البنوك الأوربية فانه نظرا لأن سعيد باشا كان يميل الى الانفاق والتبذير على قصوره ، ومعيشته الخاصة ، فقد أرهق ميزانية البلاد ، واضطر فى النهاية الى الالتجاء للمرابين الأوربيين والاقتراض منهم مما أدى الى نذير من الكوارث والأحداث السياسية التى أصابت البلاد فيما بعد وأدت الى فتح باب التدخل الأجنبى .

ومع أن الآراء قد اختلفت فى احصاء ديون سعيد باشا ، فان الرأى الراجح أن القروض الثابتة قد وصلت الى ٣٫٢٩٢٫٣٠٠ جنيها استرلينيا . وقد استمر سعيد باشا فى الحكم حوالى ثمان سنوات وتسعة أشهر حتى أدركته المنية وله من العمر اثنتان واربعون عاما(٢٤) .

وهكذا توفى سعيد بعد أن أورث خلفه شعبا موثق اليدين والقدمين بمشروع ترعة السويس وبلادا الى الجنوب كانت النخاسة فيها رائجة ، وسياسة خارجية قد أملتها باريس ، وديونا تكاد تبهظ عاتق البلاد ، وياليت ذلك النزيف قد توقف بوفاة سعيد ، بل استمر وزداد فى عصر خلفه اسماعيل .

عصر اسماعيل ١٨٦٣ ـ ١٨٧٩

ارتقى اسماعيل باشا بن ابراهيم بن محمد على عرش مصر فى الثامن عشر من يناير ١٨٦٣ وهو فى الثالثة والثلاثين من عمره(٢٥) ، ويعد بذلك الحاكم الخامس من أسرة محمد على لمصر .

وقد اختلف المؤرخون وشهود العيان فى حكمهم عليه وعلى عصره فمنهم من حكم عليه أحكاما قاسية أمثال ملنر وكرومر وكولفن والجود ودى فريسينية وزيتلند وغيرهم فوصفه ملنر Milner بأنه المثل الكامل للتبذير وأعظم من عرف فى التاريخ بالسفه مع عدم الاكتراث بالعواقب مما أدى الى الاندفاع بالبلاد فى طريق الخراب اندفاعا سريعا وبأنه « لم تكن له مبادىء يصدر عنها أفعاله بل كانت له أعمال جنونية تمتاز

بأنها تشبه فى ضخامتها الأهرامات أو معبد الكرنك »[٣٦] ووصف زيتلند Zetland حكمه بأنه كان مليئا بالشرور والمساوىء[٣٧] .

وقال عن فارمان انه فتح الباب على مصراعيه للأجانب وعقد قروضا فاحشة مع البيوت المالية الأجنبية[٣٨] ومنهم من انصفه ووصفه بحب العمل والنشاط فقال المستر ليون قنصل الولايات المتحدة والذى أقام سنوات عديدة بمصر « ان الخديوى رجلا كثير العمل يشرف على كل كبيرة وصغيرة وانه كان يستيقظ مبكرا فى الصباح ويسهر على شئون الدولة[٣٩] ، وقال القاضى الأمريكى كرابيتس انه عمل على تحسين أحوال الفلاح المصرى[٣٠] وعمل على محاربة النخاسة ، وحبب الأوربيين فى سكنى الديار المصرية ، وقال جون مارلو انه كان يجهد نفسه عادة فى العمل فيعقد المقابلات مع رجال المال ، ويتفاوض مع الدبلوماسيين ويرسل التعلميات الى رجاله لجباية الأموال من الفلاحين ، وانه كان يعتبر الحفلات والولائم عملا من أعمال العلاقات العامة بالدرجة الأولى للحصول على تأييد أوربا فى مفاوضاته مع الدولة العثمانية من أجل مزيد من الاستقلال[٣١] .

والى جانب ذلك فهناك من قال انه كان لاسماعيل باشا طبيعيتين متناقضتين ، فهو وان لم يكن كسولا فقد كان محبا للترف والانغماس فى الملذات .

ولتوضيح هذه الآراء واثبات مدى صحتها من عدمه سنعرض لعصر اسماعيل بما فيه من مثالب ومشارب وسنخص بالذكر علاقته مع الدولة العثمانية ومع الدول الأوربية ، وأحوال مصر العمرانية والعلمية فى عصره والأزمة المالية وما أعقبها من تطورات .

أولا — اسماعيل والدولة العثمانية :

بعد أن تولى اسماعيل أريكة الحكم فى مصر حاول توسيع نطاق استقلالها عن الدولة العثمانية ، وازالة القيود التى فرضتها معاهدة لندن ١٨٤٠ وفرمان ١٨٤١ . وذلك عن طريق قوة المال وليس قوة السيف كما فعل جده محمد على ، وقد استغل اسماعيل فى ذلك ضيق أحوال الدولة العثمانية المالية ورغبة السلطان فى الحصول على الأموال فراح

ينفق مئات الألوف من الجنيهات فى الآستانة عن طريق مندوبه ابراهام بك الأرمنى ليحصل على الفرمانات التى تحقق رغبته فى توسيع نطاق الاستقلال وتغيير نظام الوراثة لصالح أولاده ويقوم بسد أبــواب الدسائس ضده هناك[٣٢] كما بدأ بالتودد الى السلطان عبد العزيز ورجال حكومته بزيارته للآستانة لتقديم فروض الولاء ودعوته الى السلطان بزيارة مصر[٣٣] .

وقد استغل اسماعيل فرصة زيارة السلطان لمصر فى ابريل ١٨٦٣ ، وحاول الحصول على مزايا جديدة لحكمه ولمـــا كان يدرك أن الحكومـــة العثمانية لا تصدر فرمانا الا فى مقابل الأموا لالطائلة والهدايا غمر السلطان وحاشيته بالهدايا والتحف الفاخرة حتى ملأ بها سفينة بأكملها ، ثم دارت بعد ذلك مفاوضات سرية بينه وبين السلطان حول تعديل نظام توارث العرش فى مصر بحيث يؤول العرش لأكبر أنجاله بدلا من أكبر أفراد الأسرة العلوية ، وقد اشترط السلطان العثمانى زيادة الأموال المخصصـــة للاستانة من ٤٠٠ ألف جنيه عثمانى الى ٧٥٠ ألفا مقابل هذا التعديل ، وبعد أن رحب الباشا بذلك الشرط صدر فرمان ١٢ محرم ١٢٨٣هـ / ٢٧ مايو ١٨٦٦ القاضى بجعل ولاية مصر وملحقاتها وراثية فى أكبـــر أبناء الوالى الجالس عـــلى العرش ونص الفرمان على امكانية زيادة عدد الجيش الى ٣٠ ألف رجل ، وتشكيل مجلس وصاية ، واقرار حق الحكومة المصرية فى سك النقود ، ومنح الرتب المدنية لغاية الرتبة الثانيـــة[٣٤] .

وقد تبع ذلك صدور ارادة سلطانية فى الخامس من صفر ١٢٨٤هـ الموافق الثامن من يونيو ١٨٦٧ بالانعام عـــلى اسماعيل باشا وخلفائه بلقب خديو[٣٥] حتى يتميز مقامه عن مقام سائر الولاة العثمانيين ، ويعد اسماعيل باشا أول وال عثمانى ينال هذا اللقب . وقد منح هذا الفرمان خديو مصر حق اعلان التنظيمات الخاصة بادارة البلاد ، وعقد الاتفاقيات مـــع الدول الأجنبية بشأن الجمارك والبريد والنقل وغيرها على الا تتخذ طابع المعاهدات الدوليـــة وهذا يعنى منح مصر حقوقا كاملة فى التفاوض الاقتصـــادى فى الدول الأجنبيـــة[٣٦] .

ولم تستمر علاقة الخديو بالدولة العثمانية على هذا النحو من الود والصفاء طويلا فسرعان ما اعتراها الفتـــور والعداء خاصـــة فى عـــامى

١٨٦٩ — ١٨٧٠ ذلك ان دعوة اسماعيل لملوك أوربا بمناسبة افتتاح قناة السويس قد أقلقت الباب العالى الذى كان يخشى من جنوح اسماعيل نحو الاستقلال[٣٧] ولكن ذلك لم يستمر طويلا حيث نجحت هدايا اسماعيل الى استنبول فى تقريب وجهات النظر بين الطرفين . ولما ازدادت حاجة الخديو الى معاضدة الدولة له قصد الأستانة فى صيف ١٨٧٢ بصحبة اسماعيل صديق وزير المالية ونوبار باشا وزير الخارجية ، وخلال ذلك تمكن اسماعيل من استصدار فرمان سلطانى يخوله صراحة حق الاستدانة من الخارج ، وقد شجعه الحصول على هذا الفرمان القيام بزيارة ثانية للأستانة فى صيف ١٨٧٣ حصل خلالها على فرمان جامع للمزايا التى نالتها مصر منذ عصر محمد على الى عهده .

وقد صدر هذا الفرمان الجامع فى الثامن من يونيو ١٨٧٣م وبمقتضاه حصلت مصر على حقوقها الكاملة فى الاستقلال التام باعتبارها دولة وليست مجرد ولاية ، واكد استمرار سلطة الخديوى على سواكن ومصوع وحقه فى عقد المعاهدات والاتفاقيات فى المجال الاقتصادى ، زيادة عدد الجيش ، ومنح الترقيات حتى رتبة عقيد[٣٨] .

ثانيا — اسماعيل والدول الأوربية :

انحصرت سياسة الخديو تجاه الدول الأوربية فى العمل على كسب رضاها واظهار حسن النوايا تجاهها فسعى الى كسب ود فرنسا بهدف معاضدتها له ومساندتها لسياسته كما سعى للوفاق مع بريطانيا التى لم تكن مرتاحة لتغلغل النفوذ الفرنسى فى مصر فى عهد سعيد[٣٩] واتجه الى الولايات المتحدة للاستفادة من خبراتها العسكرية فى تنظيم جيشه وتدريبه .

وقد أدت هذه السياسة الى تعاظم النفوذ الأوربى فى البلاد ، وفتح أبوابها على مصراعيها لتغلغل الأجانب فى مرافقها ، كما أدت فى النهاية الى شل سلطة الخديو وتصدع بناء الاستقلال المالى والسياسى الذى حققته مصر منذ عصر محمد على[٤٠] .

ثالثا — أحوال مصر العمرانية والعلمية فى عصر اسماعيل :

صاحب عصر الخديو اسماعيل جهودا كبيرة فى الأعمال العمرانية والعلمية فانتعشت حركة البناء فى القاهرة والاسكندرية ، وازدهرت النهضة العلمية والفنية والزراعية والصناعية وغيرها وفيما يلى نعرض لذلك :

١ — النهضة العمرانية :

انتعشت حركة البناء فى القاهرة والاسكندرية ففى الاسكندرية ظهرت فى الرمل شرقى المدينة ضاحية جميلة مليئة بالحدائق يسكنها كبار المضاربين فى القطن من الأوربيين بصفة خاصة ، وفى القاهرة ظهر حى كبير آخر على الطراز الأوربى وهو حى الاسماعيلية ويقع بين حديقة الأزبكية والنيل ، وكان يتكون من منازل خاصة ذات حدائق كبيرة ، ومن فنادق ومحلات ومكاتب على جانبى شوارع واسعة ممهدة مزروعة تحف بها الاشجار ، وكانت الحكومة تشجع حركة البناء هذه بمنح سخية من الأرض للأفراد الذين يتعهدون بتجديدها بشكل مناسب ، كما بنيت قصور كبيرة مثل قصر عابدين ، وقصر النيل والجزيرة كذلك بنيت دار الأوبرا على الطراز الفرنسى[٤١] .

٢ — تطور الحياة النيابية :

كون اسماعيل مجلسا لشورى النواب فى مصر حتى يعطى للعالم الأوربى صورة عن رغبته فى مسايرة الحياة البرلمانية فى أوربا .

ومع أن ممثلى المجلس لم تكن لديهم الصلاحيات والحصانة التى تؤهلهم للتعبير عن شئون مواطنيهم فقد بدأ المجلس يتحدث عن حدود سلطة الخديو ، وحدود سلطة نوبار ، ويتألم للتدخل الأجنبى فى شئون البلاد ويتطرق الى أهمية السيادة الاسمية للدولة العثمانية على مصر .

وقد ساير الخديو هذه التيارات الوطنية ، واستطاع ان يحولها ضد التدخل الأجنبى فى شئون البلاد فى بعض الأوقات[٤٢] .

٣ — النهضة العلمية والأدبية :

تميز عصر اسماعيل على قصره بتعدد نواحيه ، وتنوع اتجاهاته ، فأخذت النهضة العلمية والأدبية تتفتح وتزدهر ، كما حفلت بجمهرة من الأدباء والكتاب والصحفيين ، وفيما يلى نعرض لذلك :

(أ) التعليم :

نال التعليم فى عصر اسماعيل اهتماما كبيرا وخاصة أنه تولى الحكم ومعظم المدارس التى أنشأها محمد على كانت مغلقة ، فأعاد اليها النشاط ، وأعاد تأليف ديوان المدارس كما وجه همته الى انشاء العديد من المدارس والتى من أبرزها مدرسة الحقوق ومدرسة دار العلوم[٤٣] وكان عماد هذه النهضة ورأسها المدبر على باشا مبارك ، ومن أبرز الأعمال التى أسندت الى على مبارك فى عصر اسماعيل كانت نظارة القناطر الخيرية ووزارة المعارف والأشغال والأوقاف ، أما عن أجل المنشئات الذى ساهم فيها على مبارك بفكره وعلمه فكانت دار الكتب فى عام ١٨٧٠ وفتحها أمام طلاب العلم والمعرفة ، وانشاء دار العلوم فى عام ١٨٧٢ لتخريج أساتذة للغة العربية ، وانشاء مجلة روضة المدارس .

(ب) الصحافة :

ارتكزت الصحافة المصرية حتى نهاية عصر سعيد فى جريدة الوقائع المصرية ، ثم أخذت الصحافة الشعبية تخطو خطواتها الأولى بوصول اسماعيل الى أريكة الخديوية فأنشأ الدكتور محمد على البقلى والشيخ ابراهيم الدسوقى مجلة اليعسوب الطبية فى عام ١٨٦٥ ، وانشأ الشاعر عبد الله أبو السعود جريدة وادى النيل الأدبية السياسية الاخبارية فى عام ١٨٦٧ ، وأنشأ ابراهيم المويلحى ومحمد عثمان جلال جريدة « نزهة الأفكار » فى عام ١٨٦٩ ، وفى عام ١٨٧٠ ظهرت روضة المدارس التى أنشأها على باشا مبارك .

وانشأ الأديب اللبنانى سليم الحموى « الكوكب الشرقى » فى عام ١٨٧٣ ومجلة « الاسكندرية » فى عام ١٨٧٨ .

كما صدرت جريدة الأهرام فى عام ١٨٧٦ وفى عام ١٨٧٧ ظهرت جريدة الوطن ، وجريدة مصر و فى عام ١٨٧٨ أنشأ أديب اسحق وسليم النقاش جريدة التجارة ، و فى نفس هذا العام ظهرت مجلة « أبو نضارة » ليعقوب صنوع اليهودى المصرى والتى كان يسميها أحيانا بأسماء مختلفة مثل « أبو زمارة » و « أبو صفارة » و « الحاوى » يضاف الى ذلك انه كان يصدر فى عصر اسماعيل عدة صحف أجنبية فى مقدمتها « الفار السكندرى Le Phared Aexandrie التى انشئت بالاسكندرية فى عام ١٨٧٤ وجريدة البروجريه اجبسيان Le Progrés Egyptien وغيرها .

وهكذا يتضح تطور الحركة الصحفية فى عصر اسماعيل بشكل كبير ، مما كان لها أكبر الأثر فى تنوير الرأى العام المصرى ، وتحضيره لمرحلة جديدة خصوصا وان المصريين بداوا يتكلمون بصراحة فى شئون بلادهم .

وفى عهد اسماعيل أيضا تقدمت الطباعة ، وتأسست الجمعيات العلمية والأدبية وتزايد عددها ، ونشط الأدب والشعر وحركة التأليف والترجمة والنشر هذا الى جانب تأسيس مجلس شورى النواب فى عام ١٨٦٦ ، كل ذلك كان له أثره فى تقدم الحياة الاجتماعية والسياسية والوطنية[٤٤] .

(د) النهضة الفنية :

اهتم الخديو اسماعيل بالحياة الفنية فى مصر اهتماما بالغا وبخاصة التمثيل والموسيقى والغناء . وفيما يلى نعرض لذلك :

اولا — التمثيل :

أمر الخديو بانشاء أول مسرح بالقاهرة وهو المسرح الكوميدى بالأزبكية فى عام ١٨٦٨ وبنى دار الأوبرا فى عام ١٨٦٩ لمناسبة الاحتفال بافتتاح قناة السويس[٤٥] والتى مثلت عليها أوبرا عايدة للموسيقى الايطالى « فردى » ثم أمر بانشاء مسرح زيزينيا بالاسكندرية وقد ساعد على انعكاس هذه النهضة وفود العديد من الفرق المسرحية والممثين

الشوام من سورية الى مصر وبخاصة فرق « يوسف خياط » و « سليم النقاش » و « أديب اسحق » التى مثلت العديد من المسرحيات على مسرح زيزينيا .

ثانيا ــ الموسيقى والغناء :

نظرا لرغبة الخديو فى سماع الطرب وحب المسرات ولميل المجتمع المصرى الى روح الطرب والمرح فقد سرت روح التجديد فى الموسيقى والغناء . ومن أشهر المطربين فى ذلك الوقت عبده الحمولى الذى أخذت شهرته تنتشر فى كافة الأوساط وخاصة بعد أن ابتكر أساليب جديدة فى الغناء اتفقت مع روح عصره مما جعله ينال اعجاب أهل الفن وعشاق الطرب ، وبعد أن وصلت شهرته الى الخديو اسماعيل ألحقه بمعيته ، واتخذه نديمه فى حفلاته وأغدق عليه الهبات ، ومن أشهر الموسيقيين أيضا فى ذلك الوقت « محمد العقاد » عازف القانون الذى حاكى عبده الحمولى فى أنغامه الموسيقية ، ومن أشهر المطربات « الماس » التى تزوج بها عبده الحمولى ومنعها من الغناء فى المجالس ، مما جعله يستهدف غضب الخديو اذ طلب يوما أن تحضر « الماس » الى قصره وتغنى فيه فرفض عبده أن تذهب مما أغضب الخديو وجعله يأمر باحضارها بالقوة لولا توسط الشيخ « على الليثى » شاعر الخديو فى الأمر وانتهاء الأزمة بعدول الخديو عن طلبه[٤٦] .

وهكذا يتضح مدى اهتمام الخديو اسماعيل بالتمثيل والموسيقى ، مما كان له أثره فى النهضة الفنية التى تعيشها مصر الآن .

رابعا ــ النهضة الزراعية والصناعية :

وجه اسماعيل جل اهتمامه على انماء ثروة مصر الزراعية بتوفير وسائل الرى ، ففى عهده شقت ترع جديدة مثل ترعة الابراهيمية فى الصعيد والاسماعيلية فى شرق الدلتا وأصلحت حوالى مائة واثنتى عشرة ترعة[٤٧] ، وفى عهده اتسعت رقعة الأرض الزراعية وزاد محصول القطن الى ثلاثة أو أربعة أمثال ما كان عليه ، وكان معظمه يصدر الى الخارج وساعد على ذلك قيام الحرب الأهلية الأمريكيةوتأثر زراعة القطن فى

الولايات الجنوبية فى أمريكا نظرا لتوقف الأهالى عن الزراعة وحملهم السلاح واغلاق موانى التصدير ، مما أسفر عن توقف تصدير القطن الأمريكى للعالم وارتفاع ثمن القطن المصرى بشكل كبير مما جعل الخديو يأمر بزراعة القطن فى كل بقعة من وادى النيل واهمال زراعة السكر والحبوب .

وظلت الأمور على ذلك بين عامى ١٨٦٣ — ١٨٦٥ ثم بدأ الموقف يتغير تماما فى عام ١٨٦٦ حيث بدأ القطن الأمريكى ينزل الى الأسواق العالمية ، وكان من نتيجة ذلك هبوط أسعار القطن المصرى وتعرض اقتصاد البلاد لكساد كبير(٤٨) تزعزع رخاء مصر على أثره ، ولكى يتلافى الخديو الخسائر الهائلة التى بدأت تلحق ببلاده وجه اهتمامه الى الاكثار من زراعة قصب السكر ، وخاصة فى أملاكه بالوجه القبلى(٤٩) ، كما قام بانشاء مصانع للسكر واستورد آلات باهظة الثمن لذلك ، ولكن هذا المشروع أهمل ولم يكلل بالنجاح(٥٠) .

يضاف الى ذلك أن التوسع الهائل فى زراعة القطن والسكر قد تم على حساب المزروعات الأخرى لدرجة أن أصبحت مصر تعتمد فى مواردها الغذائية على البلدان الأخرى .

خامسا — النظام القضائى :

ان ولاية القضاء ركن من أركان السيادة الأهلية لكل بلد مستقل ، ولكن اعترض تطبيق ذلك فى مصر ما منحه سلاطين آل عثمان لرعايا الدول الأوربية من امتيازات واعفاءات واسعة ، وقد صارت هذه الامتيازات عبئا ثقيلا على البلاد وخاصة بعد أن انتابها الضعف وطغت سلطة الأجانب على سيادة الحكومة وانتزع القناصل سلطة الحكم فيما يقترف رعاياهم على الجرائم التى تقع على الوطنيين(٥١) فكانت هناك ست عشرة محكمة قنصلية تطبق ستة عشر تشريعا مختلفا . وقد اغتصبت هذه المحاكم سلطة الحكم على الحكومة المصرية فى القضايا التى يرفعها رعاياها عليها وعلى الأهالى ، وأصبحت تمثل دولة حقيقية داخل الدولة .

وتفصيل ذلك هو أن مصر كانت من البلاد التى تتمتع الدول الأجنبية فيها بامتيازات خاصة ، فكان الأجانب لا يحاكمون بمقتضى القانون المصرى [٥٢] فمثلا اذا باع انجليزى بضاعة لأسبانى فى مصر وحدث بينهما نزاع لا يقيم الانجليزى قضية فى محكمة مصر استصدارا لحكم يؤيد حقه بل كان يقيمها فى القنصلية الأسبانية مما أدى الى بث الاضطراب فى المعاملات التجارية داخل مصر ، واتهام الناس للحكومة بالضعف والخطأ ، والتفريط فى حقوقهم ، وبعد ان تولى اسماعيل الحكم عقد نيته على اصلاح ذلك الخلل ، باعادة تنظيم القضاء المصرى ذلك عن طريق نقل سلطة المحاكم القنصلية الى قضاء دولى ، والى اصدار قانون متناسق يطبق فى البلاد [٥٣] .

وفى عام ١٨٦٩ رفع نوبار باشا تقريرا الى اللجنة الدولية يقوم على ثلاث أفكار رئيسية هى ، تحرير الحياة المدنية للمواطنين أو الأوربيين من كل فكرة طائفية ، وانشاء جهاز قضائى وطنى نزيه ، قادر على تشكيل محاكم ذات سلطة قوية ، ثم تنظيم قضائى كامل يضم دوائر تحاكم الوطنيين بجانب دوائر تحاكم الأجانب .

وقد استمرت المفاوضات بين مصر والدول الأوربية عدة سنوات ثم انتهت فى عام ١٨٧٥ بانشاء المحاكم المختلطة على أساس تخويلها سلطة الفصل فى جميع المنازعات ، وكان غالبية القضاة فى هذه المحاكم من الاجانب وقد أوضح اللورد كرومر اختصاص هذه المحاكم بقوله انها تفصل فى القضايا والمنازعات المدنية والتجارية بين الأوربيين وبعضهم من جهة وبين الأوربيين والمصريين من جهة اخرى [٥٤] .

وعلى الرغم من أن اسماعيل حاول بانشاء القضاء المختلط اصلاح أمور القضاء فانه أفقد مصر استقلالها التشريعى ، واصبح بمثابة اعتداء على السيادة الأهلية وعلى الاستقلال القومى للبلاد ، وكان ضررها كبيرا على الشعب المصرى ولا سيما الفلاحين حيث ساعدت على استغلال الأجانب للبلاد بطريقة قانونية ، وكانت مظهرا من مظاهر الوصاية الأجنبية التى تعددت أشكالها فى مصر [٥٥] .

سادسا — تكوين امبراطورية مصرية فى افريقيا :

راودت الخديو اسماعيل أفكار وطموحات حول تكوين امبراطورية مصرية فى افريقية ، وتوسيع رقعة السودان المصرى ومد النفوذ المصرى بصفة فعالة جنوبا من النيل الأبيض الى البحيرات العظمى بهدف ضم حوض النيل بأكمله داخل الأراضى المصرية ، وفى عهده تم ضم سواكن ومصوع الى أملاك مصر ، والحقت المقاطعات الاستوائية بالحكومة المصرية ، ووصل النفوذ المصرى الى سواحل بلاد الصومال والحبشة ، وتمكنت هذه المناطق من الانفتاح على الحضارة الحديثة . وخلال ذلك وقع الخديو مع بريطانيا معاهدة اتفق بمقتضاها على قطع دابر النخاسة وتجارة الرقيق فى ممتلكات مصر الأفريقية[(٥٦)] .

كما اتجه الى الولايات المتحدة لتدريب ضباطه وتكوين الجغرافيين والمهندسين والمستكشفين[(٥٧)] .

غير ان الفشل كان نهاية ذلك العمل الكبير الذى بلغ ذروته بين عامى ١٨٧٢ — ١٨٧٩ ، فلم تستطع هذه الامبراطورية الجديدة أن تستمر طويلا . ويرى أغلب المؤرخين أن سبب ذلك يعود الى أن اسماعيل عهد بأمور فتوحاته الأفريقية للأجانب أمثال « بيكر » و « جوردون » بمعنى انها كانت أجنبية عند القمة ، ومصرية عند القاع مما أفقدها استمراريتها وعلى أى حال فقد جاء عزل اسماعيل ليضع حدا لأية سياسة افريقية فعالة من جانب مصر[(٥٨)] .

سابعا : اسماعيل والأزمة المالية والتدخل الاجنبى :

تعاظم أمر الديون على مصر فى عصر اسماعيل نتيجة لبذخه والمبالغ التى أنفقها فى التشييد والبناء ، واندفاعه السريع الى الاستدانة فكان اذا أراد عملا جنح الى الاقتراض دون ان يبالى بعواقب ذلك لدرجة أن ازدادت الديون من ٣٫٢٩٣٫٠٠٠ فى أوائل عهده الى حوالى ٩١ مليونا من الجنيهات[(٥٩)] فى عام ١٨٧٦ فأصبحت حملا ثقيلا على الخزينة المصرية وعلى أهالى البلاد ، ونتيجة لتوقف البيوت المالية عن اقراض الخديو وذلك لعدم وفائه بسداد أقساط الديون ابتدع اسماعيل طريقة يستطيع

الحصول بها على الأموال من الأهالى فاصدر « لائحة المقابلة » فى ٣٠ من اغسطس ١٨٧١ والتى تقضى بأن تنزل الحكومة لملاك الأراضى الزراعية عن نصف الضريبة المفروضة على أطيانهم بصفة دائمة اذا دفعوا للحكومة ستة أمثال هذه الضريبة مقدما [(٦٠)] .

ونتيجة لفشل الخديو فى تسديد اقساط الديون ، وتوقفه عن سداد سندات الخزانة المستحقة ، وظهور شبح افلاس مصر ، تدخلت الدول الأوربية فى شئون البلاد بحجة المحافظة على أموال رعاياها من أصحاب الديون .

وفيما يلى نعرض لأهم مظاهر التدخل الأجنبى فى مصر خلال هـــذه الفترة .

١ ـــ بعثة كيف Cave

هى لجنة انجليزية برئاسة الخبير المالى البريطانى « ستيفن كيف » وانحصرت مهمتها فى دراسة أحوال مصر المالية وكتابة تقرير عنها [(٦١)] وقد اقترحت البعثة كشرط اساسى لاصلاح أحوال مصر المالية أن تصبح الحكومة المصرية تحت المشورة الأوربية ، وأن يكون هناك جهاز للرقابة عليها تحت اشراف موظف انجليزى ، وأن يحترم الخديو ما تصدره هذه اللجنة من قرارات ولا يعقد أية قروض قبل الحصول على موافقتها .

وعند دراسة هذه الاقتراحات يتضح أن اللجنة ابتعدت عن مهمتها الأساسية وهى دراسة أحوال مصر المالية واقتراح السبل الكفيلة باصلاحها الى محاولتها لتمهيد السبيل للتدخل الانجليزى فى شئون مصر ، مما جعل فرنسا تحاول اللحاق بانجلترا فى ذلك المجال حتى لا تنفـــرد الحكومـــة الانجليزية بذلك .

ولمـــا سارت الضائقة المـــالية فى طريقها وعجزت الحكـــومة عن الوفاء بالتزاماتها أصدر الخديوى مرسوما فى ١٦ ابريل ١٨٧٦ بتأجيل دفع السندات والأقساط المستحقة على الحكومة ، وتحت ضغوط الدائنين وافق الخديو على انشاء صندوق الدين [(٦٢)] .

٢ ــ صندوق الدين العمومى :

اصدر الخديو اسماعيل مرسوما فى الثانى من مايو ١٨٧٦ بانشاء صندوق الدين العمومى ، بهدف جمع المبالغ المخصصة للديون من المصالح الحكومية وتسديد أقساط الديون وما يستحق عليها من فوائد .

وقد تولى ادارة هذا الصندوق موظفون أوربيون تم ترشيحهم من قبل الدول الدائنة ثم صدق الخديو على تعيينهم .

وقد نص المرسوم الصادر بانشاء هذا الصندوق على أن تختص المحاكم المختلطة بالنظر فى القضايا التى يرى صندوق الدين اقامتها ضد الحكومة [٦٣] .

وكانت الديون المصرية قسمين دين الحكومة ودين الدائرة السنية ثم ضمت الى دين واحد قدره ٩١ مليون جنيه سمى بالدين الموحد بفائدة ٧ بالمائة . ولما رأى الخديو اسماعيل أن توحيد الدين على هذه الصورة لا يمكن الحكومة من سداده أصدر أمرا بأن تصدر الحكومة المصرية سندات عليها بمبلغ ١٧ مليون جنيه فى نظير رهن السكك الحديدية وميناء الاسكندرية ، وان تكون فائدته خمسة بالمائة وسماه الدين الممتاز .

ونتيجة لعدم اقتناع الدول صاحبة الديون بهذه الاجراءات تشكلت لجنة مالية مختلطة لمراقبة حساب الحكومة وهى التى أطلق عليها بعثة جوشن وجوبير .

بعثة جوشن وجوبير :

عرضت بريطانيا على فرنسا تنسيق موقفيهما ازاء الأزمة المالية فى مصر واتفقتا على ارسال مندوبين لبحث هذه المسألة ، فأوفدت بريطانيا جوشن Goschen وانتدبت فرنسا جوبير Jiubert مندوبا عن الدائنين الفرنسيين ليشترك مع المندوب الانجليزى فى عرض مطالب الدائنين على الخديو . وقد حضر جوشن الى مصر فى أكتوبر ١٨٧٦ ثم تبعه جوبير وطلبا الى اسماعيل فرض الرقابة الثنائية على المالية المصرية وجعل السكك الحديدية وميناء الاسكندرية تحت ادارة لجنة مختلطة ، وقد

وافق الخديو اسماعيل على هذا المطلب فى ١٨ من نوفمبر ١٨٧٦ [٦٤] كما اضطر بعد ذلك الى التنازل عن أملاكه الخاصة وأملاك أسرته للحكومة وهى التى تعرف باملاك الدومين .

بعد أن ازداد التدخل الأجنبى فى شئون مصر المالية رأى اسماعيل أن يجعل حكومته شورية فشكل مجلسا للنظار برئاسة نوبار باشا ووافق على تعيين وزيرين اوربيين فى هذه الوزارة احدهما انجليزى للمالية وهو المستر ولسن والآخر فرنسى للاشغال العمومية وهو المسيو بلينير ، وأثناء اجتماعات هذه الوزارة عمل نوبار الى انقاص عدد الجيش ، واحاله عدد كبير من الضباط الى الاستيداع بحجة الاقتصاد مما أدى الى فصل بعض الضباط والجنود دون حصولهم على رواتبهم المتأخرة ، وقد أدى ذلك الى قيام حوالى ٤٠٠ ضابط بمظاهرة أمام نظارة المالية فى ١٨ فبراير ١٨٧٩ أهانوا خلالها نوبار باشا رئيس النظار والمستر ولسن وانقلبت الأمور الى ما يشبه الثورة لولا أن اقبل اسماعيل باشا ، وقام بتهدئة الجنود ووعدهم بصرف مستحقاتهم وطالبهم بالانصراف ، وأعلن انه لن يكون مسئولا بعد ذلك عن الأمن والنظام اذا لم يعزل نوبار ونتيجة لما حدث استقالت وزارة نوبار فشكل الخديو مجلسا آخر للنظار برئاسة ابنه محمد توفيق ولما فشل هذا المجلس فى مواجهة الموقف ، شكل الخديو وزارة جديدة برئاسة شريف باشا ، واخرج منها الوزيرين الأوربيين مما أدى الى غضب انجلترا وفرنسا والاتفاق على عزله .

ففى ١٩ يونيو وبناء على تعليمات اللورد سالسبورى تم تبليغ الخديو بما يأتى :

« اتفقت الحكومتان الفرنسية والانجليزية على الاشارة على سموكم رسميا بالنزول عن العرش ، ومغادرة القطر المصرى فاذا قبلتم هذه المشورة عملت حكومتانا معا على تقرير مخصصات كافية لسموكم ، ولا يحدث خلل فى نظام وراثة العرش فهو ينتقل بمقتضاه الى البرنس توفيق ويجب الا نخفى عن سموكم أن رفضكم للتنحى واجباركم بذلك وزارتى لندن وباريس على التوجه بالطلب الى السلطان رأسا يحلهما من وعدهما

لكم بالمخصصات ومن المحافظة على وراثة العرش لمصلحة البرنس توفيق » [٦٥] .

ولما عرض هذا الانذار على الخديو رفضه بحجة أنه لا يستطيع التخلى عن حكم مصر الا بأوامر من السلطان ، ونتيجة لضغوط الدول الأوربية على السلطان العثمانى صدرت أوامر السلطان بعزل اسماعيل وتوليه ابنه توفيق مكانه وذلك فى ٢٦ يونيو ١٨٧٩ فغادر الخديو المعزول مصر الى نابولى عن طريق الاسكندرية وانتهت به الأمور الى الاقامة فى الآستانة حتى توفى فى السادس من مارس ١٨٩٥ .

تقييم عصر اسماعيل

وهكذا يتضح أن أحوال مصر فى عصر اسماعيل كانت أبعد ما تكون عن الاستقرار حيث تفاقمت الازمة المالية [٦٦] واتخذت شكلا سياسيا بسبب اسراف الخديو اسماعيل ، وانفاقه أموالا طائلة سواء فى مشروعاته وبذخه أو لارضاء الدول الأوربية والسلطان ، كما تحملت الخزانة المصرية نفقات باهظة فى سبيل تسوية النزاع الخاص بمشروع القناة ومحاولات الخديو ارضاء السلطان ورشوة رجاله مقابل فرمان الوراثة ومنحه لقب خديو كما انفق على حفلات افتتاح القناة مليونا وأربعمائة الف جنيه [٦٧] .

زد على ذلك فشل مشروعاته الاقتصادية بعد توقف الحرب الأهلية الأمريكية وانخفاض اسعار القطن وما واكب ذلك من انتشار حالات الافلاس فاضطر الى أن يستدين بشروط باهظة [٦٨] ففتح الباب على مصراعيه للاجانب وعقد قروضا واتفاقات مع البيوت المالية الأجنبية [٦٩] التى تآمرت على سلب الخديو ارادته وتسابقت فى اغرائه على عقد قروض جديدة بفوائد فاحشة مما أدى الى زيادة التدخل الأوربى فى شئون البلاد الداخلية خصوصا بعد أن وافق على تأسيس صندوق الدين والمراقبة الثنائية وعلى أن يشترك فى الوزارة التى ألفها نوبار عام ١٨٧٨ وزيران أجنبيان انجليزى للمالية وفرنسى للاشغال ، كما انتشرت فى عهده عمليات التهريب التى يقوم بها الاجانب بصورة كبيرة [٧٠] ، مما ساعد على خراب البلاد وفساد احوالها [٧١] ، حيث ساءت أحوال الفلاحين واشتد الظلم فى جمع الضرائب،

لدرجة ان بلغ البؤس بالفلاحين انهم كانوا ينزلون عن أطيانهم فرارا من الضرائب ، ونتيجة لافلاس خزائن الحكومة حرم الموظفون من صرف مرتباتهم ثمانية عشر شهرا ، كما أحيل الفان وخمسون ضابطا الى الاستيداع توفيرا للنفقات (٧٢) ، واضطر الخديو الى بيع اسهم قناة السويس ، وابتدع قانون المقابلة .

ونتيجة لاستحكام الأزمة رأى الوطنيون التخلص من الخديو الذى لا يحسن تصريف أمور البلاد فتألف الحزب الوطنى للدفاع عن حقوق الأمة (٧٣) ، وجعلوا مركزهم مدينة حلوان ، ونشروا عدة منشورات اشاروا فيها على الحكومة بمراعاة مصلحة البلاد .

وفى هذا الجو المشوب بالقلق والتوتر تم عزل الخديو اسماعيل واحلال ابنه توفيق محله ، قد استقبلت البلاد هذا النبأ بالابتهاج وعم الناس السرور لحدوث مثل هذا الأمر الخطير دون وقوع اختلال يعكر صفو الأمن فى البلاد .

مراجـــع الفصــل الثالث

(١) توفى ابراهيم باشا فى ابريل ١٨٤٧ على حين توفى محمد على فى الثانى من اغسطس ١٨٤٩ .

(٢) هو ابن طوسون بن محمد على ، وكان أكبر أفراد أسرة محمد على سنا وبالتالى أحقهم بولاية الحكم بعد ابراهيم باشا .

(٣) بيير كرابيتس : اسماعيل المفترى عليه — ترجمة فؤاد صروف — القاهرة ، دار النشر الحديث ص ١٢ .

(4) Sammarco : Précis de Histore d'Egypte, IV, p. 4 .

(٥) انظر عصر اسماعيل حـ ١ ، الطبعة الأولى ١٣٥١هـ — ١٩٣٢م ص ١٠ .

(٦) انظر : تاريخ التعليم فى عصر عباس وسعيد ص ٥ — ٦ .

(٧) كرابيتس : المرجـع السابق ص ١٣ .

(٨) انظر على سبيل المثال . على مبارك : الخطط التوفيقية لمصر القاهرة ومدنها حـ ٧ ص ٦٣ .

(٩) من أبرز الأمثلة على ذلك أنـه أبعد رفاعـة الطهطـاوى الى الخرطوم ليكون السودان منفى له .

(١٠) جرجى زيدان : تاريخ مصر الحديث حـ ٢ ، القاهرة ، مطبعة الهلال ١٩٢٥ ص ٢٠٢ .

(١١) تردد أن الأمير نازلى هانم عمة عباس باشا هى التى ائتمرت به نتيجة لأنه حاول قتلها ، واضطرها للرحيل الى الاستانة .

(١٢) كرابييتس : المرجع السابق ص ١٣ .

(١٣) كرابييتس : المرجع السابق ص ١٤ .

(١٤) الرافعى : المرجع السابق ص ٢٣ .

(١٥) احمد عـرابى : كشف الســتار عن سر الأسرار — جـ ١ ص ٧ — ٨ .

(١٦) للتفاصيل عن هذه اللائحة انظر : فيليب جلاد : قاموس الادارة والقضا . الاسكندرية ، المجلد الأول ص ١١٨ .

(١٧) الرافعى : المرجع السابق ص ٢٥ — ٣٤ ٠

(١٨) كرابيتس : المرجع السابق ص ٢٧ على حين يذكر الرافعى أن عددهم ١٢٠٠ مقاتل وان معظمهم فى السودانيين ٠

انظر : عصر اسماعيل ص ٤٠ ٠

(١٩) كرابيتس : المرجع السابق ص ١٥ — ١٦ ٠

(٢٠) الرافعى : المرجع السابق ص ٥٩ ٠

(٢١) كرابيتس : المرجع السابق ص ٥٩ ٠

(٢١) كرابيتس : المرجع السابق ص ١٧ — ١٨ ٠

(٢٢) كرابيتس : المرجع السابق ص ٢١ ٠

(٢٣) عن تفاصيل ذلك انظر الفصل الخاص بانجازات مصر الحضارية ٠

(٢٤) الرافعى : المرجع السابق ص ٧١ ٠

(٢٥) كان قبل ذلك فى عزلة تامة عن أمور الدولة خصوصا وان عمه سعيد باشا لم يكن يشجعه على ذلك ٠

(26) Milner : England in Egypt, London p. 176, 263

(27) Zetland : Lord Cromer, London 1933 p. 72 .

(28) Farman, E : Egypt and Its Betrayal .

(29) Leon : The Khedive's Egypt, London 1877 .

(٣٠) انظر اسماعيل المفترى عليه ص ٥٨ ٠

(٣١) جون مارلو : تاريخ النهب الاستعمارى لمصر من الحملة الفرنسية الى الاحتلال البريطانى ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٦ ص ١٥٥ ٠

(٣٢) جورج يانج : تاريخ مصر من عهد المماليك الى نهاية حكم اسماعيل ، ص ١٠ ٠

(٣٣) الرافعى : عصر اسماعيل ج ١ ، القاهرة، مطبعة النهضة ، الطبعة الأولى ١٣٥١هـ / ١٩٣٢م ص ٧٨ ٠

(٣٤) للتفاصيل انظر قاموس الادارة والقضاء ج ٦ ص ٧٣٠ ٠

(٣٥) هذا اللقب نعت فارسى مشتق من كلمة « خيفا » وهى اسم فارسى من أسماء الله يعنى « ربانى » أو الهى ولما كان الأتراك والمصريون لا يعرفون الفارسية فقد كان لهذا اللقب الجديد سحر خاص مشتق مما يحيط به من خفاء معناه ، فرضى عنه السلطان لأنه اقتنع أنه لا يعنى شيئا ، وسر به الباشا لأنه اقتنع بأنه يعنى كل شىء .

بيير كرابييتس : اسماعيل المفترى عليه ص ١٤٨ .

(36) A, Sammarco : Said et Ismaïl p. 209 — 210 .

(٣٧) للتفاصيل انظر اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار حـ ٢ القاهرة ، ١٣١٢هـ ص ١٩٩ ، ومحمود فهمى باشا : البحر الزاخر فى تاريخ العالم وأخبار الأوائل والأواخر القاهرة ١٣١٢هـ حـ ١ ، ص ١٩٩ .

(٣٨) عن نص هذا الفرمان : انظر الوقائع المصرية العدد ٥١٧ فى ١٧ من يوليو ١٨٧٣ .

(٣٩) لتفاصيل ذلك انظر جورج جندى : اسماعيل كما تصوره الوثائق الرسمية ص ٤٨ .

(٤٠) الرافعى : المرجع السابق ص ٧٦ .

(٤١) مارلو : المرجع السابق ص ١٥٢ — ١٥٣ .

(٤٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى : الخديو اسماعيل وعلاقته بالباب العالى رسالة ماجستير ، مكتبة جامعة القاهرة ص ١٤٦ .

(٤٣) الرافعى : المرجع السابق حـ ١ ص ٢٠٨ -- ٢٠٩ ولمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع انظر أمين سامى : التعليم فى مصر ، وعلى مبارك : الخطط التوفيقية .

(٤٤) الرافعى : المرجع السابق حـ ١ ص ٢٥٦ — ٢٦٨ .

(٤٥) الرافعى : المرجع السابق حـ ١ ص ٢٩٩ وجرجى زيدان تاريخ مصر الحديث حـ ٢ ص ٢٠٨ .

(٤٦) الرافعى : المرجع السابق حـ ١ ص ٣٠٠ — ٣٠٢ .

(47) Mac Coan : Egypt as it is p. 246 .

(٤٨) كرابييتس : المرجع السابق ص ١٣٢ — ١٣٣ .

(٤٩) الرافعى : المرجع السابق حـ ٢ ص ١٠ — ١١ .

(٥٠) كرابييتس : المرجع السابق ص ١٣١ .

(٥١) الرافعى : المرجع السابق حـ ٢ ، ص ٢٨٥ .

(٥٢) أصدر سعيد باشا مرسوما فى عام ١٨٥٧ جعل الأجانب فى مأمن تام من أحكام المحاكم المصرية .

A. Sammarco : Said et Ismail, p. 273 .

(٥٣) كرابييتس : المرجع السابق ص ١٩٤ — ١٩٥ .

(54) Lord Lioyd : Egypt Since Cromer London 1933 Vol 1 p. 17 .

(٥٥) الرافعى : المرجع السابق حـ ٢ ص ٣٠٠ .

(٥٦) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار حـ ٢ القاهرة ، المطبعة الأميرية ببولاق ، ١٣١٤ هـ ص ٣٤٨ .

(٥٧) من أبرز الأدلة على ذلك بعثة الجنرال ستون فى عام ١٨٧٠ .

(٥٨) أنور عبد الملك : نهضة مصر ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٣ ص ٢٧١ .

(٥٩) أنفق منها الخديو ١٦ مليون جنيه خلال حفر قناة السويس .

(٦٠) أحمد شفيق : حوليات مصر السياسية حـ ١ القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٢٦ ، ص ٩ .

(٦١) حول نص هذا التقرير انظر :

Blue Book : Egypt No. 7 (1876) Report by Mr, Cave on the Financial Condition of Egypt .

(٦٢) الرافعى : المرجع السابق حـ ٢ ص ٦٨ .

(٦٣) فيليب جلاد : قاموس الادارة والقضا ، حـ ٢ ، ص ١٤٤ .

(٦٤) عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها حـ ٤ ، القاهرة ، الأنجلو المصرية ، ١٩٨٦ ص ٢٠٦٨ ، د. عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق حـ ٢ ص ٧٣ .

(٦٥) كرابييتس : المرجع السابق ص ٢٥٣ وايضا :

Cromer : Modern Egypt Vol 1 p. 135 .

(66) Hansard's Parliamentary Debates Vol 231, 28 July 1876 p. 635 .

(٦٧) المجلة التاريخية المصرية المجلد السادس ١٩٥٧ مقال للدكتور عبد العزيز الشناوى تحت عنوان « ما تكلفته مصر فى انشاء قناة السويس » ص ١٥٣ .

(٦٨) أحمد شفيق : حوليات مصر السياسية حـ ١ ، القاهرة ، مطبعة شفيق باشا ١٩٢٦ ص ٩ .

للتفاصيل انظر :

(69) Farman, E : Egypt and its Betrayal U. S. A., 1908 .

(٧٠) دار المحفوظات العمومية بالقلعة : دفتر كوبيا عموم خفر السواحل صفحة ٦٤ وما بعدها .

(٧١) دار الوثائق : أوراق خاصة بالسيد جمال الدين الأفغانى .

(٧٢) اسماعيل الأيوبى : تاريخ مصر فى عهد الخديو اسماعيل المجلد الثانى ١٨٦٣ — ١٨٧٩ ، القاهرة ، دار الكتب المصرية ١٩٢٣ ص ٤٧٠ .

(٧٣) انظر عبد المنعم الجميعى : عبد الله النديم ودوره فى الحركة السياسية والاجتماعية ، القاهرة ، دار الكتب الجامعى ، ١٩٨٠ ص ٣٠ — ٣١ .

الفصل الرابع

الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى لمصر

- أحوال مصر قبيل قيام الثورة العرابية .
- حادث قصر النيل .
- مظاهرة عابدين ٩ سبتمبر ١٨٨١ ونتائجها .
- العرابيون ووزارة شريف باشا .
- وزارة البارودى وانتصار الثورة .
- مؤامرة الجراكسة .
- العرابيون والتدخل الأجنبى .
- بعثة درويش باشا .
- العرابيون ومذبحة الاسكندرية .
- مؤتمر الآستانة .
- ضرب الاسكندرية .
- التعاطف الوطنى والاسلامى ضد الانجليز .
- منشور السلطان بعزل عرابى .
- معركة التل الكبير .
- محاولات الدفاع عن القاهرة والتسليم .

الثـــورة العرابيـــة

أحوال مصر قبيل قيام الثورة العرابية :

كانت مصر فى عصر الخديو اسماعيل أبعد ما تكون عن الاســـتقرار فسياسته أدت الى ارتباك أحوالها المالية ذلك أن اسراف الخديو المتزايد سواء فى محاولاته ارضاء السلطان العثمانى ورشوة رجاله كى يحصـــل على فرمان تصدره الدولة العثمانية بتعديل فرمان الوراثة ومنحه لقب خديو مصر أو فى محاولاتـــه تعـــديل شروط حفـــر القنـــاة ، ثـــم ما أنفقـــه على افتتاح القناة من مبالغ تصـــل الى مليون وأربعمائة ألف جنيـــه ، ويضاف الى ذلك فشـــل مشروعات الخديو الاقتصادية بعد توقف الحرب الأهلية الأمريكية وانخفاض أســـعار القطن وما واكب ذلك من انتشـــار حالات الافلاس الأمـــر الذى جعل الخديو يســـتدين بشروط باهظة وهـــو ما فتح الباب على مصراعيه للاجانب وأدى الى زيادة التدخل الأوربـــى فى شئون مصر [1] .

كل هـــذه الأحـــداث ادت الى اضـــطراب الأوضـــاع الســـياسية والاقتصادية والاجتماعية فى البلاد ، وفى تلك الفتـــرة وفد اليها الـــداعية الاسلامى الكبير جمال الدين الأفغانى فكانت الفرصـــة مهيأة له لكى ينشر أفكاره الثورية والاصلاحية فلعب دورا بارزا فى ايقاظ الـــوعى الوطنى واستطاع أن يبث مبادئه الاصـــلاحية فى نفوس المصريين فى وقت كانت جذوة الوطنية تتقد فى نفوســـهم ، فأعطى دفعة قوية للحـــركة الوطنيـــة المصرية ، وبعث فى نفوس قادتها الأمل فى امكان تغيير الأوضـــــاع فى مصـــــر .

ولكى تنتشر روح الثورة بين اكبـــر عدد من الأهالى فى مصر شجع جمال الدين الأفغانى على انشاء الصحف لتكوين رأى عام يقف فى وجـــه الظلم والتدخل الأجنبى ، وقد ادى هذا كله الى تعبـــير بعض الوطنيين عن تذمرهم مما تعانيه البلاد ، فألفـــوا فى ابريل عام ١٨٧٩ جمعية سرية

أطلق عليها جمعية حلوان بهـدف الحد من سيطرة الأجانب ونفوذهم فى الحكومة ، وقد ضمت شريف باشا واسماعيل راغب ومحمـد سـلطان وغـيرهم .

واذا كانت أحوال البلاد بصفة عامة سيئة ، فان أحـوال الجيش بصفة خاصة كانت اكثر سوءا ، فالأجانب خصوصا الشراكسة كانت لهم الأولوية فى الترقى على المصريين ، ويستأثرون بالنفوذ فى كافة أسـلحة الجيش وقيادته رغم افتقارهم الى الخبـرة والكفاية فى التدريب ، وقـد ظهر ذلك واضحا فى الحملة التى ارسلها الخديو اسماعيل الى الحبشـة لتوسيع أملاك مصر الافريقية هناك ، ونتيجة لمـا أحس به المصريـون فى اثناء هذه الحملة من سوء معاملة الضباط الشراكسة لهم ، وضياع دمـاء المصريين رخيصة بسبب اخطاء هؤلاء القـادة فى ادارة العمليات الحربية انتاب الضباط الوطنيين السخط ، وزاد من تذمرهم أن الخديو اسـماعيل لم يحاسـب الضباط الشراكسـة على اهمالهم الذى أدى الى هـزيمة الجيش المصرى فى الحبشـة ، وقد دفع ذلك الضباط الوطنيين الى تأليف جمعية سرية هدفها التخلص من الطبقة الجركسية المسيطرة على أمـور الجيش ، وفتح باب الترقى أمام المصريين وعـزل الخـديو اسـماعيل وتوليه البرنس حليم مكانه ، وقـد عرفت هذه الجمعيـة السرية باسـم جمعية مصر الفتاة ويبدو أنها أسست خلال السنوات من ١٨٧٦ الى سنة ١٨٧٨ [٢] ، وقد أسس هذه الجمعية على الروبى الذى كان يعمل رئيسا لفرع المهمات خلال الحملة على الحبشة ثم انضم أحمد عرابى الى هـذه الجمعية ولم يلبث أن أصبح عضوا بارزا فيها ، وكان لسـان حال هـذه الجمعية جريدة « أبو نظارة » التى كان يحررها يعقـوب صنوع . وقـد اتصل العسكريون فى جمعية مصر الفتاة بجمعية حلوان لتوحيد الصفوف والبحث عن الطرق الموصلة لاصلاح البلاد .

ولمـا قامت وزارة نوبار فى عام ١٨٧٩ باحـالة الفين وخمسـين ضابطا ومنهم أحمد عرابى الى الاستيداع توفيرا للنفقات دون أن تصرف لهم شيئا من رواتبهم المتأخرة تذمر الضباط وكتبوا عريضـتين احـداها لمجلس النظار ، والأخرى للخديو أعربوا فيهما عن سوء أحوالهم لعـدم

صرف رواتبهم مدة ثمانية عشرة شهرا ، واستيائهم الشديد بسببه ذلك ، كما عقد حوالى ٦٠٠ ضابط اجتماعا فى تكنات الجيش بالعباسية يوم ١٨ فبراير ١٨٧٩ خرجوا على أثره فى مظاهرة عسكرية اشترك فيها طلاب المدارس العسكرية ، وبعض الجنود وثلاثة من أعضاء مجلس شورى النواب وذهبوا الى مقر وزارة المالية يتقدمهم البكباشى لطيف سليم وتربصوا لنوبار باشا وويلسون عند خروجهما من وزارة المالية وقابلوهما بالاهانة والاعتداء ، وسجنوهما فى مبنى نظارة المالية ، ولما أبلغ الخديو بثورة الضباط توجه الى مكان الحادث ، ونجح فى تهدئة الموقف ولولا تدخله فى الوقت المناسب لتفاقمت الأزمة [٣] ، وقد ترتب على هذه المظاهرة أن سقطت الوزارة الأوربية فى ١٩ فبراير ١٨٧٩ وفيها تخلص الخديو من نوبار .

وهكذا اثبتت مظاهرة ١٨ فبراير ١٨٧٩ قدرة رجال الجيش على تسيير الأحداث وامكانية وقف تغلغل النفوذ الأجنبى فى البلاد والوقوف فى وجه المظالم التى يتعرضون لها .

واسفر الاتصال بين تنظيم الجيش وجمعية حلوان عن تأليف الحزب الوطنى . وقد نشر أعضاء هذا الحزب عدة منشورات أشاروا فيها على الحكومة بمراعاة مصالح البلاد ، واعترضوا على الدين الممتاز واختصاصه [٤] ، ومع أن الخديو اسماعيل لم يكن مستريحا لأفكار هذا الحزب الا أنه اضطر الى غض الطرف عنه بسبب الشعور المعادى من جانب الأوربيين للخديو .

ولما ضاقت الدول الأوربية بسياسة الخديو اسماعيل حاولت اقناعه بالتنازل عن العرش ، ولكنه ماطل فى الرد على طلبهم بحجة احالة المسألة على السلطان وانتظار أوامره عندئذ ضغطت الدول الأوربية على السلطان فى الاستانة لكى يصدر أمرا بعزل اسماعيل فوافق على طلبهم ، وبذلك انتهى حكم اسماعيل بعد أن رزحت مصر خلاله تحت وطأة الظلم والاستبداد ، وتولى توفيق الحكم فى ٢٦ يونية ١٨٧٩ فى جو مشحون بالمصاعب فالخزانة خاوية ، والجيش مختل النظام ،

والأهالى ساخطون لما أصابهم من مظالم يضاف الى ذلك أن الخديو توفيق لم يكن بالرجل الذى يستطيع مواجهة كل هذه المخاطر .

حادث قصر النيل (أول فبراير ١٨٨١) :

ولما كانت الفروق الطبقية والميل الى التعصب الجنسى واضحين فى صفوف الجيش نظرا لتعصب عثمان رفقى ناظر الجهادية لأبناء جلدته من الشراكسة واستخفافه بالعنصر الوطنى فكانت الوظائف الهامة والرتب والنياشين تعطى للضباط الشراكسة وغيرهم [٥] بينما حرم منها الضباط المصريون كما أن عثمان رفقى أخرج معظم الضباط المصريين فى الجيش الى المعاش قبل السن القانونى كما كلف بعضهم بأعمال بعيدة عن الجندية مثل حفر الترع ومباشرة الأعمال الزراعية فى أراضى الخديو يضاف الى ذلك انه سن قانون للقرعة العسكرية يمنع بمقتضاه الترقى من تحت السلاح الى رتبة الضباط مما يعوق ترقى الجنود المصريين العاملين فى الآلايات تحت السلاح ، ويجعلهم أنفارا تحت تسلط الضباط من الأتراك والشراكسة .

وقد دفعت كل هذه المظالم الضباط الوطنيين الى التذمر [٦] فكتبوا عريضة وقعوا عليها وسلمها كل من « أحمد عرابى كولونيل الفرقة الرابعة للبيادة ، وعبد العال بك حشيش كولونيل الفرقة السادسة للبيادة » الى رياض باشا رئيس مجلس النظار فى يناير ١٨٨١ يطالبون فيها بوقف المحسوبية والظلم ، وأن يكون وزير الحربية مصريا .

ولما أحس رياض بخطورة الموقف قام باستدعاء عرابى وعبد العال حشيش ، فحضرا يصحبهما « على بك فهمى كولونيل الفرقة الأولى من البيادة » فأخذ فى توجيه النصائح لهم موضحا خطورة ما يترتب عليه عرض شكواهم من مخاطر ، ولكن الضباط تمسكوا بموقفهم فعرض رياض باشا المسألة على مجلس النظار الذى عقد بقصر عابدين تحت رئاسة الخديو ، فقرر المجلس القبض على الضباط الثلاثة واحالتهم الى مجلس عسكرى غير عادى يشكل لمحاكمتهم بمقتضى القوانين العسكرية [٧] وأخفى الأمر على الضباط .

ولما استدعى الضباط الثلاثة لوزارة الحربية بحجة المداولة فى بعض الترتيبات التى كانت تعد لموكب كان سيصاحب احدى الأميرات بمناسبة زواجها أحسوا بأن هناك مكيدة مبيتة لهم ، فأخذوا حذرهم ، وقبل انتقالهم الى الوزارة تركوا تعليمات لضباطهم بالتوجه الى مقر الوزارة لانقاذهم اذا لم يعودوا فى ظرف ساعتين (٨) .

وقد تحقق ما توقعه القادة الثلاثة فعند وصولهم الى مبنى الوزارة تم اعتقالهم ثم انعقد مجلس فى وزارة الحربية لمحاكمتهم ، وتحددت المحاكمة فى اليوم نفسه (أول فبراير ١٨٨١) الساعة الثانية عشر الا ربعا وقد عقد هذا المجلس تحت رئاسة الجنرال استون وعضوية كل من ابراهيم باشا ولارمى باشا وبلوتز باشا واللواء خورشيد عاكف باشا واللواء محمد رضا باشا واللواء متقاعد نجم الدين باشا ، وبينما كانت جلسة المحاكمة منعقدة اقتحمت الفرقة الأولى مشاة بقيادة اليكباشى محمد عبيد مبنى الوزارة ، وأحدثوا فيها ضجة ودخلوا الحجرة التى كانت تجرى فيها المحاكمة ، وعاملوا عثمان رفقى وزير الحربية معاملة سيئة . وكادوا يفتكون به لولا أنه هرب من أحدى النوافذ واختفى فى أحد المخازن ، كما دمر الضباط الوطنيين بعض أثاث الوزارة وأطلقوا سراح الضباط المحجوزين بالقوة ثم ساروا بعد ذلك فى مظاهرة عسكرية الى قصر الخديو مطالبين بعزل وزير الحربية والنظر فى شكواهم الخاصة بوضعهم على قدم المساواة مع الضباط الشراكسة فى الترقية ، ولما أحس الخديو بعدم جدوى المقاومة خصوصا وأنه لم يكن لديه فى الجيش فرقة يمكن الاعتماد عليها رضخ للامر الواقع وعزل عثمان رفقى وبذلك نجح العرابيون فى فرض ارادتهم ، وخضع الخديو لمطالبهم ، وتأكدت زعامة عرابى على الجيش بعد أن نجح فى بث روح التضامن والاقدام بين الضباط مما كان له أكبر الأثر فى تطور الأحداث ، فقد أحس الخديو بخطورة الموقف فحاول تسكينه واكتساب ثقة العسكرين فعين محمود سامى البارودى وزيرا للحربية ، كما دعا الضباط من رتبة البكباشى الى رتبة فريق ، والقى فيهم خطابا فى حضور وزير الحربية أوضح فيه حبه للعسكرية وعفوه عما حدث فى قصر النيل ، ونصحهم بأهمية التمسك بقوانين الجهادية ،

وعدم الخروج عن حدود وظائفهم والاجتهاد فى أداء واجباتهم العسكرية ، ولما انتهى الاجتماع أعطى الخديو للبارودى التعليمات بالتقليل من نفوذ عرابى وزملائه ، ولكن البارودى لم ينفذ تعليمات الخديو بل قام بالاتحاد الكامل مع العرابيين ، وطالب بزيادة مرتبات الضباط والعساكر لعدم تناسبها مع لوازم المعيشة [٩] فأجيب الى طلبه كما أعلنت قوانين عادلة للجيش تعد بالمساواة للجميع .

ورغم هذا النجاح السريع الذى حققه الضباط الوطنيين فانهم لم يطمئنوا الى الخديو خصوصا بعد انتشار الشائعات بأنه ينتظر الفرصة المناسبة للتخلص منهم نتيجة لما أفقدوه له من هيبة ، وأن رياض باشا أيضا ينتظر أى فرصة للانتقام منهم لذلك زادوا من احتياطات الأمن الخاصة منهم وبوجه خاص بعد الدسائس والمؤامرات التى تعرضوا لها .

ولما كان الشعب المصرى يرزح تحت المظالم التى لا تقل عن المظالم التى كان يعانى منها رجال الجيش فقد بارك حركة الضباط حيث وجد فيها تنفيسا عن آلامه ، وتقديرا لآماله فى التخلص من ربقة التدخل الأجنبى ، كما أصبح عرابى وزملاؤه موضع اعجاب الأمة وتقديرها وتردد اسمه على أفواه الناس كأول فلاح مصرى يقف فى وجه الطغيان ويعبر عن آمال الشعب وآلامه فلم تمض عدة أسابيع على حادث قصر النيل حتى انهالت عرائض الفلاحين من جميع أنحاء البلاد على عرابى يبثون اليه شكواهم وما يقع عليهم من مظالم ففتح عرابى قلبه للجميع كما وجدت الطبقة المصرية المثقفة والتى تنشد الحياة الدستورية أنها لو اتحدت مع الحركة الوطنية فى الجيش لعجلت بوضع حد فاصل لشقاء البلاد ولأنقذت الوطن من التغلغل الأجنبى ، ونتيجة لتزايد شعبية عرابى أشار عليه عبد الله النديم الذى انضم الى العسكريين ووقف بجانبهم بطبع منشور يطلب فيه من الشعب أن ينيبه — أى عرابى — فى المطالبة بحقوقه والتحدث باسمه فيما يتعلق بشئون البلاد [١٠] فوافق عرابى وقام النديم بتوزيع هذا المنشور فى كافة انحاء البلاد كما أخذ يبث الأفكار الثورية بين مشايخ العربان وعمد البلاد وأعيانها وعلمائها وتجارها وكافة الأهالى استجلابا لمساعدتهم [١١] ثم

أخذ فى جمع التوقيعات منهم ودعاهم الى نصرة عرابى ، واخـذ يعلمهم فوائد الحرية ومعانى الدستور .

وبعد أن جمع النديم توقيعات الأهالى عاد الى القاهـرة ، ومعـه التوكيلات التى وقع عليها النـاس بانابة عـرابى فى الدفاع عن حقوقهم ففرح بها عرابى وشدت من أزره ، وكان لها اثـرا كبيرا فى تقوية العزائم وعلى اثر ذلك جاءت الوفود من الأقاليم الى القاهرة لمبايعة عـرابى على تخليصهم من الظلم الذى ضيق عليهم حياتهم وافسـدها واسـتقبل عرابى هذه الوفود فى منزله الذى كان يمتلأ بالنـاس يوميـا ، وأخـذ ينشـر آراءه بينهم ، وبذلك تضامن الشعب مع الجيش من أجل الاصلاح وأصبح عرابى نائبا عن الأمة المصرية يتحدث باسمها ويدافع عن حقوقها .

مظاهـرة عابدين ٩ سبتمبر ١٨٨١ ونتائجها :

ولمـا برزت خطورة العرابيين وخصوصـا بعد أن تكاتف الشـعب معهم أحس الخديو بالخطـر على مركزه ، ورأى ضرورة السـيطرة على الجيش فأقال البارودى من نظارة الحـربية فى ١٣ أغسـطس ١٨٨١ ، وعين مكانه صهره داود يكن وطلب منه الحـد من نشاط الوطنيين داخل صـفوف الجيش فقـام وزير الحـربية الجـديد بفرض الرقابـة على العـرابيين وملاحقتهم بالجواسيس ، كما حاول تشتيت شملهم فأصـدر أوامره بنقل الفرقة الثالثة المشاة التى يقودها عـرابى من القاهـرة الى الأسكندرية والآلاى السودانى الذى يقوده عبد العال حلمى الى دميـاط ، ونظرا للخطورة التى تترتب على تشتيت شمل الجيش توقف عرابى وصاحبه عن اطاعة الأوامر وأرسل خطابا الى وزير الحربية وضح له فيه أن صدور الأوامر بنقله يعنى تشتيت القوات العسكرية بغرض الانتقام منه وانـه وزملاءه لا يستطيعون تسليم أنفسهم للموت ، ولذلك ستحتشد قواته فى ميدان عابدين الساعة الثالثة والنصف من مساء يوم ٩ سبتمبر لعـرض مطالبها ، وأنهى عـرابى خطابه بأن وزير الحربية لن يجـد أى فـرقة عسكرية تتقدم لاطاعة أوامره .

وكان نبأ احتشاد العرابيين بقواتهم فى عابدين مفاجأة للخديو حيث

كان قبل الحادث بيوم فى زيارة لطنطا مع بعض وزرائه ، ولم يتوقع تطور الموقف الى هذا الحد .

ولما علم الخديو بتصميم العرابيين على التجمع أمام قصر عابدين اخذ رأى المستر كولفن Colvin المراقب المالى الانجليزى فيما يجب عمله فنصحه باستدعاء القوات الموالية له ، واستدعاء البوليس الحربى الى ميدان عابدين وقيادة هذه القوات واعتقال عرابى عند اقترابه من الميدان ، ولكن الخديو رفض النصيحة على أساس أن المدفعية وسلاح الفرسان مع عرابى ، وقد يطلقون النار ، ولكن المستر كوكسن شجعه وأوضح له بأنه اذا لم تكن لديه الشجاعة لاتخاذ المبادرة فستكون العواقب وخيمة .

وقد ذهب الخديو مع المستر كولفن وبعض الوزراء والضباط الموالين له الى قصر عابدين حيث أقسمت له فرقة الحراسة يمين الولاء ثم ذهب للقلعة حيث حدث نفس الشىء ، ولكن اتضح لهم أن الفرقة الموجودة بالقلعة كانت تعطى اشارات لفرقة عرابى فى العباسية قبل وصولهم وحاول الخديو الذهاب الى ثكنات العباسية ، ولكن الساعة كانت قد اقتربت من الثالثة والنصف وهو الموعد الذى حدده عرابى للاحتشاد فى عابدين فحثه كولفن على الرجوع الى ميدان عابدين آخذا معه فرقة القلعة ، وعند وصوله للميدان يضع نفسه على رأس تلك الفرقة وفرقة الحراسة والبوليس الحربى ، ولكن الخديو ذهب الى العباسية ، وكانت الساعة حوالى الرابعة فوجد أن عرابى سار بفرقته الى ميدان عابدين فتبعوه ودخل الخديو القصر من باب جانبى ، وتجمعت قوات العرابيين فى ميدان عابدين فى مظاهرة عسكرية قوامها أربعة آلاف ضابط وجندى تصحبهم فرسانهم ومدفعياتهم على النحو التالى : ثلاثة فرق مشاة فى الجوانب الأربعة للميدان، والمدفعية وقوة الفرسان ومجموعة من الضباط حول عرابى فى الوسط ، كما ازدحمت ساحة عابدين بجماهير المواطنين ، وامتلأت نوافذ البيوت المجاورة للسراى واسطحها بالمتفرجين .

ونزل الخديو من القصر وتقدم الى الميدان بناء على نصيحة المستر كولفن وكان عرابى راكبا حصانه فطلب منه الخديو أن ينزل من على جواده

ففعل وتقدم عرابى مع بعض ضباطه الى الخديو الذى طلب منه أن يغمد سيفه فأطاع عرابى الأمر [١٢] وسأل الخديو عرابى عن أسباب حضوره بالجيش فأجاب عرابى « جئنا يا مولاى لنعرض عليك طلبات الأمة وطلبات الجيش وكلها طلبات عادلة » فسأل الخديو « وما هى هذه الطلبات ؟ » فأجاب عرابى بأنها « اسقاط وزارة رياض المستبدة وتشكيل مجلس للنواب على النسق الأوربى وزيادة عدد الجيش الى القدر المعين فى الفرمانات السلطانية والتصديق على القوانين العسكرية » فقال له الخديو « كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها وأنا ورثت ملك هذه البلاد عن آبائى وأجدادى وما أنتم الا عبيد احساننا » فرد عرابى « لقد خلقنا الله أحرارا ولم يخلقنا تراثا وعقارا ، فوالله الذى لا اله الا هو اننا لا نورث ولا نستعبد بعد هذا اليوم » [١٣] .

ولما أوضح الخديو لعرابى أن مطالبه ليست من اختصاص رجال الجيش كان رد عرابى « لست أطلبه وأنا عسكرى الصفة بل أنا نائب هذه الأمة الواقفة » [١٤] ، وهذا يعنى أن عرابى وقف فى ساحة عابدين مستندا فى تقديم مطالبه الى الخديو على التوكيلات التى أرسلها له الشعب ليكون متحدثا باسمه ، وممثلا للأمة المصرية كلها ينطق باسمها ويعبر عن ارادتها عن طريق الجيش الذى اجتمع ليفرض بقوة السلاح مطالب الشعب المصرى فى الحرية والعدالة على الخديو ، ثم تطورت مطالب العرابيين وهى المساواة بين الضباط المصريين والشراكسة ، بتغيير شكل الحكومة من نظام استبدادى الى نظام دستورى .

ولما تحرج الموقف بالنسبة للخديو وخصوصا بعد أن رفض عرابى أن تترك قواته ساحة عابدين الا بعد أن تجاب مطالبه نصح المستر كولفن الخديو بالعودة الى القصر ، وأن يترك له مهمة التحدث مع عرابى وزملائه ففعل ، وقام كولفن بشرح خطورة الموقف للعرابيين ، واخذ يحثهم على سحب قواتهم ، ولما لم ينجح فى محاولاته اقترح على الخديو أن يقوم بابلاغ الضباط أنه على اتصال بالباب العالى لعرض مطالبهم ، ويجب عليهم التفرق حتى يصل الرد من القسطنطينية ، ووافق الخديو على الاقتراح وذهب القنصل الانجليزى المستر كوكسن واخبر عرابى بذلك فكان رد عرابى أنه سيبقى وقواته

فى الميدان الى أن يصل الرد ، وانهم لن يعترفوا بالخديو حتى يصل مندوب من الباب العالى لتسوية هذه المسائل ، فأبلغ كوكسن الخديو بالأمر ، وأوضح له أن الطلب الذى يعطيه الضباط أهمية حقيقية هو عزل الوزارة ، وبعد اجتماع قصير بين الخديو ورياض خول الخديو المستر كوكسن اخبار عرابى بأنه وافق على تغيير الوزارة على أن تبقى النقاط الأخرى التى طلبها الضباط معلقة الى ان يصل الرد من الباب العالى ، وقد وافق عرابى على ذلك وعزل رياض باشا ، ولما عرض على عرابى تعيين حيدر باشا أو اسماعيل أيوب رئيسا للوزارة رفض كليهما ، وطلب تعيين شريف باشا لثقة العسكريين فيه ، فوافق الخديو ، ودعا شريف الى تأليف وزارة جديدة فقبلها بعد أن اشترط نقل الفرق العسكرية التى اشتركت فى المظاهرة خارج القاهرة ، وقد وافق العرابيون على طلب شريف ، وغادر عرابى وجنوده ساحة عابدين تصحبهم نشوة النصر .

ولما شرع شريف باشا فى اختيار النظار طلب منه العسكريون تعيين محمود سامى البارودى ناظرا للجهادية فلم يرق له طلبهم ، واخبرهم بأنه « ترك الجهادية لنفسه » ، لكنهم أصروا على طلبهم مما اضطر شريف باشا الى اختياره .

وهكذا انتصرت الأمة بواسطة جيشها ، ونالت مطلبها بعد أن تبل الخديو مطالب العرابيين .

ولكى ينقذ الخديو موقفه المتدهور أرسل الى السلطان العثمانى يبلغه بتطورات الموقف وتعاظم نفوذ العرابيين ، ويطلب منه « ارسال قوة عسكرية يبلغ تعدادها عشرين طابورا على وجه السرعة على أن تكون قيادتها منوطة به خاصة ، ولكن السلطان أهمل طلبه خصوصا وأن انجلترا حاولت منع تركيا من استغلال الموقف للتدخل فى شئون مصر فطلبت من مندوبها فى الآستانة اقناع السلطان بذلك ، وقد استعاض السلطان عن ارسال قوات عسكرية بارسال بعثة لتقصى الحقائق فى مصر برئاسة على نظامى باشا .

وقد وصل الوفد الى القاهرة فى ٦ اكتوبر ١٨٨١ ، وزار آلاى قصر النيل الذى كان تحت قيادة طلبة عصمت ، والقى نظامى باشا خطابه بالتركية ترجمه البارودى للضباط ، وردا على الخطاب أعلن طلبة عصمت انه نيابة عن الضباط والجنود يعرب عن اعترافه بسيادة السلطان على مصر وتأييده لسلطة الخديو .

وقد غادر الوفد القاهرة الى الاسكندرية فى ١٨ أكتوبر ١٨٨١ .

والجدير بالذكر أن انجلترا وفرنسا استاءتا من حضور الوفد العثمانى الى مصر على غير اتفاق معهما واعتبرتاه تدخل فى شئون مصر الداخلية ، كما انتهز السير ادوارد مالت القنصل الانجليزى الفرصة لكى تبسط بلاده نفوذها على مصر فطلب من حكومته ارسال بارجة حربية الى مياه الاسكندرية فأجابته الى طلبه كما اتفقت الحكومة الفرنسية على أن ترسل هى الأخرى بارجة على أن تغادر البارجتان الاسكندرية حين مبارحة الوفد العثمانى مصر ، وفعلا حدث ذلك حيث غادرت البارجتان ميناء الاسكندرية فى ٢٠ أكتوبر ١٨٨١ أى غداة سفر الوفد العثمانى .

ومما سبق يتضح أن موقف الدولة العثمانية كان قائما على أهمية تثبيت السيادة التركية على مصر دون الاهتمام بمصالح مصر ومصيرها .

العرابيون ووزارة شريف باشا :

واستقرت الأمور فى البلاد وخصوصا بعد أن وافق العسكريون على طلب شريف باشا بالتنحى عن مسرح السياسة والعودة الى معسكراتهم فنقل آلاى عبد العال حلمى الى دمياط ، وآلاى عرابى الى راس الوادى بالشرقية وذلك استجابة لطلب شريف باشا .

ومع أن شريف حاول تشتيت شمل الجيش حتى يبعده عن التدخل فى السياسة ويزيل الصفة التى اكتسبها عرابى بأنه نائب عن الأمة مقد خاب تقديره لان خروج عرابى من القاهرة الى راس الوادى لم يفقده شعبيته ، ولم يبعده عن قيادة الحركة الوطنية فقد تجمع حوله

الفلاحون وتردد عليه الأهالى والعربان الذين وجدوا فيه متنفسا لآمالهم والمدافع عن حقوقهم ، وتسابق أعيان الشرقية وفلاحوها للاحتفاء به ، وكانت مواكب عرابى كالمظاهرات الوطنية ، كما أصبحت الشرقية مجالا خصبا لنشر المبادىء الوطنية فى نفوس عمد البلاد ومشايخ العربان .

ولم يكد شريف باشا يسمع بأخبار الاستقبالات الشعبية التى تحيط بعرابى والعرابيين فى الشرقية حتى ضاق ذرعا وازداد حنقا على عرابى فاستدعاه الى القاهرة ليبعده عن الفلاحين ، وحتى يتيسر له — كما يذكر — « اعطاؤه النصائح فى كل وقت »(١٨) ونتيجة لاصرار البارودى واستحسان باقى النظار لرأيه اضطر شريف الى تعيين عرابى وكيلا لنظارة الجهادية ، كما عرض عليه رتبة اللواء ، ولكنه رفضها حتى يبقى الآلاى فى عهدته .

وهكذا سار العرابيون من نصر الى نصر ، يحدوهم الأمل فى تحرير بلادهم من ربقة الظلم الداخلى والتدخل الخارجى .

وبعد أن تمت انتخابات مجلس النواب افتتح الخديو المجلس بالقاء خطبة العرش .

وعين سلطان باشا رئيسا للمجلس لمدة خمس سنوات ابتداء من ٧ فبراير ١٨٨٢ ، وسارت حكومة شريف تؤدى وظيفتها بطريقة ديمقراطية فأفسحت صدرها للنقد والملاحظة ، وكادت تستقر لها الأمور وتتمكن الحياة الدستورية من السير فى الطريق السليم لولا أن ذلك لم يوافق هوى كل من انجلترا وفرنسا لأن مصر متى أصبحت فى يد أبنائها لابد أن تعيد النظر فى الامتيازات الأجنبية ، وتوقف مد التدخل الأوربى فراحت الدولتان تدبران لافساد الموقف فافتعلت سلسلة من الأزمات لعرقلة الأمور ، وبدأ تدخلهما يظهر بصورة سافرة ، فلما اجتمع مجلس النواب فى ٢٦ ديسمبر ١٨٨١(١٩) بدأ فى ترتيب لائحته الداخلية ومناقشتها ، وفى أثناء مناقشة اللائحة وقع خلاف بين النواب والوزراء حول سلطة المجلس فى اقرار الميزانية ، وأثناء بحث هذا الخلاف طلب المراقبان الماليان الحد من سلطة البرلمان فى تقرير الميزانية بحجة أن ذلك

من اختصاصها وأن ميول المجلس عدائية نحو الجانب الأوربى فى الحكومة ، ولبث روح انشقاق بين نواب الأمة والخديو أرسلت كل من انجلترا وفرنسا فى ٧ يناير ١٨٨٢ مذكرة مشتركة الى الخديو تتضمن تأييد الدولتين له بكل الوسائل للتغلب على الصعوبات التى تواجهه[٣٠] حيث انهما اتفقتا على بذل الجهود المشتركة لمقاومة كل اسباب المشاكل الداخلية والخارجية التى تهدد النظام القائم فى مصر ، وقد قوبلت هذه المذكرة بثورة عارمة أدت الى تكاتف الجيش والوطنيين ومجلس النواب ضد انجلترا وفرنسا ومع أن الحكومة رفضت المذكرة فان الخديو قبلها بالشكر والعرفان مما كان له أبعد الأثر فى تطور الحوادث فقد نجحت انجلترا وفرنسا بذلك فى زيادة الهوة والانقسام بين العرابيين والخديو ولم يكتفيا بذلك بل ارسلتا مذكرة مشتركة أخرى فى ١٨٨٢/١/٢٦ تؤيدان ما طلبه المراقبان الماليان فى أن مجلس النواب ليس من حقه الاقتراع على الميزانية .

ولما أحس شريف باشا بخطورة الموقف ، والضغط الأوروبى تقدم بقانون تأسيس المجلس الذى تضمن منع النواب من الاشراف على الميزانية مما اثار ثائرة أعضاء المجلس ، فرفضوا هذا القانون وأصروا على ضرورة اشراف المجلس على الميزانية وأخذ الاعراض عن شريف يتمكن من نفوسهم ، وطالب البارودى النواب بضرورة الاطلاع على الميزانية ، ومناقشتها وعزل شريف باشا اذا لم يوافق على ذلك .

والواضح انه كان يوجد داخل مجلس النواب اتجاهان أحدهما دستورى معتدل وعلى راسه شريف باشا والآخر دستورى ثورى يستند على العسكريين .

ولما زاد التدخل الأوربى فى شئون مصر برز دور العناصر الدستورية الثورية فحين تدخل قنصلا انجلترا وفرنسا فى الأمر رفض مجلس النواب تدخلهما ، وارسل النواب لجنة الى الخديو مطالبين بالاشراف على الميزانية أو استعفاء الوزارة فثارت ثائرة شريف باشا واضطر الى الاستقالة مما أدى الى انتقال مقاليد الأمور الى الحزب العسكرى وانصاره .

وهكذا تطورت الأمور الى درجة التحدى الواضح بين العناصر الوطنية

التى تريد وقف النفوذ الأجنبى وبين الدول الأوربية التى لم تكن تسمح بقبول الوضع الذى مكن الوطنيين من ادارة شئون بلادهم .

وزارة البارودى وانتصار ارادة الثورة :

وبعد استقالة وزارة شريف باشا جمع البارودى الضباط والنواب فى قشلاق عابدين ، وطلب منهم تعيينه رئيسا لمجلس النظار خلفا لشريف ، فذهب النواب الى الخديو وطالبوا بتعيينه فوافق على طلبهم ، وكلف محمود سامى البارودى بتشكيل الوزارة على أن تحال اليه نظارة الداخلية كما أمر الخديو بتعيين عرابى وزيرا للحربية فى الوزارة الجديدة .

وقد استهلت وزارة البارودى عهدها بأن جعلت من حق مجلس النواب النظر فى الميزانية والاشراف على أحوال البلاد المالية مع تعهدها باحترام الارتباطات الدولية والالتزامات المالية المرتبطة بالديون ، كما كونت مجلس شورى الحكومة لرفع الاستبداد الادارى عن الشعب[٢١] وللمساعدة فى تجهيز القوانين واللوائح الادارية وهكذا استطاع العرابيون السيطرة على زمام الموقف وانحد من سلطة الخديو الذى أصبح لا حول له ولا قوة وسارت الحركة الوطنية يحدوها الرغبة فى السير بالبلاد الى بر الأمان ، ولكن تطورات الأحداث أعاقت حركتهم .

مؤامرة الجراكسة :

وقام عرابى بتمصير الجيش باحالة عدد كبير من الضباط الأتراك والشراكسة على الاستيداع واصدار قوانين فى صالح الوطنيين ، وترقية حوالى ٥٦٠ ضابطا منهم ، فأحدث ذلك ضجر بين الجراكسة وزاد من ضجرهم أن عرابى أدخلهم ضمن تشكيل الآلاى المقترح ارساله الى السودان للحد من انتشار الثورة المهدية فتآمروا على اغتيال زعماء الثورة وقد علم عرابى بهذه المؤامرة عن طريق شخص يدعى راشد نور فقبض على المتآمرين ومنهم عثمان رفقى وعقد لهم مجلسا عسكريا برئاسة على الروبى لمحاكمتهم وقد أصدر هذا المجلس احكامه بنفى أربعين من المتهمين الى أقاصى السودان مدى الحياة وتجريدهم من الرتب العسكرية والنياشين[٢٢] ولكن القنصلين الانجليزى والفرنسى أوعزا الى الخديو

بعدم التصديق على هذه الأحكام ، فوافق الخديو على طلب القنصلين بحجة أن الأحكام صادرة على الأربعين ضابط على سياق واحد ولا يصح أن تكون جنحة الجميع مثل بعضهم بل لابد من التفاوت واصدر أمرا بتخفيف العقوبة الى مغادرة المتهمين للبلاد ، والغاء بقية الأحكام مما أثار حنق العرابيين على الخديو الى حد أن البارودى دخل ثائرا على الخديو ، وطلب منه اصدار أمر يقضى بنفى المحكوم عليهم ، ومحو أسمائهم من دفاتر العسكرية والا فانه لن يكون « آمنا على نفسه ولا على مسند حكومته ، ولا على حياة الأوربيين الموجودين بالقطر المصرى » كما هدده بأنه ستحدث مجزرة كبيرة لن ينفع الخديو فيها القناصل ولا الدول الأجنبية ، ولكن الخديو أصر على رأيه وفى نفس الوقت عرض الأمر على السلطان العثمانى ، وطلب منه ارسال هيئة تحقيق تركية تحت رئاسة مشير لاعادة التحقيق مما زاد من سخط العرابيين على الخديو خصوصا وأنهم اعتبروا أن عرض الأمر على السلطان بمثابة تنازل عن الامتيازات التى نالتها مصر فى استقلالها بشئونها الداخلية فطلب محمود سامى البارودى بصفته رئيسا للنظار دعوة البرلمان للتشاور فى هذا الأمر منكرا على الخديو حق العفو ، ولكن الخديو رفض دعوة المجلس مما دفع البارودى الى دعوته بدون أمر الخديو[٢٣] مخالفا بذلك المادة التاسعة من الدستور التى تنص على أنه « اذا مست الحاجة الى تكرار اجتماع المجلس فى غير مدته المعتادة فيكون ذلك بمقتضى أمر يصدر من الحضرة الخديوية تتقرر فيه مدة ذلك الاجتماع »[٢٤] . وقد تم الاجتماع بمنزل محمد سلطان باشا رئيس المجلس ، وحضره معظم النواب وكثير من رجال الجيش ، وقد ألقى عرابى خطبة طلب فيها خلع الخديو ولكن سلطان باشا رفض ذلك بقوة وطالب بتأييد الخديو ولم يستطع العرابيون رغم تهديدهم لسلطان باشا ومحاصرة منزله بما يقرب من الفى عسكرى الحصول على موافقة المجلس ، وقد انتهز الخديو هذه الفرصة واستطاع احداث انقسام بين أعضاء البرلمان فأغرى محمد سلطان باشا رئيس المجلس وستة آخرين بالانضمام اليه ، ومع ذلك قرر المجلس مؤازرة الوزارة كما قرر بأغلبية ٤٥ ضد ٣٠ صوتا بأنه اذا استمر الخديو فى الاستماع الى النصائح الأجنبية فلابد من خلعه ومحاكمته ، وبذلك وقف النواب مع الجيش تساندهم الوزارة ضد الخديو مما زاد من مشاكله .

واشتدت الأزمة بين العرابيين والخديو ، وتدخل النواب ورجال الدين للتوفيق بين الطرفين فطلبوا من الخديو ابقاء الوزارة حلا للاشكال • وبعد مشاورات وافق على طلبهم ، وذهب الوزراء اليه أعلنوا ولائهم التام له •

والجدير بالذكر أن العرابيين كانوا ينقسمون الى متطرفين أمثال طلبة عصمت وعبد العال حلمى ومحمد عبيد وعبد الله النديم ، ومعتدلين أمثال البارودى وعبد السلام المويلحى أما عرابى فكان يحتل المركز الوسط ؛ وفى حين كان يزج المتطرفين بعرابى الى مواقف خطيرة كان المعتدلون يحاولون تهدئة الموقف •

العرابيون والتدخل الأجنبى :

وقد سارت الأمور بما لا يعطى مجالا لأى تدخل أجنبى ، وضمن عرابى مسئولية حفظ النظام وصيانة الأمن ، ولكن انجلترا وفرنسا ما ان وصلت أساطيلهما الحربية الى الاسكندرية حتى تقدمتا بمذكرة مشتركة اخرى فى ١٨٨٢/٥/٢٥ تطلبان فيها اسقاط وزارة محمود سامى البارودى ، وابعاد أحمد عرابى من مصر ، وتحديد اقامة على فهمى وعبد العال حلمى فى الريف •

وقد رفضت وزارة البارودى هذه المذكرة كما رفضتها الأمة كلها ، وارسلت التلغرافات لتأييد الوزارة الوطنية ، ومع ذلك فقد وافق عليها الخديو ، وطلب من النظار قبولها منعا لحدث ارتباكات سياسية وسفك دماء ولكنهم اعترضوا على ذلك ، وقدم محمود سامى البارودى استقالته فى ٢٦ مايو احتجاجا على التدخل الأجنبى وقبول الخديو له ، فقبلها الخديو بناء على نصيحة انجلترا وفرنسا ، وتولى أمور الجيش بنفسه • وقد أدى هذا الاستفزاز من الخديو للعرابيين الى تذمر كبار الضباط الوطنيين فأظهر طلبه عصمت العصيان وقال للخديو « انه بالاصالة عن نفسه وبالنيابة عن اخوانه بالجهادية لا يقبلوا ذلك » وانهم يرفضون المذكرة المقدمة من انجلترا وفرنسا ولا يقبلون عزل عرابى عن نظارة الجهادية ثم خرج طلبة عصمت غاضبا ومعه على فهمى ويعقوب سامى وبعض الضباط ومع ذلك فقد أصر الخديو على رايه واصدر

أوامره الى العسكريين بالتزام ثكناتهم والى المديرين بعدم تنفيذ الأوامر التى كانت وزارة البارودى قد ابلغتهم بها بعد أن أصبحت مستقيلة ، وأخذ رجال الجيش من انصار عرابى فى عمل محاضر ضد الخديو[٢٥] كما أعلن الضباط أنهم لن يقبلوا ناظرا للجهادية غير عرابى باشا وأرسل كبار الضباط وافراد الآلايات وقائمقامات البوليس والمستحفظين بالاسكندرية تلغرافات الى الخديو بأنه اذا لم يعد عرابى الى وظيفته فلن يكونوا مسئولين عن الأمن فى المدينة ، وحدد بعضهم مهلة اثنى عشر ساعة لعودة عرابى الى وظيفته . كما وردت التلغرافات من كافة طبقات الشعب تؤيد العرابيين فى موقفهم الوطنى وأراد قناصل الدول الأجنبية ضمان حماية رعاياهم فاجتمعوا بعرابى وألزموه مسئولية حماية الأوربيين فأجابهم عرابى بأنه لم يعد له صفة رسمية تمكنه من تحقيق مطالبهم ، ولكنه بصفته الشخصية كمواطن يؤكد لهم حماية الأجانب . واجتمع عرابى برجال الجيش وهدد بمحاصرة سراى الاسماعيلية اذا لم يصدر له أمرا بابقائه فى نظارة الحربية كما طلب من رجال الجيش الا يتصرفوا الا بناء على تعليماته ، ولا يفعلوا شيئا الا بأوامره ، ويذكر الخديو توفيق فى رساله له الى الباب العالى أن عرابى وان كان قد استقال (لفظا) فانه لم يتخل عن القيادة ، وهو يتابع اصدار المنشورات الى العساكر حيث يضمنها تعليماته كما ان الضباط والعساكر يأبون سواه للجهادية .

والواقع أن عرابى لم يكن خلال هذه الأزمة على اتصال بالجيش فقط بل أيضا بالوطنيين من غير العسكريين ويبدو ذلك واضحا من خطاب لعرابى يذكر فيه انه وان كان قد استعفى من نظارة الجهادية فانه لم يستعف من رئاسة الحزب الوطنى وقد حاول سلطان باشا وبعض النواب حسم الخلاف فذهبوا الى الخديو وطلبوا منه أن يظل عرابى ناظرا للحربية فرفض فالتحمت طبقات الشعب وخرج علماء الأزهر والمشايخ والنواب والأعيان ومجموعة من التجار وأصحاب الحرف الى الخديو ، وطلبوا أن يستمر عرابى فى نظارة الجهادية حفظا للامن تسكينا للاضطراب ، وانه « فى حالة عدم قبول ملتمسهم سيحصل قتل عام » وتحت هذا الضغط الشعبى أضطر الخديو الى اعادة عرابى ناظرا للجهادية والبحرية والاكتفاء به ليدير شئون البلاد مع وكلاء الوزارات المختلفة[٢٦] بمعنى انه رغم عودة

عرابى فان مصر ظلت بدون مجلس وزراء ، واستمر هـذا الوضـع لمدة ٢١ يوما مما يدفعنا الى التساؤل عن سبب ذلك ولماذا لم يكلف الخديو أحد بتشكيل الوزارة مع أنه أعاد عرابى الى نظارة الجهادية .

الواقع أن الخديو توفيق طلب من شريف باشا تشكيل الوزارة ، ولكن شريف اشترط تعيين عمر لطفى محافظ الاسكندرية ناظرا للجهادية ولما رفض رجال العسكرية ذلك وأصروا على بقاء عرابى تأخر تشكيل الوزارة .

بعثـة درويش باشـا :

ونتيجة لتطور الأحداث حاول السلطان العثمانى استغلال الموقف بهدف عودة سلطانه المتدهور فى مصر وتثبيت السيادة التركية عليها فأرسل بعثة الى مصر وصلت اليها فى ٧ يونية ١٨٨٢ تحت رئاسة درويش باشا لتقصى حقائق الأمور والتحقيق فى أمر الخلاف بين الخديو والوزارة فأرسل كل من الخديو وعرابى مندوبين لاستقبال البعثة فى الاسكندرية فكان ذو الفقار باشا ينوب عن الخديو ، ويعقوب سامى ينوب عن عرابى ولما حضر درويش باشا الى القاهرة استقبله الشعب فى الطريق بشعارات يمدحون فيها عرابى ويخفضون من شأن الخديو وكان يشجعهم على ذلك حسن موسى العقاد ويعطيهم النقود ، ولم يعترض مأمور ضبطية مصر على ذلك[٣٧] .

وكانت خطة درويش باشا الاستفادة من الخلاف بين الخديو والعرابيين وكان العثمانيون يرون فى استفحال أمر الوطنيين على الخديو فائدة لهم آملين من ذلك بقاء مصر تحت حوزتهم ، ورغبة فى أن يؤدى هذا الانقسام الى تثبيت مركزالسلطان أظهر درويش باشا لكل طرف أنه معه ولما اتضحت نواياه بعد ذلك أعلن انضمامه الى الخديو علانية ، ومع ذلك فقد ظل مركز العرابيين قويا وخصوصا أن الأمة كانت تقف صفا واحدا خلف عرابى مما ضايق الخديو وحاول زعزعة الثقة فى العرابيين وخصوصا أمام الدول الأوروبية ، قد تم له ما أراد بقيام مذبحة الاسكندرية .

العرابيون ومذبحة الاسكندرية :

حاول الخديو أن يحرج مركز العرابيين خصوصا بعد أن تعهد عرابى بمسئولية حفظ الأمن والنظام ، وذلك باحداث شغب وفوضى مما يزعزع الثقة فى النفوس ، وخصوصا الجاليات الأوروبية مما يؤدى الى التدخل الأوروبى بحجة أن الحكومة غير قادرة على حماية ارواح الأجانب فسعى بواسطة بعض اتباعه الى احداث شغب فى القاهرة « الى حد أن الوزارة احتاطت لمنع الفتنة » .

واستدعى الخديو ابراهيم بك توفيق مدير البحيرة ، وطلب اليه أن يجمع مشايخ قبائل البدو ، ويحضرهم اليه ففعل ثم أوعز الى المدير أن يأمرهم بحشد ٣٠٠٠ بدوى ، واحضارهم الى العاصمة عن طريق الجيزة ليحدثوا فتنة فى البلد ولكن تعذر ذلك ، ولما فشل الخديو فى مسعاه أرسل برقية الى عمر لطفى محافظ الاسكندرية جاء فيها ما يلى « قد ضمن عرابى أمر الأمن العام ، ونشر ذلك فى الصحف ، وجعل نفسه مسئولا لدى القناصل ،واذا نجح فى ضمانه هذا وثقت به الدول وصغر شأننا ، أما الآن واساطيل الدول فى مياه الاسكندرية وعقول الناس متهيجة ، فوقوع الخلاف بين الأوربيين وغيرهم آمر محتمل ، فاختر لنفسك اما خدمة عرابى فى ضمانه او خدمتنا » .

ويذكر تيودور روزشتين أنه استتبع هذه البرقية مفاوضات اخرى جرت على يد ابن عم الخديو الأمير حيدر باشا الذى تنقل عدة مرات بين القاهرة والاسكندرية حاملا رسائل المتآمرين كما سافر عمر لطفى الى القاهرة فى ٩ يونية ليقف على خطة المؤامرة . وقد طلب الخديو منه احداث شغب فى المدينة حتى يكون ذلك وسيلة الى افشال تعهد عرابى وتوجيه اللوم عليه ، وهكذا دبرت مذبحة الاسكندرية ، وقد بدأت الحوادث فى يوم الأحد ١١ يونية ١٨٨٢ فى الساعة الثانية ظهرا على اثر مشاجرة فردية بين مالطى من اتباع الانجليز وبين مكارى مصرى بسبب خلاف على أجر حمار كان الأول قد استأجره من الثانى وتطور الأمر بينهما الى حد أن المالطى طعن المصرى بسكين[٢٨] فجرحه وتجمع الناس ، وتدخل جاويش مصرى من قسم اللبان ضد المالطى ، كما انتصر للمالطى احد

أبناء جلدته ، وفى أثر ذلك كثرت الغوغاء وعلت الضوضاء وسلت الخناجر وجردت المدى من الأغماد ، واشتعل الموقف وتطور الأمر الى حد ضرب بعض الأجانب للاهالى بالرصاص من نوافذ وأسطح المنازل وامتدت المشاجرات حتى عمت أرجاء الثغر فهجم الرعاع على المارة وأصحاب الدكاكين وأخذوا يسطون على كل أجنبى وجدوه فى طريقهم كائنا ما كان ويوسعونه ضربا بالعصى والهراوات كما انتشروا فى الشوارع وانبثوا فى أحياء الأوروبيين منادين بالجهاد وساعد على ذلك القلق والاضطراب اللذان استوليا على أهالى الاسكندرية نتيجة للشائعات حول تواجد الاسطول المشترك فى مياه الاسكندرية واستمر القتال نحو خمس ساعات لم يستطع احد خلالها السيطرة على زمامه الا بعد تدخل القوات العسكرية المرسلة بأمر عرابى والواقع أنه لولا تدخل عرابى فى الوقت المناسب لانتهى الشغب بمجزرة عنيفة أودت بحياة الأوروبيين .

ان اصابع الاتهام تشير الى أن مدبرى هذه المذبحة هم عمر لطفى محافظ الاسكندرية بالاتفاق مع الخديو والسيد قنديل مأمور الضبطية فى حى اللبان بالاسكندرية وعبد الله النديم خطيب الثورة العرابية والانجليز وفيما يلى نعرض للتهم الموجهة الى كل هؤلاء ، ووجهات النظر المختلفة حولها .

ان اتهام عمر لطفى بالتحريض على هذه المذبحة (٢٩) أمر له ما يبرره وفيما يلى نعرض لذلك .

١ — ذكر محمد رشيد رضا أن الشيخ محمد عبده قال « كنت فى الاسكندرية فسمعت الناس أجمع يقولون أن المحافظ عمر لطفى سمح بانتشار الفتنة الى هذا الحد لانه كان مقيما فى البلد ، ولم يصدر أمرا بتوقيفها ، ولم يذهب الى مكان الفتنة . ولم يطلب مساعدة العسكر النظامى مع انهم كانوا على مقربة منه وأجمع الناس على أن عمله هذا موعز به من الخديو » حيث كان جميع مستخدمى المعية فى ثانى يوم الحادثة فى غاية الفرح والسرور لما حدث ساخرين من التزام عرابى بالمحافظة على الأمن العام كما ذكر الشيخ محمد عبده فى مذكراته عن الثورة العرابية أن عمر لطفى كان بالقرب من زيزينيا « فسأله سائل

كيف تكون هنا ، والمذابح على خطوات منك فقال لست بقائد ، وهذا لا يعنينى فسأله لم لا تحضر بلباسك الرسمى على حصانك شاهرا سيفك فى خمسين من العساكر وبذلك ينتهى الأمر فأجابه انصرف ليس هذا من شأنك » ويتفق برودلى مع الشيخ محمد عبده فى أن عمر لطفى لم يعط الأوامر بوقف المذبحة [٣٠] كما يتفق معه جون مارلو فى أن عمر لطفى لم يذهب الى مكان الحادث فى الوقت المناسب [٣١] .

٢ — ان عمر لطفى حرض بعض الناس على الاشتراك فى المذبحة ، وشجعهم على ذلك كما انه أشار على رجال البوليس بعدم التدخل بل وطلب من أحد البدو اطلاق الرصاص على كل أوربى كان يقف فى شباك وبيده مسدس وذلك لزيادة اشعال الموقف .

٣ — ان عمر لطفى جلب الى الاسكندرية عصبة من البدو المستأجرين وسلحها بالنبابيت ، كما أمر رجال البوليس فى السر بأن يشهدوا ما سيجرى ولا يتعرضوا .

٤ — ان عمر لطفى استحوذ على محل التلغراف بالاسكندرية ليكون على اتصال بالخديو ولم يخبر سليمان سامى قائد الحامية بشىء الا بعد مضى الساعة الرابعة ، وقد أمره بأن يقود جنده عزلا من السلاح .

٥ — ان عمر لطفى طلب انزال عساكر انجليزية الى الميناء لعجز عرابى عن الأمن .

٦ — ان عمر لطفى بحكم وظيفته كمحافظ للاسكندرية وقت الفتنة كان مسنودا اليه ملاحظة أشغال الضبطية والدائرة البلدية بالاسكندرية وهذه الوظيفة كانت تابعة رأسا للخديو ، ومع ذلك فانه لم يسأل عن الأحداث التى وقعت بالمدينة بل أعفى من مسئوليتها وأوعز اليه الخديو أن يستعفى بدعوى المرض .

٦ — ان الخديو أمر بتعيين عمر لطفى وزير للحربية والبحرية جزاء لخدماته .

وكما أن اتهام عمر لطفى بالاشتراك فى تدبير المذبحة أمر له ما يبرره فان التهم قوية أيضا ضد السيد قنديل مأمور ضبطية الاسكندرية لأن رجال الشرطة التابعين له تراخوا فى اتخاذ الاجراءات الكفيلة وقت الفتنة بل كانوا يحثون الأهالى على الشغب ، وقدموا النبابيت والعصى لأولاد البلد ولم يتدخلوا لحماية الاوربيين بل أن بعض الأوربيين الذين ذهبوا الى الضبطية للاحتماء بها قتلوا داخلها أو طردوا منها ليقتلهم الرعاع كما انه قد القى من على سطح ضبطية الاسكندرية الى الشارع عصى ونبابيت لاستعمالها فى الضرب واشعال الموقف ، واشترك بعض رجال الشرطة فى القتل والاعتداء ويثبت ذلك الفحص الذى قام به بعض أطباء القنصليات الأجنبية فى مصر على جثث القتلى أن هؤلاء قد قتلوا اما باطلاق الرصاص عليهم أو بآلات حادة جارحة كالسكين ، ومن ناحية أخرى فان السيد قنديل الذى كان متكفلا بتوفير الأمن فى المدينة تمارض ؛ واحتجب وقت المذبحة ولم يتحرك من منزله بحجة اصابته بشلل نصفى مع ان هذا لم يثبت بشهادة الأطباء الذين كشفوا عليه ابان محاكمته ، كما أن الطبيب مصطفى النجدى الذى زاره يوم احتجابه ذكر أنه كان يمكنه الخروج من منزله لانه لم يصب بشلل كما ادعى ، ولما أخبر بالواقعة وكان لابسا ثياب النوم ، ومضجعا على مرقده مشروح الصدر فلم يجب المعاونين مطلقا ، ومن لهجة حديثه كان يظهر رضاه عما حدث بل ويذكر البعض انه اعطى أوامره بقتل الأوربيين .

اما عن النديم فقد اتهم بأنه شجع المشاغبين على المذبحة ، وانه كان السبب المباشر فى توتر النفوس بالاسكندرية لخطبه المؤثرة التى القاها قبل المذبحة واجتماعه بشبانها ، وتأثيره عليهم بخطبه المهيجة [٣٢] وتحريضه لهم على الفتك بالاجانب مما دفع الأوربيين الى الاستعداد للدفاع عن انفسهم عند الحاجة ، وذكر عمر لطفى فى تقريره أمام قومسيون التحقيق فى ٣ اكتوبر ٨٨٢ أن النديم هيج وحرك أفكار « الأهالى » بالخطب والدسائس التى أعقبت مقتله ١١ يونية مما كان له ابلغ الأثر فى أذهان العامة ، ولا سيما من الشبان الذين ضمهم اليه ، وجعلهم آلة فى انجاز أغراضه ، فأدام التردد اليهم ، والجامعة عليهم حتى انقاد له الكثير ورغم التنبيه بمغادرة الاسكندرية وعدم العودة اليها عاد وعمل ما عمله من

الخطابة فى الجهة المعروفة بالأنفوشى . ثم ذهب ولم نشعر به الا فى اليوم الثانى ، وقد أعقب ذلك المذبحة وانهى عمر لطفى تقريره باتهام النديم وغيره من العرابيين بأنهم كانوا سبب هذه الحادثة ويؤكد ما ذكره عمر لطفى التقارير الانجليزية الخاصة بمذبحة الاسكندرية اذ يتضح منها أن هـذا الحادث كان نتيجة لخطة مدبرة من قبل العرابيين وأن حسن موسى العقاد كان قد ذهب الى الاسكندرية موفدا من قبل العرابيين قبل الحادث بيوم ، وغادرها ليلة الحادث .

وذكر الياس ملحمة الشامى أن خطب النديم كانت « تهيج الأفكار ، وتحرض المصريين ضد الأوربيين والأتراك » ، كما كان يحث الشبان على حمل السلاح وتعلم استعماله حتى استجاب له بعضهم ، وتوجهوا الى معسكر راس التين للتدريب .

وذكر محمد تامى أثناء استجوابه أن النديم كان يحضر الى الاسكندرية ويلقى فيها خطب ضد الحضرة الخديوية وضد الأوربيين .

وذكر ابراهيم الناضورى أثناء استجوابه عن حادثة الاسكندرية أن الخطب المهيجة التى كان يلقيها النديم ، وخصوصا الخطبة الأخيرة التى القاها على شاطىء ابحر بجهة السيالة ، والتى كانت قبل الحادثة بيومين كان لها أكبر الأثر فى هذه الحوادث [٣٣] ، ويتفق مع هـذا القول محمد طاهر ، ويزيد عليه أن موضوع هذه الخطب هى « مصر للمصريين » وأن السلطنة أيضا كانت للمصريين قديما وليست لأحد من الأوربيين أو الترك ويذكر أحمد سلامة انه قد بلغه قبل الواقعة بيومين أن نديم ألقى خطبا فى جهة الأنفوشى هيج فيها الأهالى وحرضهم على قتل الأوربيين وحثهم على الحرب وحفظ الوطن .

وذكر جون مارلو أن مذبحة الاسكندرية كانت النتيجة التلقائية للدعاية المضادة للاوربيين والمسيحيين [٣٤] ويؤكد على حلمى بك وكان من كبار الضباط فى محضر استجوابه ان عبد الله النديم أخبره قبل الحادث بيوم انه سيحدث بالاسكندرية أمر خطير ، وهذه هى نص روايته « انى قبل حصول المذبحة بيوم واحد قابلت عبد الله النديم فى وقت الصباح بمصر فسألته فى

اى وقت حضرت من الاسكندرية فقال حضرت منها ليلة أمس لأشغال مهمة وانى متوجه اليها فى هذا اليوم بعد الظهر فقلت له لماذا هذه العجلة ، ولأى سبب ستحضر من الاسكندرية فى ليلة أمس وتتوجه اليها فى هذا اليوم فقال لى انا حضرت من اجل مسألة مهمة ، ومتوجه الى الاسكندرية فى هذا اليوم لأن اسكندرية سيحصل فيها بكرة حركة جسيمة جدا ، وفى ثانى يوم حصلت تلك المذبحة فتحقق لى بذلك أن عرابى كان له دخل فى هذه الحركة الفظيعة » .

وذكر على داود فى محضر استجوابه أن النديم كان يحرض الشبان ويتكلم فى الديانات ، ويلقى الخطب وان سعادة المحافظ نبه عليه بالخروج من الاسكندرية .

ذكر لويس صابونجى فى رسالة منه الى بلنت أن شخصية النديم السريعة الاثارة يمكنها اشعال النار فى أى وقت لحرب دينية .

وعندما سئل أحمد عرابى أثناء محاكمته عن صلته بالنديم ، وعن مدى معرفة انه سافر الى الاسكندرية قبيل المذبحة ، وان محافظ المدينة أراد أن يخرجه منها ، ولكنه لم يستطيع لصلته بالعرابيين لم ينكر عرابى هذا بل قال بأنه ليس مسئولا عن النديم ولا عن تصرفاته .

ورغم أن هذه الشهادات والتقارير تؤكد أن للنديم يدا فى أحداث فتنة ١١ يونية فقد ذكر بلنت أن خطب النديم فى ذلك الوقت كانت تحض الناس على الهدوء ، وأنه كان يشرح لهم عدم التورط فى أى اشتباك مع الأوربيين حتى لا تعطى الفرصة للاسطول الانجليزى بالتدخل وضرب المدينة .

كما ذكر محمد حندق صاغقول مستحفظين الاسكندرية فى محضر استجوابه أن النديم لم يشجع الأهالى ضد الأوربيين بل كان يطلب منهم الاتحاد والا يعتدوا على أحد . كما أنه لم يكن موجودا بالاسكندرية وقته الحادث بل كان بالقاهرة .

والواضح ان هذه المذبحة أحزنت عرابى ورفاقه ، لأن عدم استتباب الأمن قد أساء اليهم ، وقلل من عطف الدول الأوربية على حركتهم .

وقد انكر بلنت وبرودلى اتهام العرابيين بتدبيرها ، ومع أننا نضع فى الحسبان ان شهادات وتقارير الشهود كانت بعد هزيمة العرابيين وخروجهم من ساحة المعارك ، وان المغلوب كثيرا ما تلصق به التهم جزافا فاننا نرى ان طبيعة النديم الثورية ولهجته الخطابية التى تستثير الشعور دون حيطة أو تبصر ، وكراهيته للاجانب كان لها اكبر الأثر فى اثارة الأهالى الذين تشبعوا بكراهية الأجنبى المستغل فكتموا غيظهم فى نفسهم حتى حدثت الفتنة وكان دويها واضحا فى ١١ يونية ١٨٨٢ .

اما عن اتهام الانجليز بأنهم هم الذين دبروا هذه المذبحة ، واصطنعوا حادثة المالطى مع المكارى لاثبات عجز الحكومة عن حماية الأمن استنادا على أن المالطى الذى تشاجر مع السيد العجان كان من اتباع الانجليز ، واخا لخادم المستر كوكسن القنصل الانجليزى (٣٥) فان هناك من المواقف ما يؤكد ذلك كما أن هناك من المواقف ما ينفيه .

وعن الموقف الأول يتضح حرص كولفن على اظهار البلاد بأنها غير مستقرة وبلا حكومة وان الفوضى تضرب أطنابها والخراب يتسع نطاقه ، ففى مذكرة له يذكر انه يتوقع فى أى لحظة أن يسمع عن حادثة خطيرة لا يمكن التنبؤ بعواقبها .

ويتهم عبد الله النديم المستر كولفن بتدبير أحداث مذبحة الاسكندرية فيذكر أن هناك اتفاق مع السير مالت والمستر كولفن على أحداث فتنة فى الاسكندرية بين الأجانب والمصريين لاتخاذ ذلك ذريعة لتدخل الأساطيل الأجنبية فى الموقف واحتلال المدينة كما ذكر جون نينيه بأن كوكسن شجع المالطيين على التسلح غير أن هناك ما يدل على أن تسليح الأجانب لم تكن فكرة كوكسن وحده فبعد أن انتشرت الشائعات بحدوث مذبحة للأجانب فى الاسكندرية اقترحت القنصلية اليونانية على قنصل انجلترا وغيره من القناصل وضع خطة سرية لتسليح الأجانب للدفاع عن أنفسهم وقت الحاجة ، ولكن هذه الخطة لم تنفذ خشية ما قد يترتب على ذيوعها بين الاسكندريين من حوادث خطيرة .

اما عن الموقف الثانى فيتضح من محاضر جلسات العموم البريطانى

أن ما حدث فى الاسكندرية كان كارثة بالنسبة للانجليز راح ضحيتها بعض رعايا الانجليز الذين ذبحوا برغم أنهم فى حماية الاسطول البريطانى وتؤكد الأحداث ذلك فالقنصل البريطانى كوكسن ضرب وجرح فى رأسه جرحا خطيرا بعد أن هجم عليه الغوغاء (٣٦) ولم يفلت من أيديهم الا باعجوبة كما قتل ضابط انجليزى مما دفع احد اعضاء مجلس العموم البريطـانى الى أن يتساءل على من تقع مسئولية هذه الأحداث فى الاسكندرية (٣٧) .

ومهما كان الأمر فان ما حدث فى الاسكندرية قد أعطى الفرصة للانجليز لاتخاذ هذه الأحداث ذريعة للتدخل المباشر بحجة عجز العرابيين عن حماية أرواح الرعايا والقناصل الأجانب فى مصر .

وعقب الحادث سافر الخديو الى الاسكندرية مع درويش باشا بحجة العمل — كما ذكر الخديو لثابت باشا مندوبه فى استنبول — على تهدئة الخواطر وتقوية أسباب الأمان وتخليص الأذهان من المخاوف حيث هرب معظم السكان الأوربيين من البلاد والتجأوا للاسطول والبواخر الموجودة فى الميناء بعد أن تعرضوا للمحن التى صحبت مثل هذه الأحداث، ولكن كان واضحا من ذهاب الخديو الى الاسكندرية رغبته فى أن يكون على مقربة من الاسطولين الانجليزى والفرنسى بعد أن أعيد تدبيرها بواسطة الجيش ورغم أن السلطان قد طلب من الخديو ودرويش باشا الانتقال الى القاهرة للسيطرة على زمام الأمور فانه ظل بالاسكندرية بحجة تسكين الاضطراب وازالة الخوف من نفوس الأوربيين والأهالى ، كما أن الباب العالى احتج لدى الحكومة البريطانية على اى تدخل سياسى فى مصر دون موافقة سابقة من السلطان ، وقد حاول السلطان العثمانى استغلال هذه الأحداث بارسال قوات عسكرية تركية الى مصر تكون قيادتها لدرويش باشا ولكن تلك المحاولة قوبلت بعاصفة استنكار شديدة ضد السلطان فقد انكر علماء المسلمين أن يرفع مسلما سلاحا فى وجه أخيه المسلم ، وأعلنت انجلترا أن هذا الضغط من السلطان ليس له ما يبرره وتحت هذه الضغوط سحب السلطان قراره بالتدخل المسلح فى مصر .

والجدير بالذكر انه بعد قبول استقالة البارودى لم تتألف الوزارة الجديدة برئاسة راغب باشا الا فى ٢١ يونية ١٨٨٢ وقد طلب الخديو فى

الأمر العالى الذى وجهه الى رئيس النظار الجديد ابقاء عرابى ناظرا للجهادية والبحرية [٣٨] .

وقد اهتمت وزارة راغب باشا بتهدئة الخواطر فى محاولة منها لاعادة العلاقات الطيبة بين أهالى الاسكندرية والأجانب الذين كانوا فى حالة انزعاج شديد فأصدرت تعليمات لخطباء المساجد ووعاظها « بان ينصحوا الناس بمواده النصارى وغيرهم من المخالفين فى الدين » كما اعتزمت الوزارة تأليف لجنة مختلطة من المصريين والأجانب مهمتها اجراء تحقيق فى حوادث الاسكندرية لمعاقبة المتسببين فيها ، وبدأت الأمور تستقر فى بعض أحياء المدينة ووزع العرابيون منشورا على الأهالى بأن الأساطيل على وشك الانسحاب من الاسكندرية ، وما أن اخذت الأمور تستقر حتى أصدر الخديو توفيق منشورا فى ٢١ يونية اتهم فيه عرابى بالتقصير فى المحافظة على أرواح الأجانب وأبدى أسفه لاحداث الاسكندرية .

والواضح ان مركز الخديو فى تلك الفترة كان ضعيفا وسلطته مسلوبة وقد وضح ذلك للانجليز فقد ورد فى مناقشات أحد أعضاء مجلس العموم البريطانى تساؤل عن مركز الخديو ، وعما اذا كان هو الحاكم الحقيقى فى مصر وهل يمكن أن يستمر كخديو للبلد [٣٩] أم لا .

ونظرا للخطورة المترتبة على ضعف سلطة الخديو ، وخشية الدول الأوربية وخصوصا فرنسا من انفراد انجلترا باحتلال مصر تقرر عقد مؤتمر دولى لبحث المسألة المصرية .

مؤتمر الآستانة :

دعت فرنسا الى عقد مؤتمر للنظر فى المسألة المصرية فوافقت انجلترا وروسيا والمانيا والنمسا وايطاليا على الدعوة بينما رفضت تركيا الفكرة فى بداية الأمر بحجة أن ايفاد درويش باشا الى مصر كاف لحل مشكلتها ولأن تركيا رأت فى بحث الموقف فى مصر على النطاق الدولى بمثابة تدخل فى شئون سيادتها غير أن السلطان عاد ووافق على حضور المؤتمر الذى انعقد فى احدى ضواحى الاستانة فى ٢٣ يونيو ١٨٨٢ . وانتهى الى عقد اتفاق أطلق عليه ميثاق النزاهة وبمقتضاه « تتعهد الحكومات التى يوقع

مندوبها على هذا القرار بأنها فى كل اتفاق يحصل بشأن تسوية المسألة المصرية لا تبحث عن احتلال اى جزء من اراضى مصر ولا الحصول على امتياز خاص بها ، ولا على نيل امتياز تجارى لرعاياها لا يخول لرعايا الحكومات الأخرى » .

وقد وقعه أعضاء المؤتمر جميعا ، كما قرر المؤتمر فى ٢٧ يونية ، وبعد أن انضمت اليه تركيا وجوب التدخل فى شئون مصر لاخماد الثورة على أن تعهد لتركيا بهذه المهمة ، ولكن انجلترا حين أبرمت القرار كانت تنوى نقضه فحين اقترح مندوب ايطاليا المفوض بأنه ليس من حق اى دولة مشتركة فى المؤتمر أن تقوم بأى عمل انفرادى ضد مصر طالما ظل المؤتمر منعقدا طلب مندوب انجلترا أن يضاف الى الاقتراح جملة « الا فى حالة الضرورة القصوى » ليضمن بذلك لبلاده حق التدخل فى شئون مصر بحجة ما تقتضيه الظروف القاهرة ، وفعلا فانه لم يمض على توقيع انجلترا على قرارات المؤتمر ستة عشر يوما حتى ضرب اسطولها الاسكندرية بمدافعه فى ١١ يوليو [٤٠] .

ضرب الاسكندرية :

وفى يوم ٦ يوليو شرع الادميرال سيمور قائد الاسطول الانجليزى فى استفزاز العرابيين ، وانتحال الأسباب لمباشرة الأعمال الحربية فارسل الى قائد القوات العسكرية فى الاسكندرية يطلب منه وقف التدابير الحربية التى تجرى فى الطابيات وتسكين النشاط العسكرى فى الاسكندرية ووقف التحصينات القائمة ، واذا لم يتحقق ذلك فى مدى اثنى عشر ساعة فان الاسطول الانجليزى سيضرب مدينة الاسكندرية .

والواقع أن سيمور قد حاول انتحال الذرائع للعدوان على مصر ، وكانت لديه أيضا أسباب شخصية تدفعه الى الاسراع فى مباشرة الأعمال الحربية ، فاسطول بحر المانش كان قد تلقى الأوامر بالانضمام الى أسطول سيمور ، وكان قائد أسطول المانش أرقى رتبة من سيمور ، فاذا انضم اليه تكون الرئاسة له ، لذلك أسرع سيمور فى اختلاق الأسباب لضرب الاسكندرية قبل مجىء اسطول المانش .

وذكر جون نينه Ninet وكان شاهد عيان لضرب الاسكندرية انه كان يزور الحصون بصحبة كبار الضباط يوميا ، ولم ير بها اى ترميم ولم ينصب فيها اى مدفع جديد منذ وصول اوامر السلطان واكد ذلك ايضا « وكيل عموم الاستحكامات المصرية » ولكنه ذكر ان حكمدار طابية السلسلة كان لديه ثلاثة قواعد خشبية للمدافع الصغيرة أرسلها للتصليح واعيد تركيبها بعد صدور اوامر السلطان مما جعل البعض يظن بأنه تم تركيب مدافع جديدة (٤١) .

وذكر القائمقام فرج عبد العال فى تقريره المقدم الى الخديو أنه « لما صدر الأمر السلطانى بتوقيف أشغال الطوابى ، حصل الامتثال من الجميع » (٤٢) .

وذكر محمد شكرى بك انه « لم يكن جاريا وقتها تصليح وترميم شئ بالاستحكامات نفسها بل الذى كان جاريا هو بياض وترميم القشلاقات » .

وذكر الخديو توفيق « ان ادعاءات الادميرال سيمور انما تقوم على الظن والشبهة ، فليس هناك مدافع وضعت فى الطوابى غير مدافعها القديمة ، ولم يعمد الى اية ترميمات جديدة فى الطابيات ، وليس ثمة حركات فى الطابيات سوى تنظيف المدافع ومسحها كالمعتاد واجراء بعض التمرينات دون اطلاق المقذوفات » .

ومهما كان الأمر فاننا نرى أنه من حق العرابيين تحصين وترميم مواقعهم الدفاعية ، وأن الحجة التى تذرع بها الانجليز لضرب الاسكندرية هى حجة واهية .

وطلب الادميرال سيمور من العرابيين رفع مدافع الاستحكامات الموجودة بطوابى رأس التين ، وعلى الساحل الجنوبى للمينة الشرقية لأن ذلك من وجهة نظره يعتبر تهديدا للسفن الانجليزية وهدد سيمور بانه فى حالة رفض طلبه سوف يطلق النار على الاسكندرية فى شروق شمس يوم الثلاثاء ١١ يوليو ١٨٨٢ ، وقد ردت الحكومة المصرية على انذار الأدميرال بأنه ليس هناك أية تدابير حربية تجرى فى الطابيات وأنها على الحالة التى كانت عليها عند وصول الأساطيل ، ورأت تفاديا

للعواقب التفاهم مع الادميرال سيمور بفك ثلاثة مدافع من الطوابى التى ادعى بتركيبها ، على أن يختار سيمور الأماكن التى يتم رفع المدافع عنها سواء من طابية واحدة أو من كل طابية مدفع واحد ولكنه أصر على مطالبه بتسليم الطوابى أو ضربها ، وكان الرد معارضة طلبه حتى لو أدى ذلك الى الحرب مع عدم مقابلة ضرب المدافع بالمثل الا بعد خمس طلقات من مدافع الأسطول ، ونفذ سيمور تهديده وبدأ فى ضرب الاسكندرية فى الساعة السابعة من صباح يوم ١١ يولية ١٨٨٢ وفتحت سفن الأسطول الانجليزى نيرانها على القلاع والسفن بعد أن غادر الاسطول الفرنسى بأوامر من حكومته الميناء الى البحر (٤٣) .

ولكى يجعل الانجليز عملهم العسكرى ذا صبغة شرعية عرضوا على الخديو الضيافة على ظهر احدى سفنهم حتى ينتهى الضرب، ، ولكن الخديو اعتذر .

واستمر الاسطول الانجليزى فى ضرب الاسكندرية نحو عشر ساعات تمكن خلالها من اسكات المدفعية الساحلية وتخريب الاستحكامات بالمدينة وهدم واحراق معظم مبانيها .

وجاء ضرب الاسكندرية تجاهلا للمؤتمر الذى كان لا يزال منعقدا فى الآستانة ، فلا السلطان ولا الدول المجتمعة طلبوا من انجلترا القضاء على الثورة المصرية ، وهكذا اهان الانجليز المؤتمر الذى دعوا اليه بأن بدأوا الحرب بغير توصية منه أو حتى موافقته ، كما اعتدوا على حقوق الباب العالى .

ولقد أثار ضرب الاسكندرية الجدل العنيف فى مناقشات مجلس العموم البريطانى فاستنكر بعض الأعضاء هذا العمل ، واعتبروه تصرفا خاطئا وغير مدروس ووصفوا السياسة الخارجية لانجلترا فى مصر بأنها نفرت حلفائها ، وورطتها — أى انجلترا — بصورة واضحة فى حرب مع مصر .

وعلى كل حال فقد صمدت القوات المصرية فى مراكزها بعض الوقت ، وبذلت جهدها (٤٤) أمام قذائف الاسطول الانجليزى للطوابى ،

واشترك الرجـــال والنساء من أهالى الاسكندرية فى نقل الذخـــائر الى المدافعين رغم نيران المدافع والقنابل . ولكن ضعف المدفعيـــة المصريـــة وقدمها لم يحقق لهم استمرار الصمود والقتال .

ولمـــا نزلت القوات الانجليزية الى الاسكندرية أظهر الخديو انحيازه اليها وسـارع هو وشيعته الضئيلة بتهنئتها ووضع نفسه تحت حمايتها ، وهنا يجـدر بنا أن نتســاءل هل كان هنـــاك اعـــلان حرب من انجلترا على مصر ؟

يذكر المستر جلادستون بأن ما اتخذ كان اجراءا دفاعيا لأمن الاسطول كما صرح السير تشارلز ديلك وكيل الخارجية البريطانية بأن القوات التى انزلت كانت مهمتها الحفاظ على النظام والأمن فى الاسكندرية . وقد أرسل الخديو رسله الى المصريين الذين هجروا الاسكندرية يطلب منهم العودة اليها حتى تستقر الأحوال ، وكان موقف درويش باشا متفقا مـــع الخديو فى الانحياز الى الانجليز . وعلى أى حال فبعد أن أصبحت الاسكندرية غير صالحة كمنطقة دفاعية ، قرر العرابيون الانسحاب منها ، وفى أعقاب ذلك تم احراقها ويتهم حسين باشا الدرملى العرابيين بحرق الاسكندرية فذكر أن النديم كان من المشجعين على حرق المدينة ونهبها حتى لا يجـــد الانجليز شيئا عند احتلالهم لها .

كما أكد ذلك أحمدسلامة فذكر أنه رأى النديم بعد الحادث فى محطة سيدى جابر راكبا فى صهريج الوابور وفى يده طبنجة ، وسمعه يقول أنه قتل بها ثلاثة أشخاص ، وأن حرق البلد كان بواسطة غاز أحضر بمعرفتهم وصب على الدكاكين والمنازل حتى يتم حرق البلد بسرعة .

وأيد حسن واصف هذا الكلام فقـــال انـــه كان راكبا وابور السكة الحديد القادم من الاسكندرية للقاهرة والذى كان به عبد الله النديم وانـــه سأله عن حالة الاسكندرية فأجابه بقوله « اننا أوقدنا فيها النار بعد السلب والنهب ولمـــا سأله عن حالة الطوابى قال له انها هدمت ، ولكننا مستعدين للمقاومة فى البر » ، وأصر النديم على المقاومة وقال « فمع أنه ضعيف فقد قتل ثلاثة من الأوربيين بالطبنجة التى معه »[٤٥] واخـــرج من جيبه طبنجـــة ..

وأكد ذلك ما تردد من أن سليمان سامى كان قد شرع فى حرق الاسكندرية فعلا وبداه فى جهة المنشية ، وذكر محمد شكرى أن ما فعله سليمان سامى كان بالاتفاق مع عرابى بينما يذكر آخرون ان ذلك كان بدون علمه .

وعلى كل حال فقد بيعت البضائع التى نهبها العساكر والأهالى من الاسكندرية بسوق كفر الدوار دون أن يتعرض أحد من العسكريين لضبطها أو لجمعها وتسليمها للمديرية[٤٦] واذا كان البعض يحاول ابعاد العرابيين عن هذه التهمة فاننا نرى أن طبيعة المتطرفين من قادة الثورة العرابية كانت تأبى أن تترك الاسكندرية سليمة تستفيد منها القوات الانجليزية وتدخلها آمنة فاشعلت فيها الحرائق ونهبت المحلات .

واذا كان بلنت وسليم النقاش قد ذكرا بأن العرابيين حرقوا الاسكندرية وفقا لتكتيك عسكرى سليم بألا يستفيد العدو من البلد الذى يدخله كما فعل الروس فى موسكو فى أثناء الغزو النابليونى حتى لا يجد العدو مأوى ولا مئونة ولا ذخيرة لرجاله وحتى يستطيع عرابى التقهقر لاتخاذ أماكن استراتيجية للقتال فان شهادة احمد رفعت تؤكد أن عرابى قد ذكر بأنه « اذا تداخل أحد لازم نموت لآخرنا ، ونفنى كل شىء » كما أن وثائق الثورة العرابية تؤكد ان عرابى لم يصدر منهاى تأنيب لسليمان سامى بل أشركه معه فى الاستعدادات بكفر الدوار ، ولم يحاكمه .

وذكر محمود فهمى أن عساكر آلاى مصطفى عبد الرحيم وسليمان داود كسروا أبواب الدكاكين والمخازن ونهبوا ما فيها وأوقدوا النيران فى الأماكن والأبنية الفاخرة كما دخل ايضا عربان البحيرة والبرابرة وسلبوا الحوانيت والمخازن واشعلوا فيها النيران علما بأن العرابيين قبل انسحابهم من الاسكندرية أطلقوا سراح جميع المسجونين .

والجدير بالذكر أن أحد أعضاء مجلس العموم البريطانى قد نبه الحكومة البريطانية الى ما يتسبب عن ضرب الاسطول للاسكندرية بأنه فى حالة يأس الجيش المصرى فقد يقوم بتدمير المدينة .

أننا نتفق مع راى الشيخ محمد عبده فى أن تهمة حرق الاسكندرية

ينبغى أن توجه لأكثر من طرف ، فقد عثر على جثث أروام بلباس عرب أثناء الحريق ، كما اشترك فيه عربان من أولاد على ممن كانوا على صلة بالخديو ، ومنهم أهالى الاسكندرية ومنهم أوربيون بقصد المبالغة فى التعويضات .

ونتيجة لضرب الاسطول الانجليزى للاسكندرية تحطمت حصونها ، ولم تعد صالحة للدفاع مما دفع العرابيين الى الانسحاب منها الى منطقة كفر الدوار واعادة تنظيم الاستعدادات الحربية ، ولما علم الخديو بنية العرابيين أرسل الى عرابى يطلب منه وقف كل التجهيزات العسكرية والسماح للمهاجرين بالعودة الى الاسكندرية والحضور اليه فى قصر رأس التين لاعطائه التنبيهات اللازمة والغاء الادارة العسكرية واعادة الادارة المدنية ولما استشار عرابى المقربين اليه نصحوه بعدم التوجه الى رأس التين فرفض عرابى طلب الخديو واستمر فى استعداداته واتهم الخديو بخيانة البلاد ، وأنه سبب ما نزل بها من مصائب ، وطالب الوطنيين بتدبير المساعدات اللازمة للمهاجرين الذين أضيروا من أجل بلادهم .

ونتيجة لتطور الأحداث واتضاح موقف الخديو المؤيد للانجليز دعا عرابى الى عقد جمعية عمومية من الأعيان والعلماء والموظفين وممثلين عن كافة الطوائف ليعرض عليهم الموقف ، وما يجب عمله ردا على موقف الخديو كما أرسل خطابا بذلك الى جميع مديرى المديريات .

وعقدت الجمعية العمومية اجتماعها فى مساء يوم ١٨٨٢/٧/١٧ ، وانتخب حسين باشا الدرملى رئيسا للجلسة[٤٧] كما اتخذ المجلس قراراته بالاجماع ، وكان أهمها الاستمرار فى قتال الانجليز وارسال وفد الى الخديو بالاسكندرية يطلبون منه العودة هو والوزراء الى العاصمة كما طالب بعض الأعضاء بعزل الخديو ولكن استقر الأمر على الرجوع الى السلطان فيما يختص بالخديو .

وقد رفض الخديو قرارات المجلس العرفى مما جعل المجلس يطلب من ديوان المالية وقف صرف مرتبات الخديو والوزراء عن شهر يولية ١٨٨٢ .

وفى ٢٠ يوليو ١٨٨٢ أعلن الخديو عصيان عرابى واصدر أمرا بعزله من منصبه وتعيين عمر لطفى مكانه ، وقد أرجع الخديو ذلك الى عدم اطاعة عرابى للأوامر ورفضه عودة المهاجرين الى الاسكندرية وحجزه مياه ترعة المحمودية[٤٨] واستمراره فى التجهيزات الحربية وقطعه للاتصالات التلغرافية والبريدية عنه حتى أن اخباره الخاصة لم يستطيع معرفتها مما سبب له الضيق والاضطراب واضطر الى الاستعانة بتلغراف الجيش الانجليزى[٤٩] . وقد برر الخديو نزول القوات البريطانية الى الاسكندرية بالقضاء على الحرائق وطرد اللصوص وحماية المدينة .

ولم يهتم عرابى بعزل الخديو له وطلب من يعقوب سامى وكيل وزارة الحربية ان يدعو الجمعية العمومية للانعقاد والتشاور فى الأمر ، وقد عقدت الجمعية العمومية اجتماعها الثانى فى ١٨٨٢/٧/٢٢ فى جو ذكره شهود العيان بأنه ملىء بالرهبة والعنف فالضباط والجنود شاهرين سلاحهم خارج الاجتماع وداخله ، وعلى الروبى يخطب خطبة عنيفة يهاجم فيها الخديو ويتهمه ببيع البلاد للانجليز الذين عاثوا فى البلاد فسادا وأعقبه محمد عبيد الذى رفع سيفه واقسم يمينا بقطع يد من يؤيد عزل عرابى ، وارتجل الشيخ محمد عبده خطبة قال فيها « ان الخديو انحاز للانجليز ، ويريد تسليم القطر لهم كما حصل فى الاسكندرية والمراد بعقد هذه الجمعية هو هل يصح عزل عرابى باشا أو يبقى ناظرا على الجهادية » . ونظرا لما حدث فلم يتجاسر أحدعلى رفع يده بالمعارضة وانتهى الاجتماع الى ضرورة بقاء عرابى ناظرا للجهادية واهمال أوامر الخديو وما يصدر من نظاره الموجودين معه فى الاسكندرية وخصوصا بعد أن خرج الخديو على قواعد الشرع والقانون[٥٠] .

وقد ختمت الجمعية العمومية قراراتها بضرورة عرض الأمر على الباب العالى بواسطة وكلاء النظارات ، وارسل العرابيون الى المديريات ودواوين الحكومة منشورا باعلان انضمام الخديو الى الانجليز وأمروا :خلع طاعته « لأنه باع البلاد لألد أعدائها » وضرورة المداومة على الاستعداد للقتال وعدم التسليم كما أمر عرابى بسد ترعة المحمودية لقطع المياه عن الخديو وأعوانه فى الاسكندرية .

وفى ٧ أغسطس ١٨٨٢ أصدر الخديو أمرا لجميع سكان مصر انهم فيه عرابى بالسعى لخراب مصر ، وبأنه السبب الأول فى مذبحة الاسكندرية وما حدث بطنطا وغيرها ، وانــه سبب شل الحيــاة التجارية والزراعية فى البــلاد .

وفى وسط هذا الجو من الانقسام بين الخديو والعرابيين نشبت الحرب مع الانجليز ، وكانت الخزانة المصرية خاوية لأن المراقب الانجليزى كولفن أخذ الأموال المصرية الموجودة فى الخزانة العامة ، ووضعها فى احدى سفن الاسطول الانجليزى قبل الحرب بأيام وكذلك نقــلت الأمــوال الموجودة بصندوق الدين الى السفن الحربية بالاسكندرية لذلك تزاحم الأهــالى على اعانة الجيش بما يلزمه(٥١) .

التعاطف الوطنى والاسلامى ضد الانجليز :

قامت البلاد تدافع عن شرفها وتحارب عدوها ، فانضم الرجال الى معسكرات التدريب لخوض المعركة وتركوا محــلاتهم وعائلاتهم ومزارعهم وامتلأت نفوس أفراد الأمة المصرية بالرغبة فى الانتظام فى سلك العسكرية والاستشهاد فى سبيل الله والوطن وتبرعت النساء بحليهن عن طيب خاطر ، وهرع الشيوخ الى المساجد يدعون الله كى ينصر عرابى حامى البــلاد وتحت وطأة هذا الحماس الشعبى فكر عرابى فى تشــكيل وحــدات من الأهالى يجرى تدريبهم على حمل السلاح ، وأن يعهد اليهم بحماية العاصمة والأقاليم عند خروج الجيش الى مناطق القتال ، ولكنه عدل عن الفــكرة بعد أن اتضح انه يخشى على العاصمة اذا سلمت حراستها الى الأهالى وذلك لأن معظم من تطوع منهم هم الفقراء المحتاجون للقوت والعاصــمة مكتظة بالأموال الأميرية وغيرها ، وتقرر أن يجرى تدريب المتطوعــين من الأهالى على الآليات وارسالهم الى جبهة القتال اذا لزم الأمر .

والواقع أن مصر لم تكن وحدها فى أزمتها فقد أثار ضرب الانجــليز للاسكندرية هزة عنيفة بين المسلمين فى كافة البلدان الاسلامية فدعا علماء تركيا الى حمل السلاح ، ومســاعدة اخوانهم فى الدين ، كما ثار مسلمو الهند على الانجليز مما جعلهم يسرعون الى تجديد اقامــة جمــال الدين الأفغانى الذى كان بالهند وقتذاك وفى الشام حمل الرجال السلاح ، وأعدوا

كتائب من المتطوعين ولكن السلطان منعهم من التوجـه الى مصر ، وفى تونس ناصرت صحافتها عرابى ومثلته فى صورة البطل الذى سينقذ مصر والبلاد العربية من التدخل الأجنبى ، واتصل عرابى بالسنوسى « وحرضه على القتال والمجاهدة فى سبيل الله » . كما اتصل بعبد القادر الجزائرى فى منفاه بدمشق وبأبناء فلسطين وبثوار السودان بزعامة المهـدى حتى اضطرت الحكومة الى ارسال تعليمات الى عبد القـادر باشـا حكمدار السودان بعدم الاصغاء الى تعليمات العرابيين ، ولمـا أيد عرب برقـة نداء عرابى اجبرت انجلترا السلطان العثمانى على ان يرسل بتعليمات الى والى طرابلس ومتصرف بنى غازى باتباع الحزم والشدة مـع الأهـالى بخصوص ذلك ، كما طلب الانجليز من الحـاكم التركى فى فلسطين منـع تقديم المساعدة الى عرابى فألقى القبض على كثير من شـيوخ العـرب المتعاطفين مع عرابى .

معـارك كفـر الدوار :

أحكم عرابى تحصين مواقعه فى كفر الدوار ، مما أعاق تقدم القوات الانجليزية فى هذه المنطقة ، فقد استطاع عصمت قومندان فرقة كفر الدوار وجنوده صد هجوم الانجليز المتوالى على هذه المنطقة حتى اضطرت القوات الانجليزية الى الانسحاب أكثر من مرة أمام بسالة الجنود المصريين .

ولمـا لم تستطع القوات الانجليزية اقتحـام استحكامات العرابيين فى كفر الدوار نقلوا العمليات الحربية الى منطقـة قنـاة السويس حتى يتمكنوا من استخدام قواتهم البحرية مما اضطر العرابيين الى جعل نقطـة التل الكبير مركزا لتجميع قواتهم العسكرية تبعا لاستعداد العدو وحركاته . ولمـا كان عبور القوات الانجليزية للقناة يمثل خطورة على العرابيين فقد نصح بعض الضباط عرابى بردم القناة ، ولكنه لم يستمع لنصائحهم مؤمنا بوعود ديلسبس التى كانت تنحصر فى ضمان حياد المرور فى القنال للجميع ، وحماية أرواح ومصـالح الأوروبيين المقيمـين فى مصر [٥٢] فكان ذلك من الأخطاء الجسيمة التى غيرت مجرى الحرب . فقد اخترق الانجليز القناة ، وانتقلت المعركة الى الجبهة الشرقية فى أواخر أغسطس ١٨٨٢ .

وأمام هذا التحول المفاجىء فى جبهات القتال أعاد عرابى حساباته فانتقل محمود فهمى رئيس أركان الحرب الى « المسخوطة » وأخذ العرابيون فى انشاء خطوط دفاعية هناك ، وقاموا بسد ترعة الاسماعيلية عند « المجفر » لمنع وصول المياه العذبة الى الانجليز ، ولكن الجنرال ولسلى قائد القوات الانجليزية أحبط هذه المحاولة فقد احتل نقطة « المجفر » ثم تابع الجيش الانجليزى تقدمه ، ونجح فى الاستيلاء على « المسخوطة » و « المحسمة » كما نجح فى أسر محمود باشا فهمى مما أدى الى تصدع الجبهة الشرقية .

منشور السلطان بعزل عرابى :

واستطاعت انجلترا تغيير ميزان المعركة ليس حربيا فقط بل وسياسيا أيضا فتمكنت نتيجة للاتصالات المكثفة التى دارت بينها وبين الدولة العثمانية ونتيجة لجهود اللورد دفرين مندوبها فى الآستانة من الضغط على السلطان بالتهديد تارة ، وباستخدام كل الوسائط ومنها الرشوة تارة أخرى حتى يصف عرابى بالعصيان ، وتحقق لها الوصول الى ذلك فأصدر السلطان منشورا بعصيان عرابى والتزام الدولة العثمانية بالمحافظة على الخديو مما قلب ميزان الحماس الشعبى وأضاع التأييد الاسلامى والعربى للثورة العرابية حيث كان عرابى يعلن أنه يدافع عن حقوق السلطان .

وحينما بلغ عرابى المنشور استشار عبد الله النديم فيما يجب عمله فأشار عليه كما يذكر « سليم النقاش » نشره فى جريدة الطائف والرد عليه مع الاستمرار فى الدفاع عن البلاد حتى لو اشتركت عساكر عثمانية ضدهم لأن توزيع المنشور سرا سيكون له رد فعل أسوأ مما لو نشر فى الصحف ورد عليه ، ولكن عرابى لم يستحسن نشره خشية تحول القلوب عنه .

ويذكر اسماعيل سرهنك أنه لما قرأ عرابى منشور الباب العالى بعصيانه فى جريدة الجوائب[٥٣] « وقع فى قلبه اليأس لأن حجته الكبرى

كانت بدعوى أنه قائم بالمدافعة عن حقوق الدولة العلية فى مصر فتشاور مع صديقه الحميم عبد الله النديم واقرا على اخفاء ذلك عن الجند » .

وعلى كل حال فقد تمكن جواسيس الخديو وعلى راسهم سلطان باشا من توزيع المنشور فتمكن بعض العربان من التسلل الى المعسكرات المصرية وتوزيع المنشور على الضباط والجنود الذين أحسوا بصدمة عنيفة بعد الاطلاع عليه فخارت قواهم ويئسوا من الفوز وضعفت حميتهم الدينية اذ اعتبروا أنفسهم « عصاة على السلطان مخالفين لكتاب الله وسنة رسوله » .

ومع اننا لا نلصق هزيمة عرابى بهذا المنشور وحده كما يذكر البعض فاننا نعتبره أحد الأسباب فى صرف القلوب عن عرابى وحركته .

وقد أرسل الخديو الى عمد البلاد واعيانها مكاتبات يدعوهم فيها الى مخالفة عرابى واعوانه ، وانه سيدخل تحت طائلة المحاكمة الشديدة والعقاب كل من يسانده(٥٤) .

معركة التل الكبير :

ونجحت جبهة الخيانة فى تنفيذ مخططها فاتصل الخديو وسلطان باشا بأحد الضباط ويدعى على يوسف (خنفس) ووعداه بالنياشين فكانت خطط الجيش السرية ترسل اليهم عن طريقه ، كما كانت أعداد وتحركات قوات عرابى وتوزيعها وخططها معروفة لدى الانجليز والخديو فهجم الانجليز فجاة يتقدمهم البدو وانصار الخديو ومعهم خطة جيش عرابى ومواقعه ، وكانت المعركة الفاصلة فى التل الكبير والتى فوجىء فيها المصريون بالهجوم الانجليزى الذى لم يكن متوقعا فى حساباتهم حيث انه فى الليلة التى استعد فيها الانجليز للهجوم على التل الكبير كتب على يوسف (خنفس) الى عرابى وكان فى مقدمة الجيش يخبره بعدم وجود تحركات للعدو « فقعد عرابى طوال الليل مع الفقراء فى الصيوان .. يذكرون الى آخر النصف الأخير من الليل وعند الفجر ناموا جميعا » ولم يستيقظوا الا على طلقات البنادق واستمرت المعركة حوالى عشرين دقيقة حطم فيها الجيش الانجليزى متاريس التل الكبير تحت قيادة السير ولسلى ، وتشتت قوات عرابى .

لقد كانت معركة التل الكبير سلسلة من المـآسى قوامها الخيانة حيث كان بالاسكندرية مكتبا يسمى « قسم المخابرات العسكرية » مهمته تنظيم شبكة الدسائس والجاسوسية فى البلاد[٥٥] وكان على رأس هؤلاء محمد سلطان ، كما أن معارك التل الكبير كانت غير متكافئة وقد ساعد على هزيمة عرابى فيها عدة عوامل منها نجاح الخديو فى ضم البدو الى الانجليز بعد رشوتهم وخيانة بعض الضباط الذين انضموا الى الخديو وأبلغوه بخطط العرابيين ومواقعهم .

محاولات الدفاع عن القاهرة والتسليم :

أسرع عرابى الى القاهرة بعد هزيمته فى التل الكبير وذهب الى مقر وزارة الحربية حيث كان المجلس العرفى مجتمعا ، وأخبرهم بأمر الهزيمة وأسبابها واستشارهم فيما يفعله ، وبعد استعراض الموقف استقر الرأى على المقاومة بحجة أن القاهرة « غاصة بالجند ومخازن الجهادية ملأى بالمؤن والذخائر والأسلحة ومعدات الدفاع متوفرة » .

وقد حاول العرابيون منع الانجليز من دخول القاهرة بمد خطوط الاستحكامات أمام العباسية فتوجه عرابى وبعض الضباط الى العباسية لاجراء ترتيب النقط العسكرية ، ووضع التصميمات لانشاء خط دفاعى ولما استعرضوا الجند هناك وجدوا أن أعدادهم قليلة ، وروحهم المعنوية منخفضة حتى أن أحد الضباط هاجم فكرة الدفاع عن القاهرة فقال لعرابى « اذا كان مقصودك فى الباطن اعمال خط نار كما هو متبادر لنا من أفكارك فهذا غلط ولا ينفع بشىء ... والأوفق ترك هذه التشبثات التى لا تفيد سوى الوبال والدمار وتلف البلد فقال عرابى ان قصده ليس ذلك بل مرامه التوجه للعباسية لترتيب النقط والعساكر بصفة كردون فقط للحفظ أولى من ترك البلد سايبة .

ولما وجد عرابى أن شبح الهزيمة باديا على الضباط والجنود عاد الى المجلس العرفى وعرض عليه الأمر فتقرر الكف عن القتال والتسليم وتحرير عريضة للخديو يلتمسون فيها العفو والاعتذار عما حدث منهم .

وفى ١٥ سبتمبر ١٨٨٢ دخلت القوات الانجليزية القاهرة بدون

مقاومة تذكر وسلم عرابى نفسه للقوات الانجليزية كما تم القبض على قادة الثورة ووضعوا فى أضيق السجون وأصعبها كما امتلأت السجون بمن ناصر الثورة من العلماء المديرين وعمد البلاد والأعيان والتجار حتى بلغ عدد المقبوض عليهم ثلاثين الفا من المصريين . وبعد أن وضعت الحكومة يدها على معظم زعماء الثورة أصدر الخديو أمرا عاليا فى ٢٨ سبتمبر ١٨٨٢ بتشكيل قومسيون « لتحقيق اقامة الدعوى على كل من ارتكب جريمة العصيان والتعدى على السلطة الخديوية سواء أكان مرتكبو هذه الجرائم مدنيين أم من العسكريين وصدرت الأوامر بتقديم عرابى وزملائه للمحاكمة كما أصدر الخديو توفيق عدة أوامر بهدف القضاء على العسكرية المصرية وروح الجندية اهمها حل الجيش المصرى[٥٦] والغاء الرتب العسكرية المعطاة فى مدة الثورة . كما أصدر بعد ذلك أمرا عاليا بجواز التخلص من الخدمة العسكرية بدفع البدل النقدى وقيمته خمسون جنيها كما نص هذا القانون على استثناء العلماء والمدرسين والطلبة وحفظة القرآن وائمة المساجد ورجال الدين والمثقفين من الخدمة العسكرية كما أصدر أوامر الى سائر المديرين بتسهيل عبور العساكر الانجليزية فى أنحاء القرى والبلدان التابعة لمديريتهم ، وتقديم كافة المساعدات لهم .

وبذلك يتضح رغبة الخديو فى وضع البلاد فى جو من الاستكانة الدائمة .

وهكذا انتكست أعلام الثورة العرابية التى قامت من أجل الدفاع عن شرف البلاد وكرامتها ضد الظلم الداخلى والتدخل الخارجى ، وابتلعت السجون رجالها واحس الشعب المصرى بمرارة الهزيمة ، ولكنه سرعان ما التقط أنفاسه فانتقلت الشعلة من جيل الثورة العرابية الى الجيل الذى حمل الراية بعدها بزعامة مصطفى كامل .

مراجع الفصل الرابع

(١) دار الوثائق : أوراق خاصة بالسيد جمال الدين الأفغانى .

(2) Public Record Office : F. O. 407/21 Inclosure in No 931. Extract From the Observer of July 23, 1882.

(٣) الياس الأيوبى : تاريخ مصر فى عهد الخديو اسماعيل باشا ١٨٦٣ — ١٨٧٩ . المجلد الثانى . القاهرة — دار الكتب المصرية ١٩٢٣ ص ٤٧٠ .

(٤) أحمد عرابى : كشف الستار عن سر الأسرار . مخطوط . القاهرة — دار الكتب المصرية تحت رقم ١٥٤٢ س ٩٩ — ١٠٠ .

(٥) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار . الجزء الثانى — القاهرة — المطبعة الأميرية ببولاق — الطبعة الأولى ١٨٩٤ ص ٣٧٥ .

(6) F. O. 407/18 No. 38 Memorandum of Events in Egypt Sinec the Deposition of the Late Khedive, Leading to the Recent Military Insurection, by P. Currie, sep. 17, 1881 .

(٧) دار الوثائق : أوراق الحضرة الخديوية بصدد الثورة العرابية — صورة خطاب من رئيس مجلس النظار الى القائد العام بتاريخ ٣٠ يناير ١٨٨١ .

(8) F. O. 407/18 No. 80. Mr. Malet to Earl Granville, Sep. 23, 1881 .

(٩) دار الوثائق — محافظ مجلس النظار محفظة ٥/د تحت عنوان : « جلسات مجلس النظار » فى ٣ ابريل ١٨٨١ ، محافظ مجلس الوزراء . نظارة الحربية . محفظة رقم ١١ تقرير مقدم للخديو بخصوص مرتبات الضباط والعساكر بتاريخ ١٩ ابريل ١٨٨١ .

(١٠) سليم النقاش : مصر للمصريين ج ٤ . الاسكندرية — مطبعة جريدة المحروسة ١٨٨٤ ص ٩٠ .

(١١) محمد مهرى كركوكى : رحلة مصر والسودان : القاهرة — مطبعة الهلال ١٩١٤ ص ٤٦٠ .

(12) F. O. 407/18 Inclosure 1 in No. 47, Memorandum by A. Colvin sep. 15, 1881.

(١٣) أحمد عرابى : المخطوط السابق .

(١٤) د. محمد أحمد خلف الله : عبد النديم ومذكراته السياسية . القاهرة — الأنجلو المصرية ١٩٥٦ .

(١٥) الوقائع المصرية العدد ١٢١١ فى ١٧ سبتمبر ١٨٨١ تحت عنوان : « تشكيل وزارة شريف باشا » .

(16) F. O. 407/18 No. 55 Mr. Malet to Earl Granville, sep. 22, 1881 Telegraphic No. 66 .

(١٧) محافظ الثورة العرابية . محفظة رقم ٢٠ دوسيه ١٧٨ .
شهادة محمد شريف باشا رئيس مجلس النظار أمام لجنة التحقيق فى الحوادث العرابيـــة .

(١٨) محافظ الثورة العرابية . محفظة رقم ٢٠ ملف ١٧٨ . شهادة محمد شريف باشا رئيس مجلس النظار أمام لجنة تحقيق الحوادث العرابية .

(١٩) الوقائع المصرية : العدد ١٢٩١ فى ٢٦ ديسمبر ١٨٨١ .

(٢٠) يذكر جون مارلو أن الحكومة والرأى العام الانجليزى كان لديهم عدم ثقة فى أى شىء ، له صلة بالدكتاتورية العسكرية .
Marlowe (John) Anglo Egyptian Relations p. 126 .

(٢١) محفوظات مجلس الوزراء — الجمعية العمومية ومجلس شورى القوانين . محفظة رقم (٢) .

(22) F. O. 407/20 Inclosure in No. 77 Memorandum by Edward Malet May 16, 1882 .

(٢٣) محفوظات مجلس الوزراء — محافظ الداخلية — محفظة رقم (٦) خطاب من رئيس قومسيون التحقيق الى رئيس مجلس النظار بتاريخ ٧ أكتوبر ١٨٨٢ .

(٢٤) دار الوثائق : محافظ مجلس النواب . محفظة رقم (١) لائحة مجلس النواب الصادرة فى ٧ فبراير ١٨٨٢ .

(٢٥) محافظ الثورة العرابية . محفظة رقم ٢٠ دوســـيه ١٧٩ ، وسجلات الثورة العرابية سجل رقم ٩٠ ص ١٤ .

(٢٦) دار الوثائق . أرشيف الحكومة النمساوية : المسألة المصرية — المجموعة ٢٤/٣١ ملخص تقرير سياسى رقم ١١٥ ب بتاريخ ٢٩ مايو ١٨٨٢ (مترجم من الألمانية الى العربية) .

(٢٧) محافظ الثورة العرابية . محفظة رقم ١٩ دوسية ١١٧ استجواب عبد الرحمن البحراوى .

(٢٨) الوقائع المصرية : العدد ١٤٣٢ فى ١٣ يونيو ١٨٨٢ .

(٢٩) مذكرات محمد فريد — تاريخ مصر من ابتداء ١٨٩١ — القسم الأول — الجزء الرابع ص ٨٩ .

(30) Broadley : How we Defendod Arabi p. 235 .

(31) Marlowe : op. cit., p. 135 .

(٣٢) دار المحفوظات . محافظ الداخلية . محفوظات العرضحالات — محفظة ٤٤ ملف ١٠٠ عين ١٥١ مخزن ٥٠ .

(٣٣) محافظ الثورة العرابية — محفظة رقم ١٩ دوسيه ١٢ محضر استجواب ابراهيم بك الناضورى ومعلوماته عن حادثة ١١ يونيه بالاسكندرية .

(34) Marlowe, John : Anglo Egyptian Relations 1800-1953 p. 135 .

(35) F. O. 407/19 Inclosure in 411 Memorandum by sir A Colvin, March 16, 1882 .

(36) Parliamentary Papers. Egypt No 11 (1882) .

(37) Parliamentary Debates, Vol 270 p. 818 .

سؤال من مستر بوكر لوكيل وزارة الخارجية .

(٣٨) محفوظات مجلس الوزراء — محافظ الداخلية . محفظة رقم ٧٠ تحت عنوان صورة الأمر العالى الصادر الى راغب باشا فى ٤ شعبان ١٢٩٩ هـ .

(39) Parliamentary Papers. Egypt No. 8 (1882) .

Affairs of Egypt. No. 57 .

(٤٠) الرافعى : الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى . القــاهرة — النهضة المصرية الطبعة الثانية ١٩٤٩ ص ٣١٦ .

(٤١) محافظ الثورة العرابية : محفظـــة رقم ٢٠ دوسية ١٧٩ محضر استجواب محمد شكرى باشا .

(٤٢) أوراق الحضرة الخديوية بصدد الثورة العرابية والبرقيات التى ضبطت لدى المتهمين فيها . مخطوط بدار الوثائق . تقرير مقدم الى الحضرة الخديوية من القائمقام فرج عبد العال ص ٤ .

(43) Dicey : The Egypt of the Future p. 171 .

(٤٤) محافظ الثورة العرابية : محفظة رقم ٨ دوسيه ٥٣ — د — ٦ ملف ٢٢٠ .

(٤٥) محافظ الثورة العرابية . محفظة رقم ١٨ دوسيه ٦٩ . محضر استجواب حسن واصف التاجر بالاسكندرية ومعلوماته عن حريق الاسكندرية وما سمعه من عبد الله نديم .

(٤٦) محافظ الثورة العرابية . محفظة ١٩ دوسيه ٩٤ ، ومحفظة رقم ٢٠ دوسيه ١٧٩ .

(47) F. O. 407/21. Inclosure in No 762, Memorndum From Information Supplied by Omer Pacha Loutfi by G. H. Portal «Tonjore» at Alexandria. July 21, 1882 .

(٤٨) محافظ مجلس الوزراء — الثورة العرابية — محفظة رقم ٣٨ — مجموعة ٤٧ حربيـــة .

(٤٩) ديوان المعية السنية عربى . المجموعة ٣٥ سجل رقم ٤٥٣٦٦ ص ٤ .

(٥٠) محافظ الثورة العرابية : محفظة ٤١ وثيقة تحت عنوان صورة القرار المعطى من الأمة المصرية بديوان الداخلية يوم السبت ٢٩ يوليـــو ١٨٨٢ .

(٥١) للتفاصيل نظر محافظ الثورة العرابية . محفظة رقم ٨ دوسيـــة ٥٣ — د — ٨ ملف ٢٢٢ وأيضا محفظة رقم ٩ دوسيه ٨٦ تحت عنـــوان « الثورة العرابية وقضايا المتهمين » .

(٥٢) محافظ الثورة العرابية محفظة رقم ١٩ دوسيه ٩١ تلغراف من دلسبس الى رئيس المحكمة العسكرية بالقاهرة .

(٥٣) انظر : الجوانب العدد ١١٠٥ فى الثلاثاء ٢٩ شوال ١٢٩٩ .

(٥٤) محافظ الثورة العرابية . محفظة ٤١ وثيقة تحت عنوان « صورة ارادة سنية صادرة من الحضرة الفخيمة الى كافة أهالى القطـــر المصرى بتاريخ ٧ أغسطس ١٨٨٢ .

(٥٥) من محافظ الثورة العرابية يتضح اتهام عبد الله المصرى وخليل المصرى ومصطفى رمزى وكانوا من ضباط الجيش بمراسلة العدو والتجسس على قوات عرابى . انظر : محفظة رقم ٤ تلغرافات — دوسيه رقم ٥٠ .

(٥٦) محافظ مجلس الوزراء — نظارة الحربية . مجموعة رقم ٧٠٥ حربية — محفظة رقم (١) دكريتو فى ١٩ سبتمبر ١٨٨٢ .

الفصل الخامس

حركة البعث الوطنى
بعــد الاحتــلال

١ ـــ انبعاث الحركة الوطنية فى مصر بعد هزيمة الثورة العرابية .

٢ ـــ مصطفى كامل وتاسيس الحزب الوطنى .

٣ ـــ محمد فريد وزعامته للحزب الوطنى .

٤ ـــ الزعامة الوطنية بين مصطفى كامل ومحمد فريد .

١ ـ انبعاث الحركة الوطنية في مصر بعد هزيمة الثورة العرابية

ظروف تولية عباس الثانى الخديوية :

بعد ضرب الثورة العرابية صفيت الحركة الوطنية ، وأصبحت الحياة السياسية فى مصر تدور حول الخديوية من ناحية وسلطات الاحتلال من ناحية أخرى وظل هذا الموقف سائدا فى السنوات الأولى للاحتلال ، وفى يناير ١٨٩٢ اشتد المرض بالخديو توفيق حتى بلغ مرحلة الخطر فى وقت كان فيه الموقف فى مصر دقيقا فسلطة الخديو كانت ضائعة ومسلوبة لقضاء الانجليز عليها والحكومة الموجودة على رأسها صديق الاحتلال مصطفى فهمى الذى كان مكروها من الشعب وكان الانجليز يتصرفون فى شئون البلاد كما يشاءون ولخشية تدخل السلطان العثمانى فى أمر مصر بعد وفاة الخديو توفيق اجتمع كرومر مع مصطفى فهمى رئيس النظار وغيره من المسئولين وتباحثوا فى الأمر واتفقوا على استدعاء نجله عباس من فينا وتوليته العرش حيث أنه أكبر انجال الخديو توفيق ، ولكن اتضح أن هناك مشكلة شائكة حين توفى توفيق وهى أن عباس لم يكن قد بلغ سن الرشد بعد فالأمر يقتضى أن لا يكون سن الأمير أقل من ثمانية عشر عاما وبما أن عباس ولد فى ١٤ يوليو ١٨٧٤ فانه لم يبلغ سن الرشد الا فى ١٤ يوليو ١٨٩٢ بينما كانت وفاة والده المفاجئة فى السابع من يناير ١٨٩٢ مما أظهر شبح تكوين مجلس وصاية مادام الأمير لم يبلغ سن الرشد ، ويذكر كرومر أنه سمع أحد العلماء يقول ان سن الأمير المسلم ينبغى أن يحسب بالسنين الهجرية التى تبلغ أيامها ٣٥٤ يوما فتمسك بذلك وبحساب سن عباس بالتاريخ الهجرى اتضح أنه بلغ سن الرشد فى ٢٤ ديسمبر ١٨٩١ أى قبل وفاة ابيه بأربعة عشر يوما .

وصل عباس الى مصر وأخذ يضطلع بمهام الخديوية ، وقد تملكه فى الفترة الأولى من حكمه شعور حماسى فاستبدل رجال الحاشية الموالين

للاحتلال بغيرهم كما اصدر عفوه عن عدد كبير ممن اشتركوا فى احداث الثورة العرابية واخذ يوطد علاقته بالشعب .

الأزمة الوزارية ١٨٩٣ :

وجد الخديو عباس الثانى فى رئيس النظار مصطفى فهمى خضوعا كاملا للانجليز فكان ينفذ أوامرهم ولا يتصرف فى أى شأن من شئون الحكومة الا بعد اخذ رأيهم مما ضايق عباس فانتهز فرصة مرضه وارسل اليه خطابا باقالته وكلف حسين فخرى بتأليف النظارة الجديدة .

ثار اللورد كرومر على ذلك التغيير وذهب لمقابلة الخديو فأجابه أن من حقه اختيار الوزراء بنفسه دون الرجوع الى أحد ، فهدده كرومر بأنه اذا قاوم انجلترا فمعنى ذلك الاطاحة بعرشه ، وتعكر الجو وحدثت أزمة وارسلت الحكومة البريطانية برقية مضمونها ان الخديو لابد أن يأخذ رأيها فى المسائل الخطيرة مثل مسألة تغيير النظار ، وانها لا ترى هناك ضرورة لتغيير رئيس النظار وانها لا توافق على تعيين فخرى باشا .

قابل كرومر الخديو وابلغه بالبرقية وطلب منه ارجاع مصطفى فهمى فرفض الخديو وقال ان من حقه تعيين الوزراء فهدده كرومر فرد الخديو بأن تنازله عن العرش أهون عليه من ارجاع مصطفى فهمى ، وتدخل بطرس غالى وآخرون لحل الأزمة ، واخيرا سويت الأزمة على اساس الا يتمسك كرومر باعادة مصطفى فهمى لأنه ليس من الصواب اذلال الخديو الشاب كثيرا على أن يعزل فخرى باشا ويتم تعيين رياض باشا مكانه ، وبذلك انتهت الأزمة الوزارية دون أن ينال أحد من الفريقين فوزا فاصلا ، ومع ذلك فقد التفت الأمة المصرية حول الخديو وشجعته على موقفه واقبلت عليه الوفود للتهنئة .

وزارة رياض وازمة الحدود :

شكلت وزارة رياض فى ١٩ من يناير ١٨٩٣ ، وقد شجع رياض الخديو على معاكسة انجلترا وحاول الحد من تغلغل النفوذ الانجليزى فى البلاد ، والجدير بالذكر أن الخديو عباس الثانى اهتم منذ اعتلائه عرش

الخديوية بأمر الجيش وفى ٨ يناير ١٨٩٤ استعرض الخديو بعض وحدات الجيش المصرى فى القاهرة وفى اليوم التالى سافر الى الصعيد لتفقد أحوال الجيش هناك ، وبينما كان الخديو يستعرض الجيش فى وادى حلفا أبدى بعض الملاحظات والانتقادات التى تمس كفاءة الضباط الانجليز مما ضايق الانجليز فارسل كتشنر الى كرومر بذلك وقدم استقالته احتجاجا على أن الخديو أهان الكرامة العسكرية للانجليز ، وانتهز كرومر الفرصة حتى يوجه الى الخديو ضربة قاصمة فارسل الى الحكومة البريطانية التى اعتبرت الأمر خطيرا وطلبت أن يقدم الخديو اعتذارا يثنى فيه على الضباط الانجليز وفى حالة رفضه تستعمل الشدة معه وهددت بخلع الخديو اذا لم يسحب انتقاداته ، فهرع رياض باشا الى الصعيد وقابل الخديو واخبره بالأمر ونصحه بالاستسلام فاصدر الخديو منشورا يعلن فيه رضاءه عن حالة الجيش بالحدود وعلى الضباط الانجليز ، وبذلك تم اذعان الخديو لمطالب الانجليز واصيب نفوذه من جراء هذه الأزمة بضربة شديدة وفقد هيبته فى نفوس أفراد الجيش ، كما يتضح أن حادث الحدود كان نصرا كبيرا لكرومر وسياسته فى مصر .

اطلاق يد الانجليز فى شئون الادارة المصرية :

تميزت الفترة التى تلت حادث الحدود بأن الخديو عباس الثانى وان كان لم يكف عن مقاومة الاحتلال الا انه سلك طريق المقاومة السرية بتشجيع العناصر المناوئة لتواجد الاحتلال ، وكان شديد الحذر فى ذلك يظهر الوفاق ويبطن المقاومة ، وان كانت الظروف قد اضطرته الى المقاومة الصريحة للاحتلال بعد ذلك .

والجدير بالذكر أن تقرب الخديو الى الأمة قد ازداد بعد حادث الحدود وفشله فى السيطرة على الجيش فأخذ يدعو اليه المثقفين من أبناء البلاد والعلماء أمثال الشيخ محمد عبده وعبد الله النديم وغيرهم ، وكان يسمح لهم بأن يعقدوا الجلسات فى قصره .

نشاط الخديو السرى ضد الاحتلال :

تألفت جمعية سرية بعد حادث الحدود من بعض ضباط الجيش عرفت باسم جمعية المودة السرية ، كما شهدت مصر مولد جمعية سرية

قدر لهـا أن تكون نواة للحزب الوطنى فيمـا بعد ، وقد تمكن لطيف سليم المؤسس الفعلى لهـا من أن يحتفظ بافكاره الثورية محبذا اسلوب العمـل السرى لتحرير الشعب بعيدا عن وصاية أى سـلطة وقد انضم مصطفى كامل ومحمد فريد وغيرهم الى هذه الجمعية فى عـام ١٨٩٣ وقد تعـاون الخديو عباس الثانى مع هذه الجمعية ورحب اعضاء الجمعية بذلك حيث كان تواجده ضرورة ملحـة اقتضتها الظروف الصعبة التى كانت تلك الحـركة تشق طريقها وسـطها لمقاومة الاحتلال الجـاثم على صدر الوطن ، كمـا ادار الخديو من قصره اللجنة الفرنسية المصرية ، وقد قامت هذه اللجنـة بالدعاية لقضية استقلال مصر فى أوربا وبالذات فى فرنسـا .

والجدير بالذكر أنه تأسست جمعية سرية فى بنى سويف فى عام ١٨٩٦ اطلق عليهـا جمعية تحرير مصر ، كمـا أرسل الخديو مصطفى كامل الى بعض دول أوربـا ليكسب العـون الدولى لقضية استقلال مصر ، فركـز نشاطه بصفـة خاصة على فرنسـا وتركيا والمانيا والنمسا ، وقد خرج مصطفى بعد عام واحد من نشاطه فى أوربا بحقيقة واضحة وهى أن النشاط فى الخـارج وحده لا يكفى لحدوث استقلال مصر بل أن العبء الأكبر يجب أن يكون على عـاتق المصريين بالدرجة الأولى .

حـادث دنشـواى (*) :

خلاصته أن خمسـة من الضباط الانجليز من كتيبة كانت فى طريقهـا من الاسكندرية الى القـاهرة عسكرت فى قرية كمشوش التابعة لمديرية المنوفية أرادوا الترويح عن أنفسـهم بصيد الحمام فذهبوا الى بلدة دنشواى التـابعة لمركز شبين الكـوم ودخلوا ضيعة أحد الملاك لصيد حمام وجدوه واقفـا على جرن مؤذن القرية محمد عبد النبى فانحرفت رصـاصة أحدهم عن هدفها مما أدى الى اشتعـال النار فى جرن محمد عبد النبى وجعـل الأهـالى — وخصوصا اصحاب ابراج الحمـام الذين كانوا فى ضيق واستياء من صيد الانجليز لحمامهم — يحـاولون انتزاع اسلحة هؤلاء الضبـاط وضربهم وفى تلك الاثنـاء وصل الخفراء وشيخهم لفض النزاع واخمـاد

(*) للتفاصيل انظر جمال المسدى ، دنشواى ، القاهرة ، الهيئـة العامة للكتاب .

النيران ولكنهم فشلوا فى ذلك مما دفع بعض الضباط الانجليز الى اطلاق الأعيرة النارية وفى تلك الاثناء انطلقت بعض الرصاصات التى أصابت سيدة تدعى أم محمد وشيخ الخفراء واحد الخفراء مما زاد من ثورة الأهالى فاشتدوا فى هجومهم على الضباط وضربوهم ففر منهم اثنين جريا فى اتجاه معسكرهم أصيب احدهم بضربة شمس أودت بحياته ، وفر الآخر حيث أبلغ بالحادث زملائه فاسرعت دورية انجليزية لانقاذ الضباط فصادفت الضابط المغشى عليه وقد احاط به أحد الأهالى عند سوق سرسنا يقدم له الماء فانهالوا عليه ضربا بكعوب البنادق والسونكى حتى هشموا راسه ، ولما علمت سلطات الاحتلال بالحادث طلبت تقديم المتهمين الى المحاكمة ، وعلى الرغم من ثبوت أن المشاجرة لم تكن بسبق اصرار وان وفاة الضابط الانجليزى كان بسبب ضربة الشمس التى لم يتحملها فقد درست المحكمة القضية ولم تعط للمتهمين (عددهم) ٥٢ فرصا للدفاع عن أنفسهم الا ثلاثين دقيقة فقط وحكمت المحكمة باعدام اربعة شنقا وصدرت احكام اخرى بين الأشغال الشاقة المؤبدة والاشغال الشاقة على الآخرين كما عزل عمدة دنشواى .

وقد نفذت الأحكام علنا فى قرية دنشواى بين عويل النساء وصراخ الأطفال ووجوم الرجال الذين شاهدوا التعذيب .

واذا تفحصنا أسباب هذه الحادثة والأحكام التى صدرت نخرج بالنتائج التالية :

١ — ان المعتدى فى هذه الحادثة انما هم الانجليز ، فقد فاجئوا قرية آهلة بالسكان ليصطادوا الحمام كما لو كانت قرية مهجورة لا سكان فيها

٢ — انه لا يمكن للأهالى وقد رأوا احدى نسائهم تسقط جريحة والنار تشتعل فى جرن القمح وشيخ الخفراء وآخرين مصابين برصاص الانجليز أن يقفوا مكتوفى الأيدى دون أن يدافعوا عن اهلهم وبلدتهم وأنفسهم.

٣ — ان احكام المحكمة المخصوصة تجافى العدالة لأن أغلب اعضائها من الانجليز ومعنى ذلك أن الانجليز جعلوا من انفسهم حكاما وخصوما.

٤ — اثبت تقرير الطب الشرعى أن الضابط المتوفى انما مات لاصابته بضربة الشمس وذلك لأن الـوقت كان صيفـا ودرجة الحرارة ٤٢ درجة.

٥ — ان المحاكمة كانت شـبه صورية لان النيـة كانت مبيتـة على الانتقام فلم تستغرق المحاكمة سـوى ثلاثة أيام ، وقبل أن تنهى المحكمـة اجراءاتها صـدر الأمر الى المخـازن باعداد المشانق والآلات الخاصـة بالجلد وارسالها الى دنشواى .

لقد استنكرت الأمم المتمدينة هـذه المأساة الوحشية ، وكادت الأمة المصرية تستسلم لليأس لولا دوى صوت مصطفى كامل الذى بدد سـحب اليأس فقد كان فى باريس للاستشـفاء وقت الحادث ورغم نصيحة الأطباء له بالراحة فانه ما أن وصـله خبر الحادث حتى كتب مقالته المشـهورة « الى الأمة الانجليزية والعالم المتمدين » فى جريدة « الفيجارو » تناول فيه ملابسـات الحادث وطريقة الحـكم وتنفيذه فكان لهذه المقالة وقع شـديد زعزع مركز اللورد كرومر المعتمد البريطانى فى مصر .

نتـائج الحـادث :

١ — كان لهذا الحـادث أكبر الأثر فى ايقاظ الأمة المصرية حيث جمع قلوب الشعب المصرى وأحى شعور التضامن القومى بين ابنائه .

٢ — اطـلاع الرأى العام الأوربى والانجليزى على ما يرتكبه الاحتلال فى مصر من فظـائع .

٣ — زيادة قوة الحركة الوطنيـة التى يتزعمها مصطفى كامل وانضمام كثير من المترددين الى صفـوف الحركة الوطنية ثم تعديل سياسة الاحتلال.

٤ — استغلال مصطفى كامل للحادث فى التشهير بالسياسة الانجليزية واثارة الرأى العـام فى أوربا على قسوة ما اتخذ من اجراءات .

٥ — أظهرت حادثة دنشواى للعالم أن المصريين يكرهون الاحتـلال خلافا للشائعات المخالفة لذلك .

٦ — ساعدت حـادثة دنشواى على بلورة الوضـع الداخلى فى مصر فظهرت الأحـزاب الرئيسية الثلاثة (حزب الأمة — الحزب الوطنى — حزب الاصلاح على المبادىء الدستورية) .

٧ — اشتراك الأدباء والشـعراء فى التعبير عما حدث فى دنشـواى وبروز الملاحم الشـعبية والأدب الشعبى للتعبير عن المظـالم التى وقعت على الأهالى وأحكام الشنق والجلد وشنق زهران بالذات وفيما يلى الزجل الذى يعبر عن ذلك .

يوم شنق زهران كانت صعب وجفاتـه
أمه تبكى عليه فوق السطح واخـواته

لو كان له أب سـاعة الشـنق ما فاته
لاجل نصر الديانة أتـانا مصطفى كامل

٨ — أضافت حادثة دنشواى المزيد من أحقاد القـرية المصرية على الاحتلال حتى أن الظل القبيح لأحكـام دنشواى أقتم السنة الأخيرة من حكم اللورد كرومر لدرجة أن تحركاته فى مصر كانت تحت الحراسة المسلحة .

٩ — ازدياد الشـائعات عن أن أيام كرومر فى مصر أصبحت معدودة، وقد تحقق ذلك فعـلا فى ابريل ١٩٠٧ وعينت الحكومة الانجليزية السـير « الدون جورست » .

الدون جورست والحركة الوطنية المصرية :

تمكن جورست من اجتذاب الخديو اليه تمـاما حتى تطورت العلاقات بينهمـا الى صداقة متينـة وذلك بهدف الوقيعة بين الخديو والحركة الوطنية (سياسة فرق تسد) والواقع أن جورست قد نجـح فى الوقيعة بين الخديو والحزب الوطنى وخصوصا مصطفى كامل مع ذلك فانه لم ينجح فى القضاء على الحركة الوطنية وان ساعد بسياسته على تجزئتها فظهرت الأحـزاب فى مصر لأول مرة فى تاريخها .



٢ ـ مصطفى كامل وتأسيس الحزب الوطنى

هناك اناس خلقوا للكفاح يستعذبونه ويستطيبون كل شىء فى سبيله يرون فيه اداء للواجب وارضاء للضمير وسبيلا ناجحا لاعلاء كلمة الحق واصلاح امور بلادهم ومن هؤلاء الزعيم الوطنى الشاب مصطفى كامل .

ولعل أهم عمل قام به مصطفى كامل من اجل مصر هو انه اعاد للمصريين الثقة فى انفسهم بعد هزيمة العرابيين فى التل الكبير وبعد نجاح الاحتلال فى احداث حالة من البلبلة والاضطراب فى تفكير المصريين تسبب عنها ايجاد نوع من القنوط واليأس والحيرة استولت على قلوبهم والأمثلة على ذلك كثيرة منها المثل القائل « اتفق المصريون على الا يتفقوا » ومنها ما قاله شاعر النيل حافظ ابراهيم :

ان عشرين حجة بعد خمس ... علمتنا السكوت مهما تمادى

امة النيل اكبرت أن تعادى ... من رماها واشفقت أن تعادى

ليس فيها الا كلام والا حسرة ... بعد حسرة تتهادى

لاجرى النيل فى نواحيك يامصر ... ولا جادك الحيا حيث جادا

أانت انبت ذلك النبت يامصر ... فأضحى عليك شوكا قتادا

وكان ما فعله مصطفى كامل هو انه ذكر المصريين بماضيهم وجلال تاريخهم وسما بالوطنية المصرية الى مرتبة العقيدة حتى اصبحت أسلوبا فى الكفاح وكان طريقه الى ذلك الأسلوب السهل المؤثر على سامعيه لدرجة ان خطبه جرت على السنة الناس وكأنها اناشيد وأغان ، وساعده على ذلك اسلوبه الوجدانى الذى اعتمد على الجمل الضخمة التى رددتها الجماهير « لا معنى للحياة مع اليأس ولا معنى لليأس مع الحياة » .

« بلادى بلادى ، لك حبى وفؤادى لك حياتى ووجودى ، لك دمى ونفسى لك عقلى ولسانى لك لبى وجنانى فانت أنت الحياة ولا حياة الا بك يامصر » .

بهذا الأسلوب الوجدانى ، وبهذه القوة الخطابية خاطب مصطفى كامل شعور الشبيبة المصرية واستنهض همتهم يضـــاف الى ذلك ما كان يكتبه من مقالات تتقد بالوطنية بالجرائد خاصة فى جريدة اللواء .

بكل ذلك استطاع مصطفى كامل أن ينهض بأعباء دعوته متقدما الى الأمام رافعـــا علم النهضة ومرددا نشـــيد الأمل بصوت تهتز له الأفئدة حتى لقد وصفه لطفى السيد بأن شعاره الوطنية وغرضه الوطنية وكلماته الوطنية وكتابته الوطنية وحياته الوطنية حتى لبسها ولبسته فصار بينهما تلازم مستمر فى كافة المواقف .

ولعل أدق تحليل لدور مصطفى كامل فى قيادة الحركة الوطنية هـــو ما ذكره الأستاذ محمد شفيق غربال اذ يقول « ابســـط استجـــابة كانت استجابة مصطفى كامل تقـــوم على قاعدة خالية من كل تعقيـــد ومن كل شـــطارة لمصر عدو واحد هو الاحتـــلال ، ولمصر مقصد واحد وهو الجلاء وما عدا ذلك فتفصيل له وقته .. ومصدر العقيدة أيضا بسيط كل البساطة فكانت حمـــلة مصطفى كامل تستخدم ثلاث وسائل هى :

١ ـــ الا يأس مطلقـــا ولا تصدقوا أيها المصريون كلام الانجليز أو كلام مأجـــوريهم بأن مركزهم فى مصر لا يتزعزع ولن يتزعزع .

٢ ـــ لا تثقوا مطلقا بوعودهم ولا تركنوا الى محـــاولاتهم تبســـيط مركز البـــلاد الدولى بل تذرعوا بتلك العناصر الدولية والعثمـــانية التى يكرهها الانجليز ويكفى كرههم لها لتمسككم بها .

٣ ـــ لا تصدقوا أن الاحتلال يمكن أن يبطن خيرا لكم أو لبعضـــكم فهو يفعل ذلك ليفرق كلمتكم ويجعل من بعضكم أعداء البعض الآخر[1] .

ولقـــد اتبع مصطفى كامل سيـــاسة مترامية الأطـــراف تعتمد على أساليب متعددة من أجـــل اجلاء الانجليز عن مصر فلم يتـــرك وسـيلة لخدمة القضـــية المصرية الا ولجأ اليها فاعتمـــد على فرنســـا والـــدولة العثمانية كمـــا وطد علاقته بالخديو فى أول الأمـــر خصوصا وأن الحركة الوطنية لم تكن قـــادرة وحدها على الصمود فى وجه الاحتلال ، ولما يئس

من هؤلاء جميعا لم يجد خير وسيلة أمامه سوى الاعتماد على الرأى العام وتربيته .

وعلى الرغم من أن فكرة تأسيس حزب لم تكن بعيدة عن ذهن مصطفى كامل ، وبالرغم من انه كان يلم بطبيعة العمل الحزبى التى كان قد عرفها جيدا أثناء وجوده بفرنسا وتجواله فى أوربا فقد آثر الا يكون البادىء بتكوين الأحزاب لقناعته بضرورة توحيد كافة القوى فى مصر لاجلاء المحتل الغاصب أولا ولأن انشاء احزاب فى تلك الفترة ربما يؤدى الى تفتيت الجهود الوطنية وتصارعها ، واستمر مصطفى كامل متمسكا بهذا الموقف كما تمسكت به القوى الوطنية الأخرى لفترة من الوقت ، ولكن تطور الأحداث فى مصر ويأس الوطنيين من الحصول على مساعدات فعالة ضد الاحتلال من أوربا أو الدولة العثمانية أو من الخديو خصوصا بعد عقد الاتفاق الودى عام ١٩٠٤ وأزمة طابة ١٩٠٦ وأحداث دنشواى عام ١٩٠٦ أيضا كل هذا أدى الى ضعف الحركة الوطنية وانقسامها الى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : ويشمل بعض كبار الملاك والمثقفين من اتباع الشيخ محمد عبده وكان هدفهم حماية مصالحهم بالتعاون مع الاحتلال بعد أن رأوا ثمار اصلاحاتهم فى الزراعة والرى .

والقسم الثانى : ويشمل أنصار الخديو وعلى رأسهم الشيخ على يوسف وكان هدفهم تحقيق الاستقلال الادارى ثم اقامة حكم نيابى مقيد بسلطة الخديو ، وكان هؤلاء ينتقدون سلطات الاحتلال نقدا معتدلا .

أما القسم الثالث : فكان فريق مصطفى كامل ، وكان يعتمد على المثقفين بوجه خاص (٢) وهو الذى حمل لواء المعارضة ضد الاحتلال

ومن هذه الأقسام الثلاثة تكونت الاحزاب المصرية الثلاثة الكبرى وهى حزب الأمة وحزب الاصلاح على المبادىء الدستورية والحزب الوطنى .

وقد يجرنا الحديث عن الحزب الوطنى الى أن نتساءل هل عبارة الحزب الوطنى جديدة أم كانت معروفة قبل مصطفى كامل .

الواقع أن تعبير الحزب الوطنى كان معروفا فى مصر قبل ظهور مصطفى كامل بعشرات السنين فقد تردد هذا الاسم أكثر من مرة فى كتابات وخطب الوطنيين المصريين وغيرهم كما أطلق على بعض الهيئات الوطنية سواء السرية منها أو العلنية فعندما أحس المصريون بالخطر على مصير بلادهم ، وفكروا فى التخلص من الخديو اسماعيل الذى لا يحسن تصريف شئون البلاد تم الاتفاق بين الجمعية السرية التى تكونت من ضباط الجيش (٣) عام ١٨٧٦ وجمعية حلوان التى تكونت فى أبريل ١٨٧٩ (٤) على تأليف « حزب خفى من العظماء والكبراء والعلماء سموا أنفسهم بالحزب الوطنى ، وقد أتيح لعرابى تزعم هذا الحزب بجناحيه المدنى والعسكرى (٥) .

وعندما ناشد الأفغانى أبناء مصر بالاقبال على العلوم والمعارف أوضح لهم أن حزبهم الوطنى لا تحصل له القوة ولا يكون له البقاء الا اذا استقرت فيهم المعارف (٦) .

وعندما أشتد التآمر على الثورة العرابية واقال الخديو وزارة البارودى التى كان عرابى وزيرا للحربية فيها ، تمسك عرابى بمركزه كرئيس للحركة الوطنية وأعلن انه لم يستعف من رئاسة الحزب الوطنى رغم استعفائه من نظارة الجهادية (٧) .

وعندما سافر مصطفى كامل الى باريس عام ١٨٩٥ للدعاية للقضية المصرية صرح بأنه موفد من قبل الحزب الوطنى علما بأن هذا الحزب لم يكن له وجود فى تلك الفترة .

وعندما تأسست جمعية سرية لمناهضة الاحتلال تحت رئاسة الخديو فى عام ١٨٩٦ عبر عنها مصطفى كامل بانها حزب سرى مخلص للغاية وعلى استعداد للتضحية بذاته فى سبيل الوطن المقدس (٨) .

وهذا الحزب أطلق عليه اسم الحزب الوطنى ، وقد أكد لطفى السيد ذلك بقوله « كونا تحت رعاية الخديو عباس جمعية سرية فى بادىء الأمر، وكانت هذه الجمعية هى الحزب الوطنى (٩) .

لماذا اطلق تعبير الحزب الوطنى على هذه الهيئات السياسية رغم أنها لم تكن حزبا سياسيا بالمعنى المفهوم فالحزب لابد أن يقابله أحزاب اخرى تتعارض فى المبادى والبرامج على النحو الذى نعهده فى الأحزاب السياسية .

يذكر عرابى أن مصر مسكونة بأجناس مختلفة وكل جنس منها يعتبر حزبا كما أن لأهل البلاد حزب قائم بذاته هو الحزب الوطنى(١٠) .

ويذكر مصطفى كامل أن الحزب الوطنى موجود فعلا قبل اعلانه بثلاثة عشر عاما فهو وان لم يظهر بشكل نظامى وبلائحة ولجنة ادارة فقد ظهر بأعماله واتفاق أعضائه على خدمة البلاد بكل قوة (١١) وأن هذا الحزب هو حزب الأمة كلها الذى أيقظ العواطف الوطنية فى البلاد(١٢) ويذكر الأستاذ عباس محمود العقاد أن تسمية تلك الهيئة السياسية بالحزب ترجع الى أن افرادها يواجهون جماعة الأتراك والشراكسة والألبانيين والأرمن الذين كانوا يتبعون الدولة العثمانية وينفردون بولاية الحكم فى الوظائف الكبيرة وأكثر الوظائف الصغيرة ، لذلك فتعبير الحزب الوطنى على هذا الأساس كان هو حزب الفلاحين أو حزب الأمة المصرية(١٣) .

والواقع أن اطلاق تعبير حزب على تلك الهيئات الوطنية من الممكن الاستعاضة عنه بتعبير جبهة وطنية أو اتجاه وطنى بدلا من حزب لأنه لم يحمل مضمون الحزب أو ابعاده فقد كانت له أهداف عامة تعكس الآمال الشعبية ، ومع ذلك فقد كان يفتقد الى التنظيم اللازم للعمل الحزبى ، ولم يقتصر الأمر على ذلك فقط فقد ظهرت احزاب فى ظل الاحتلال كان لها برامج وأطلق عليها اسم الحزب الوطنى قبل أن يؤسس مصطفى كامل حزبه مثل الحزب الوطنى الحر (١٤) الذى تأسس فى ٢٦ يوليو ١٩٠٧ برئاسة محمد وحيد الأيوبى ، وكان مناصرا للاحتلال ، ويرى أن رقى البلاد لم يتم الا على يديه كما كان معاديا لمصطفى كامل وحركته .

وحزب آخر سمى الحزب الوطنى أسسه حافظ عوض صاحب جريدة المنبر فى أغسطس ١٩٠٧ وكان شديد الولاء للاحتلال البريطانى أيضا ولكنه لم يستمر طويلا بل انضم الى حزب الاصلاح على المبادىء الدستورية بعد ذلك .

وعلى كل حال فان فكرة تأسيس حزب بمفهـوم حقيقى قد راودت مصطفى كامل قبل الاعلان عنه بمدة ، ففى عام ١٩٠٠ فـكر فى اقامـة حزب على غـرار الأحزاب الأوربيـة وأوضح عن ذلك فى اللواء معـربا عن أمنيتـه فى تأسيس هذا الحزب [١٥] ولكن خشـيته من تفتيت الجبهة الداخلية جعـله يحجم عن تنفيذ فـكرته ، ولعله تعلم هذا الدرس مـن عبد الله النديم خطيب الثـورة العرابية ، ومع ذلك فقد ظلت فكرة تأسيس حزب تراود خياله فعندما اجتمـع بالخديو فى خريف ١٩٠٦ اتفق معه على تأسيس الحزب الوطنى ، وكانت نقطـة الخـلاف حوله هل سيكون الحزب سريا أم علنيـا ، وكان رأى الخديو أن يكون سريا ثم انتهى الأمر بأن كان علنيـا [١٦] ومع ذلك لم يسرع مصطفى كامل فى تكوين حزبه ، بـل تريث فى الأمـر حتى أواخر ١٩٠٧ خشـية تفتيت الجبهة الداخلية ، ولكن ظهور حزبى الأمة والاصـلاح على المبادىء الدسـتورية قد دفعاه الى الاسراع فى تأسيس حـزبه وقد أوضح مصطفى كامل ذلك فى خطـاب أرسـله الى محمد فريد قال فيه « ان ظهور حزب الأمة المؤنف من أولئك الذين خبـرنا نفسيتهم وميلهم الى مسـايرة المحتلين وفقـا لما يسـمونه سياسة اللين والتدرج وان ما علمته كذلك من صـاحب المؤيد عن تأليف حزب باسـم « حزب الاصلاح » لخدمة السراى ، هذان الأمران يحتمان علينا كل التحتيم أن نظهر حزبنا الوطنى بالرغم منا بمظهره الحقيقى حتى يعلم العالم كافة أن للوطن المصرى حـزبا يطلب بعزيمة صـادقة الجـلاء والدستور أى أنه لا يقبل حـكم الأجنبى ولا حكم الفـرد » ثم أوضـح مصطفى كامل الأسباب التى تجعـله لا يرغب فى تعدد الأحزاب فقال « نعم انى أرغب الآن كل الرغبـة فى ظهور هذا الحـزب بحال منتظمة بالرغم من وطنيتى التى تـرى فى تعدد الأحزاب حـربا أهلية لا مندوحة منها ، حربا تعوق ولو الى حين ما نرمى اليه من حرية واستقلال بتقوية مركز المحتل لبلادنا ولكن ما العمـل ونحن لو سكتنـا أمام هذه الحـال التى ما أوجـدها الا دهـاء جورست وقصر نظر المؤلفين لهذين الحزبين لفقـدنا كل شىء ولاصبحت الوطنية المصرية عدما فى عدم بتغليب المبادىء السقيمة عليهـا وتقاعس المخلصين لنصرتها وانمائها [١٧] .

وهكذا يتضح أن مصطفى كامل رغم امنيته فى أن يرى فى مصر حزبا وطنيا منظما الا انه خشى ان يبدأ بهذه الخطوة حتى لا تنقسم الجبهة الداخلية ، واستمر على هذه السياسة حتى ظهر حزبا الأمة والاصلاح على المبادىء الدستورية ، فاضطر الى أن يعلن عن حزبه حتى لا تضيع الأهداف الوطنية وسط المتاهات الحزبية ففى الثانى والعشرين من اكتوبر ١٩٠٧ دعا مصطفى كامل الوطنيين لمؤتمر عام بمسرح زيزنيا بالاسكندرية فلبى الدعوة عدد قدرته الصحف بين خمسة وسبعة آلاف القى فيهم مصطفى كامل خطبة طويلة تحدث فيها عن الحياة الوطنية فى مصر بعد الاتفاق الودى والتقدم الذى أحرزه العمل الوطنى وثقته الكبيرة فى أن المصريين قادرون على الوصول الى الاستقلال ، كما أعلن عن قيام الحزب الوطنى ودعا أفراد الأمة الى الانضمام اليه [١٨] .

وقد أحدث ذلك الخطاب دويا كبيرا ، ونشرت الجرائد فقرات طويلة منه وانهالت للانضمام للحزب من كل جانب .

وفى ٢٧ ديسمبر عقدت أول جمعية عمومية للحزب بدار جريدة اللواء بالقاهرة أطلق عليها اسم المؤتمر الوطنى وكان عدد الحاضرين ١٠١٩ مندوبا من كافة الطبقات يمثل كلا منهم مئتا عضو طبقا لقانون الحزب [١٩] ، وافتتح مصطفى كامل هذه الجمعية العمومية بخطبة نوه فيها بأن الحزب الوطنى موجود منذ وقت طويل ، وان ما يحدث هو اعادة تنظيمه ، كما أوضح أن الحزب الوطنى لم يكن حزبا سياسيا فحسب بل هو قبل كل شىء حزب حياة الأمة وانهاض لها ، كما انه حزب يهتم بتعليم سائر طبقات الشعب ، ويرى ان استقلال البلاد هو أساس كل سعادة ويسعى للوفاق بين أفراد الأمة كما يقم بتحسين حال الفلاح [٢٠] .

وبعد خطاب مصطفى كامل انتخبه الحاضرون بالاجماع رئيسا للحزب الوطنى مدى الحياة ، وبعد التصديق على لائحة الحزب قام الحاضرون بانتخاب الأعضاء الثلاثين للجنة الادارية الأولى للحزب [٢١] .

والجدير بالذكر أن الحزب الوطنى كان الحزب الوحيد — من الأحزاب الثلاثة الكبيرة — الذى التزم بنهج ديمقراطى فى تنظيمه فقد بدأ من القاعدة

وتدرج الى القمة كما هو متبعـــا فى الأحزاب الديمقراطية فرفض ان يفرض على أعضـــائه لجنة ادارية معينـــة كما حدث فى حزبى الأمة والاصـــلاح بل تـــرك الأمر للجمعية العمـــومية التى قامت بانتخاب أعضـــاء اللجنـــة الادارية المكونة من ثلاثين عضوا والتى قامت بدورها فى انتخاب اللجنـــة التنفيذية للحزب المكونة من تسعة اعضاء [٢٢] الا أن ما يؤخذ على الحزب أن انتخـــاب رئيسه مدى الحيـــاة أمر غير مفهوم فى الأحزاب الديمقراطية وهذا هو ما أخذه سعد زغلول على الحزب الوطنى [٢٣] وما دفع محمـــد فريد بعد ذلك بتعديل هذه المادة وتجديد المدة التى ينتخب لها الرئيس بثلاث ســـنوات .

أما عن برنامج الحزب فقد تضمن مبادىء عشرة هى :

١ — استقلال مصر كما قررته معاهدة لندن ١٨٤٠ وضمنته الفرامانات الســـلطانية ذلك الاستقلال الضامن عرش مصر لعائلة محمد على والضامن للاستقلال الداخلى للبلاد وهو الاستقلال الذى تعهـــدت انجلترا رســـميا باحتـــرامه .

٢ — ايجاد حكومة دستورية فى البلاد بحيث تكون الهيئة الحـــاكمة مسئولة أمام مجلس نيابى تام السلطة كمجالس النواب فى أوربا .

٣ — احترام المعاهدات الدولية والاتفاقات المالية التى ارتبطت بهـــا الحكومة المصرية لسدد الديون ، وقبول مراقبة مالية كالمـــراقبة الثنـــائية مادامت مصر مدينة لأوربا ومادامت أوربا تطلب هذه المراقبة .

٤ — انتقاد الأعمال الضـــارة بكل صراحة والاعتراف بالأعمال النافعة والتشـــجيع عليها وارشـــاد الحكومة الى خير الأمة ورغائبها والاصلاحات اللازمة لهـــا .

٥ — العمل على نشر التعليم فى انحـــاء الديار على أســـاس وطنى صحيح بحيث ينـــال الفقراء النصيب الأوفر منه ، ومحـــاربة الخزعبـــلات والترهات ونشر المبـــادىء الدينية الســـليمية الداعية للرقى وحث الاغنياء والقـــادرين على بذل كل المســـاعدات لنشر التعـــليم بتأسيس الكليـــات

فى البلاد ، وارسال الارساليات لأوربا وفتح المدارس الليلية للعمال والصناع .

٦ — ترقية الزراعة والصناعة والتجارة ، وكل فروع الحياة ، والعمل والجد حتى تنال الأمة استقلالها العلمى والاقتصادى .

٧ — ارشاد الأهالى بكافة الوسائل الممكنة الى حقائق الأحوال وبث الشعور الوطنى فيهم ، ودعوتهم الى الاتحاد والائتلاف وتمكين المحبة بين عنصرى الأمة المسلمين الأقباط وتنبيههم الى واجباتهم نحو بلادهم .

٨ — مساعدة كل مشروع يعود على القطر بالنجاح والاجتهاد فى تحسين الأحوال الصحية حتى يزداد عدد السكان فتزداد الأمة قوة على قوتها .

٩ — تقوية العلاقات الودية بين تركيا ومصر من جهة ، وبين مصر والدول الأوربية من جهة أخرى ونفى كل تهمة عن مصر ، والعمل لايجاد انصار لها فى أنحاء العالم حتى تكون لها قوة أدبية سامية تساعدها على اعتراف الغير بحقوقها الشرعية ، والتغلب على المساعى التى تعمل ضدها ويراد بها اخفاء الحقيقة (٢٤) .

وعند تحليل المبادىء التى ارتكن عليها الحزب الوطنى نجد أنها قريبة الشبه بالبرنامج الذى سار عليه الوطنيون فى عام ١٨٨١ وأطلق عليه برنامج الحزب الوطنى المصرى خصوصا فى اعلان ولاء كل منهما للدولة العثمانية ، وضرورة المحافظة على العلاقات الودية معها والارتكان فى ذلك فى مواجهة القوى الخارجية .

ففى البند الأول من برنامج الحزب الوطنى المصرى ما نصه « يرى الحزب الوطنى المحافظة على العلاقات الودية بين الحكومة المصرية والباب العالى ، واتخاذ ذلك الباب ركنا يستند عليه » ثم يعترف باستحقاق الباب العالى لما يأخذه من أموال من الخزانة المصرية وما يلزمه من المساعدة بشرط المحافظة على الحقوق الوطنية ومقاومة

من يحـاول اخضـاع مصر أو أن يسلب امتيـازاتها الادارية التى منحتها الفرامانات ، وفى البنـد الأول من برنامج الحزب الوطنى الذى أسسـه مصطفى كامل نجـد المطالبة بالاستقلال الذاتى لمصر فى ظـل السيـادة العثمانية مما اثـار البعض على مصطفى كامل خصـوصا جريدة المقطـم التى اتهمته وحزبه بأنهم يعملون على استبدال الانجليز بالاتـراك وبأنهم يفضلون الولاء للعثمانية على الولاء للمصرية ، وقامت بحمـلة شـديدة على الحزب الوطنى ومؤسسـه ممـا دفع مصطفى كامل الى دحض هذه التهـم ، مبينـا ان الفرامانات السلطانية تثبت عـدم شـرعية الاحتلال الانجليزى لمصر ، وان البـاب العالى يحترم دائمـا استقـلال مصر كما أنه ضـد أى تغيير للمعـاهدات الدولية التى نظمت عـلاقة مصر بالدولة العثمانية [٢٥] .

ويرجع الدكتور هيكل اسباب تمسك الحزب الوطنى بهـذا البنـد فى حيـاة مصطفى كامل [٢٦] الى محاولته تفـادى معـارضة القـانون أو أن ينسب اليه أحد تهمة التآمر على النظام القائم [٢٧] .

ومع وجـاهة هذا الراى فاننـا اذا تفحصنـا الخطبة التى القاها مصطفى كامل على مسرح زيزينيـا بالاسكندرية وأعلن فيها قيام الحزب الوطنى نجـده يذكر ما نصـه « اننـا اذا خطبنا الـود لأمة أو لدولة فاننا نعمـل كغيرنا ونتبـع ناموس الطبيعـة القـاضى بأن من اتفقت مصالحهم يجتمعون ويتناصرون » ومعنى ذلك أنه اذا كان مصطفى كـامل قد نـادى بضرورة التمسـك بالرابطة العثمانية فيرجع ذلك الى انه رأى فى التعاون مع الدولة العثمانية ورقة سياسية ذات فاعلية ضد محاولات انجلترا اعلان الحماية على مصر .

وحتى يحـول دون استمالة انجلترا للسلطان العثمانى وايقـاعها بينه وبين مصر فليس من الحكمة أن ينادى مصطفى كامل بجلاء الاحتلال البريطانى وبالغـاء السيادة العثمانية معا [٢٨] لأنه اذا فعل ذلك سيثير غضب تركيـا ويجعلها تنضـم الى جـانب انجلترا ضد المصالح المصرية، كما أنه رأى أن التخلص من السيـادة العثمانية كان أمرا هينـا بعـد التخلص من الاحتـلال يضـاف الى ذلك أن الرأى العام فى مصر كان

متمسكا بالخلافة ، وكان يعتبر السلطان العثمانى خليفة المسلمين، لذلك فان دعوة مصطفى كامل للتمسك بالخلافة كانت تساير روح العصر وتتفق مع رأى غالبية المصريين (٢٩) .

وفى البند الثانى لكل من الحزبين نرى هناك تشابها أيضا فقد نص برنامج الحزب الوطنى أيام عرابى على عدم عودة الاستبداد والاحكام الظالمة ، واتباع حكم اشورى بواسطة مجلس شورى النواب واطلاق عنان الحرية للمصريين ، ودعا برنامج الحزب الوطنى بزعامة مصطفى كامل الى أن تكون الحكومة دستورية ومسئولة أمام مجلس النواب .

أما البند الثالث فنجد فيه تشابها أيضا من ناحية احترام الاتفاقات والمعاهدات التى عقدت مع الدول الأوربية حتى تهدأ خواطر أصحاب الديون فقد نص برنامج الحزب الأول على احترام الاتفاقات الدولية خصوصا الديون الأجنبية وقبول استمرار المراقبة الأوربية كما نص برنامج حزب مصطفى كامل على احترام ارتباطات الحكومة بسداد الديون وقبول مراقبة مالية كالمراقبة الثنائية مادامت مصر مدينة لأوربا .

يضاف الى ذلك أن كل من الحزبين نادى بتعميم التعليم والعمل على نشر المعارف وتقوية عنصر الوئام والمحبة بين كافة الأديان ونفى تهمة التعصب عن المصريين واشتراك رجال مختلفى العقيدة والمذهب فى كل منهما .

وعلى كل حال فقد كان برنامج الحزب الوطنى برنامجا عمليا بشكل عام واقرب ما يكون الى نشاط مصطفى كامل قبل اعلان الحزب رسميا .

وقد كانت الجمعية العمومية للحزب الوطنى تجتمع مرة فى شهر ديسمبر من كل عام تحت اسم المؤتمر الوطنى لمناقشة ميزانية الحزب واعماله ومراجعة نشاطه ووضع القرارات .

وعن اللجنة الادارية للحزب فكانت تنعقد مرة كل شهر للنظر فى الأمور الخاصة بالحزب .

أما عن اللجنة التنفيذية فكانت تتكون من ثمانية أعضاء ينتخبون من أعضاء اللجنة الادارية بخلاف الرئيس يكون منهم نائبان للرئيس وسكرتير وأمين صندوق وكانت هذه اللجنة تجتمع أسبوعيا لتسيير أمور الحزب وما يطرأ عليه من تطورات [٣٠] .

وبالنسبة لاشتراكات الأعضاء فلم يتحدد اشتراك معين بل ترك لكل عضو يدفع ما يريد حسب مقدرته .

وقد نمت حركة الحزب الوطنى واتسع نطاقها بازدياد عدد الذين انضموا الى صفوفه .

وتختلف الآراء التى قيلت عن تأسيس الحزب الوطنى بين مادح وقادح فهناك رأى يرى أنه كان من الواجب على مصطفى كامل وجماعته محاربة حركة تجزئة الأمة وتفتيت وحدتها بأن تبادر بكشف أساليب الاستعمار وأعوانه بدلا من أن تسارع الى تنظيم نفسها على شكل حزب بعد الاعلان عن حزبى الأمة والاصلاح على المبادىء الدستورية [٣١] ولكن ردنا على ذلك هو أنه بالرغم من اختمار فكرة تكوين الحزب الوطنى فى ذهن مصطفى كامل كما سبق أن أوضحنا الا أنه لم يقدم على هذه الخطوة الا بعد الاعلان عن حزبى الأمة والاصلاح وبعد أن كاد صوت الجلاء يضيع وسط المتاهات الحزبية ، فالواضح أن الحزب الوطنى كان آخر الأحزاب الكبيرة التى أعلنت عن نفسها حيث أعلن عن قيام حزب الأمة فى ٢١ سبتمبر ١٩٠٧ وحزب الاصلاح فى ٩ ديسمبر بينما الحزب الوطنى لم يعلن قيامه الا فى ٢٧ ديسمبر من نفس العام يضاف الى ذلك أن مصطفى كامل رغم أنه اضطر الى قبول مبدأ تكوين الحزب السياسى فانه ظل يدافع عن فكرة مبدأ الحزب الواحد ، وكان من رايه أن تعدد الاحزاب ممكن طالما أن الوطن ليس معرضا للخطر أما وقد أصبحت مصر محتلة من الانجليز ، فان مواجهة الخطر تقتضى الاكتفاء بحزب سياسى واحد هو الحزب الوطنى حتى يتمكن من توحيد الأمة وتجنيد وحشد كافة طاقاتها لتحقيق الاستقلال [٣٢] .

أما الرأى الثانى فكان يرى فى تعدد الأحزاب قوة للأمة وتأكيدا لصلابتها وتقدمها اذ أنه لا توجد الأحزاب الا فى الأمم القوية التى بلغت أشدها ، وتكون الأحزاب كالشجرة التى تتفرع الى أغصان كثيرة لكنها ترتبط بالجذع الراسخ بجذوره فى أعماق الأرض ، فكذلك الأمة القوية هى الجذع الراسخ وفروعها بمثابة الأحزاب المختلفة الاتجاهات (٣٣) .

ثم هناك رأى آخر يرى أن العمل الحزبى أفضل من العمل الفردى الذى يمكن أن ينتهى بموت الفرد ، كما أن وجود أحزاب معتدلة بجانب متطرفة يعطى للانجليز الفرصة فى التفاهم معهم فيكون أحدهم حلقة اتصال بين الأمة والاحتلال (٣٤) .

ومع وجاهة الآراء السابقة فاننا نرى أن ظروف مصر فى تلك الفترة وهى فترة الاحتلال كانت تتطلب وجود حزب واحد قوى يستطيع قيادة الأمة نحو الاستقلال بعيدا عن المهاترات الحزبية التى غالبا ما تنشأ نتيجة الصراع بين مختلف الاتجاهات والنزاعات الحزبية ، أما بعد أن يتحقق الجلاء فتعدد الأحزاب مطلوب لممارسة الحياة الديمقراطية .

وعلى كل حال فقد خاضت مصر غمار الحزبية ، وأصبح لزاما على الحزب الوطنى أن يحمل لواء الاستقلال وقيادة الحركة الوطنية المطالبة بالجلاء العاجل .

ولقد ارتبطت الطبقة المتوسطة وبوجه خاص الكامنة منها فى المدن بشخصية مصطفى كامل الرومانسية أشد الارتباط كما ارتبط الشباب بصفة عامة والطلبة بصفة خاصة بمصطفى كامل لدرجة أن أصبحت بعض المدارس مكانا للمناقشات السياسية التى أثارها الحزب الوطنى (٣٥) ومع ذلك فانه لا يمكن القول بأن الحزب الوطنى كان يمثل كافة المثقفين لأن هؤلاء وزعوا بين كافة الأحزاب (٣٦) كما أن الحزب الوطنى فى بداية تكوينه لم يهتم بجذب الفلاحين اليه وذلك لأن دعوته بالتقارب من الدولة العثمانية جعلت الفلاحين يبتعدون عنه نظرا لما لاقوه من العسف أثناء الحكم العثمانى واستمر الحال على هذا المنوال حتى

حادثة دنشـــواى التى كانت فرصـــة لوصـــول صـــوت مصطفى كامل للفلاحين[٣٧] ، يضاف الى ذلك أن نشـــاط الحزب الوطنى تركز فى المدن، وبوجه خـــاص فى الاسكندرية والقاهرة والمدن الكبرى بالوجه البحـــرى أما فى الوجه القبلى فلم يكن للحزب الوطنى نفوذ يذكر .

ولقد تميز برنامج الحزب الوطنى بالوضـــوح ورتب مطالبه الوطنية حسب أهميتها فأعطى للجـــلاء الأولوية على الدستور ، وبذلك كان حـــزب التعبير عن الواقع مما كفل له تأييد أغلبية الجماهير فكان له أعظم وزن فى الحركة السياسية المصرية فى تلك الفترة [٣٨] .

وقد أثمرت دعـــوة الحزب الوطنى فى جمع شمل المصريين حـــول مطلب الجـــلاء الذى اقترن بفكرة الحيـــاة الدستورية ، ولما اتضـــح أن ذلك لا يتم الا بالارتقـــاء بأفراد الأمة اهتم الحزب الوطنى بنشر التعـــليم كما نادى برفع الغبن عن الطبقات الكادحة من أبناء الشعب[٣٩] .

ومما يؤخذ على الحزب الوطنى موقفه من القضـــايا الاجتمـــاعية ، فرغم أن مؤسسه تعلم فى أوربـــا فقد ظل متمسكا بالقديم أشد استمساك فهاجم قاســـم أمين عندما أصدر كتابه تحرير المـــرأة واتهمـــه بمخـــالفة الدين [٤٠] كما هاجم الشيخ على يوسف لموقفه من قضية الزوجية .

ويمكننا أن نرجع ذلك الى أن مصطفى كامل حاول التقرب الى الشعب فيما هو عزيز لديه من عادات وأوهام لاستغلاله فى الغايات السياسية .

ويؤخذ على الحزب الوطنى أيضـــا انه لم يكن له دور بـــارز داخل القرية المصرية فاعتمـــد على الطبقـــة المثقفة مع أن الحركات الجماهيرية لا تتعمق جـــذورها الا بالاعتماد على القوى الفلاحية التى تمثل غـــالبية أفراد المجتمع كما يؤخذ عليه انه لم يطرح على جماهير الشعب المصـــرى تصورات لآفاق جديدة مثل التى طرحتها الأحزاب الأخرى [٤١] .

ولعل الخديو عبـــاس الثانى كان محقـــا فيما قاله عن مصطفى كامل بأنه لم يكن مفـــرطا فى عصريته وأن أفكـــاره كانت أقـــرب الى التقليـــد الشرقى [٤٢] يضاف الى ذلك ما ذكرته جوليت آدم من أن مصطفى كـــامل

كان يشفع أعماله بالتقاليد العربية الأصيلة حتى يرضى شمم عنصره الذى لا يقبل فى ذلك الوقت الا أن يسترد ما أعاره لأوربا [٤٣] .

وعلى كل حال فقد أسس مصطفى كامل حزبا ذو تنظيم اتسم بالقوة والثبات أمام الضربات التى وجهت اليه وصار يؤدى واجبه فى حركة النضال الوطنى حتى يمكن القول انه كان صاحب الفضل فى تهيئة الطريق أمام ثورة ١٩١٩ .

٣ - محمد فريد وزعامته للحزب الوطنى

حياة محمد فريد الزعيم الثانى للحزب الوطنى مليئة بالتضحيات فى سبيل المبادىء من أجل الدفاع عن حرية مصر وحقوقها المسلوبة فقد انضم فريد الى قافلة المجاهدين بعد أن اتم تعليمه ، وبدأ حياته السياسية بالاستقالة من وظيفته كوكيل للنائب العام بعد موقفه الوطنى فى قضية التلغراف ، ثم ضحى بعمله فى المحاماة لكى يتفرغ للجهاد، كما ضحى بأمواله لمساندة الحركة الوطنية فباع كل ما تركه والده من أرض زراعية من أجل تمويل الحزب الوطنى حتى يقف على قدميه ثابته الأركان ، ورفض الاشتراك فى أى وزارة . أو تولى أى منصب طالما الاحتلال جاثما على صدر الوطن يضاف الى ذلك أنه ضحى براحته وحريته فتعرض للسجن والنفى ومات بعيدا عن الوطن الذى أحبه وعمل من أجله .

ورغم الظروف السياسية التى أحاطت بفريد عقب توليه رئاسة الحزب الوطنى ورغم ما تعرضت له الحركة الوطنية من ضربات متلاحقة سواء من الخديو أو من الاحتلال نتيجة سياسة الوفاق التى اتبعها الانجليز لاجتذاب الخديو الى صفهم واحتواء الحركة الوطنية فقد ظل فريد متمسكا بمبادئه متحملا للمصاعب والعقبات التى واجهته بكل عزيمة وجلد ليس فقط من جانب الانجليز والخديو ، ولكن ايضا من جانب بعض أعضاء الحزب الوطنى وبوجه خاص من على فهمى كامل شقيق مصطفى كامل .

فبعد وفاة مصطفى كامل اتجهت أنظار الوطنيين الى محمد فريد ليخلفه فى تحمل أعباء زعامة الحزب الا أن الخديو كان له موقف آخر وهو رغبته فى احتواء الحزب الوطنى عن طريق ترشيح من يتوسم فيه السير فى ركابه خلفا لمصطفى كامل فى زعامة الحزب ، ولما كان الخديو يدرك أن فريدا ليس بالرجل الذى يسير طوع ارادته ، أو ممن يدينون بالطاعة أو الولاء له فقد حاول منع انتخابه رئيسا للحزب الوطنى وذلك عن طريق تقريب أعضاء الحزب منه واملاء ارشاداته وتوجيهاته عليهم ، ودس دسائسه لانتخاب من يكون طوع ارادته ، فأوعز الى على فهمى كامل أن يرشح نفسه لرئاسة الحزب الوطنى ووعده بالمساعدة المادية والأدبية على اساس انه أحق الناس بوراثة اخيه فى زعامة الحركة الوطنية ، ورغم أن مصطفى كامل كان قد رشح فريدا بأن يكون رئيسا للحزب من بعده فان على فهمى كامل حبذ فكرة الخديو ، وعمل من أجل تحقيقها ، ولكنه رأى التيار داخل الحزب فى صالح فريد فتراجع عن موقفه ، ويتضح ذلك مما كتبه فريد فى مذكراته فقال « كان يريد أن ينتخب بصفته أخ الفقيد وجهز أوراقا مكتوبا عليها اسمه ووزعها على بعض الحاضرين ، وأدخل فى محضر الاجتماع الكثيرين من غير الأعضاء بواسطة من وضعهم على الباب من رجاله ، ولكنه لما رأى التيار قويا ضده حول الدفة ، وخطب فى الحاضرين مرشحا لى بناء على جواب كتبه له أخوه من أوربا يوصيه فيه بانتخابى لو فاجأه القدر المحتوم[(٤٤)] » .

وعلى كل حال فقد فشلت محاولات الخديو فى اسقاط فريد خصوصا بعد أن وقف الأستاذ عثمان صبرى صهر مصطفى كامل ، ومدير جريدة ذى اجبشيان استاندارد والقى خطبة أوضح فيها أن فريد هو المرشح الوحيد لرئاسة الحزب بعد مصطفى كامل ، وقد وجدت هذه الفكرة ترحيبا من اجماع الحاضرين ونودى بفريد رئيسا للحزب الوطنى[(٤٥)] مما قلب خطط الخديو رأسا على عقب .

ولما علم الخديو بما حدث حاول الا تفلت الأمور من يده أكثر من ذلك فطلب من فريد تليفونيا مقابلته بسراى عابدين ، وهناك هنأه على على انتخابه وكان من ضمن عباراته له « أن وجود مثلك على كرسى

الحركة الوطنية مفيدا جدا لأنك لست محتاجا ، ولا طالبا للمال ، ولأنك من عائلة خدمت البلاد .. ولا يمكن للانجليز أن يقولوا عنك بأنك طالب شهرة أو مال أو وظيفة »[٤٦] كما عرض الخديو على فريد استعداده للمساعدة بالمال ، ولكن فريد رفض ذلك بشدة حتى لايكون مرتبطا بالولاء لأحد .

وهكذا نجح رجال الحزب الوطنى فى احباط محاولات الخديو بمنع انتخاب فريد ، واحداث انشقاق ونزاع بين أعضاء الحزب فقضوا على المؤامرة فى مهدها ، ورأبوا الصدع ، وتم انتخاب فريد رئيسا للحزب الوطنى ، وكذلك حدد فريد فى أول لقاء له مع الخديو بعد انتخابه استقلاله عنه ، ورفض أمواله حتى لا يسير طوع ارادته مما زاد من اصرار الخديو على ضرورة اسقاطه ، ووضع العقبات أمامه .

وقد حمل فريد زعامة الحزب الوطنى وسط مصاعب جمة فلم تسر الأمور على المنوال الذى سارت عليه رئاسة مصطفى كامل للحزب، ويرجع ذلك الى أن فريد تولى زعامة الحزب فى وقت ظهرت فيه سياسة الوفاق بين الخديو والاحتلال فصارت الحركة الوطنية بزعامة فريد هدفا لحرب شديدة من جانب الاحتلال والخديو معا [٤٧] مما جعل فريد يضاعف من جهاده .

وقد أخذ فريد يشرف على تحرير جرائد الحزب الثلاثة ويوجه سياستها كما أنشىء فى أوائل عهده بالرئاسة نادى الحزب الوطنى ، وتولى هو رئاسته .

وقد حدد فريد مطالب الحركة الوطنية فى مطلبين هما الجلاء والدستور وبذلك كان متفقا فى خطته مع مصطفى كامل الا انه ابرز دعوة المطالبة بالدستور وجعل منها حركة عامة دعا اليها الأمة ، ووجهها الى مطالبة الخديو بالدستور بكتابة العرائض الى قصر عابدين[٤٨] ، وقد أعد الحزب الوطنى عرائض لتقديمها الى الخديو بطلب مجلس نيابى [٤٩] واعادة دستور ١٨٨١ الذى ألغى بعد هزيمة العرابيين .

ويبدو أن فريدا كان قد اقتنع الخديو بضرورة منح الأمة المصرية مجلسا نيابيا ، وأن الخديو وافق على كتابة العرائض بطلب الدستور حتى اذا سافر الى انجلترا يتكلم مع الملك ادوارد بخصوص منح المصريين الدستور ويثبت ذلك ما كتبه محمد فريد فى مذكراته « كان الشروع فى هذا العمل بالاتفاق مع الخديو حتى اذا سافر الى انجلترا يتكلم مع الملك ادوارد فى ذلك ويظهر له أن الأمة المصرية تطلب الدستور وانه يوافق على ذلك لأنه من حقوقها »(٥٠) .

وعلى كل حال فقد أخذ الحزب الوطنى يجمع التوقيعات بطلب المجلس النيابى حتى وصل الى حوالى خمسة وسبعين ألف توقيع، ولما تبلورت خطورة هذه الحركة داخل البلاد سعى الاحتلال لاحباطها فأعلن وزير الخارجية البريطانية فى مجلس العموم أن الخديو لا يمكنه أن يمنح بلاده دستورا أو مجلسا نيابيا الا بعد استشارة الحكومة البريطانية ، وقد احتج الحزب الوطنى على ذلك بشدة وانتقد ما تخوله انجلترا لنفسها من الحق غير الشرعى فى التدخل بين الأمة والخديو صاحب السلطة فى منح أمته الدستور (٥١) فذكر فريد بأنه خير لنا أن نبقى بلا دستور من أن ننساله بالاعتراف بأن للانجليز حقا أو شبه حق فى بلادنا .

وعلى الرغم مما أبداه الخديو من ارتياح فى بداية الأمر الى تقديم العرائض فانه قابل اتساع هذه الحركة بالفتور ثم تغير موقفه حيالها وبوجه خاص بعد أن أظهر الاحتلال استياءه وأعلن جورست أن الشروط اللازمة لاقامة مجلس نيابى فى مصر غير متوفرة والتفكير فيها يعتبر ضربا من الحماقة والجنون فخشى الخديو أن تتعرض سياسة الوفاق بينه وبين الانجليز للخطر يضاف الى ذلك أن فريدا اشترط أن يضع أحكام الدستور المنتظر مجلس منتخب من الأمة مما جعل الخديو يتردد فى الأمر .

ورغم ذلك فان الحزب الوطنى استمر فى مطالبته بالدستور ، وجدد أساليبه فى مطالبته به فبعد أن كانت المطالبة تقتصر على العرائض اتبع الحزب أسلوب المظاهرات الشعبية ، فكان يتجمع فى حديقة الجزيرة الآلاف ثم تسير المظاهرة الى قلب القاهرة منادية بالدستور ، وكان دور

الطلبة خصوصا طلبة المدارس العليا بارزا فى هذه المظاهرات ففى محطة طنطا قام الطلبة بمظاهرة وطنية أثناء مرور الخديو بها يطالبون بالدستور ، كما تظاهر الطلبة أثناء مرور موكب الخديو فى القاهرة هاتفين « الدستور يا أفندينا »(٥٢) وكان طلبة الحقوق يصعدون على سطح مدرسة مجاورة لقصر عابدين يرددون الهتاف للدستور(٥٣) ولم يتوقف الأمر عند ذلك الحد فقد تعقبت هذه الدعوة الخديو خارج مصر أيضا فقد طالبه المصريون الموجودون فى تركيا بالدستور أثناء زيارته للسلطان وعلا هتافهم « الدستور يا أفندينا » كما طالبه به الطلاب المصريون بانجلترا اثناء زيارته لها(٥٤) .

وقد تزايدت الهتافات بالدستور فى كل مكان حتى اصبحت اقرب الى نشيد وطنى لا يظهر الخديو فى أى مكان عام الا ويواجه بها وأحيانا تختلط هذه الهتافات بزغاريد النساء(٥٥) .

يضاف الى ذلك أن الحزب الوطنى حاول اتباع أساليب الضغط والتهديد مع الخديو حتى يمنح الأمة الدستور وذلك بأن يقدم أعضاؤه عريضة للخديو يطلبون فيها الدستور ، واذا لم يتحقق مطلبهم فى مدة شهر يتوقف المصريون كافة عن دفع الضرائب للحكومة(٥٦) ولم يقتصر الأمر على ذلك بل قام بعض رجال الحزب الوطنى بارهاب الخديو فأرسلوا له خطابات تهديد بنسف موكبه كما قاموا بوضع عوائق أمام القطار الخاص الذى كان يقوده الخديو بنفسه من مريوط الى الاسكندرية ، ولكن الخديو تمكن من ايقاف القطار بصعوبة .

وبالرغم من أن حركة المطالبة بالدستور لم تسفر عن اعلانه بل زادت من تقرب الخديو لقصر الدوبارة فانها غرست فى نفوس المصريين التعلق بالحكم الدستورى والكراهية للحكم الاستبدادى(٥٧) كما أنها زادت من متاعب رجال البوليس فى حفظ النظام فى شوارع القاهرة(٥٨) مما سبب قلقا لسلطات الاحتلال .

وبالرغم من احساس فريد بخطورة التصدى للخديو والانجليز معا فانه لم يجد بدا من التصدى لهما دون أن يبالى بغضبهما

أو تحالفهما ضده فانتقد زيارات جورست المستمرة لقصر عابدين ، واعلن عن تخوفه من النتائج السلبية التى تعود على الحركة الوطنية من جراء توثيق العلاقات بين الخديو والمعتمد البريطانى وكتب مقالات فى اللواء تحت عنوان « ماذا يقولون » بدأ أولها فى ١١ أبريل ١٩٠٨ وفيها عرض بالخديو وسياسته وذكره بمواقفه السابقة من الانتصار للحركة الوطنية والدستور [٥٩] كما فتح باب المناقشة فى سياسة الوفاق يضاف الى ذلك أنه سافر الى فرنسا فى مايو ١٩٠٨ للدفاع عن القضية المصرية والتقى ببعض رجال السياسة والقلم هناك كما سافر الى انجلترا ، وقابل المستر بلنت وبعض أعضاء البرلمان الانجليزى [٦٠] وهناك طالب بالجلاء واعادة الدستور ، وأوضح أن الحركة الوطنية لم تمت بوفاة مصطفى لأنها لم تكن قائمة على أشخاص بل لها أسس وجذور فى داخل الشعب المصرى ، ومهما تغيرت الأشخاص فالمبدأ ثابت لا يتغير وهو جلاء الانجليز عن مصر .

ولما حاول بعض النواب الانجليز اقناع فريد بالتخلى عن مطلب الجلاء فى سبيل بحث اعطاء مصر الدستور ، رفض ذلك الطلب بشدة وأوضح أنه لا مساومة فى موضوع جلاء المحتلين عن مصر [٦١] .

وقد تضايق الخديو من محاولات فريد افساد سياسة الوفاق فحاول ابعاده عن الاتصال بالجماهير وتخريب الندوات السياسية التى يقيمها الحزب الوطنى فعندما سافر فريد الى الزقازيق مع بعض رجال الحزب لالقاء خطبة بمناسبة دخول انجليز مصر تصدى لهم أنصار الخديو بالمحطة وحاولوا منع الاحتفال ، ولكن لم يتحقق مسعاهم .

وقد جاهر الخديو بعدائه لفريد بعد أن فشل فى احتوائه فرماه وانصاره بالتسرع فى حديث له مع مكاتب جريدة الطان الباريسية فقال « لقد اشتغلت دائما فى ترقية بلادى وتقدمها فى الحضارة ، ولكن للاسف وجد قوم متسرعون جدا اخروا تقدمها الطبيعى بالحاقهم فى مطالب سابقة لأوانها ومصحوبة بالضوضاء » وعرج فى حديثه على الاحتلال وجورست فقال « ولى وطيد الأمل فى انقيام بمهمتنا بمساعدة البلد الذى يؤيد مصر تأييدا عظيما فى رفع شأنها وتمدينها ، وان وجود ممثل هذا البلد السير الدون جورست بيننا يعتبر وثيقة لنا لتحقيق ذلك » [٦٢] .

وقد رد فريد على ذلك بمقالتين تحدث فيهما عن خطر سياسة الوفاق على القضية المصرية وانتقد الخديو له بالتسرع .

وعلى كل حال فانه يتضح من أحاديث الخديو انتقاده للسياسة العدائية التى كان يجرى عليها الحزب الوطنى ضد الانجليز وتمسكه بسياسة الوفاق التى سار عليها جورست .

ولم تقتصر المضايقات الموجهة الى فريد على الخديو والمحتلين فحسب بل شاركهم فى ذلك على فهمى كامل وبعض المنشقين على سياسة فريد ، فقد عمل على فهمى كامل على تعطيل جريدة اللواء لاحراج مركز فريد فحرض عمال الجريدة على الاضراب عن العمل فى نوفمبر ١٩٠٨ حتى تتحقق مطالبهم ، ولما لم ينجحوا فى مسعاهم فى تعطيل الجريدة أو السيطرة عليها قاموا بانشاء جريدة مصر الفتاة لتعبر عن آرائهم وتنتقد سياسة فريد وتحارب اللواء ، ومع كل ذلك فقد تذرع فريد بالصبر ودعا كافة أعضاء الحزب الى ضرورة لم الشمل والتضامن لمجابهة الدسائس التى تحاك ضد الحزب .

وقد تدفعنا مضايقات على فهمى كامل لمحمد فريد الى التساؤل عن سبب الخلاف الاساسى بينهما .

الواقع ان الخلاف كان يكمن فى علاقة كل منهما بالخديو ففريد كان يمثل التيار المتشدد تجاه الخديو بينما على فهمى كامل كان يتمسك بمبدأ الموالاة الشديدة له يضاف الى ذلك أن على فهمى كامل كان يعتبر انه أحق من فريد برئاسة الحزب الوطنى ، وأن فريدا اختلسها منه لذلك كان يحاربه فى الباطن بينما يظهر له الود كما أن حب على فهمى كامل الشديد للمال جعل من السهل على الخديو اجتذابه الى صفه ضد محمد فريد ومحاولة اظهاره بمظهر عدم القدرة على ادارة الحزب وصحافته .

ورغم كل هذه العقبات التى اعترضت فريد فقد سار فى برنامجه الوطنى لتحقيق الجلاء والدستور ، ومن أجل ذلك عمل فريد على تعليم الشباب حتى يتعرف على حقوقه وواجباته فطالب بنشر التعليم الابتدائى

بين جميع طبقاته فقيرها وغنيها ، وأن يكون هذا التعليم الزاميا ومجانيا لكل مصرى ومصرية حتى يشب التلاميذ على حب المساواة ، ويعرفون منذ نعومة اظفارهم الا تفاوت بين الناس الا بخدمة الوطن كما تبنى فريد مع نادى المدارس العليا فكرة انشاء مدارس ليلية لتعليم الفقراء والعمال مجانا ، وقد عرفت هذه المدارس باسم مدارس الشعب ، وبدأت الدراسة بأولها وهى مدرسة بولاق فى نوفمبر ١٩٠٨ وعهد بالتدريس فيها الى رجال الحزب الوطنى وأنصاره فكان المحامى والطبيب والمهندس وغيرهم يخصصون من أوقاتهم ساعة أو اكثر كل مساء يقفون فيها فى حجرة ضيقة خشنة يعلمون الفقراء مبادىء القراءة والكتابة ، وجغرافية بلادهم وتاريخها وقوانين المعاملات اليومية والأخلاق والآداب وغير ذلك من العلوم ، ومن داخل هذه المدارس نبتت بذور فكرة انشاء نقابة الصنائع اليدوية من أجل حماية العامل والفلاح من الفقر ، ومساعدته عند الشيخوخة ، ورغم أهمية هذه المدارس فى القضاء على الجهل والأمية فان الحزب الوطنى اقتصر على افتتاحها فى القاهرة ولم يكن للاقاليم منها نصيب .

وقد دعا فريد الى وضع التشريعات لحماية العمال والعناية بشئونهم وتحديد ساعات العمل بالنسبة لهم ، وتحريم اشتغال الأطفال الذين تقل أعمارهم عن تسع سنوات فى محالج القطن ، وتحريم عملهم فى كافة المصانع ليلا ، كما عنى بتأسيس النقابات للدفاع عن حقوق العمال والمطالبة بترقية أحوالهم المادية والمعنوية فأنشئتببولاق عام ١٩٠٩ أول نقابة للعمال فى مصر باسم نقابة عمال الصنائع اليدوية ، كما دعا الى ايجاد النقابات الزراعية لتقف ضد الظلم الفادح الذى يتعرض له الفلاح من الحكومة والملاك والمرابين كما طالب بتخفيف الضرائب عن الأطيان ، وتحسين حالة الفلاح المسكين الذى يعمل هو وزوجته وأولاده ورغم ذلك لا يحصلون الا على القوت الضرورى .

وقد سرت فكرة تأسيس النقابات فى عاصم الأقاليم فانشئت نقابات لعمال الصنائع اليدوية فى الاسكندرية والمنصورة وطنطا وغيرها على غرار نقابة القاهرة .

ونتيجة لدعوة فريد بالاهتمام بالعمال والفلاحين ذكر البعض أن الحزب الوطنى أيام فريد كانت به لمسات اشتراكية ، ولكن الواضح أن مخطط الحزب الوطنى كان يفتقر الى مثل هذه اللمسات الحقيقية لانه لم يقدم على سبيل المثال منهجا عمليا للاسهام فى حل مشاكل الشعب الاقتصادية والاجتماعية ، ولم يتعد دفاعه عن العمال والفلاحين الخطب والمقالات بهدف جذبهم اليه وبث روح النضال الوطنى فيهم ، وتنظيمهم ليكونوا ركيزة للعمل الوطنى الى جانب المثقفين من أبناء الطبقة المتوسطة ولم يقتصر دور فريد الوطنى فى الكفاح على ذلك بل شجع على تأسيس جمعيات للطلاب المصريين الذين يدرسون فى الخارج بهدف الدفاع عن قضية استقلال مصر [٦٢] ثم عقد المؤتمرات فى أوربا لشرح حقيقة القضية المصرية يضاف الى ذلك الاشتراك فى المؤتمرات التى تعقد فى أوربا لاظهار حقوق الشعوب المغتصبة بهدف تكوين رأى عام يناصر القضية المصرية .

وفى محاولة للحد من نشاط فريد الثورى والقضاء على الروح الوطنية قامت حكومة بطرس غالى بتقييد حركة الصحافة فاعادت فى مارس ١٩٠٩ العمل بقانون الصحافة القديم الصادر فى نوفمبر ١٨٨١ والذى يخول لوزارة الداخلية حق انذار الصحف وتعطيلها مؤقتا أو نهائيا دون محاكمة أو دفاع ، كانت حجة الوزارة فى ذلك هو ردع الجرائد التى تجاوزت الحدود ، ووقف الفوضى التى تتعرض لها البلاد .

وقد احتج الحزب الوطنى على اعادة هذا القانون الذى يكمم أفواه الوطنيين وظهر ذلك واضحا فى المظاهرات التى قامت فى القاهرة احتجاجا على تقييد حرية الصحافة ، وفى برقيات الاحتجاج التى ارسلت الى الخديو والوزراء وعلى كل حال فقد حوكم الشيخ جاويش بمقتضى هذا القانون لنشره مقالا باللواء تحت عنوان « ذكرى دنشواى » اعتبرته النيابة طعنا فى حق بطرس غالى رئيس المحكمة المخصوصة التى حاكمت المتهمين ، وحكم عليه بالسجن لمدة ثلاثة شهور ، كما أنذرت جريدة اللواء لنشرها مقالا عن شاب هندى يدعى (دنجرا) عدتها تحريضا على ارتكاب الجرائم والاخلال بالأمن والنظام كما امعنت الحكومة فى عدوانها على ضمانات الحرية الشخصية فأصدرت

ما يعرف بقانون النفى الادارى وبمقتضاه يكون الحق للحكومة أن تنفى الأشخاص الذين ترى فيهم خطورة على الأمن العام ولم تقتصر جهود الحكومة البطرسية على الافتئات على حقوق الأفراد بل حاولت أيضا الافتئات على حقوق الأمة بمد فترة امتياز قناة السويس الذى كان ينتهى العمل به عام ١٩٦٨ أربعين عاما أخرى فى نظير مبلغ أربعة ملايين من الجنيهات تدفعها الشركة لها ، ورغم أن هذا المشروع قد ظل فى طى الكتمان حوالى سنة فان محمد فريد تمكن من الحصول على نسخة المشروع فى أكتوبر ١٩٠٩ ونشرها فى جريدة اللواء موضحا مدى الغبن الذى ستتعرض له مصر من ورائه وكان ذلك بمثابة صيحة الخطر فاهتمت الأمة بطوائفها وصحافتها بهذا الموضوع فرأت الاحزاب ضرورة الاتفاق على طريقة واحدة [٦٤] كما طالبت الصحافة بعرض المشروع على الجمعية العمومية قبيل البت فيه ونظرا لخطورة المسألة اجتمعت اللجنة الادارية للحزب الوطنى فى ٢٩ أكتوبر ١٩٠٩ وهاجمت قيمة المشروع السياسية والمالية ، وطالبت الحكومة بأخذ رأى الأمة قبل تنفيذ المشروع[٦٥] كما ارسلت البرقيات الجماعية الى الخديو رفض فيها اصحابها تجديد امتياز القناة ، وطالبوا بعرض الموضوع على الجمعية العمومية [٦٦] .

ونظرا لما آلت اليه البلاد من الغليان حاول الخديو اقناع جورست بعرض المشروع على الجمعية العمومية ومع أن جورست لم يعترض على ذلك الا أنه اشترط أن توافق الحكومة على المشروع أولا ثم تترك أمر تنفيذه لموافقة الجمعية العمومية [٦٧] على أن يدافع سعد زغلول عن المشروع أمامها ونتيجة لذلك قامت الوزارة بدعوة الجمعية العمومية للانعقاد لاحالة المشروع عليها .

ولكى تتضح مخاطر المشروع أمام الرأى العام قام فريد بتوضيح أبعاده السياسية فقال « كيف يجوز لهذه الحكومة أن تتساهل فى أمر اطالة أمد هذه الشركة مع علمها ان هذه القناة كانت السبب فى ضياع استقلال مصر ، وان كل مصرى يتوق لأن يراها ملكا لمصر » كما طالب فريد بحفظ مرافق الأمة فى أيدى ابنائها ، وهاجم تمليك مرافق البلاد الى الشركات الانجليزية ، وناشد أعضاء الجمعية العمومية الاستقلال

فى الفكر والشجاعة الأدبية لأن مصالح الأمة فوق كل شىء كما دعا الحزب الوطنى الى القيام بمظاهرة وطنية عند اجتماع الجمعية العمومية للمناداة برفض المشروع .

وعندما افتتحت جلسات الجمعية العمومية برئاسة الأمير حسين كامل فى ٩ فبراير ١٩٠٩ لمناقشة هذا الموضوع حاولت الحكومة استعمال الشدة مع الاعضاء لكى يوافقوا على المشروع فقد كان بطرس غالى يعتقد أن المشروع نافع للبلاد كما كان الأمير حسين كامل يؤيد المشروع[٦٨] ولكن الاعضاء اصروا على رفضه ، وفى ١٠ فبراير شكلت لجنة مكونة من خمسة عشر عضوا لدراسة المشروع وكتابة تقرير عنه ، وقد انتهت اللجنة الى عدة قرارات اهمها .

عدم قبول مشروع الاتفاق المعروض على الجمعية لانه ليس فى صالح البلاد بل يعد غبنا فاحشا على مصر ، ونظرا للمعارضة الشديدة للمشروع فى الجمعية العمومية لم يجد الأمير حسين كامل بدا من الاستقالة من رئاسة جلسات الجمعية خصوصا بعد أن فشل فى تحويل دفة المناقشات لصالح الحكومة .

واستمرت المناقشات فى الجمعية العمومية ، وفى النهاية تقرر رفض المشروع بأغلبية الآراء ، فكانت هذه المرة الأولى التى استطاعت فيها الجمعية العمومية فرض رأيها على الحكومة .

وهكذا نجح ضغط الراى العام المصرى فى اجبار الانجليز والوزارة على العدول عن مشروع له مساس كبير بالاقتصاد المصرى مما اقلق مضاجع الانجليز والحكومة فبداوا فى تحين الفرص لارهاب زعماء الحركة الوطنية ، ومهدت لذلك جريدة المقطم باتهامها لرجال الحزب الوطنى بالثورية المتطرفة التى تختزن السلاح وتتحين الفرصة للقيام بثورة تطبح بالنظام القائم[٦٩] .

ونتيجة للارهاب السياسى الذى تعرض له زعماء الحزب الوطنى وانصاره تحولت سياسة الحزب الى تشجيع الأفكار الارهابية[٧٠] وتدعيم

التنظيمات السرية ، كما أبرزت اللواء أساليب الكفاح الثورى فى الهند ، وأشادت بدور الطلاب الهنود فى مقاومة الاستعمار البريطانى(٧١) .

ويبدو أن فريدا قد شجع على أسلوب العنف الثورى فتألفت تحت رعايته جمعيات فى البلدان الأوربية التى بها طلاب مصريون للدعاية للقضية المصرية ، وقد استطاع هؤلاء الشبان أن يثيروا قضية مصر فى البلدان التى يقيمون فيها ، ومن خلال هؤلاء تكونت الجمعيات السرية ، وتدرب الطلاب على استعمال الأسلحة والمفرقعات لتخليص بلادهم بالقوة، وكان فريد يزورهم وقد أهدى اليهم فى احدى هذه الزيارات مسدسات ، كما كان ابراهيم الوردانى وشفيق منصور يزوران هؤلاء الطلاب لتجديد العهد معهم كل عام(٧٢) .

ومع ازدياد نشاط هذه الجمعيات السرية الذى صحبه ازدياد فى شعبية الحزب الوطنى توقع البعض أنه كان من الممكن حدوث ثورة مسلحة فى البلاد ، ولكنها لم تحدث أمام سياسة الاضطهاد التى اتبعها الانجليز والحكومة ضد الحزب الوطنى(٧٣) .

وعلى كل حال فقد ظل فريد متمسكا باستقلاله عن الخديو مما جعل العداء مستحكما بينهما حتى وصل الأمر بفريد أن رفض الوقوف أثناء عزف السلام الخديو فى حفل لرعاية الأطفال بدار الأوبرا مما استرعى أنظار الحاضرين ، وأحدث ضجة فى داخل السراى ، ولما خاطب حسين رشدى محمد فريد فى هذا الشأن أجابه بأنه ليس هناك قانون يحتم عليه الوقوف ، وكانت هذه الظاهرة بمثابة اعلان محمد فريد حربا عدائية ضد الخديو وخروجا على التقاليد المرعية(٧٤) .

ولتمكين قبضة الحكومة من السيطرة على الموقف قام رجال البوليس السياسى بمراقبة أعضاء الحزب الوطنى ، وكتابة التقارير اليومية عن أحوال البلاد ، وذلك بناء على طلب اللورد كتشنر(٧٥) الذى أراد تصفية العناصر الوطنية ذات الميول المتطرفة عن طريق تعريضهم للمحاكمات والارهاب وشتى ضروب الاضطهاد .

ونتيجة لاغتيال بطرس غالى امعنت الحكومة فى محاربة الحركة

الوطنية فصدرت ثلاثة قوانين تعطى الصفة القانونية للحكومة فى تصرفاتها المطلقة تجاه الصحافة والمطبوعات ، ومظاهرات طلاب المدارس ، وتعديل قانون العقوبات ، وقد استهدفت الحكومة من هذه القوانين التنكيل برجال الحزب الوطنى وهذا ما حدث فعلا فقدم كل من الشيخ عبد العزيز جاويش ومحمد فريد فى أغسطس ١٩١٠ الى المحاكمة بتهمة كتابة مقدمة لكتاب وطنيتى الذى أنفه الشيخ على الغاياتى وتضمن التنديد بالظلم وبحكم الفرد ، فقد تحدث الغاياتى عن استسلام ملك فرنسا لويس السادس عشر لارادة حاشيته الظالمه وزوجته المسرفة المستبدة مارى انطوانيت التى كانت تحتقر الشعب الفرنسى ، كما بين هذا الكتاب ان ارادة الشعب كانت دائما فوق كل ارادة ، وان الويل دائما يلحق بالحكومات اذا غضبت عليها الشعوب(٧٦) .

كما تضمن هذا الكتاب تنديدا بحكم الخديو المطلق واسرافه فكتب على الغاياتى يقول « يأخذ الحاكم المستبد أموال الأمة باحدى يديه ، ويسومها سوء العذاب باليد الأخرى فهو يجبيها ليشبع ويفقرها ليغنى ، ويذلها ليعتز ثم يسد فى وجهها مناهل العلم لتنفسح أمامه مناهج الظلم » ثم هدد الحكام الظالمين بقوله « لكن يوم الظالمين يوم عصيب . هنالك يغير الله حالا بعد حال وتستوى الأمة على عرشها تدير دفة الحكم بيدها »(٧٧) .

ومع أن جميع القصائد التى احتواها الكتاب كان قدسبق للصحف نشرها فقد نبهت جريدة المؤيد السلطات الى خطورة الكتاب مما دفع الحكومة الى مطالبة النيابة بالتحقيق فيما ورد بالكتاب فأمرت بمصادرته ووجهت تهمة التحريض على جريمة القتل السياسى والعيب فى حق الذات الخديوية ، والحض على كراهية الحكومة(٧٨) الى محمد فريد وعبد العزيز جاويش وعلى الغاياتى ، ولما كان محمد فريد فى أوربا فى ذلك الوقت للدفاع عن القضية المصرية بمؤتمر السلام باستوكهلم فقد أجلت محاكمته لحين عودته بينما حكم على الشيخ الغاياتى غيابيا (وكان قد خرج سرا من القاهرة الى الآستانة) بالحبس لمدة سنة ، كما حكم على الشيخ عبد العزيز جاويش بالحبس ثلاثة شهور .

ومع أن خصوم محمد فريد قد أشاعوا انه لن يعود خوفا من الحكم عليه ، فانه نفى هذه الشائعة وهو فى أوربا وعاد الى مصر بعد أن كتبت كبرى بناته الآنسة فريدة خطابا تذكر له فيه الشائعات وتطلب منه العودة الى بلاده بقولها « ولنفرض انهم يحكمون عليك بمثل ما حكموا به على الشيخ جاويش فذلك أشرف من أن يقال أنكم هربتم وما تحملتم الهوان فى سبيل وطنكم وباسم الوطنية والحرية التى تضحون بكل عزيز فى سبيل نصرتها أن تعودوا وتتحملوا آلام السجن »[٧٩] .

وعاد فريد الى مصر بعد أن جاهد فى أوربا فى سبيل الدفاع عن قضيتها ، وبدأت النيابة التحقيق معه فى ٤ يناير ١٩١١ وقد تولى استجوابه محمد توفيق نسيم ، ونظرت القضية أمام محكمة الجنايات بالقاهرة فى ٢٣ يناير ١٩١١ ، وأصدرت المحكمة حكمها بحبس فريد لمدة ستة شهور مع النفاذ ، فقابلت الأمة من كبيرها الى صغيرها هذا الحكم بالاستياء الشديد .

وعند مراجعتنا للمقدمة التى كتبها محمد فريد لكتاب الشيخ الغاياتى وهى بعنوان « تأثير الشعر فى تربية الأمم » والتى حكم عليه بسببها بالسجن ستة أشهر نجد انها لا تمثل اى مسئولية قانونية فقد تحدث فريد عن أثر الشعر فى ايقاظ الأمم من سباتها ، وهاجم استبداد حكومة الفرد لاماتتها للشعر الحماسى دون أن يذكر اسم هذه الحكومة ودعا الشعراء الى عدم تملق الأمراء والتقرب من الوزراء لأن « الحكام زائلون والأمة باقية »[٨٠] وهذا التعبير ربما لا يختلف فيه اثنان .

ويبقى لنا أن نتساءل لماذا حكم على فريد بستة شهور وحكم على الشيخ جاويش بثلاثة مع أن التهمة الموجهة اليهما واحدة .

والواقع ان محاولة الحكومة التنكيل بفريد وارهابه حتى يعدل عن موقفه العدائى من الاحتلال كانت السبب وراء هذا الحكم الذى لا يتناسب مع التهمة الموجهة اليه فمسئولية فريد فى نظر لحكومة لا تقف عند المقدمة التى كتبها لكتاب وطنيتى بل ترجع الى خططه المناوئة لها ، والى مبادئه التى نشرها والى خطبه التى أثرت فى نفوس الكثيرين وقد

يسأل البعض أن القضاء وليس الحكومة هو الذى حكم على فريد بذلك الحكم الجائر أقول ان احالة الحكومة لجنح الصحافة الى محكمة الجنايات مع حرمان المتهم من الضمانات ربما تكون هى التى أدت الى مثل هـذا الحكم الجائر .

وعلى كل حال فانه بعد صدور الحكم على فريد تم عمـل استفتاء فى جريدة الشعب لمعرفة رأى علماء القانون عن السبب فى الحكم عـلى فريد بستة شهور بينمـا حكم على الشيخ جاويش بثلاثـة شهور مـع أن التهمة واحدة فكانت الحجة أن فريد يعرف القانون أكثر من الشـيخ جـاويش .

ولقد تلقى فريد الحكم برباطة جأش ودخـل السجن ، وهناك بدأت مساومته فوعده بعض أنصار الاحتلال والخديو بالعفو عنه اذا وعد بتغيير خطته فرفض بكل شمم وقضى مدة الحبس فى سجن الاستئناف ببـاب الخلق صابرا ثابتا(٨١) وبعـد خروجه من السجن كتب مقالا عنوانه من سجن الى سجن عبر فيـه عن شعوره وهو فى السجن عند خروجه منـه فقال « مضى عـلى ستة أشـهر فى غيابات السجن ، ولم استشعر أبدا بالضيق الا عند اقتراب أجل خروجى لعلمى أنى خـارج الى سجن آخر هو سجن الأمة المصرية الذى تحده سلطة الفرد ويحرسه الاحتلال » . كما أعلن فريد أن حبسه لم يؤثر فى نمو الحزب الوطنى وانتشـاره ومبادئه بين طبقات الشعب .

وهكذا كان مسلك فريدقبـل وبعـد دخوله السجن تشريفا للوطنية المصرية ، ومثلا ينير طريق المجاهدين ، فرغم أنه سليل الأغنياء والأمراء فقد دخل السجن وتحمل مشاقه ، ولم يقبل مساومة الخديو وأنصـاره ، وخرج من السجن وهو أقوى صلابة .

والجدير بالذكر أنه فى أثناء سجن فريد تصدعت سياسـة الوفـاق بوفاة المعتمد البريطانى جورست فى ١٢ يولية ١٩١١ وتعيين كتشنر الذى لم يكن من أنصار سياسة الوفاق ونتيجة لذلك سعى الخديو الى الحـزب الوطنى ليعدل من موقفه حياله ، ولكن فريدا رفض أن يجعل للحزب أيـة صلة به ، ورغم الاضطهاد الذى تعرضت له جرائد الحزب خصوصا صدور

الأوامر بغلقها بحجة سلوكها المناوىء للحكومة فقد كان فريد يتغلب على ذلك باصدار صحيفة أخرى فى نفس اليوم الذى يتقرر فيه غلق صحيفة الحزب تحت اسم آخر فأصدر الحزب الوطنى جريدة الشعب بعد أن أغلقت السلطات جريدة العلم ، كما استأنف فريد نشاطه فى أوربا وتركيا دفاعا القضية المصرية .

وعندما القى فريد خطابه السنوى فى الجمعية العمومية للحزب الوطنى فى ٢٢ مارس ١٩١٢ ندد فيه باقتراح اللورد كتشنر انشاء صندوق توفير للزراع ، وطالب أن يكون ذلك بأيدى صرافى البلاد كما طالب بالدستور وانهى حديثه بقوله « اللهم طهر قلوبنا من أدراء النفاق ونق افئدتنا من جراثيم الخنوع والاستسلام حتى ندرك أن لنا كرامة تجب المحافظة عليها ، ووطنا يجب الدفاع عنه بالأنفس والأموال وحقا فى الحرية تجب المطالبة به » .

ومع أن هذه الخطبة كانت خفيفة اللهجة عن خطب فريد السابقة فان الحكومة التى كانت تتربص به رأت أن القاء فريد فى السجن يحد من نشاطه الوطنى ، ويرهب باقى الوطنيين لذلك أرسلت له اخطارا على يد ضابط بوليس يتضمن استدعاءه الى النيابة لاستجوابه عما ورد بخطبته ، ولما احس فريد بنية الحكومة تجاهه فكر فى مغادرة البلاد الى الخارج وقد أوضح ذلك فى مذكرة بقوله « ومن هذه اللحظة صممت على ترك مصر »[٨٢] .

ولما كان أمر مغادرة زعيم الحزب الوطنى للبلاد له خطورته فى التأثير على الحزب فقد استشار فريد أعضاء اللجنة الخاصة بمناقشة المسائل المهمة فى الحزب ، وعن ذلك يذكر « خابرت صادق بك رمضان وفؤاد بك سليم ومحمود بك فهمى المحامى واسماعيل لبيب واسماعيل حافظ أعضاء اللجنة الخصوصية التى كنا قد شكلناها للمداولة فى مسائل الحزب الهامة قبل عرضها على اللجنة الادارية ، وفى صباح يوم الاثنين نزلت بالقطار من محطة الحلمية حيث كنت ساكنا الى محطة الزيتون وقصدت منزل الدكتور صادق واخبرته بالحادثة وبعزمى على السفر فوافق واتفقنا على الاجتماع بمنزل اسماعيل بك لبيب بالحلمية الجديدة بعد الاستجواب » .

وذهب فريد الى النيابة لاستجوابه وبعد الاستجواب سمح له بالانصراف فذهب الى منزل اسماعيل لبيب حسب الاتفاق ، وهناك قص على زملائه ما دار فى التحقيق فقرروا بالاجماع ضرورة مغادرته للبلاد[٨٣] .

وقد أوضح فريد الطريقة التى غادر بها أرض الوطن فقال « ذهبت الى نادى الحزب الوطنى وذهب اسماعيل بك الى محل كوك للاستعلام عن السفن المسافرة الى الخارج فوجدنا أن الوابور الروسى « الملكة أواجا » يسافر الى الآستانة وبيريه فى يوم الثلاثاء فقررنا السفر بالكيفية الآتية وهى أن اسماعيل لبيب يقطع تذكرة لنفسه للآستانة وأنا أسافر من مصر يوم الثلاثاء باكسبريس الصباح الساعة السابعة كأنى مسافر الى الاسكندرية للمرافعة فى قضية بمحكمة الاستئناف المختلطة ثم أرافقه الى الوابور فان ضبطت أو تعرف البوليس على أقول بأنى حاجز لوداعه وبما انى سأكون بمفردى بلا شنط أو ملابس بل بلا تذكرة سفر فلا يمكن لأحد أن يظن بأنى مسافر .

ومع أن الوقت كان ضيقا أمام فريد ، والظروف تقتضى منه الاسراع فى العمل لأن الحكومة كانت جادة فى استصدار أمر بالقبض عليه فان أمرا هاما كان يشغل باله وهو الطريقة التى يمكنه عن طريقها ابلاغ زوجته بما اعتزم عليه فقد حرص على عدم ازعاجها ، ولكنه لم ير بدا من أن يفضى اليها بالأمر فأفهمها بضرورة سفره وأوصاها بالصبر والجلد وطلب منها أن لا تخبر أولاده ولا أحدا من أسرته بما اعتزم عليه حتى لا ينزعجوا .

وفى صباح الثلاثاء ٢٦ مارس استقل فريد القطار فقابله كثيرون من اخوانه وأصدقائه فأخبرهم انه ذاهب الى الاسكندرية للترافع فى قضية بالمحكمة المختلطة ، وقد رافقه فى القطار اسماعيل لبيب وتغذيا بالاسكندرية ثم قصدا الباخرة الروسية المزمع ركوبها ، وكان اسماعيل لبيب قد اشترى لنفسه تذكرة السفر أما محمد فريد فقد ركب بدون تذكرة حتى لا يعرف أحد عزمه على السفر فيحجزوه[٨٤] .

واحتجب فريد فى محل الأدب نحو عشر دقائق عند مرور مفتش الباخرة فلم يلحظ أحد وجوده[٨٥] وبعد تحرك الباخرة دفع فريد ثمن

التذكرة معتذرا بأنـــه لم يجـــد الوقت الكافى لأدائـــه فى مكتب الشركة بالاسكندريـــة[٨٦] .

وعلى كل حال فقد خرج فريد من مصر واختلف الكتاب والباحثون حول طبيعة هذا التصرف فمنهم من يعتبر خروجه تصرفا خاطئا لأن مكان المناضل يجب أن يكون فى أرض المعركة لا فى خارجها وان خروجه من مصر قد عزل قيـــادة الحركة الوطنية عن الجماهير ونقل قيادتها من مركز اشعاعة الى الآستانة ودول أوربا ، وانه ترك شعبا أحبه والتف حوله وأعجب به ومنح التأييد لحزبه ما لم يمنحه لأى حزب آخر وكان يجب عليه الا يترك مصر لأنها مركز الجهاد الحقيقى وان دخوله السجن فيـــه تعبئة للرأى العـــام وايقاظها لهمم الناس ، وشحذا لوطنيتهم[٨٧] وانه كان من الممكن الافراج عنه بقوة الضغط الشعبى .

ومن الكتاب والباحثين من يرى أن خروج فريد من مصر كان تصرفـــا صحيحا لأنه كان فى نية الحكومة شل حركته وابقاؤه رهن السجون بواسطة سلسلة من المحاكمات التى لا تنتهى بحيث اذا خرج من سجنه تدبر له تهمة جديدة يدخل بسببها السجن ثانية كما أن خروج فريد من مصر سيتيح لـــه متابعة جهاده فى الخارج ويمكنه من أن يسمع العالم صوت مصر ، ويدافع عن قضيتها فى عالم الحرية حيث كان الرأى العام العالمى فى حاجة الى فهم واضح لأبعاد القضية المصرية ، كما أن التنظيمات الطلابية خارج مصر كانت فى حاجة الى جهود فريد الذى يعتبر رجل التنظيم السياسى فى مصر[٨٨] .

وهناك فريق يرى أن خروج فريد من مصر كان من أجل ملاحقة امرأة فرنسية كان يحبها وهى « دى روشبرون » .

ومن وجهة نظرنا فان نقل فريد لميدان الكفاح فى الخارج رغم أنـــه يعتبر استمرارا لمواصلة الجهاد وتأليبا للرأى العام الأوربى على الانجليـــز فانه قد أضر بالحركة الوطنية فى الداخل ، وأصاب حركة الانبعاث الثورى بالانكماش والعنف لأن مكان الزعيم لابد أن يكون فى قلب المعركة لا فى خارجها مهما كانت ضراوة المؤامرات أو قسوة الاضطهاد .

وعلى كل حال فقد تابع فريد جهاده فى الخارج وكان أول عمل بارز هناك هو حضوره مؤتمر السلام فى جنيف فى ٢٢ سبتمبر ١٩١٢ ومطالبته بجلاء الانجليز عن مصر ، واقناع أعضاء المؤتمر بأن الجلاء عن مصر هو خدمة للسلام العالمى ، وقد أقر المؤتمر بوجوب الجلاء عن مصر وعدم مشروعية الاحتـــلال .

والجدير بالذكر انه بعد خروج فريد من مصر سادها جو من الارهاب وكثرة الوشايات ، واستهدف الوطنيون لشتى ضروب الاضطهاد فأخـــذت الحكومة فى مطاردة الحركة الوطنية وضرب نطاق من التجسس حولها كما أنها أخذت تراقب تحركات فريد بأوربا فأرسلت محمد بدر رئيس قلم الضبط بوزارة الداخلية لمراقبته ، خصوصا وانها كانت تخشى تأثيره على الطلبـــة المصريين فى أوربا[٨٩] .

وكان طبيعيا بعد هجرة فريد من مصر وماتبعه من هجرة العشرات من قادة الحزب الوطنى أن تبددت جهود الحركة الوطنية فتوقفت حركة انشاء النقابات ومدارس الشعب ، وانقسمت اللجنة الادارية للحزب على نفسها . فقد زاول الحزب نشاطه فى مصر دون قيادة مباشرة مما أدى الى تدهـــور أحواله ويتضح ذلك جليا من الرســـالة التى بعث بها أحمـــد وفيق أحـــد أعضاء الحزب الى فريد اذ يقول فيها « أما نوم الحـــزب من بعد سبتمبر ١٩١٢ ... فقد كان عميقا فاذا سمحت لى أن اقول أن النـــوم ابتـــدأ بعد مفارقتكم لهذه البلاد التعسة ، وانى أقسم لك انى لو كنت أعرف أن مصير حركتنا سيكون كذلك بعدهجرتكم لكنت أول من القى القبض عليك[٩٠] .

وقد صـــار الحزب يتدهور من سىء الى أسوأ فقد بيعت أمتعـــة نادى الحزب الوطنى بالمزاد العلنى فى ٢٢ مايو ١٩١٣ وفاء للديون المستحقة على ايجار المبنى ، وبدا أن الحزب قد صفى ، ولم تبق الا جريدة الشعب التى كان محرروها لا يبحثون الا عما يسد رمقهم[٩١] .

ويبدو أن فريدا قد شعربفداحة خطأ خروجه من مصر ففكر فى العودة اليها ، وطلب من مدام روشبرون السعى له لدى كتشنر والحكومة المصرية للسماح له بالعودة الى مصر[٩٢] ولكنها لم توفق فى مسعاها .

وفى الوقت الذى كان فيه فريد فى منفاه بأوربا يدافع عن القضية المصرية دبر بعض عملاء الخديو من اللجنة الادارية للحزب الوطنى مؤامرة لاقصائه عن رئاسة الحزب بعد هجومه العنيف على الخديو فى الصحف الأوربية واتهامه بالاتفاق مع بريطانيا على اعلان الحماية على مصر وفصلها عن الدولة العثمانية فى مقابل تسميته خليفة للمسلمين .

ومن أجل هذا الغرض عقدت اللجنة الادارية للحزب اجتماعا استنكرت فيه مقالات فريد ضد الخديو ، وقررت مساءلته فيما نسب اليه ولما بلغ فريدا ذلك أرسل برقية الى على فهمى كامل وكيل الحزب يعلن فيها استقالته بشرط عرض هذا الأمر على الجمعية العمومية للحزب ، ولكن على فهمى كامل لم يجرؤ على دعوة الجمعية العمومية لبحث استقالة فريد ففشلت المؤامرة[٩٣] .

ونتيجة لمحاولات كتشنر المستمرة لسلب حقوق الخديو والغض من شأنه سعى الخديو لاستعادة علاقته بزعماء الحزب الوطنى حتى يتمكن من مواجهة تسلط المعتمد البريطانى فبدأ اتصالاته بمحمد فريد سرا خشية عيون الاحتلال ، ولكن فريد تشكك فى نوايا الخديو ، ورفض أن يجعل للحزب الوطنى أية صلة به .

وتعددت المساعى من أجل التوفيق بين فريد والخديو فتقابلت مدام روشبرون مع فريد فى محاولة لاقناعه بالصلح مع الخديو وقد أخبرها فريد بأنه يقبل الصلح بشرط أن يكون الكلام بينه وبين الخديو بدون وسيط[٩٤] ولما كان الخديو يخشى أن يصل نبأ مقابلته لفريد الى عيون الاحتلال تأخر اتمام الصلح وارسل الخديو الى فريد أحد أصدقائه منذ عهد الدراسة وهو توفيق بك زاهر القاضى لمفاتحته فى موضوع الصلح بينهما ، ولما عرض الأمر على فريد ذكر أنه لا يعارض فى اتمام الصلح بشرط أن يتصل الخديو برجال الحزب الوطنى فى مصر ويقبل شروطهم .

واستمر الخديو يبذل محاولاته لجذب فريد الى صفه فأرسل بعض رجاله لهذا الغرض ، وأخيرا وافق فريد على الصلح مع الخديو بشرط أن يوافق الخديو على اعلان الدستور .

وقد تمت المقابلة بين فريد والخديو فى الآستانة حيث تم الصلح

بينهما ووعد الخديو باصدار مرسوم يعلن فيـه الدستـور كما عبر عن ارتياحه للصلح مع فريد الذى وصفه بأنه رجل مبادىء لا يتغيـر مهما قاسى فى سبل المحافظة على مبادئه ، وتنفيذا لوعد الخديو أصـدر منشوراً فى ١١ نوفمبر ١٩١٤ باعلان الدستـور الكامل فى مصر[٩٥] ولكن قيـام الحـرب واعـلان الأحكام العرفية وعزل عبـاس الثـانى حالت جميعا دون تنفيذه .

وكان طبيعيا بعد أن أعـلن الانجليز حمايتهم على مصر وتمسكوا باحتلالها أن ينضم فريد الى الجانب المعادى لانجلترا ، وكان عليـه أن يستعين بالقوى الدولية المناوئة لهم وبوجه خاص تركيا والمـانيا ، ولمـا اتفقت مصلحة كل من تركيا والمانيا مع مصلحة الحزب الوطنى على ضرورة ارسال حملة عسـكرية الى مصر بقصد طرد الانجليز منها تشكك فريد فى نوايا الأتراك اذا ما نجحت الحملة مما دفعه الى أن يطالب زعماء الأتراك أن يعلنوا أن هدفهم من الحملة هو استقلال مصر وجعلها ولاية ذات طابع خاص كما أن فريدا كان يتشكك أيضا فى نوايا الألمان نحـو الوطنية المصرية وعلى كل حال فقد فشلت الحملة التركية على مصر كما حالت الحرب بين فريد ومن بين نشاطه الوطنى فى أوربا ، وذلك لتوقف معظم الصحف عن الصدور ، وصعوبة اتصال الدول ببعضها ، وانشغال الناس بأخبار الحرب يضاف الى ذلك ان الدعم المـادى الذى كان يصل الى فريد من مصر قد توقف فقد كان يصله قبيل نشوب الحرب من عائلته مبلغ عشرين جنيها شهريا ، ولكن نشوب الحرب أدى الى انقطاع هذا المبلغ عنه فاشتدت به الضائقة المالية لدرجة أنه رهن بعض ثيابه لدى المرابين اليهود فى المانيا، كما كان يقتصد من نفقاته فسكن فى غرفة واحدة ، وكان يتغذى بفرنك واحد ثم يأكل غذاءه بكوز من الذرة المشوى وذلك اقتصادا فى النفقة[٩٦]

كما أنه لم يجد العناية الطبية الكافية عند اصابته بمرض الاستسقاء لقلة نقوده ، واشيع انه كان يحتطب لكسب قوت يومه وانه كان يلبس بدلة مرقعـة[٩٧] .

وهذا لا يعيب فريدا فى شىء ، ولا يخجلنا أن نذكـره ففريد الذى ولد كما يولد أبناء الأمراء ، وعاش فى بداية حياته كما كان يعيش أبنـاء

الحكام وصل به الحال كما ذكرنا من أجل مصر ، ومن أجل التمسك بالمبادىء ، وهذا شرف كبير ليس لفريد فحسب بل يعتبر هالة فخار للوطنية المصرية أيضا .

ولما وضعت الحرب أوزارها فى نوفمبر ١٩١٨ وعقد الصلح فى باريس أرسل محمد فريد تقريرا فى ٥ ديسمبر ١٩١٨ الى الرئيس الأمريكى ويلسون يطلب فيه استقلال وادى النيل وضرورة تمثيل مصر فى مؤتمر الصلح وقبولها فى عصبة الأمم .

وعندما قامت ثورة ١٩١٩ لاحت على شفتى محمد فريد ذلك الزعيم الغائب عن وطنه وأمته وأهله وزوجته ابتسامة الأمل ، ووجه لأمته من بعيد أعظم تحية لثورتها [٩٨] فقال « نشكر الله على هذه النتيجة الحسنة التى دلت على أن ما أنقاه مؤسسوا الحركة الوطنية من البذور فى تلك الأراضى الخصبة قد نبت وترعرع ساقه ثم أزهر وظهرت ثماره [٩٩] .

كما أرسل فريد يطلب من مؤتمر الصلح التدخل لتقرير مصير الأمة المصرية والاعتراف باستقلال وادى النيل استقلالا تاما ، ومنع عسف المحتلين بمقدرات الشعب المصرى .

وعندما سافر الوفد المصرى الى باريس برئاسة سعد زغلول لم يتصل أحد من أعضائه بفريد رغم تأييده لهم وكتابته برقية الى سعد يتمنى فيها التوفيق والنجاح للوفد فى مهمته فان سعدا لم يرد عليه ، وقد يرجع ذلك الى سببين :

١ — رغبة سعد فى الا تعرقل مساعى الوفد فى مؤتمر الصلح بسبب انحياز فريد الى جانب الألمان خلال الحرب .

٢ — ما بين سعد وفريد من حزازات قديمة ، وان كانت الوطنية الحقة تجعل الأفراد يتركون حزازاتهم جانبا فى مواجهة الأخطار التى يتعرض لها الوطن .

وبعيدا عن الأهل والوطن اشتدت علة المرض بفريد حتى وافاه الأجل فى ١٥ نوفمبر ١٩١٩ ، وكان رجال الوفد فى باريس فى ذلك الوقت

فعرض بعضهم على سعد زغلول السفر الى المانيا لنقل رفات فريد الى مصر وعمل اللازم نحو تكريمه ، ومشاركة الأمة فى أحزانها فكان رد سعد هو رفض طلبهم باصرار بحجة أن أموال الوفد يلزم أن تصرف على القضية المصرية لا على جنازات الأفراد .

ولم ينل شرف نقل رفات فريد أحد من رجال الوفد بل نال هذا الشرف الحاج خليل عفيفى أحد التجار بالزقازيق فنقل رفاته على نفقته الخاصة ، ووصل جثمان فريد الى القاهرة فى يونية ١٩٢٠ (١٠٠) .

وهكذا كانت حياة فريد سلسلة من التضحيات فى سبيل مصر فقد احتمل الفقر وهو ابن الاثرياء ، وقضى زهرة حياته فى سبيل مصر ، وضحى بمستقبله من أجلها ، ولم يتحول عن مبادئه بالرغم من التهديد والوعيد ، وكانت أراؤه توضح بعد نظره السياسى وفكره الناضج فى النواحى الاقتصادية والاجتماعية فقد ابتكر أساليب جديدة فى الكفاح لم تكن موجودة أيام مصطفى كامل فمد فروع الحزب فى الأقاليم حتى تزداد شعبيته فى أنحاء البلاد ، وطرح أفكارا سياسية واجتماعية جديدة فنادى بالعدل الاجتماعى والاهتمام بأحوال العمال والفلاحين ، وحاول الربط بين حركة المثقفين والطبقة العاملة فى مواجهة الاحتلال ، وعمل على انشاء مدارس الشعب الليلية لتعليم العمال بالمجان ، ولم يترك منبرا عاليا الا وارتقاه ولا هيئة داعية لنصرة الشعوب والأمم الا وتعاون معها .

وكان فريد أول من ربط حركة الوطنية فى مصر بحركة السلام العالمى فاعتبر أن الجلاء عن مصر خدمة للسلام العالمى كما ربط استقلال مصر بقضية الاشتراكية الدولية بعد أن ارسل لينين رئيس الحكومة الروسية تلغرافا الى دول العالم يطلب فيه تحرير مصر والهند (١٠١) .

يضاف الى ذلك تنظيمه للعمل الوطنى بين الطلبة المصريين فى أوروبا ومع ذلك فالزعماء بشر وكل زعيم عرضة لأن يصيب وأن يخطىء فى آرائه وقراراته وفريد كان يفتقر فى زعامته الى المرونة السياسية فقد نظر الى الخديو بمنظار اسود فى كل الأمور ، ولم يستطع ان يستثمر

الجوانب المفيدة منه للحركة الوطنية كما فعل سلفه مصطفى كامل كما أنه لم يستطع واد الخلافات التى نشبت داخل الحزب بل كان تشدده فى بعض المواقف يزيد من حدتها لدرجة أن استقال من اللجنة الادارية بعد توليه الرئاسة بعض مؤسسى الحزب مثل أحمد غائق ومحمود أنيس وعمر سلطان وويصا واصف يضاف الى ذلك أن خروجه من مصر ، ونقل مركز الكفاح الى أوربا كان خطأ فادحا أدى الى عزل الحركة الوطنية عن جماهيرها كما أدى الى انحسار دور الحزب الوطنى فى قيادة الأمة .

وعلى كل حال فان ذلك لم يقلل من تضحيات فريد من أجل مصر ، فهو الذى ضحى بكل ما هو عزيز لدى الانسان ، فجعل حياته فداء لوطنه ، وقضى عمره يزكى روح الوطنية فى البلاد ، وينفخ فى رمادها حتى تأججت نيران ثورة ١٩١٩ .

الزعامة الوطنية بين مصطفى كامل ومحمد فريد

هذان الزعيمان كل منهما جاء من نبع وكان يمثل طبقة معينة تختلف كل منها عن الأخرى اختلافا بينا : مصطفى كامل مصرى صميم أجداده من الفلاحين وأبوه نشأ فى بلد كتامة الغاب من أعمال مركز طنطا ، وعمل موظفا صغيرا فى خدمة الحكومة المصرية وربما نجد بين افراد أسرته من يحملون اسم حفيظة ، وست الدار ، وشلبى ، ونفيسة ، وحسنين ، ومحمدين ، ونعناعة ، وخضرة .

أما فريد ابن الذوات فقد نشأ فى بيت عز وجاه وسلطان فجده الأعلى عثمان أفندى قدم الى مصر مع الفتح العثمانى لها ، وتولى أرفع المناصب بها وكان أبوه ناظرا للدائرة السنية ، وكان من بين أفراد أسرته من يعرف التركية ويتحدث بها بطلاقة .

ورغم هذا التباين الطبقى بين هذين الزعيمين ، ورغم أن نشأة فريد العائلية كانت تؤهله للعيش منعما فانه ترك انتماءه الطبقى ، واقتحم ميدان الجهاد ، وتحمل مشاقه ، واتصل بمصطفى كامل وتوثقت الصداقة

بينهما منذ عام ١٨٩٥ حينما التقيا بباريس ونسقا معا خطط الكفاح من أجل اجلاء المحتلين عن مصر .

والشيء المثير للتساؤل والدهشة هو أن فريد الارستقراطى النشأة والذى كان يمكنه أن يأمر فيطاع انضوى تحت زعامة مصطفى كامل الأصغر منه سنا ، والأقل طبقة رغم أن المجتمع فى ذلك الوقت كان يفضل دائما الأكبر سنا باعتباره أكثر خبرة ودراية .

والواقع أن فريد وجد فى مصطفى كامل الاخلاص للقضية الوطنية ، ذلك الاخلاص الذى كان ينشده ويبحث عنه بين زملائه فلم يجده الا نادرا ، ومن هنا التقيا معا فى الكفاح دون النظر الى الزعامة أو المكانة .

وقبل أن نتطرق الى موضوع زعامة كل من مصطفى كامل وفريد للحركة الوطنية المصرية تطرح عدة أسئلة علينا نفسها : هل طبيعة المناخ السياسى والاجتماعى فى مصر بعد الاحتلال هو الذى أتاح لزعامة كل من مصطفى كامل وفريد الانبثاق والظهور ؟ وهل ترتبط الزعامة دائما بالمواقف والأزمات التى يتعرض لها الوطن ؟ هل التغيرات التى يحدثها الزعيم تستمد مقوماتها منه أم من البيئة التى يعيش فيها ومن ظروف الأجيال التى انحدر منها ؟

الواقع أن ظروف مصر بعد انكسار العرابيين فى التل الكبير واستيلاء الانجليز على البلاد ، والجو لنفسى الكئيب الذى عاش فيه أبناء الوطن هو الذى هيأ المناخ لوجود زعامات من الطبقة المثقفة أمثال مصطفى كامل ومحمد فريد . فالهزيمة العسكرية غيرت من واقع المجتمع المصرى الذى كان على شفا الانهيار ، ومن اجل ذلك انتقلت القيادة الوطنية من طبقة العسكريين أمثال عرابى وزملائه الى طبقة أخرى من طبقات المجتمع المصرى كانت قادرة على امتصاص روح الهزيمة من نفوس أبناء الشعب ، وانارة طريق الكفاح أمامه وهى طبقة المثقفين فالموقف الذى طرأ على البلاد فرض زعامة من نوع معين زعامة تتسق مع ملابسات وظروف المجتمع المصرى الذى كان فى حاجة الى من يرسم له طريق الخلاص ويستطيع التعبير الحقيقى عن آرائه ، وهنا كان المفتاح الرئيسى لقيام زعامة مصطفى كامل ومحمد فريد .

فمصطفى كامل كان يمثل جيل ما بعد الثورة العرابية ، وهو الجيل الذى حاول أن يتجاوز كل مظاهر الاحباط والكآبة التى حدثت نتيجة للهزيمة ، هذا الجيل كان يتميز بالحس الثقافى والفكرى والقدرة على استيعاب خبرات الماضى وطرح رؤية جديدة تحدد مسار الأمة المهيضة الجناح ، وهكذا تزعم الحركة الوطنية المصرية لأول مرة رجال ينتمون الى الصفوة العلمانية المثقفة التى تمزج بين الفكر السلفى والفكر الليبرالى ، وهذا ما يختلف عن الزعامات المصرية السابقة كعمر مكرم باعتباره من الصفوة الدينية المستنيرة او كأحمد عرابى بصفة احد زعماء العسكريين (١٠٢) .

وهكذا فان دور المجتمع فى تكوين الزعيم يبدو واضحا عند نظرتنا الى التطورات الطارئة التى لحقت به ، وجعلته فى حاجة الى زعامة معينة تلعب دورها وهى متأثرة بالظروف التى يمر بها هذا المجتمع يضاف الى ذلك أن ظروف المجتمع هى التى تحدد الطريق للزعيم حتى يصبح عنصرا مؤثرا فيه تارة ومتأثرا به تارة أخرى فالزعيم الحق هو الذى يعى بثاقب نظره ما يعانيه مجتمعه ، ويعرف المتطلبات التى ترفع عن كاهله هذه المعاناة ويعمل من أجل تحقيقها أو يحاول ايجاد الحلول الملائمة لها ، وبعبارة أخرى فان الانسان الذى تتاح له فرصة الزعامة لم يولد زعيما بل أن الظروف والمتغيرات التى يتعرض لها المجتمع هى التى تؤهله لتولى الزعامة وهى التى تتيح الفرصة لابراز قدراته اذ كانت لديه الاستعدادات اللازمة لذلك . ومن هنا يكون الزعيم هو الشخصية التى يتجه أو يتطلع اليها الوطن لحاجته الماسة لها أو لشعوره بأن هذه الشخصية هى التى تحقق أمانيه (١٠٣) ، وقد وجد الشعب المصرى فى مصطفى كامل الزعيم الشاب الذى يستطيع انتشاله من وهدة الهزيمة ومن براثن الذل والهوان الذى تعرض له ، ونظرا لأن النفوس كانت متعطشة الى نغمة جديدة تجدد فيها الأمل بحياة حرة كريمة بعد أن تسرب اليأس اليها . لذلك اعتبر الشعب مصطفى كامل رسول الوطنية الذى جاء لتثبيت العزائم بعد أن خارت قواها أو قربت من ذلك ، ومن أجل هذا اقبل عليه بحماس وآزره فى كل مواقفه وتعلق به .

وقد يدفعنا هذا الى أن نتساءل هل كان مصطفى كامل الشخص الوحيد الذى كانت لديه القدرة على تحمل الرسالة بعد انكسار العرابيين؟ الواقع أنه كان يوجد بين المصريين من يستطيع حمل هذه الرسالة ومن هم اكثر نضجا من مصطفى كامل وتفكيره ، ولكن ما هى متطلبات المجتمع فى الرجل الذى يستطيع أن يتحمل عبء الزعامة فى ذلك الوقت ؟

ان متطلبات المجتمع كانت تنحصر فى شخص لديه الاقدام والشجاعة وحمية الشباب ، شخص يستطيع ازالة آثار اليأس الكريهة التى عششت على المجتمع باتباع اسلوب جديد يشمل حماس الناس ويخاطب شعورهم واحاسيسهم ، وكانت هذه الصفات تنطبق على مصطفى كامل .

فمصطفى كامل يختلف عن غيره فى انه كان لديه الاقدام ، كما كانت لديه حمية الشباب الملتهبة يضاف الى ذلك أنه كان لديه أسلوب جديد فى الخطابة ، وهو الأسلوب الوجدانى الذى يخاطب عواطف الناس وقلوبهم قبل أن يخاطب عقولهم هذا الأسلوب الذى يعتمد على الجمل الضخمة التى تثير شعور الجماهير دون روية للوصول الى الغاية التى تنشدها وتتمناها (١٠٤) .

هذا هو الذى فرض مصطفى كامل كزعيم دون غيره لأن الظروف التى كانت تمر بها مصر كانت تتطلب مواصفات زعامته .

وهنا يمكننا أن نتساءل مرة اخرى هل الزعيم المؤسس لأى حركة يكون اقدر ممن يأتى بعده فى زعامة هذه الحركة أم العكس .

هناك رأى يرى أن الزعيم المؤسس للحركة يكون اكثر دراية وتجربة ومعرفة بحركته ممن يأتى بعده لأنه هو الذى وضع نواة حركته وعمل على ابرازها ، وهناك رأى آخر يرى أن الزعيم الذى يخلف غيره فى زعامة الحركة يكون اكثر معرفة باخطاء سلفه واكثر دراية بها ولذلك يستطيع تصحيح مسيرة الحركة .

وعلى الرغم من وجاهة كل من الرايين فالواضح أن الظروف السياسية والاجتماعية المتغيرة التى تعرض لها الوطن ثم ظروف تكوين الزعيم

هى التى تؤثر فى حركة الزعامة أكثر من أى شىء آخر ، وعلى سبيل المثال فظروف زعامة مصطفى كامل تختلف عن ظروف زعامة محمد فريد ، فمصطفى استفاد من نزاع الخديو مع كرومر وحاول عن طريق ذلك تحقيق بعض الأهداف الوطنية ، كما أنه اعتمد على استغلال التناقض بين انجلترا وفرنسا من أجل اجلاء الاحتلال أما فريد فقد جاءت زعامته بعد أن تغيرت كل هذه الظروف فقد تولى الزعامة مع سياسة الوفاق التى اتبعها جورست مع الخديو ، والتى أدت الى ضرب الحركة الوطنية من كلا الطرفين فكان فريد هدفا لحرب مزدوجة لم يتعرض لها مصطفى كامل كما أن زعامة فريد جاءت بعد وفاق انجلترا وفرنسا لذلك كان من الصعب استغلال التناقض القائم بينهما كما فعل مصطفى كامل فى أول الأمر ، ومن هنا اختلفت سياسة محمد فريد عن سياسة سلفه يضاف الى ذلك أن فريدا الزعيم الثانى للحزب الوطنى بدأ من حيث انتهى مصطفى كامل ، فالمعروف أن مصطفى كامل لم يضع منهاجا واضحا فى طريقه كفاحه السياسى فقد اعتمد على تناقض مصالح فرنسا وبعض الدول الأوربية مع انجلترا من أجل تحقيق الجلاء واثبت الاتفاق الودى انهيار هذا الأساس كما اعتمد مصطفى كامل على الدولة العثمانية والخديو واتضح ان لكل منهما مصالحه الخاصة التى يفضلها عما عداها وانتهى به الأمر الى الاعتماد على الرأى العام اما فريد فقد اعتمد على الشعب المصرى منذ أن تولى رئاسة الحزب ولم يقتصر اعتماده على المثقفين كما فعل مصطفى كامل بل جذب اليه الكوادر العمالية والفلاحية ثم حاول الربط بينها وبين حركة المثقفين فى مواجهة الاحتلال ، ومد فروع الحزب الى الأقاليم لتزداد شعبيته كما قام بتنظيم الطلبة المصريين فى أوربا .

ومن هنا لا نستطيع أن نقول أن الزعيم الأول افضل ممن يأتى بعده أو العكس بل نقول ان ظروف المجتمع هى التى تحدد مسار الزعامة ولما كان لكل زعامة من معلم أو مثل أعلى يحتذى به فهل نبتت زعامة مصطفى وفريد من فراغ أم أن كلا منهما تلقى دروس الوطنية من أحد زعماء الجيل الذى سبقه وعاصر تجارب النجاح والفشل التى تعرض لها الوطن حتى يستطيعا استيعاب خبرات الماضى .

الواقع أن مصطفى كامل قد تأثر بعبد الله النديم خطيب الثورة العرابية واستطاع بصحبة هذا الثائر التعرف على حقيقة التيار السياسى فى مصر ، وكيف شوه رجال الاحتلال مبادىء العرابيين وخططهم كما نعلم منه القواعد التى اذا اتبعها يكون وطنيا ناجحا [١٠٥] يضاف الى ذلك أن مصطفى كامل كانت صلته وثيقة بعلى باشا مبارك .

أما فريد فقد كان لمعايشته وهو فى سن الرابعة عشر — ولد عام ١٨٦٨ — النكبة التى حلت بالبلاد أثر هزيمة التل الكبير ، وما سمعه عن المآسى التى حدثت لمصر من جراء الاحتلال أكبر الأثر فى تكوين نزعته الوطنية يضاف الى ذلك أنه حضر مجالس لطيف باشا سليم ، وتعلم منها المبادىء الوطنية ، وورث عنها مبدأ معارضة التعامل مع الخديو .

وعلى كل حال فهناك عدة سمات تميز الزعامة ، ولما كانت سمات زعامة كل جيل تختلف عن غيرها من الأجيال الأخرى فسنقصر حديثنا على سمات زعامة جيل مصطفى كامل وفريد .

الواقع أن الايمان المطلق بالقضية الوطنية ، والثبات على المبدأ والشجاعة ، وقوة الارادة ووعيها ، وسعة الافق والقدرة على التأثير فى الجماهير بالخطابة والصحافة ، واحترام مشاعر الناس ومعتقداتهم كانت من أهم سمات الزعامة فى ذلك الوقت ، ومع ذلك فان مصطفى وفريد لم يكونا متفقين فى كل هذه السمات أو غيرها بل كان هناك أوجه اتفاق بينهما كما كان هناك أيضا أوجه اختلاف وفيما يلى نعرض لأوجه الاتفاق .

اذا كانت كثرة القراءة وسعة المعلومات والالمام بدقائق المسألة التى يتبناها الفرد أو يدافع عنها هى احدى سمات الزعيم الناجح فمما لاشك فيه أن مصطفى وفريد قد تميز بهذه الصفة ، وكان لقراءة كل منهما للتاريخ بل والتأليف فيه أكبر الأثر فى اكسابهم خبرات الآخرين وتعميق كوامن الوطنية فى نفسيهما فقد قرأ مصطفى كامل تاريخ الأمم الأوربية ودرس تاريخ القضية المصرية ، وله مؤلفات تاريخية تشهد بقدرته على استيعاب التاريخ منها كتاباه « المسألة الشرقية » و « الشمس المشرقة » .

أما فريد فله الى جانب مذكراته المخطوطة عدة كتب تدل على اهتمامه بالتاريخ منها كتاب « البهجة التوفيقية فى تاريخ مؤسس العائلة الخديوية » ومنها كتاب « تاريخ الدولة العثمانية » وكتاب آخر من « تاريخ الرومان » ومن يتفحص هذه الكتب يتضح له مدى النضج الفكرى وسعة الاطلاع والالمام بالمسائل السياسية القومية والدولية لكل من مصطفى وفريد واذا كانت زعامة تلك الفترة تقتضى عمل الزعيم بالصحافة حتى يكاد يبدو لمن يقوم بالتأريخ لزعامة أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحالى أن الزعامة والصحافة شىء واحد فقد كان زعماء تلك الفترة يقودون بأفكارهم ومقالاتهم الصحفية كافة أبناء الشعب(١٠٦) ، فقد وعى كل من مصطفى وفريد ذلك فعبرا فى كتاباتهما بالصحف عن أفكارهما التى قادت الجماهير وأشعلت الكراهية للمحتلين .

وقد عمل مصطفى كامل منذ صباه فى الكتابة الصحفية فأسس مجلة المدرسة ونشرت له الأهرام والمؤيد بعض المقالات ثم أسس بعد ذلك اللواء التى كانت قلعة من أكبر قلاع الوطنية ، ومدرسة يتلقى فيها الشعب المصرى على اختلاف طبقاته درسا فى الوطنية ، ولم يكتف مصطفى كامل بذلك بل أسس صحيفتين احداها بالانجليزية والأخرى بالفرنسية حتى يتضح للرأى العام العالمى حقيقة المسألة المصرية .

أما فريد فكانت له الكثير من المقالات المستفيضة فى الصحف فقد راسل الصحف منذ تخرجه من مدرسة الحقوق فكتب عدة مقالات فى مجلة الاداب والموسوعات والمؤيد ثم فى اللواء وصحف الحزب الوطنى الأخرى مثل العلم والشعب وكانت هذه المقالات تجمع بين النضج الفكرى وغزارة المادة .

واذا كانت سمات الزعامة تتركز فى الايمان المطلق بالقضية الوطنية فان كلا من مصطفى كامل وفريد قد آمن بالقضية المصرية ايمانا مطلقا بل وضحى فى سبيلها بكل شىء وبذل النفس والنفيس من أجلها ورسم كل منهما لنفسه خطة المقاومة المستمرة للاحتلال وهى مقاومة لا ضعف فيها ولا هوادة ولا تراجع وظل كل منهما ثابتا فى جهاده رغم جنوح معظم رجالات مصر الى الولاء للاحتلال واكتساب رضاه والأمثلة على

ذلك كثيرة منها أن فاشـودة كانت بمثابة الضربة القوية لحركة مصطفى كامل كما كانت احد عوامل اليأس فى نفوس معظم الوطنيين ، ومع ذلك فان مصطفى كامل لم ييأس ، ولم ينخفض صوته ولم تفتر عزيمته بل كان رده هو مضاعفة الجهاد والكفاح كلما زادت المصاعب والعقبات.

وعندما وقعت انجلترا الاتفاق الودى فى ٨ أبريل ١٩٠٤ لم يتزعزع يقين مصطفى كامل فى الجهاد وبذلك برهن على ثبات وطنيته ، وان الأحداث لا تزيدها الا صلابة .

ولا يعنى هذا أن مصطفى كامل لم ييأس طوال أيام كفاحه الوطنى فالواقع ان صاحب دعوة لا يأس مع الحياة ولا حياة مع اليأس اعترته عوامل اليأس فى بعض الأحيان حتى وصل به الأمر فى بداية كفاحه الوطنى الى التفكير فى الانتحار ويتضح ذلك من الخطاب الذى أرسله من باريس الى صديقه فؤاد سليم والخاص بشكواه من ضيق ذات يده بعد أن كف الخديو عن ارسال نقود له فيقول مخاطبا صديقه « أليس فى استطاعة والدك والهلباوى ومحمد سالم أن يرسلوا لى سنويا أربعمائة جنيه ماداموا يعتبرون انفسهم وطنيين ويقدرون جهودى الوطنية ، واذا كانوا غير قادرين على مساندتى فانى سأعود الى مصر يائسا فاقد الأمل ليس من أجل الجلاء فحسب بل من أجل مستقبل الأمة المصرية، وتأكد ياصديقى العزيز انى لم أمكث فى مصر بعد عودتى دون أن أرى القبر (اكيدا) سوف انتحر ولا أعيش وسط أمة جاحدة [(١٠٧)] .

الواقع أن هذا الخطاب وضعنا فى حيرة وطرح عدة أسئلة تتطلب الاجابة : هل حدة المزاج يمكن أن تخرج الانسان عن طوقه اذا تعرض لبعض الضغوط لدرجة أن يفكر فى التخلى عن مبادئه التى آمن بها ونادى الناس بالتمسك بها ، وكلنا يعرف أن وطنية مصطفى كامل كانت ممتزجة بحدة المزاج .

وهل كان مصطفى كامل مطالب بأن يبعث فى أمته الحياة ، وينبذ فيها فكرة اليأس بعد أن أوشكت على الغرق فيه رغم أن هذه الفكرة غير متمكنة منه ؟ .

الواقع أن اليأس الذى انتاب مصطفى كامل كما يتضح من خطـــابه لم يكن ثابت الجذور فى نفسه بل كان يأسا طارئا زال بزوال المؤثرات التى أدت اليه ، فعندما تعرض مصطفى كامل للضغوط المالية الشديدة خرج عن طوقه وكان ذلك فى أوائل عهده بالزعامة ، وبمعنى آخر فى ١٦ اكتوبر ١٨٩٥ أى فى وقت لم تكن حركته قد وصلت الى الانتعاش الذى وصلت اليه بعد ذلك أو بعد أن صقلته الزعامة وحنكته التجارب وصهرته الصعاب فقد أصبح أصلب عودا وواجه العقبات بثبات .

أما فريد فبالرغم مما تعرضت له الحركة الوطنية من ضربات متلاحقة سواء من الخديو أو من الاحتلال نتيجة سياسة الوفاق فقد ظل متمســكا بمبادئه متحملا للمصاعب والعقبات دون كلل ، وكلما زادت الأمور صعوبة كلما ضاعف فريد من جهاده .

ومن كلماته المأثورة فى هذا الصدد قوله « لا ينتظر أحد منا أن نحيد عن مبدئنا مادام فينا عرق ينبض أو تجرى فى أجسامنا نقطة دم » لذلك فان فريد لم ينثن عن مقاومة الاحتلال أو كل من يلوذ به أو يحالفه حتى لو كان ذلك اكبر راس فى البلد وقتذاك وهو الخديو فرغم آلام الســـجن رفض فريد مســـاومة الخديو له بأن يخفف فى لهجته فى نظير الوعــــد بالافراج عنه ، وآثر السجن على التســـاهل فى مبادئه ورغم انفضاض بعض أنصار فريد عنه وانحيازهم الى جانب الخديو فان الضعف أو اليأس لم يعرف الى قلبه سبيلا فقد أعلن أن سياسته لم تتغــير حتى لو ظــل وحــــده »[١٠٨] وقدم حياته طائعا مختارا من أجل تحرير مبادئه .

وبما أن الزعيم لابد أن يكون واضح الأهداف محدد المبادىء فـــان مصطفى كامل جعل لنفســـه هدفا واحدا هو الجلاء ، وعدوا واحدا هــو الاحتلال أما فريد فانه لم يختلف مع مصطفى كامل فى خطته هذه وان كان قد أبرز معها دعوته للمطالبة بالدستور واعداد العرائض لانشاء مجــلس نيــابى[١٠٩] .

واذا كان الزعيم الناجح هو الذى يبتعد عن اثارة أحاسيس الناس ولا يحاول هز معتقداتهم أو عاداتهم بل يحاول استمالة العواطف الموجوده

فى نفوسهم فان كلا من مصطفى كامل وفريد قد عمل على تحقيق هذه الغاية فمصطفى كامل ربط بين دعوته لحب الوطن وبين معايير مجتمعه فتمسك بالقديم ، وكان متحفظا على المبادىء الأوربية فى تربية البنات ودافع عن سياسة الحجاب واعتبرها عصمة للنساء ثم عارض فكرة تحرير المراة موضحا « أن قواعد الشرع والأدب تقضى بفرض الحجاب على النساء فليس لهن أن يستخدمن بالمصالح كالرجال وانما يكفى أنهن يدبرن شئون المنزل ويهذبن أولادهن » يضاف الى ذلك أن مصطفى كامل كان خصما لدودا لكتاب تحرير المراة الذى أصدره قاسم أمين عام ١٨٩٩ كما كان خصما لدودا ايضا لصاحبه فحمل عليه حملات ضارية فى اللواء[١١٠] ورفض فكرة سفور المراة .

ولما اثيرت قضية زواج الشيخ على يوسف من ابنة الشيخ السادات رغم ارادة والدها وقف مصطفى كامل ضد صاحب المؤيد مهاجما اياه ومؤيدا للتقاليد الموروثة ومتمسكا بها ، وكانت فرحته شديدة عندما طلبت المحكمة ابطال هذا الزواج ، ويبدو ذلك واضحا فى رسالته الى جوليت آدم بتاريخ ٤ اكتوبر ١٩٠٤ حيث قال « أزف اليك نبأ عظيما .. ان محكمة الاستئناف أيدت حكم أول درجة القاضى بابطال زواج ذلك الصحافى المسكين الذى حدثتك عنه ، وعلى الباغى تدور الدوائر .. ولعظيم فرحى وعلمى أن ما يسرنى يشرح فؤادك أسرعت الى مكاتبتك »[١١١] .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل انتقد مصطفى كامل الخديو لموقفه المؤيد للشيخ على يوسف فى هذه القضية مما أدى الى القطيعة بينهما وقد أيد فريد مصطفى كامل فى كل هذه المواقف وسار على منوالها طوال زعامته للحزب .

وقد يستغرب البعض هذه المواقف من كل من مصطفى كامل ومحمد فريد خصوصا وأن ثقافتهما فرنسية وانهما تلقيا العلم بعض الوقت فى أوربا وكانا من بين المعجبين بالمدنية والحضارة الأوربية .

يرجع الدكتور هيكل ذلك الى أن كل من مصطفى وفريد حاول التقرب الى الشعب فيما هو عزيز لديه من عادات وأوهام لاستغلاله فى الغايات السياسية[١١٢] لدرجة أن مصطفى كامل فضل أن يخسر الخديو

على أن يخسر الرأى العام نضيف الى ذلك أن قوة الاتجاه الاسلامى لدى كل منهما جعلهما يناديا بألا تقلد مصر أوربا تقليدا أعمى بل يجب أن تظل متمسكة بمبادى الاسلام هذا بالاضافة الى أن فكرة الاصلاح الاجتماعى لدى كل منهما كانت تجىء فى المرتبة الثانية بعد تحقيق الجلاء.

واذا كانت التضحية بالنفس والنفيس وايثار الذات فى سبيل الوطن احدى سمات الزعيم الناجح فان كلا من مصطفى وفريد قد تميز بهذه الصفة ولم ينظر أى منهما الى اتخاذ العمل السياسى وسيلة لتحقيق النفوذ والجاه والأدلة على ذلك متعددة نذكر منها :

بالنسبة لمصطفى كامل فرغم أنه كان قيد اسمه فى جدول المحامين وقررت لجنة انتخاب المحامين قبوله[١١٣] فانه لم يحترف المحاماه بل تفرغ لقضية واحدة هى قضية مصر ، ورغم أنه كان ضعيف الصحة وفى حاجة الى الراحة فانه لم يعط لبدنه حقه من الراحة بل واصل الجهود فى سبيل مصر ، واخذ على عاتقه مهمة ايقاظ الشعور الوطنى ، وبث الدعاية للقضية المصرية فى انخارج فواصل حملاته ضد احتلال ، ولم تغريه باريس بمفاتنها وجمالها بل كان يقطع شوارعها وحواريها ليلحق سياسيا قبل أن يترك مكتبه او خطيبا قبل أن يقف على منصة الخطابة ليشكو اليه أحوال مصر فى ظل الاحتلال[١١٤] ورغم انه حورب فى شخص أقرب الناس اليه وهو أخوه ليعدل عن موقفه فكان رد مصطفى أنه مهما حورب فى شخصه أو شخص أقرب الناس اليه فان ذلك لم يحل دون جهاده ، ولما طلب السير كامبل بانرمان رئيس الوزارة البريطانية من مصطفى كامل تكوين وزارة بمعرفته رفض قائلا « ان وطنيتى تفرض على رفض كل مركز فى الحكومة طالما ظل الاحتلال جاثما على صدر مصر »[١١٥] يضاف الى ذلك أنه عندما علم مصطفى كامل برغبة فريد فى تأليف لجنة بقصد عمل اكتتاب عام لدعوته الى وليمة وتقديم هدية له بعد جهوده التى بذلها فى الخارج من أجل مصر بعد احداث دنشواى اقترح مصطفى كامل تحويل هذه الهدية لغرض آخر قائلا ان « خير هدية اقترح عليكم تقديمها للوطن العزيز والأمة المصرية أن تقوم اللجنة التى شكلت بدعوة الأمة كلها ، وطرق باب كل مصرى لتأسيس كلية أهلية تجمع أبناء الفقراء والأغنياء على السواء »[١١٦] .

هـــذا عن بعض تضحيات مصطفى كامل من أجـــل مصر . أما عن تضحيات فريد فهى كثيرة نذكر منها على سبيل المثال تضحيته بمنصـــبه فى النيابة حيث استقال من وظيفته بعد موقفه الوطنى من قضية التلغراف ثم تضحيته بعمله فى المحاماة لكى يتفرغ للجهاد ، وتضحيته بأمواله لمساندة الحركة الوطنيـــة بأن باع كل ما يملكه من أراض زراعيـــة بعد أن تولى رئاسة الحزب الوطنى(١١٧) .

وكما رفض مصطفى كامل الاشتراك فى الوزارة رفض أيضا فريد ذلك عندما عرض عليه محمد سعيد باشا الاشتراك فى وزارته قائلا « كيف تطلب منى أن أشترك فى حكم البلاد فى ظل الاحتلال ، وأنا أجاهد الاحتـــلال ؟ وكيف يتفق النقيضان » .

وقد تكررت هذه المحاولة مع فريد بعد ذلك فعقب مؤتمر بروكســـل فى أكتوبر ١٩١٠ قابل فريد فى باريس مبعوثا من قبل الحكومة الانجليزيـــة يعرض عليه احدى الوزارات ومساعدته ماليا بعد أن تحرج مركزه المـــالى فكان رد فريد الرفض قائلا « ان ضياع ثروتى لا يؤثر على مبادئى ، وانى أرفض أى مركز فى الحكومة مادام الانجليز فى مصر »(١١٨) .

ولما عرضت الحكومة العثمانية عـــلى فريد بعض المناصب ومنها عميد كلية الحقوق بالآستانة اعتـــذر حتى يحتفظ باستقلاله فى جهـــاده بقوله « اننى لم أخرج من بلادى للبحث عن وظيفة انما خرجت لخدمتها ، وسأبقى كذلك حتى أموت »(١١٩) .

يضاف الى ذلك أن فريدا ضحى براحته وحريته ، فاستهدف للسجن والنفى ، وكان يتلقى المحن والشدائد بكل رضـــا فكان رجـــل مبـــادىء لم يتغير مهما قاسى فى ســـبيل المحافظة عـــلى مبادئه فقد ضحى بثروته من أجل الحركة الوطنية حتى أصبح المـــال قليلا معه فلم يجـــد العناية الطبية الكافية عند اصابته بمـــرض الاستسقاء لعدم توافر المـــال اللازم لعلاجه كما ركب القطار لأول مرة فى حياته فى الدرجة الثالثة وهو بأوربا للدفاع عن حقوق مصر رغم برد الشـــتاء وذلك لقلة النقود معه(١٢٠) ووصل فريد الى أقصى حالات الضنك بسبب قيام الحـــرب الأولى ، وانقطـــاع

المورد المالى الذى كان يصله من أسرته لدرجة انه لم يجد قوت يومه الا بصعوبة ، كما انه لم يملك ثمن الدواء ، ومع ذلك لم يعرف فريد فى الوطنية لينا أو هوادة ، ولم يضعف أمام الوعيد ولم يعبأ بأى وعود .

وبما أن الزعيم الناجح هو الذى يعى متطلبات مجتمعه ، ويحاول النهوض بشعبه فان كلا من مصطفى وفريد اهتم بتعليم الشعب المصرى ، واستنهاض همته وتذكيره بعزته القومية وكرامته الوطنية فبعد أن رأى مصطفى كامل عقم سياسة الاقتصار على نشر الدعوة فى أوربا وحدها والاعتماد على الدول لاجلاء انجلترا عن مصر(١٢١) احس بضرورة الاهتمام بتعليم الناس وتعريفهم بحقوقهم وواجباتهم خصوصا وان الشباب المتعلم هو أساس تقدم الوطن ، وان سياسة الاحتلال التعليمية تحول بين تربية الناشئين والشباب تربية وطنية صحيحة فكان اساس مناهجها التربية المنعمة بالخضوع والمذلة(١٢٢) ومن اجل ذلك ضاعف مصطفى كامل من جهوده لتنشيط حركة التعليم فى البلاد فطالب بانشاء المدارس الأهلية بعد أن اغلقت سلطات الاحتلال بعض المدارس الحكومية والغت مجانية التعليم كما طالب بأن يشمل التعليم أبناء الأسر الفقيرة والا يقتصر على طبقة الأغنياء فقط .

ونتيجة لجهود مصطفى كامل فى هذا المجال افتتحت مدرسة ابتدائية بالقاهرة حملت اسمه وذلك فى عام ١٨٩٩ ثم كون نادى المدارس العليا الذى كان أول تنظيم للطلاب وخريجى المدارس .

وقد سار فريد على منوال مصطفى كامل فى الدعوة لنشر التعليم فقد طالب بنشر التعليم الابتدائى بين كافة طبقات الشعب فقيرة وغنيه وان يكون هذا التعليم الزاميا ومجانيا لكل مصرى ومصرية كما تبنى فريد مع نادى المدارس العليا فكرة انشاء مدارس ليلية لتعليم العمال ومن يرغب من الفقراء مجانا ، وقد عرفت هذه المدارس باسم مدارس الشعب ، وعهد بالتدريس فيها الى رجال الحزب وانصاره .

هذا عن دور مصطفى كامل وفريد نحو التعليم العام أما عن دورهما نحو التعليم الجامعى فالمعروف أن مصطفى كامل نادى بانشاء جامعة

فأموال الأمة تتيح للمصريين ابراز مواهبهم ورفع شأنهم كما سار فريد على منوال سلفه وزاد على ذلك أنه كان ضمن الأعضاء المؤسسين للجامعة الأهلية وعضوا بمجلس ادارتها وسكرتيرا للجنة انشاء الجامعة وضمن المساهمين من أجل انشائها فقد اكتتب بمائتى جنيه ، وبمثل هذا المبلغ سنويا .

هذا عن أوجه الاتفاق بين مصطفى كامل وفريد ، وقبل أن أنتقل الى أوجه الاختلاف بينهما ينبغى أن نذكر انه اذا كانت احدى سمات الزعيم السياسى مساومة الآخرين ومراوغتهم من أجل الحصول على مطالبه ومطالب شعبه فان كلا من مصطفى وفريد لم يستعمل هذا الاسلوب فى كفاحه بل كانا واضحين فى مطالبهما دون لف أو دوران .

اما بالنسبة لأوجه الاختلاف بين الزعيمين فنجد أنه بالرغم من أن مصطفى وفريد كانا متفقين فى أساسيات حركة الكفاح الوطنى فان الظروف السياسية التى لازمتهما وبوجه خاص أثناء زعامة كل منهما للحزب الوطنى حتمت على كل منهما اتباع سياسة مخالفة لسياسة الآخر فمع أن زعامة مصطفى كامل للحركة الوطنية كانت تمثل المرونة السياسية فان زعامة محمد فريد كانت تمثل الصلابة العقائدية(١٢٣) فمصطفى كامل كخطيب استطاع تحريك الجماهير واثارتها دون أن يقدم لها برنامجا فكريا واضحا (١٢٤) ، وقد اتاح له رصيده السياسى استخدام الاسلوب المرن من أجل الوصول الى هدفه فلجأ الى الكتابة والخطابة فى التشهير بالاحتلال واستطاع أن يخاطب عدوه القوى باللغة الهادئة التى تستند الى العقل والمنطق ولم يلجأ الى الأساليب الثورية فى حركته .

أما فريد فقد دفعته ظروف سياسة الوفاق وقلة رصيده السياسى بالاضافة الى الخلافات التى نشبت داخل الحزب الوطنى بعد وفاة مصطفى كامل الى التشدد فى مواقفه واللجوء الى تحويل المجتمع الى قوة ضاربة فانتقل من الخطابة مع المثقفين وطلاب المدارس الى تنظيم الحزب وتطويره ومد فروعه الى الأقاليم كما لجأ الى القوى الاجتماعية الأخرى القادرة على مقاومة الاحتلال بالعنف مثل العمال والفلاحين يضاف الى ذلك أن فريدا دعا الى المظاهرات الشعبية المنظمة للمطالبة بحق مصر فى

الدستور فكان يجتمع فى حديقة الجزيرة عشرات الآلاف ثم يسيرون الى قلب القاهرة هاتفين بمطالبهم مشتبكين بالبوليس مضحين بالعشرات[١٢٥] فقد رأى فريد أن الزعيم الناجح هو الذى يعتمد على كافة طبقات شعبه فى حركة الكفاح وهنا يبرز لنا تناقضا غريبا وهو انه بالرغم من أن مصطفى كامل ينتمى الى طبقة الفلاحين وصغار الموظفين وفريد ينتمى الى الطبقة الارستقراطية فان موقف كل منهما من الفلاحين والعمال كان على عكس انتمائهما الطبقى فقد حصر مصطفى جهوده فى أول الأمر على الطبقة المثقفة فى المدن ، ولم يجذب اليه طبقة العمال والفلاحين ، ولم يكن لهم فى مقالاته أو فى برنامج حزبه شأن كبير ، كما أن دعوته للالتفاف حول الدولة العثمانية جعلت الفلاحين يبتعدون عنه بعض الوقت حتى وقعت أحداث دنشواى فانضم الفلاحون اليه وتغنوا بأعماله . أما فريد فقد فطن الى ضرورة جذب العمال والفلاحين اليه منذ بدء زعامته فأصبح رجلا جماهيريا يتسم بطابع البساطة ، ويفضل العيش بين الجماهير ومشاكلها[١٢٦] فبدأ بالربط بين حركة المثقفين وطبقة العمال والفلاحين حتى يتحول المجتمع المصرى الى قوة ضاربة فى مواجهة الاحتلال .

وقد اهتم فريد بأحوال العمال ، وطالب بوضع قوانين لحمايتهم وتحديد عدد ساعات العمل لهم ، كما اهتم بالنقابات والأندية العمالية لترقية أحوال هذه الطبقة والدفاع عن مصالحها ومنع استغلالها فانشئت فى عام ١٩٠٩ أول نقابة للعمال فى مصر وهى نقابة عمال الصنائع اليدوية .

أما عن الفلاحين فقد طالب فريد بانشاء نقابات زراعية تحميهم من جشع المرابين ، وتعمل على ترقية أحوال الزراعة ، وتحسين أحوال الفلاح المصرى الذى وصفه فريد بأنه أتعس فلاح فى العالم .

وهكذا كان لاهتمام فريد بمشاكل العمال والفلاحين أكبر الأثر فى زيادة رصيده الشعبى فى الكفاح الوطنى وهذا ما لم يتوفر لسلفه مصطفى كامل ومع أن فريدا كان أقرب فى عثمانيته من ناحية الدم والصلة والقرابة من مصطفى كامل فان فكره كان أكثر مصرية من مصطفى كامل الذى كان شديد الامتزاج بالعثمانية فمزج عقيدته الوطنية بعقيدته الدينية ويكفى

للتدليل على ذلك أن فريدا أحدث تغيرا فى مبادىء الحزب الوطنى العشرة بعد وفاة مصطفى كامل لدحض الاتهامات التى نسبت للحزب بتغليب ولائه التركى على ولائه المصرى فعدل المبدأ الأول للحزب من « استقلال مصر كما قررته معاهدة لندن ١٨٤٠ وضمنته الفرامانات السلطانية ذلك الاستقلال الضامن عرش مصر لعائلة محمد على والضامن للاستقلال الداخلى للبلاد » ليصبح استقلال مصر مع سودانها استقلالا تاما غير مشوب بأية حماية أو وصاية أو سيادة أجنبية أو أى قيد يقيد هذا الاستقلال .

يضاف الى ذلك أن فريد رفع شعار مصر للمصريين فى أحرج ظروفه خصوصا بعد خروجه من مصر فقد وضع على جاكتته شارة مرسوم عليها أبو الهول ومكتوب عليها مصر للمصريين مما اثار الأتراك وهددوه اما أن ينزع هذه الشارة من على صدره أو أن يغادر الآستانة فآثر فريد مغادرة العاصمة العثمانية على خلع شارته .

حقيقة أن مصطفى كامل كان له هدفه من التقرب الشديد للعثمانيين ، ولكنه أيضا كانت له مواقف فضل فيها المصلحة العثمانية على مصلحة مصر ويكفينا أن نذكر موقفه من مسألة طابة واذا كانت ملكة الخطابة ، والقدرة فى التأثير على الجماهير احدى سمات الزعامة فان مصطفى كامل كان خطيبا بارعا فى الارتجال اذا خطب الناس بعباراته البليغة وبيانه الواضح وحججه المدعمة بالمنطق والأسانيد لذلك كان قادرا على استمالة الجماهير واقناعهم كما كانت كلماته تعبيرا حيا عما يجيش فى صدور أبناء وطنه .

أما فريد فقد كان يفتقر الى هذه الصفة من سمات الزعامة فانه لم يكن خطيبا فى بلاغة مصطفى كامل بل كان غالبا ما يتلو خطبه[١٢٧] .

وتبدو ديمقراطية فريد واضحة فى رفض اختياره رئيسا للحزب مدى الحياة كما حدث مع مصطفى كامل فطالب بتعديل لائحة الحزب التى تقضى بانتخاب الرئيس مدى الحياة ، وان يقتصر انتخابه على فترة محددة ولكن ذلك الموقف من فريد لم يستمر طويلا فبعد انتهاء فترة الثلاث سنوات الأولى لزعامة فريد للحزب الوطنى عقدت الجمعية العمومية

للحزب اجتماعا انتخبت فيه فريدا رئيسا للحزب مدى الحياة ، ولم يعترض فريد على ذلك بعد أن اتضح له ضرورة استمرارية الزعامة فيه باعتبار أن استمراريته فيها هى استمرار لمبادىء الحزب .

أما بالنسبة لعلاقة كل من مصطفى وفريد بالخديو فقد كان هناك اختلاف واضح بين كل منهما فى علاقته به فقد اعتمد مصطفى كامل على الخديو فى امداده بالمصروفات الكبيرة التى يتطلبها العمل الوطنى الذى تصدى له خصوصا وأن نشأته الاجتماعية المتوسطة لم تمكنه من مقابلة هذه المصروفات مما أوجد نوعا من العلاقة الخاصة بين الرجلين(١٢٨) وجعل مصطفى كامل يرتبط بالخديو فى بعض المواقف أحيانا ، ورغم ذلك فان علاقة مصطفى كامل بالخديو لم تستمر على هذا المنوال طويلا خصوصا بعد أن رأى ضرورة استقلال الحركة الوطنية عن الخديو نتيجة للسياسة المتقلبة التى كان يتبعها تجاهها .

أما فريد فانه لم يرتبط بالخديو بأية روابط تقيد من حركته أو تفرض عليه مواقفا معينة ، فبحكم انتمائه لطبقة كبار الملاك استطاع امداد العمل الوطنى بالمال دون أن يلتزم بأى موقف مع الخديو ، لذلك اتخذ طابع الخلاف بينه وبين الخديو أبعادا واسعة نتيجة لرفضه ايجاد علاقة معه شبيهة بالعلاقة التى كانت قائمة بين الخديو ومصطفى كامل .

لقد ورث فريد مبدأ معارضة التعامل مع الخديو من لطيف باشا سليم الذى كان يرى فى الخديو رجلا انانيا يفضل منفعته الشخصية على الصالح العام .

مما سبق يتضح أنه اذا كان الخديو قد أمد مصطفى كامل بالمال فان ذلك لم يحدث مع فريد حتى فى أحرج اللحظات الا فى أواخر حياته ، فمع أن فريد نفى الشائعات التى قيلت بأن الخديو ورئيس الوزراء محمد سعيد قد أرسلا اليه ثلاثمائة جنيه لمساعدته على الخروج من مصر ، واستغرب مثل هذا الأمر بقوله فى رسالة له الى الخديو : « انى اترفع عن قبول أية مساعدة منكم ولو كنت فى أحط دركات الفقر .. وانى لا اقبل منكم أية مساعدة مادامت مهمتى هى الجهاد فى تحرير البلاد من الانجليز ومن كل من يعاونهم على توطيد أقدامهم فى مصر كائنا من كان(١٢٩) .

ومع ذلك فان الظروف التى احاطت بفريد فى أواخر أيامه جعلته يقبل مساعدة الخديو له بالمال ، ويبدو ذلك واضحا فيما كتبه فى مذكراته تحت عنوان « من أين أعيش » أنه أخذ نقودا من الخديو ، ولا عيب فى ذلك « لأنه خديوينا الشرعى ، ولا يعتبر أخذ الفلوس منه خيانة »(١٣٠) .

يضاف الى أوجه الاختلاف السابقة بين مصطفى كامل وفريد أن مصطفى كامل جمع بين زعامة الحزب وادارة جرائده واستطاع أن يديرها بكفاءة أما فريد فقد تفرغ لقيادة الحزب وترك ادارة اللواء للشيخ عبد العزيز جاويش ، كما أن جريدتى الحزب الانجليزية والفرنسية قد أغلقتا .

هذا عن دور مصطفى كامل ومحمد فريد فى زعامة الحزب الوطنى وأوجه الاتفاق والاختلاف بينهما ، والتى يتضح منها أن كلا منهما كان مثالا للتضحية والاخلاص من أجل القضية الوطنية فقد عبر كلاهما عن ارادة الأمة المصرية خير تعبير ، وقام بتوجيه الجماهير المصرية فكريا ونفسيا ، واضاء لهم الطريق الذى مهد لقيام ثورة ١٩١٩ .

مراجع الفصـــل الخـــامس

(١) تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية ص ٢٧ .

(٢) د. المسدى : محاضرات فى تاريخ مصر المعاصر .

(٣) كون هـــذه الجمعية على الروبى فى عام ١٨٧٦ أى بعد هزيمـــة الجيش المصرى فى حرب الحبشة .

للتفاصيل انظر : الياس الايوبى . تاريخ مصر فى عهد الخديو اسماعيل باشا ١٨٦٣ — ١٨٧٩ المجلد الثانى ص ٤٧٠ .

(٤) جمعية سرية ضمت شريف باشا واسماعيل راغب ومحمد سلطان وغيرهم من الشخصيات الرافضة لسياسة رياض باشا .

(5) Ninet : Arabi Pacha. Egypt 1800 — 1883 Paris, 1884 .

(٦) جريدة مصر : العدد ٤٧ فى ٢٤ مايو ١٨٧٩ .

من خطبة جمال الدين الأفغانى فى قاعة زيزينيا بالاسكندرية .

(٧) محافظ الثورة العرابية : محفظة رقم ٨ دوسيه ٥٣ ملف ٢٢٢ وثيقة رقم ١١٩١ الثورة العرابية — قضايا المتهمين .

(٨) على فهمى كامل : رسائل مصرية فرنسية ص ٣٩ .

(٩) اللواء الجديد : العدد الخامس فى ١٩٤٤/١٢/١٠ « حديث لطفى السيد باشا » .

(١٠) محافظ الثورة العرابيـــة . محفظة رقم ٨ ملف ٢١٢ محضر استجواب عرابى .

(١١) اللواء فى ١٠ اكتوبر ١٩٠٧ .

(١٢) مصطفى كامل : (المســـألة الشرقية) القـــاهرة — الطبعـــة الأولى ١٨٩٨ ص ٢٥٩ .

(١٣) عباس العقاد : محمد عبده ص ١٧٨ .

(١٤) أطلق عليه حزب الأحرار فيما بعد .

(١٥) اللواء فى ٢ يولية ١٩٠٠ تحت عنوان « حزب وطنى حر فى مصر »

(١٦) مذكرات محمد فريد ، ملف رقم (١) الجزء الأول — القسم الأول ص ١ .

(١٧) جوليت آدم : انجلترا فى مصر — ترجمة على فهمى كامل ص٢٧٣

(١٨) الرافعى : مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية ص ٢٦٢ .

(١٩) جوليت آدم : المرجع السابق ص ٢٧٣ .

(٢٠) نفسه .

(٢١) الرافعى : المرجع السابق ص ٢٦٧ .

(٢٢) د. يونان لبيب : الحياة الحزبية فى مصر فى عهد الاحتلال البريطانى القاهرة . الأنجلو المصرية ١٩٧٠ ص٥٧ .

(٢٣) مذكرات سعد زغلول — كراس رقم ٦ ص ٢٩١ — ٣٠٠ .

(٢٤) تقرير الحزب الوطنى عن سنة ١٩٠٧ القاهرة — مطبعة اللواء ١٩٠٨ ص ٢١٦ — ٢٢١ .

(٢٥) اللواء فى ٣١ اكتوبر ١٩٠٧ تحت عنوان « الحزب الوطنى والاستقلال » .

(٢٦) ادخل الحزب الوطنى تغييرا على نص هذا البند ليصبح « استقلال مصر مع سودانها استقلالا تاما غير مشوب باية حماية أو وصاية أو سيادة اجنبية او اى قيد يقيد هذا الاستقلال .
د. يونان لبيب : مصطفى كامل وتأسيس الحزب الوطنى ص ١٠٠ .

(٢٧) محمد حسين هيكل : تراجم مصرية وغربية . القاهرة — مطبعة السياسة ص ١٦١ .

(٢٨) الرافعى : المرجع السابق ص ٣٦٠ .

(٢٩) محمد على علوبة : ذكريات سياسية واجتماعية ص ٢٨٨ .

(٣٠) د. يونان لبيب : المرجع السابق .

(٣١) محمد عبد السلام الزيات : الاتجاهات المعاصرة فى التنظيم السياسى القاهرة — الانجلو المصرية ص ١٤٧ .

(٣٢) د. يونان لبيب : الحياة الحزبية فى مصر ص٥٥ .

(٣٣) محمد توحيد : كيف يحدث الوطنى فى مسالة الاحزاب السياسية فى مصر ص ٩٠ .

(٣٤) د. يونان لبيب : المرجع السابق ص ٥٦ .

(35) Alexander, J. The Truth about Egypt P. 229 .

(٣٦) محمد شفيق غربال : المرجع السابق ص ٢٧ .

(37) Landau, J. Parliaments and Parties in Egypt. New York, 1954 p. 135 .

(٣٨) د. يونان لبيب : المرجع السابق ص ٥٩ .

(٣٩) فتحى رضوان : كفاحنا الوطنى فى نصف قرن ص ٦١ .

(٤٠) محمد حسين هيكل : مذكرات فى السياسة المصرية ج ١ ص ٢٧ .

(٤١) للتفاصيل انظر د. يونان لبيب : المرجع السابق ص ٥٣ .

(٤٢) المصرى فى ١٤ مايو ١٩٥١ .

(٤٣) جوليت آدم : المرجع السابق ص ٢٣٠ — ٢٣١ .

(٤٤) مذكرات محمد فريد ، ملف رقم (١) الجزء الأول — القسم الأول ص ٣ .

(٤٥) عبد الرحمن الرافعى : محمد فريد رمز الاخلاص والتضحية . القاهرة — النهضة المصرية . الطبعة الثانية ١٩٤٨ ص ٤٥ .

(٤٦) مذكرات محمد فريد . الجزء الأول — القسم الأول ملف رقم (١) ص ٤ .

(٤٧) الرافعى : المرجع السابق ص ٤٦ .

(٤٨) دار الوثائق : محافظ عابدين . ديوان خديو . التماسات جماعية محفظة رقم ١٢ .

(٤٩) كانت صيغة هذه العرائض ما يلى :

مولاى « اننا بكل اخلاص وثقة باميالكم السامية نلتمس من لدنكم أن تمنحوا رعيتكم المخلصة ما منحه ابوكم الكريم لها عام ١٨٨١ وهو انشاء مجلس نيابى يكون عونا لحكومتكم السنية على نشر العلوم والمعارف ، وأنت يا مولاى الأمير خير من يقدر الدستور قدره لأنك نشأ تنشأة عصرية ضاعفت محبتك لرعيتك التى رقيها من أجل امنيتك » .

دار الوثائق : تقارير الأمن العام — الداخلية تحت عنوان : عرائض وطلبات من الأهالى بشأن انشاء مجلس نيابى عام ١٩٠٨ .

(٥٠) مذكرات محمد فريد . القسم الأول — الجزء الأول ص ٤ .

(٥١) الرافعى : المرجع السابق ص ٥٨ .

(٥٢) نفسه ص ٦٢ .

(٥٣) محمد حسين هيكل : مذكرات فى السياسة المصرية ج ١ ص ٣٢ .

(٥٤) أوراق محمد فريد . مظروف رقم ٢٣ .

(٥٥) دار الوثائق : مذكرات سعد زغلول كراس رقم ٩ .

(٥٦) د. يونان لبيب : الحياة الحزبية فى مصر ص ١٧٦ .

(٥٧) الرافعى : المرجع السابق ص ٦٢ .

(٥٨) تقرير عن المالية والادارة والحالة العمومية فى مصر والسودان ١٩٠٨ مرفوع من جورست الى جراى . المقطم ١٩٠٩ .

(٥٩) اللواء فى ١١ أبريل ١٩٠٨ تحت عنوان « ماذا يقولون » .

(٦٠) مذكرات محمد فريد رقم (١) ص ٥ .

(٦١) مذكرات فريد كراس رقم (١) ص ٥ .

(٦٢) الرافعى : المرجع السابق ص ١٦٥ .

(٦٣) منبر الشرق فى ١٩٥٢/٨/١٥ تحت عنوان الحلقة العاشرة من مذكرات الشيخ الغاياتى .

(٦٤) مذكرات سعد زغلول كراس رقم ١٧ ص ٨٩٧ .

(٦٥) اللواء فى ٣ اكتوبر ١٩٠٩ تحت عنوان « اجتماع اللجنة الادارية للحزب الوطنى » .

(٦٦) دار الوثائق : محافظ عابدين — ديوان خديو . التماسات — تلغرافات محفظة رقم (١) .

(٦٧) مذكرات سعد زغلول . كراس رقم ١٧ ص ٨٩٥ .

(٦٨) مذكرات سعد زغلول . كراس رقم ١٨ ص ٨٢٤ .

(٦٩) المقطم فى ٢٩ اكتوبر ١٩١٠ .

وايضا : Blunt : My Diaries. Vol. II p. 306 .

(70) F.O. 407/174, No. 836, Lowther to Grey, Terapia Oct., 11, 1909.

(٧١) انظر على سبيل المثال :

اللواء فى ٣ مايو ١٩٠٨ تحت عنوان « الثورة على حدود الهند الانجليزية » وايضا عدد ٧ مايو تحت عنوان « الثورة فى الهند الانجليزية » .

(٧٢) صبرى أبو المجد : محمد فريد . ذكريات ومذكرات . القاهرة كتاب الهلال . ص ١١٤ .

(٧٣) د. زكريا سليمان : الحزب الوطنى ودوره فى السياسة المصرية ١٩٠٧ — ١٩٥٣ ص ١١٧ .

(٧٤) أحمد شفيق : المرجع السابق ج ٢ . القسم الثانى ص ٢٦٨ .

(٧٥) العلم فى ٢٧ اكتوبر ١٩١٢ .

(٧٦) على الغاياتى : وطنيتى — القاهرة . مطبعة منبر الشرق — الطبعة الثالثة ص ٢٦ — ٢٧ .

(٧٧) نفسه : ص ٣٣ .

(٧٨) أحمد شفيق : مذكراتى فى نصف قرن . الجزء الثانى ص ٣٢ .

(٧٩) الرافعى : المرجع السابق .

(٨٠) على الغاياتى : المرجع السابق ص ١١ — ١٥ .

(٨١) الرافعى : المرجع السابق ص ٢٣٧ .

(٨٢) مذكرات محمد فريد . الجزء الأول — القسم الأول ص ١٤ .

(٨٣) نفسه .

(٨٤) الرافعى : المرجع السابق ص ٢٧٥ .

(٨٥) مذكرات محمد فريد ج ١ القسم الأول ص ١٧ بينما يذكر الرافعى أن فريد احتجب بغرفة اسماعيل لبيب حتى انتهى مفتش الحجر الصحى من المرور .

(٨٦) الرافعى : المرجع السابق ٢٧٦ .

(٨٧) رفعت السعيد : تاريخ الحركة الاشتراكية فى مصر ص ٣٨٠ .

(٨٨) الجمهورية : العدد ٥٧٧٥ فى ١٩٦٩/١٠/١٦ مقال للدكتور محمد انيس تحت عنوان كفاح فى المنفى .

(٨٩) مذكرات محمد فريد . ملف رقم (١) ص ٢٠ — ٢١ .

(٩٠) أوراق محمد فريد : مظروف رقم ١٣ من احمد وفيق الى محمد فريد فى ١٧ يونية ١٩١٤ .

(٩١) مصطفى النحاس : سياسة الاحتلال تجاه الحركة الوطنية القاهرة — الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٥ ص ١٨٣ .

(٩٢) الأهرام فى ١٥ سبتمبر ١٩٧٢ تحت عنوان « مذكرات مدام روشبرون » .

(٩٣) صبرى ابو المجد : المرجع السابق ص ١٥٠ .

(٩٤) مذكرات محمد فريد . ملف رقم ٢ ص ٦٤ .

(٩٥) عن نص هذا المنشور انظر : الرافعى — محمد فريد ص ٣٤٤ — ٣٤٥ .

(٩٦) روز اليوسف : العدد ١١١٨ فى ١٥ نوفمبر ١٩٤٩ .

(٩٧) مجلة الهلال . مجلد ١٩٣٠ مقال للاستاذ طاهر الطناحى تحت عنوان « مثال البذل والجهاد محمد بك فريد » .

(٩٨) فتحى رضوان : مشهورون منسيون . القاهرة ص ٢٤ .

(٩٩) الرافعى : ثورة ١٩١٩ جـ ١ ص ٦٧ .

(١٠٠) محمد على علوبه . ذكريات اجتماعية وسياسية . مخطوط بدار الوثائق ص ٨٨ .

(١٠١) مذكرات محمد فريد . ملف رقم ١٠ ص٢٦٧ .

(١٠٢) د. عاطف فؤاد : الزعامة السياسية فى مصر — عرض تاريخى وتحليل سسيولوجى . القاهرة — دار المعارف ١٩٨٠ ص١٠٥ .

(١٠٣) محمد على الفتيت : الزعيم . العبقرية والزعامة السياسية . القاهرة ١٩٧٤ ص ٧٩ .

(١٠٤) محمد حسين هيكل : شخصيات مصرية وغربية ص ٥٦ .

(١٠٥) للتفاصيل انظر كتابنا عبد الله النديم ودوره فى الحركة السياسية والاجتماعية . القاهرة — دار الكتاب الجامعى ص ١٩٩ — ٢٠٠ .

(١٠٦) مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة . المجلد العشرين . الجزء الأول مايو ١٩٥٨ مقال للدكتور عبد اللطيف حمزة تحت عنوان « الطور الصحافى من أطوار الحركة الوطنية أو العصر الذهبى لصحافة المقال فى مصر » .

(١٠٧) عبد العزيز حافظ دنيا : رسائل تاريخية من مصطفى كامل الى فؤاد سليم الحجازى . القاهرة — دار النهضة المصرية ١٩٦٩ خطاب رقم ١١ ص ٥٨ .

(١٠٨) الرافعى : محمد فريد رمز الاخلاص والتضحية ص ٤٤١ .

(١٠٩) للتفاصيل انظر : دار الوثائق . تقارير الأمن العام — الداخلية تحت عنوان « عرائض وطلبات من الأهالى بانشاء مجلس نيابى ١٩٠٨ » .

(١١٠) انظر على سبيل المثال اللواء عدد ٣١ يناير ١٩٠١ وأيضا عدد ٢٤ فبراير ١٩٠١ .

(١١١) على فهمى كامل : رسائل مصرية فرنسية . القاهرة ١٩٠٩ ص ١٥٥ — ١٥٦ .

(١١٢) د. محمد حسين هيكل : شخصيات مصرية وغربية ص ٥٦ .

(١١٣) المؤيد فى ٣١ ديسمبر ١٨٩٤ .

(١١٤) على فهمى كامل : مصطفى كامل فى ٣٤ ربيعا الجزء السادس ص ١٢٦ .

(١١٥) أحمد رشاد : مصطفى كامل . حياته وكفاحه ص ٣٢٣ .

(١١٦) مذكرات محمد فريد . ملف رقم (١) خطاب مرسل من مصطفى كامل الى محمد فريد بتاريخ ٢٤ سبتمبر ١٩٠٦ ص ١٣ .

(١١٧) مذكرات محمد فريد . مظروف رقم ٣٠ .

(١١٨) الرافعى : محمد فريد ص ٤٥٤ .

(١١٩) الهلال : مجلد ١٩٣٠ مقال للأستاذ طاهر الطناحى تحت عنوان « مثال البذل والجهاد محمد بك فريد » ص ٣٣١ .

(١٢٠) مذكرات محمد فريد ملف رقم (١) ص ٢١ .

(١٢١) د. محمد حسين هيكل : المرجع السابق ص ٥٥ .

(١٢٢) المؤيد : فى ١٨٩٨/١٠/٨ .

(١٢٣) د. يونان لبيب : الحياة الحزبية فى مصر ص ٨٥ .

(124) Safran, Nadav : Egypt In search of Political community pp. 62 101 .

(١٢٥) أحمد بهاء الدين : أيام لها تاريخ . القاهرة روزاليوسف ص٧٣ .

(١٢٦) عصام ضياء الدين . الحزب الوطنى والنضال السرى . رسالة ماجستير غير منشورة ص ١٠٩ .

(١٢٧) محمد علـى علوبـة : ذكريات سياسية واجتماعية . مخطوط ص ٢٨٩ .

(١٢٨) د. يونان لبيب : الحياة الحزبية فى مصر ص ٨٤ .

(١٢٩) مذكرات محمد فريد . الجزء الأول — القسم الأول ص ٢ .

(١٣٠) نفسه : ملف رقم ٧ ص ١٩٦ .

الفصل السادس

مصر من ثورة ١٩١٩ الى معاهدة ١٩٣٦

أولا : مقدمات الثورة واسبابها :

ثانيا : أحداث الثورة وتطوراتها .

ثالثا : نتائج الثورة .

رابعا : تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ .

خامسا : المفاوضات المصرية البريطانية فى اعقاب تصريح فبراير .

سادسا : حكومة صدقى ١٩٣٠ .

سابعا : معاهدة ١٩٣٦ .

أولا ـــ مقدمات الثورة واسبابها :

(أ) مقدمات الثورة :

نتيجة لانضمام الدولة العثمانية الى ألمانيا والنمسا فى الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ ـــ ١٩١٨ عملت بريطانيا على ضمان سيطرتها على مصر ، واتخذت من الاجراءات العسكرية والسياسية ما يحقق أهدافها الحربية ويجعل من مصر قاعدة لها فى الشرق الأوسط ، ولكى يتحقق لها كل ذلك همت بضم مصر الى الممتلكات البريطانية ثم اضطرت الى العدول عن هذا القرار وأعلنت حمايتها على مصر ١٩١٤م [١] وقطعت آخر العلاقات التى تربطها بالدولة العثمانية وحلت الجمعية التشريعية واخضعت البلاد لحكم يمارسه المندوب السامى البريطانى والمستشارون الانجليز [٢].

وخلال سنوات الحرب عانت مصر الكثير من المتاعب والحرمان خصوصا وأن الانجليز كانوا قد أعلنوا الأحكام العرفية ، وتشددوا فى تطبيقها ، وتحكموا فى موارد مصر الاقتصادية ، وجندوا العديد من المصريين للخدمة فى الحرب ، كل ذلك أدى الى اشتداد مرحلة الغليان بين أبناء الشعب المصرى ، وازدياد القلق بينهم .

وعندما أعلن الرئيس الأمريكى ويلسون مبادئه الأربعة عشر التى كان مفروضا أن تتخذ أساسا لمفاوضات الصلح وعقد معاهدة السلام وجد المصريون شعاعا من الأمل وخيطا يتمسكون به ، ولذلك بدأوا يتحركون للمطالبة بحقوقهم وتصدر الزعماء البارزون فى ذلك الوقت ومنهم سعد زغلول فكرة تأليف وفد لايضاح قضيتهم أمام زعماء العالم فى مؤتمر الصلح بفرساى، وخلاصة القول أن مصر قبيل ثورة ١٩١٩ كانت مكبلة بالعديد من القيود ، كما كانت تعانى الكثير من المشاكل التى فجرت بعد ذلك ثورة ١٩١٩ م .

(ب) أسباب الثورة :

تعددت الأسباب التى ادت بالمصريين الى القيام بثورة ١٩١٩ م والتى

كان منها أسباب غير مباشرة ، وأسباب مباشرة ، وفيما يلى نعرض لهذه الأسباب .

الأسباب غير المباشرة :

١ — الأسباب الاقتصادية :

تدهورت أحوال مصر الاقتصادية نتيجة لانخفاض أسعار القطن بعد اعلان الحرب العالمية الأولى وما صاحبه من ارتفاع فى الأسعار نتيجة لتدهور العملة ، وتوقف البنوك عن عملية التسليف ومطالبتها بالأقساط المقررة على الفلاحين مما دفعهم الى بيع حليهم من الذهب لتسديد ما عليهم للحكومة .

وكان لارتفاع الأسعار أثر كبير وخاصة على الفقراء الذين لم يستطيعوا ان يؤمنوا حاجاتهم من حبوب وأقمشة وغيرها ، وفى نفس الوقت كانوا يرون أن السلطات العسكرية البريطانية تصادر أرزاقهم ودوابهم وغيرها كما كانوا يرون الأجانب وهم يبتزون ثروات المصريين وأرزاقهم .

٢ — الأسباب الاجتماعية :

ساعدت ظروف الحرب العالمية الأولى على نمو المجتمع المصرى ، وتطلعه الى مراقى التقدم خاصة بعد انتشار التعليم وما صحبه من نهضة أدبية وعلمية مما جعل الشعب المصرى يحس بشخصيته المتميزة ويشعر بضرورة اعتراف الانجليز بحقوقه المشروعة .

٣ — الأسباب السياسية :

منذ أن احتلت بريطانيا مصر فى عام ١٨٨٢ وهى تعانى من هذا الاحتلال فى نواح شتى من أهمها الضغط والكبت السياسى ، واجبار العناصر الوطنية على مغادرة البلاد وتعيين مستشارين انجليز فى العديد من المصالح الحكومية وزيادة عدد الموظفين الأوربيين فى كل الادارات وتعطيل الجمعية التشريعية ، وشل دور الحكومة وحرمان مصر من الاتصال المباشر بدول العالم ومحاولات الانجليز فصل السودان عن مصر وتحمل الشعب متاعب السلطات العسكرية البريطانية فى ظل أحكام عرفية شديدة الصرامة .

ونتيجة لضغوط الحركة الوطنية المصرية بدأ الانجليز فى اعطاء الوعود البراقة للمصريين ، ولما اشتعلت نيران الحرب العالمية الأولى أعلنت بريطانيا حمايتها على مصر ، وبدأت فى الضغط على مقدرات المصريين ، الذين تطلعوا الى الاستقلال وراقهم تصريحات الرئيس الأمريكى «ولسن» التى أعلنها فى عام ١٩١٧ وذكر منها حق الشعوب فى تقرير مصيرها بنفسها ولا فرق فى ذلك بين شعب قوى وآخر ضعيف [٣] .

الأسباب المباشرة :

يرجع السبب المباشر فى قيام ثورة ١٩١٩ الى اعتقال الوفد المصرى الذى تم تأليفه للدفاع عن حقوق مصر فى مؤتمر الصلح بباريس حيث تقدم سعد زغلول وعبد العزيز فهمى ، وعلى شعراوى الى دار الحماية البريطانية وطلبوا من السير « ريجنالد ونجت » السماح لهم بالسفر الى المؤتمر الا أن السلطات الانجليزية رفضت السماح للوفد المصرى بالسفر ، ومنعت اعطاءهم جوازات للسفر بموجب الأحكام العرفية [٤] . مما أغضب سعد زغلول وجعله يحتج لدى دار الحماية ولدى رئيس الوزراء البريطانى جورج لويد ولما أصر رجال الوفد على ضرورة سفرهم القت السلطات البريطانية فى التاسع من مارس ١٩١٩ القبض على كل من سعد زغلول ، ومحمد محمود ، وحمد الباسل ونقلتهم الى بور سعيد ومنها تم نفيهم الى مالطة مما فجر قيام الثورة .

والسؤال المطروح هو لماذا رفضت بريطانيا السماح للوفد بالسفر الى المؤتمر ؟

الواقع أن بريطانيا كانت ترى أن كبرياءها لا يسمح لها بأن يقوم الشعب المصرى بعرض قضيته ضدها أمام الدول الكبرى ، يضاف الى ذلك أن المؤتمر اذا وافق على اشتراك مصر فى جلساته فعليه أن يسمح لغيرها من الشعوب وهذا ما ترفضه الدول الاستعمارية [٥] .

ثانيا : أحداث الثورة وتطوراتها :

جاءت هذه الثورة نتيجة للشحنة الكبيرة الكامنة فى نفوس المصريين

ضد الاحتلال ، وقد جاء اعتقال الوفد المصرى من قبل السلطات البريطانية ليكون الشرارة التى اشعلت فتيل هذه الثورة .

فما أن علم الشعب المصرى باعتقال أعضاء الوفد ونفيهم الى مالطة ، حتى هب أفراده فى مسيرات ثورية ضد الاحتلال حيث بدأت المظاهرات فى القاهرة يوم ٩ من مارس أى فى اليوم التالى لاعتقال سعد (٦) . وقد اوقد طلاب المدارس شرارة الثورة حيث أضربوا عن الدرس ، وخرجوا من مدارسهم فى مظاهرات سلمية تتقدمهم اعلامهم وهم يهتفون بحياة مصر (٧) والوفد المصرى وسعد زغلول وسقوط الحماية الانجليزية .

وقد بدأ الاضراب بمدرسة الحقوق ثم انتقل الى مدارس الزراعة ، والطب ، والتجارة ، وعند تحرك الطلاب فى ميدان السيدة زينب ، قبض الجنود الانجليز على حوالى ثلاثة مائة طالب ، وساقوهم الى القلعة ، ولما وصل الى الازهريين أخبار الثورة اضربوا عن الدراسة وساروا فى مظاهرات هادئة لم يستخدم فيها العنف وفى يوم ١٠ مارس تطورت أحداث العنف بين الطلاب والانجليز ، وتطورت الأمور الى قيام الجنود الانجليز باطلاق النار على الطلاب (٨) .

واستمرت الثورة فى اشتعالها وانتقل صداها الى بعض المدن الكبرى مثل الاسكندرية وطنطا واسيوط والبحيرة ، ولم يمض خمسة أشهر على قيامها الا وسقط حوالى الف قتيل .

وازدادت الأمور تدهورا بمشاركة العمال فى الثورة فقام عمال الترام والسكك الحديدية الذين يزيد عددهم على أربعة آلاف عامل بتعطيل قضبان السكك الحديدية واعمدة البريد والهاتف ، مما ادى الى تعطيل حركة المواصلات والاتصالات ، وانعزال مدينة القاهرة عن باقى المدن المصرية .

يضاف الى ذلك قيام المحامين بمشاركة أبناء وطنهم فى القتال فاعلنوا الاضراب عن مزاولة اعمالهم احتجاجا على المذابح التى قام بها الانجليز لقمع الثورة كما اغلقت المتاجر فى القاهرة (٩) .

ولم تقتصر ثورة ١٩١٩ على جهود الرجال بل شارك فيها النساء

أيضا فتظاهرن فى مسيرات — وهى يحملن اعلاما حمراء ولافتات كتب عليها « أيها الانجليز اخرجوا من بلادنا » « سعد زغلول هو زعيمنا » « أعيدوا سعد باشا الينا » « الاستقلال التام أو الموت الزؤام » « تسقط الحماية البريطانية » « نموت ويحيا سعد » وكانت هذه أول مرة تخرج فيها المــراة فى الشرق الى الشارع فى مظاهرة مما اذهل العالم وجعل وكالات الأنباء الاجنبية والصحافة تتحدث فى صدر نشراتها وصفحاتها عن هذه المظاهرة .

وكانت صفية زغلول زوجة سعد هى أول من أقترح ان تخرج نساء مصر الى الشارع محتجات على نفى الانجليز لزعيم الثورة ومضت المظاهرة النسائية فى شوارع القاهرة ، تلوح باعلام صغيرة وتهتف لسعد وتلعــن الاحتلال الى أن وصلت الى ميدان قصر الدوبارة فى طريقها الى دار الحماية البريطانية فى جاردن سيتى .

وقد احاط الجنود المدججون بالسلاح مظاهرة النساء المصريات ثــم صوبوا اليهن البنادق ولم تتراجع النساء بل مضين فى طريقهن حتى اقتربت حراب البنادق من صدور النساء وتقدمت الصفوف احدى السيدات وقــد كشفت صدرها وصاحت بالانجليزية فى وجه احد جنود الاحتلال اطــلق بندقيتك ايها الجندى ، هنا على هذا الصــدر ، لتجعلــوا فى مصر مس كافل[١٠] ثانيـــة .

وحاصر الانجليز النساء المصريات ، وطلبوا منهن التفرق والعودة الى بيوتهن ، ومنعهن من الوصول الى بيت سعد زغلول ، وتحدت النســـاء المصريات هذه الأوامر ، ومضت ساعة كاملة فى يوم شديد الحرارة والنساء صامدات ، واخيرا توسط السفير الأمريكى فى الأمــر ، وانصرف الجنــود الانجليز ، وسارت مظاهرة النساء الى بيت صفية زغلول[١١] .

واعقب ذلك مرحلة من عدم التعاون مع الانجليز ومقاطعة بضائعهم ، ورفض المصريون الاشتراك فى أية حكومة كى يحملوا الانجليز كامل المسئولية عن الاحداث .

وقد ادت هذه الأحداث الى انزعاج السلطات الانجليزية مما جعلهــا

تشكل محاكم عسكرية للمتظاهرين الذين القى القبض عليهم وكان يحكم عليهم بالحبس أو الجلد أو الغرامة ، ولكن ذلك لم يزد الثورة الا اشتعالا وازاء ، اصرار الشعب المصرى على الثورة حتى يتم الافراج عن أفراد الوفد المعتقلين اضطـرت السلطات البريطانية الى الافراج عن سـعد وصحبه وسمحت لهم بالسفر الى باريس لعرض مطالب بلادهم .

وقد سافر الوفد الى باريس ولكن بعد فـوات الأوان حيث تمكنت بريطانيا من انتزاع اعتراف الدول الكبرى بحمايتها على مصر .

ونتيجة لذلك قرر الوفد الاعتماد على النفس والاستمرار فى حـركة الكفاح الوطنى .

ولمـا هال بريطانيا استمرار الثورة وامتدادها الى جميـع انحـاء البلاد ، فكرت فى ايفاد لجنة للتحقيق فى أسباب غضب المصريين ، ومحاولة التوفيق بين أمانى الأمة المصرية ومصالح بريطانيا وحقوق الاجانب [١٢] .

وعلى هذا الاساس شكلت لجنة برئاسة « اللورد ملنـر » وزيـر المستعمرات البريطانى فى ذلك الوقت .

وقد اتصف موقف الشعب المصرى من هذه اللجنة بالسلبية وعـدم الرضا فقاطعها المصريون ، وأعلنوا انهم لا يرضون بغير الاستقلال بديلا مما اضطر اللجنة الى العودة الى بريطانيا فى مارس ١٩٢٠ [١٣] ودعوة الوفد المصرى بعد ذلك للحضور الى لندن للتفاهم معها بشأن مستقبل القضية المصرية وهناك قدم « ملنر » مشروعه الذى اشتمل على ضمان بريطانى باستقلال مصر بشرط عدم عقد معاهدة مع أى دولة أخرى دون موافقـة بريطانيا ، وعلى اعطاء بريطانيا حق ابقاء قوات عسـكرية فى الأراضى المصرية ، وحق استعمال الموانىء والمطارات ، والزام مصر بتعيين مستشار مالى تكون له جميع الاختصاصات المالية ، هذا الى جانب حق بريطانيـا فى التدخل فى شئون الأجانب .

أما مشروع الوفد فقـد كان ينص على انهـاء الحماية والاحتـلال البريطانى ، واسترداد مصر لكامل سيادتها الداخلية والخارجية كدولة لها

نظام دستورى وان تسحب بريطانيا قواتها من مصر بعد مدة يتفق عليهـا الطـرفان .

وللتوفيق بين المشروعين تقدمت لجنة ملنر مشروعا آخـر ، ولكنـه كان لا يختلف عن مشروعها الأول كثيرا حيث احتفظ باحتلال بريطانيـا لمصر، ووضع المصالح البريطانية فى المقام الأول دون النظـر الى مطالب مصر (١٤) ونتيجة لذلك رفضه الجانب المصرى مما دفع ملنر الى قطع المفاوضـات ودفع الوفد المصرى الى مغادرة لندن الى باريس ، وعلى أثر قطع المفاوضات قدم ملنر الى حكومته تقريرا اقترح فيه عقد معاهدة بين مصر وبريطـانيا تتفق مع مصالح الطرفين ، كما أوصى بضرورة أن تحصل بريطانيـا على ضمانات بتواجد قوات عسكرية لها فى مصر .

ونتيجة لاستمرار الاضطرابات فى مصر أعلنت انجلترا عن رغبتها فى استئناف المفاوضات مع الحكومة المصرية برئاسة « عدلى يكن » الذى كان قد الف وزارته فى ١٧ مارس ١٩٢١ والتى سميت بوزارة الثقة فألف عدلى وفدا حكوميا برئاسته وعضوية رشدى باشا واسماعيل صدقى (١٥) وسافر الى لندن لمفاوضة اللورد كيرزون ، وقد استمرت المفاوضات طيلة الصيف واتضح منها أن بريطانيا لم تكن جادة فى الغاء حمايتها لاصرارها على مرابطة قوة عسكرية بريطانية فى مصر ، ونتيجة لذلك عـاد الـوفد الـى ارض الوطن (١٦) وقدم عدلى استقالته من الوزارة .

ونظرا لتصاعد الحركة الوطنية ، وتزايد الكراهية ضد الانجليز ، ألقت السلطات البريطانية القبض على سعد زغلول وخمسة من أعضاء الوفد وهم « فتح الله بركات » ، و « عاطف بركات » ، و « مصطفى النحاس » و « مكرم عبيد » ، و « سينوت حنا » ، وقامت بنفيهم الى عدن ثم الـى جزيرة سيشل ثم نقل سعد الى جبل طارق .

ونتيجة لذلك ازداد هياج الشعب المصرى ، واستمرت الاضطرابات وقاطع المصريون البضائع الانجليزية وتردد رجال السلطان فى قبول منصب الوزارة فى ظل الحماية البريطانية ، واصر المصريون على الغاء الحمـاية وعودة المنفيين وازاء هذا الموقف اضطرت الحكومة البريطانية الى تهدئة الموقف والتفاوض مع المصريين مما نتج عنه تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ .

ثالثا : نتائج ثورة ١٩١٩ :

اسهب المؤرخون فى الحديث عن نتائج ثورة ١٩١٩ فمنهم من قال بنجاحها خاصة وانها ايقظت مصر فنهضت تبحث عن شخصها وتعيد روحها وحضارتها بنفسها [(١٧)] دون اعتماد على حكامها ومنهم من قال بغير ذلك والحقيقة أن هذه الثورة لها نتائج ايجابية كما أن لها نتائج سلبية وفيما على نعرض لكافة هذه النتائج .

١ ــ فى الناحية السياسية :

فى الحقيقة ان ثورة ١٩١٩ لم تستطع انهاء النفوذ الانجليزى فى مصر، ومع ذلك فانها وضعت حدا لسلطاته المطلقة التى كان يفرضها على المجتمع المصرى ، كما أن هذه الثورة قد حققت احد أهدافها الهامة الا وهو تقرير النظام الدستورى الذى كانت تصبو اليه قلوب المصريين ونفوسهم منذ أواخر عهد اسماعيل حيث امتزج مطلب الاستقلال الوطنى بمطلب البناء الديمقراطى . يضاف الى ذلك أن ثورة ١٩١٩ استطاعت ان تحمل بريطانيا على الاعتراف بتصريح فبراير ١٩٢١ الذى يرى أن الحماية البريطانية اصبحت علاقة غير مرضية واعترف بمصر دولة ملكية مستقلة ذات سيادة ، وذلك يعتبر فى حد ذاته مكسبا دوليا لمصر خصوصا وان بريطانيا قد ابلغت دول العالم بالغاء حمايتها على مصر [(١٨)] ، يضاف الى ذلك أن هذه الثورة نجحت فى بسط سلطان الحكومة المصرية على الأجانب فى التشريع والادارة والأمن .

٢ ــ فى الناحية الاقتصادية :

نجحت ثورة ١٩١٩ فى زعزعة الخرافة القائلة بأن الاقتصاد الزراعى هو النوع الوحيد الذى يلائم مصر [(١٩)] كما وضعت حدا للحكم المطلق الذى كان يمارسه كبار الملاك تحت اشراف السلطات الاستعمارية ، والتى كانت قد اهملت النواحى الاقتصادية اهمالا واضحا ، فقد رافق الكفاح السياسى للثورة رغبة ملحة فى اقامة نظام اقتصادى لا يرتبط كل الارتباط بالمصالح الاجنبية ، وقد مهد الطريق لذلك دعوة طلعت حرب الى تاسيس بنك مصر فى عام ١٩٢٠ [(٢٠)] والذى كان النواة لنهضة اقتصادية ومالية فى مصر

بعد الحرب العالمية الأولى ، فقد كان أول بنك اسسه واداره مصريون ، وكان رأس ماله مصريا خالصا وقد استقبل البنك بحماسة بالغة ، وسرعان ما كسب ثقة الطبقة الوسطى وتعضيدها .

ومنذ أن انشىء هذا البنك عنى بالمشاركة الجدية فى التجارة والصناعة، فانشأ شركات للمواصلات والتأمين والتجارة وعددا من المؤسسات الصناعية واهمها مصانع الغزل والنسيج (٢١) .

٣ — فى الناحية الاجتماعية :

اغفل رجالات الثورة حركة التغيير الاجتماعى ، خصوصا وانهم كانوا من طبقة كبار الملاك (الارستقراطية الزراعية) التى كان من الممكن ان تؤثر نتائج الثورة على مصالحهم ومن هنا وتفوا ضد تحويل الثورة من ثـورة سياسية الى ثورة اجتماعية ومع ذلك فقد نشطت الحركة العمالية خـلال الثورة ، حيث طالب العمال بترقية شئونهم وتحسين أحوالهم مما اضطر الحكومة الى تأليف لجنة للتوفيق بين العمال واصحاب العمل كما استجابت المراة المصرية للشعور الوطنى فنزلت الى ميدان النضال السياسى لأول مرة فى تاريخها .

٤ — فى الناحية المعنوية :

كان لثورة ١٩١٩ أثر كبير من الناحية المعنوية حيث سادت بين الشباب روح التضحية والفداء والتمسك بالقيم الاجتماعية بين ابناء الشعب (٢٢) فى حين دب فى نفوس الانجليز روح التململ ، وادركوا أن الشعب المصرى أصبح لا يقبل الذل ، وانه ثورته ما هى الا عملية جراحية لجأ اليهـا بعد أن سدت فى وجهه كل السبل المتاحة واستطاع تحطيم المعوقات وشـق طريقه الى الحياة السليمة ومما سبق يتضح مدى ما جناه الشعب المصرى من ثورة ١٩١٩ فى النواحى السياسية والحضارية والاقتصادية .

رابعا : تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ :

(أ) فكرة اصدار التصريح :

عـرض عـدلى باشـا فى مفاوضاته مـع اللورد كيرزون فـكرة التصريح وخلاصتها هى أنه طالما أن بريطانيا قد أعلنت أن علاقتها مع مصر

عن طريق الحماية أصبحت علاقة غير مرضية ، وانها مستعدة للتسليم ببعض مطالب مصر فلماذا لا يقوم الانجليز بالتسليم بهذه المطالب حتى يهدأ المصريون وتتوقف ثورتهم (٢٣) .

وبعد عدة مشاورات أصدرت بريطانيا هذا التصريح وقد جاء فيه : « بما أن حكومة جلالة الملك ، وعملا بنواياهــا التى جاهــدت بهــا ، ترغب فى الحال فى الاعتراف بمصر دولة مستقلة ذات سيادة ، وبما أن للعلاقات بين حكومة جلالة الملك ، ومصر اهمية جوهرية للامبراطورية فبموجب هذا تعلن المبادىء الآتية .

١ — انتهاء الحماية البريطانية على مصر وتصبح مصر دولة مستقلة ذات سيادة .

٢ — حالما تصدر حكومة عظمة السلطان قانون تضمينات (اقـرار الاجراءات التى اتخذت باسم السلطة العسكرية) نافذ الفعل على جميع ساكنى مصر تلغى الاحكام العرفية التى اعلنت فى الثانى من نوفمبر ١٩١٤

٣ — الى ان يحين الوقت الذى يتسنى فيه ابرام اتفاقات بين حكومة جلالة الملك وبين الحكومة المصرية فيما يتعلق بالأمور الآتى بيانهــا وذلك بمفاوضات ودية غير مقيدة بين الفريقين ، تحتفظ حكومة جلالة الملك بصورة مطلقة بتولى هذه الأمور وهى :

١ — تأمين مواصلات الامبراطورية البريطانية فى مصر .

٢ — الدفاع عن مصر ضد كل اعتداء أو تدخل أجنبى بالــذات أو بالواســطة .

٣ — حماية المصالح الأجنبية وحماية الأقليات .

٤ — الســـودان .

وحتى تبرم هذه الاتفاقات تبقى الحالة على ماهى عليه (٢٤) .

وعند تحليلنا لهذه البنود الأربعة ، نجد أن مصر تحولت من الحماية البريطانية العلنية عليها الى الحماية المقنعة فالتحفظ الأول يجعل لبريطانيا حق التواجد العسكرى فى مصر بصفة مستمرة بحجة تأمين المواصلات البريطانية والتحفظ الثانى يجعل لبريطانيا اليد الطولى على مصر عسكريا بحجة الدفاع عنها .

والتحفظ الثالث يعطى لبريطانيا فرصة التدخل المستمر فى شؤون مصر الداخلية بحجة حماية المصالح الأجنبية والاقليات أما التحفظ الرابع فمعناه فصل السودان عن مصر وسيطرة بريطانيا على مقاليد الأمور فيه مما أدى الى ردود فعل لدى بعض الضباط السودانيين تمثلت فى قيام الملازم أول على عبد اللطيف باعلان حركة المقاومة ضد بريطانيا [(٢٥)] كما أدى أيضا الى ردود فعل لدى المصريين تمثلت فى مطالبتهم باستقلال مصر والسودان استقلالا غير مقيد بحماية أو وصاية .

(ب) اسباب صدور التصريح :

١ ــ كان لرد الفعل القوى عند الشعب المصرى اثر اعتقال سعد زغلول وصحبه ، اكبر الأثر فى مراجعة بريطانيا لسياستها تجاه مصر ، فرأت أن العقل والمنطق يفرضان عليها تهدئة الموقف والعمل على ايقاف الثورة والحد من المظاهرات العارمة ضدها ، وذلك لحماية مصالحها ومصالح الأجانب فى مصر [(٢٦)] .

٢ ــ بعد ان قدم عدلى باشا استقالته اثر عودته من بريطانيا بعد مفاوضاته مع « اللورد كيرزون » رفض المستوزرون قبول تأليف اى وزارة جديدة تضامنا مع الشعب المصرى ، واحتجاجا على اعتقال سعد وصحبه مما احرج مركز السلطات البريطانية فى مصر [(٢٧)] واضطر الجنرال اللنبى المندوب السامى البريطانى فى مصر الى ان يصدر قرارا فى ٢٨ ديسمبر يخول وكلاء الوزارات الانجليز سلطة الوزراء ، حتى يتم تأليف الوزارة .

٣ ــ فشل سياسة البطش والارهاب التى انتهجتها بريطانيا فى مصر ، وتصميم الشعب المصرى على استقلال بلاده [(٢٨)] مما دفع الساسة الانجليز الى الشعور بعدم جدوى القوة أمام شعب يضحى بدمائه ولا يهاب الموت

٤ — ربط تصريح فبراير بالمحافظة على مصالح بريطانيا فى مصر جعل الانجليز لا يشعرون بأى ضرر على مصالحهم اذا اعلنوا هذا التصريح [٢٩] .

(ج) صدى صدور التصريح :

تنبه أفراد الشعب المصرى لما ترمى اليه بريطانيا من وراء هذا التصريح الذى لم ينه الحماية ، نتيجة للتحفظات الأربعة التى تضمنته وقد عبر عن ذلك الأستاذ عباس العقاد بقوله انه التصريح المنسوب الى هذا التاريخ (فبراير) لأن أحدا لم يستطع أن يسميه تصريح الغاء الحماية أو تصريح الاستقلال أو ما الى ذلك من الصفات ، لا فرق فى ذلك بين انصاره المرحبين به ، وخصومه المعترضين عليه [٣٠] .

وعلى الرغم من المعارضة الشديدة التى لاحقت هذا التصريح فان الحكومة المصرية اخذت فى تنفيذه .

(د) نتائج اصدار التصريح :

فى الحقيقة ان اصدار هذا التصريح على الرغم مما فيه من قيود كان خطوة فى سبيل استقلال مصر ، خصوصا وان المصريين لم يستطيعوا قبل ذلك استخلاص أى اعتراف من بريطانيا بانهاء الحماية ، كما انه اتاح لهم فرصة الحصول على قدر اكبر من ادارة حكم بلادهم بأنفسهم وتولى العديد من أمورهم فبعد اعلان التصريح قام « عبد الخالق ثروت » بتأليف وزارة جديدة [٣١] شملت بين اجنحتها وزارة للخارجية التى كانت قد الغيت فى ظل الحماية ، وتولى ادارة شؤونها رئيس الوزراء بنفسه [٣٢] وبذلك تحقق لمصر ادارة شؤون كيانها الخارجى وتمثيلها السياسى والقنصلى ومن نتائج التصريح كذلك تحول مصر من سلطنة الى ملكية واعلان السلطان فؤاد ملكا على مصر فى الخامس عشر من مارس ١٩٢٢ [٣٣] والاعتراف بمصر كدولة مستقلة .

يضاف الى ذلك أن من أهم النتائج التى تمخضت عن تصريح فبراير ، كان اعلان الدستور ، فقام رئيس الوزراء بتأليف لجنة فى الثالث عشر من

ابريل ١٩٢٢ لوضع مسودة الدستور ، ولما اتمت هذه اللجنة مهمتها تدمت مشروع الدستور الى ثروت باشا فى الثانى والعشرين من اكتوبر ١٩٢٢ ، ولكن الملك فؤاد اعترض على بعض بنوده فى محاولة لممارسة سلطته على حساب سيادة الشعب (٣٤) ، كما حاول الانجليز تعديل بعض نصوصه مما أدى فى النهاية الى استقالة وزارة ثروت ، وتولية محمد توفيق نسيم رئاسة الوزارة وقد حاولت هذه الوزارة ارضاء رغبات الملك فى تعديل الدستور بحيث يخوله تعيين الشيوخ والحكـام واعطـاء النياشين واصدار المراسيم التى يكون لها قوة القانون وأن تكون للملك السلطة المطلقة على المعاهـد التعليمية والدينية والأوقاف وغيرها ، ولكنها استقالت قبل أن تكمل مهمتها وتولت وزارة « يحيى باشا ابراهيم » مهمة مسخ الدستور ، وانتهى الأمر فى ١٩ من ابريل ١٩٢٣ بصدور الأمر الملكى باعلان الدستور الذى نص على أن مصر دولة مستقلة ذات سيادة ، واقر نظامها الملكى الوراثى كما جعل الدستور الأمة هى المصدر الأساسى لجميع السلطات ، كما اقر الدستور مبدأ المساواة فى الحقوق والواجبات بين المصريين أمام القانون ، وأعطاهم الحرية المطلقة فى الاعتقاد ، وحرية ابداء الرأى أمام الجميع (٣٥) وتنـاول الدستور البرلمان الذى أصبح يتكون من مجلسين أحدهما للشيوخ والآخـر للنواب ومدة العضوية فيهما .

ونتيجة لذلك استبشر الناس بهذا الدستور خيرا واعتبروه فاتحـة خير على مصر والمصريين ، وكان أول عمل أجرى بعد صدور الدستور هو اجراء الانتخابات العامة التى فاز فيها الوفد بأغلبية ساحقة .

خامسا : المفاوضات المصرية البريطانية فى اعقاب تصريح فبراير ١٩٢٢ :

نتيجة لضغط الحركة الوطنية واصرار المصريين على الافراج عن سعد رأت بريطانيا انه ليس من الحكمة ابقاء سعد زغلول وصحبه فى المنفى فأصدرت قرارها بالافراج عنه فى ٢٧ مارس ١٩٢٣ بحجة سـوء احواله الصحية (٣٦) ونتيجة لذلك غادر سعد منفاه الى أوربا ثم عاد الى مصر فى سبتمبر ١٩٢٣ حيث دخل معركة الانتخابات التى اسفرت عن فوز حزب الوفد بأغلبية ساحقة ، وبعدها قام سعد زغلول بتـأليف الوزارة فى ٢٨ يناير ١٩٢٤ واعلن عن استعداد حكومته للدخول فى مفاوضات مع الحكومة البريطانية .

مفاوضات سعد مع ماكدونالد :

وعلى اثر ذلك بدأت مفاوضات سعد زغلول رئيس الوزراء المصرى مع ماكدونالد رئيس وزراء بريطانيا [٣٧] حيث سافر سعد الى لندن على راس وفد مكون من مصطفى النحاس باشا وزير المواصلات ، ومحمود فخرى باشا وزير مصر المفوض فى باريس وبعض النواب وعلى الرغم من ارتياح سعد زغلول لتفاوضه مع مكدونالد وسعادته لفوز حزب العمال فى بريطانيا فقد كان هناك تباعد كبير بين أهدافهما ففى حين كان سعد ينشد تحقيق الاستقلال لمصر ، كان مكدونالد يسعى لتثبيت اقدام بريطانيا فى مصر .

وعلى كل حال فقد اجريت المفاوضات بين الجانبين لمدة ثلاثة ايام قدم سعد زغلول خلالها مطالب مصر الأساسية وهى :

١ — أن تقوم بريطانيا بسحب جميع قواتها من الأراضى المصرية ، كما تقوم بسحب المستشارين المالى والقضائى اللذان كانا موضع تذمر المصريين

٢ — زوال اى سيطرة انجليزية على علاقات مصر الخارجية بالدول الأخرى .

٣ — تخلى بريطانيا عن دعواها فى أحقيتها لحماية الأجانب والأقليات فى مصر ، ودعواها فى الاشتراك لحماية قناة السويس .

٤ — ضرورة اعتراف بريطانيا بحق مصر فى السودان وبانه جزء متمم لمصر [٣٨] .

ونتيجة لتمسك سعد بمطالبه فشلت المفاوضات بين الجانبين وعاد سعد الى مصر فى اكتوبر ١٩٢٤ وخلال ذلك استغلت بريطانيا حادث اغتيال السير « لى ستاك » سردار الجيش المصرى وحاكم السودان فى نوفمبر ١٩٢٤ فى زعزعة الأوضاع فى مصر والانتقاص من حقوقها واجبار وزارة سعد على التخلى عن الحكم ، فحملت بريطانيا وزارة سعد مسئولية الحادث، وطالبتها بدفع تعويض يبلغ نصف مليون جنيه تعطى لامراة السردار على سبيل التعويض [٣٩] وسحب القوات المصرية من السودان ، ومع أن حكومة

سعد اعتذرت عن الحادث واعربت عن استعدادها لدفع التعويض المطلوب، فقد عمل الانجليز على اسقاط حكومة سعد فسارت القوات البريطانية فى شوارع القاهرة واحتل الجنود الانجليز مبانى الجمارك ، مما اضطر الحكومة الى الاستقالة فى نوفمبر ١٩٢٤ وادى الى تعطيل مجلس النواب .

مفاوضات ثروت ــ تشمبرلين :

بعد استقالة وزارة سعد زغلول تألفت وزارة برئاسة زيور باشا وتم حل البرلمان وفى عهد هذه الوزارة استقال اللورد اللنبى وحل محله "اللورد جورج لويد" وكان موقف هذه الوزارة المتخاذل امام بريطانيا سببا فى اسقاطها فى السابع من يونيو من عام ١٩٢٦ [٤٠] ، فشكلت وزارة برئاسة عدلى باشا يكن كان اعضاؤها من حزبى الوفد والأحرار الدستوريين ، ولم تكن هذه الوزارة أحسن حالا من سابقتها فقدم عدلى استقالته فى التاسع من ابريل عام ١٩٢٧ وعهد الى ثروت باشا بتأليف وزارة جديدة . وفى عهد وزارة ثروت استؤنفت المفاوضات مع الحكومة البريطانية ، ولم يكن الجانب المصرى فى هذه المرة كسابقتها من حيث الاصرار على استخلاص حقوق مصر من بريطانيا بل كان على النقيض تماما ، فقد تساهل ثروت فى تفاوضه مع الانجليز وكانت بريطانيا هى المستفيدة الأولى والأخيرة حيث ركزت المفاوضات على الصداقة بين الجانبين [٤١] ووقوف بريطانيا بجانب مصر فى حالة تعرضها لأى اعتداء [٤٢] وأن يقوم الانجليز بتدريب الجيش المصرى كما طلبت بريطانيا ابقاء قوة عسكرية لها فى مصر ، بحجة حماية مصالحها ومواصلاتها فى الأراضى المصرية [٤٣] ، وتفضيل الموظفين البريطانيين على غيرهم فى الدوائر الحكومية المصرية هذا الى جانب مطالبة بريطانيا بتعيين مستشار مالى وآخر قضائى فى مصر حتى تحكم قبضتها على المالية المصرية والقضاء ، وأن يتقدم سفيرها فى مصر سائر سفراء الدول الأخرى هذا عن مصر . أما عن السودان فقد خلت المعاهدة من اى نصوص خاصة به .

وعند تحليلنا لنصوص المعاهدة يتضح لنا أنها أمليت من طرف واحد وهو بريطانيا لأن معظم ما جاء فيها يخص بريطانيا ، ويتعلق بمصالحها ، ونتيجة لذلك فقد أخفى ثروت باشا بنود المعاهدة بعد عودته لمصر لفترة

بحجة انه لا يزال يراسل « تشمبرلين » ، ولما أفصح عنها فى ٤ مارس ١٩٢٨ م وجد معارضة شديدة ضدها من مجلس الوزراء كما اعتبرتها جماهير الشعب المصرى امتهانا لحقوق مصر واستقلالها ونتيجة لذلك قدم ثروت استقالته وخلفه مصطفى النحاس فى ١٧ مارس ١٩٢٨ ولكن وزارته لم تستمر طويلا حيث أمر الملك باقالتها فى ٢٥ يونيو ١٩٢٨ وعهد الى محمود محمود باشا بتأليف وزارة جديدة (٤٤) .

مفاوضات محمد محمود — هندرسن :

بعد ان كلف محمد محمود بتشكيل الوزارة اسفرت الانتخابات فى بريطانيا عن فوز حزب العمال برئاسة الحكومة فالف المستر مكدونالد الوزارة ، وعين فيها ارثر هندرسن وزيرا للخارجية ، وكان أول اجراء قامت به وزارة مكدونالد هو اقالتها للورد جورج لويد من منصبه كمندوب سامى فى مصر ، والاعلان عن رغبتها فى تسوية المسألة المصرية واستعدادها للتفاوض مع الحكومة المصرية ، ونتيجة لذلك سافر محمد محمود الى انجلترا، واجتمع بالمستر هندرسن الذى طالبه بتحديد ما تريده الأمة المصرية (٤٥) ، فاوضح له محمد محمود أن مصر ترغب فى الاستقلال غير المقيد بشروط بحيث يكون لها حق السيادة عن اراضيها داخليا وخارجيا ، كما طالب بعودة مجموعات من الجيش المصرى الى السودان كما كان فى عام ١٩٢٤ (٤٦) وبعد مشاورات ومداولات اتفق على أن تقوم وزارة الخارجية البريطانية باعداد مشروع يتضمن جملة ما اتفق عليه الفريقان من مباحثات ، وقد تسلم محمد محمود المشروع البريطانى فى ٥ يوليو ١٩٢٩ والذى تضمن الموافقة على بعض المطالب المصرية التى طالما فاوضت بريطانيا من أجلها والتى من أهمها انهاء الاحتلال العسكرى لمصر بواسطة القوات البريطانية وان كان قد ربط ذلك بأهمية عقد معاهدة صداقة بين الطرفين تساعد على تنمية التفاهم الودى وحسن العلاقات والمشاركة فى رد أى اعتداء يقع على الدولة الأخرى ، بحيث اذا دخلت بريطانيا فى حرب يسمح لها باستخدام موانى مصر واراضيها . واحتوى المشروع على امكانية انضمام مصر فى عصبة الأمم ، وحق مصر فى تسيير أمور الأجانب الذين يعيشون بها وتطبيق التشريع المصرى عليهم (٤٧) .

يضاف الى ذلك أن بريطانيا تمسكت بأن يتم تدريب الجيش المصرى بواسطة ضباطها كما أنها تمسكت بحقها فى حماية قناة السويس ، وبتبعية السودان لها ، هذا بالاضافة الى أحقية رعاياها فى مصر فى الوظائف الأجنبية، وأن يكون لسفيرها منزلة رفيعة على باقى السفراء . كما اتفق على انه يقتضى العمل بهذه المعاهدة . مدة خمس وعشرين عاما .

وعلى الرغم من الميزات التى حصلت عليها مصر فى هذه المعاهدة ، واعلان محمد محمود انه سيجرى انتخابات يعرض فيها المشروع على الأمة[٤٨] . فان الصحف الوفدية أحدثت ضجة شديدة ضد المشروع، وطالبت محمد محمود بالاستقالة ، فما كان منه الا أن قدمها فى ٢ أكتوبر ١٩٢٩ وقبلها الملك وعهد الى عدلى يكن بتأليف الوزارة واجراء انتخابات عامة اسفرت عن فوز ساحق للوفد أدى الى قيام حكومة عدلى بتقديم استقالتها، فعهد الملك الى مصطفى النحاس باشا بتأليف الوزارة فى الأول من يناير ١٩٣٠ باعتباره زعيم الأغلبية ، فتألفت الوزارة الثانية للنحاس لتبدأ مرحلة جديدة من مراحل الصراع مع بريطانيا من أجل الاستقلال .

مفاوضات النحاس — هندرسن :

فى السادس من يناير ١٩٣٠ فوض مجلسا الشيوخ والنواب وزارة النحاس بفتح باب المفاوضات مع بريطانيا للوصول الى اتفاق يوثق عرى الصداقة بين البلدين[٤٩] وقد وصل الوفد الى لندن فى ٢٠ من مارس ١٩٣٠م وجرت المفاوضات فى ٣١ من مارس واستمرت الى يوم الثامن من مايو ١٩٣٠[٥٠] وانتهت بالاخفاق وعدم التوصل الى حل مقبول يرضى الطرفين لتمسك بريطانيا بالسودان . وعاد الوفد الى مصر ليجد الأحزاب قد استغلت فشله ، وتعمل على اسقاطه ، وانتهى الأمر بتقديم مصطفى النحاس لاستقالته فى ٧ من يونيو ١٩٣٠ م .

وهكذا يتضح أن مفاوضات النحاس مع الانجليز اصطدمت بعقبة رئيسة وهى السودان مثلها كمثل المفاوضات التى سبقتها ، وفى أعقاب هذه الفترة بدأت الأحوال فى أوربا فى التغير ، خصوصا بعد ظهور هتلر وتربعه

على قمة الحكم فى المانيا ، واحكام موسولينى لقبضته على ايطاليا ، مما جعل بريطانيا تراجع حساباتها وترى انه من الصواب فتح باب المفاوضات مع المصريين فى محاولة لكسب ودهم وتهدئة ثورتهم [٥١] .

سادسا : مصر فى عهد حكومة صدقى :

فى أعقاب استقالة وزارة النحاس قام اسماعيل صدقى بتأليف الوزارة فى ١٩ يونيو ١٩٣٠ ، وفى عهد هذه الوزارة بدأت مصر مرحلة جديدة من مراحل الصراع الداخلى الا وهو مرحلة الدستور خصوصا وان صدقى باشا قام بالغاء دستور ١٩٢٣ واخذ البلاد بالشدة والبطش .

وازاء هذه التطورات استطاع الشعب المصرى أن يثبت حيويته وقدرته على مقاومة هذه الوزارة التى جاءت ضد ارادته [٥٢] فقامت الثورات، وحدثت المصادمات وكانت انجلترا هى المستفيد الوحيد من ذلك ، حيث رات فى هذا الصراع شاغلا للشعب المصرى عن مطالبتها بالاستقلال وخلال ذلك أعلن صدقى باشا فى ٢٢ اكتوبر ١٩٣٠ عن الغاء دستور ١٩٢٣ وحل مجلس النواب والشيوخ واعلان دستور ١٩٣٠ وقد جاء الدستور الجديد فى أغلب بنوده كمنحة من الملك للشعب فى حين كان دستور ١٩٢٣ كتعاقد بين الملك والأمة .

وقد حرم الدستور الجديد مجلس النواب والشيوخ من اقتراع القوانين المالية وجعل هذا الحق للملك واعطى للملك الحق فى اهمال أى قانون يقره البرلمان كما أعطى للملك حق تعيين شيخ الأزهر وغيره من الرؤساء الدينيين كما أعطاه الحق فى دعوة البرلمان للانعقاد فى أى وقت يشاء فما كان من المعارضة الا أن وقفت بالمرصاد ضد هذا الدستور ، وضد حزب الشعب الذى الفه صدقى وزاد رجال صدقى فى تعسفهم ضد الأهالى ، وشددوا على العمد والمشايخ الذين رفضوا العمل بقانون الانتخاب وظل صدقى يحكم البلاد حكما استبداديا لمدة ثلاث سنوات اضطر فى نهايتها الى تقديم استقالته فى ٢٧ سبتمبر ١٩٣٣ ، وجاءت على أثر ذلك وزارة عبد الفتاح يحيى فلم تكن بأحسن حالا من سابقتها [٥٣] وقد استغل الانجليز ضعف هذه الوزارة فى فرض هيمنتهم على مصر ، ونتيجة لذلك قدم يحى

باشا لستقالة وزارته فى ٢ نوفمبر ١٩٣٤ فقام الملك بتكليف محمد توفيق نسيم بتأليف وزارة جديدة ، ولما كانت هذه الوزارة تدرك تماما الأحوال السيئة التى خلفتها الوزارتان السابقتان فقد عملت على الغاء دستور ١٩٣٠ (٥٤) واعادة الحياة الدستورية ، وخلال ذلك بدأ المصريون يعدون العدة للتفرغ للكفاح ضد الانجليز وانتهى الأمر بتوقيع معاهدة ١٩٣٦ .

سابعا : معاهدة ١٩٣٦ والمفاوضات المصرية البريطانية :

جرت المفاوضات فى شأن هذه المعاهدة فى أواخر عهد الملك فؤاد بين المندوب السامى البريطانى اللورد كيلرن ومعاونيه ، وهيئة التفاوض المصرية برئاسة مصطفى النحاس والمؤلفة من ممثلى الأحزاب السياسية عدا الحزب الوطنى الذى لم يقبل الاشتراك فى المفاوضات لمخالفتها لسياسته « لا مفاوضة الا بعد الجلاء » .

وقد بدأت المفاوضات رسميا بقصر الزعفران بالقاهرة فى الثانى من مارس ١٩٣٦ ثم انتقلت الى قصر «انطونيادس» بالاسكندرية وانتهى الأمر بتوقيعها فى قاعة « لوكارنو » التاريخية بوزارة الخارجية البريطانية فى ٢٦ اغسطس ١٩٣٦ (٥٥) .

وكان الهدف من عقد هذه المعاهدة بالنسبة للجانب البريطانى هو اعطاء بريطانيا الصفة الشرعية لوضعها فى مصر التى كانت تفتقدها منذ احتلالها لها فى عام ١٨٨٢ ، وضمان مصالحها فى المستقبل .

أما بالنسبة للجانب المصرى فقد كان يتطلع الى الحصول على الاستقلال الكامل ، وقد صيغت المعاهدة بشكل أرضى طموحات كل من الطرفين والذى يمكن تلخيصه فى جملة واحدة هى ان الاستقلال التام لا يتعارض مع الحقوق البريطانية فى مصر . فقد أضطر الجانب المصرى الى تقديم العديد من التنازلات بشأن مركز القوات البريطانية فى منطقة القنال ووضع موانىء ومطارات مصر تحت تصرف بريطانيا عند الحرب فى مقابل انسحاب بريطانيا من المدن المصرية الكبرى . مثل القاهرة والاسكندرية ، فقد أوضحت المادة الأولى من المعاهدة أن مصر غير محتلة ، عسكريا بواسطة القوات البريطانية على حين اعطت المادة الثامنة لبريطانيا حق تواجد قواتها

فى قناة السويس بهدف الدفاع عنها وتم تحديد هذه القوات بعشرة آلاف جندى فى وقت السلم .

يضاف الى ذلك انه على الرغم من أن المادة الثامنة من المعاهدة تنص على أن قناة السويس جزء لا يتجزأ من مصر فانها ذكرت أن القناة طريق أساسى لمواصلات الامبراطورية البريطانية ويجب أن تتعاون القوات البريطانية مع القوات المصرية لضمان الدفاع عنها على الا يكون لهذه القوات صفة الاحتلال (٥٦) ، وان يستمر الوضع على ذلك حتى يكون لدى الجيش المصرى القدرة على الدفاع عن القنال بمفرده ، وخلال ذلك تتعهد مصر ببناء مستوطنات القوات البريطانية فى منطقة القنال هذا الى جانب أن المعاهدة ربطت مصر بتحالف ابدى مع بريطانيا وفيما عدا ذلك فقد أقرت المعاهدة بحق مصر فى حماية الأجانب المقيمين بها ونصت على الغاء الامتيازات الاجنبية (٥٧) .

وفيما يتعلق بالسودان فقد اصبح السودان بموجب معاهدة ١٩٣٦ بمثابة مستعمرة انجليزية تحرسها جنود مصرية تحت امرة الحاكم العام البريطانى ففى المادة الحادية عشرة اتفق الطرفان المتعاقدان على أن ادارة السودان تستمر مستمدة من اتفاقيتى ١٩ يناير ، و١٠ يوليو ١٨٩٩ اللتين انتزعتا السودان من مصر أن تكون السلطة العسكرية والمدنية فى يد الحاكم العام البريطانى .

أما عن عملية الدخول فى مفاوضات فيما بعد بشأن الرغبة فى تعديل بنود المعاهدة فقد اتفق الطرفان فى المادة السادسة عشرة على أن يدخل الطرفان المتعاقدان فى مفاوضات بناء على طلب أى منهما بعد عشرين عاما من تنفيذ هذه المعاهدة .

ومما سبق ان ثورة ١٩١٩ بقيادة سعد زغلول وما اعقبها من تفاعلات

قد وصل بالبلاد الى نتائج سياسية تمثلت فى تصريح ٢٨ نوفمبر بتحفظاته الأربعة ، ووضع دستور ١٩٢٣ .

ومع أن حزب الوفد كان أكثر الاحزاب جماهيرية فانه تعرض لانقسامات حادة ادت الى تفسخ وحدته فخرجت منه المجموعة التى شكلت الاحرار الدستوريين ، وخرجت منه المجموعة التى شكلت الحزب السعدى ، كما خرجت منه فى النهاية المجموعة التى شكلت الكتلة الوفدية ، وبلغ به الارهاق الى الحد الذى دفعه الى توقيع معاهدة ١٩٣٦ .

مراجــع الفصــل الســادس

(١) انظر خمسون عاما على ثورة ١٩١٩ ص ٤٣ .

(٢) نجلاء عز الدين : العالم العربى — ترجمة محمد عوض ابراهيم وآخرون — القاهرة ، دار احياء الكتب العربية ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٢ ، ص ١٥٠ .

(٣) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية — ترجمة أمين فارس ومنير البعلبكى — بيروت ، دار العلم للملايين ، الطبعة الثامنة ، ١٩٧٩ ، ص ٧٢٣ .

(٤) عباس العقاد : سعد زغلول سيرة وتحية ، بيروت ، دار الشروق د.ت ص ٢٠٥ .

(٥) محمد حسين هيكل : مذكرات فى السياسة المصرية ج ١ ، القاهرة النهضة المصرية ، ١٩٥١ ، ص ٨٤ .

(٧) عبد الرحمن الرافعى : ثورة ١٩١٩ ج ١ القاهرة ، النهضة المصرية الطبعة الأولى ، ١٣٦٥ — ١٩٤٦ م ، ص ١٢٦ .

(٧) خمسون عاما على ثورة ١٩١٩ ، ص ١٨٩ .

(٨) الرافعى : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٢٧ — ١٢٨ .

(٩) نجلاء عز الدين : المرجع السابق ، ص ١٥٢ .

(١٠) هى ممرضة ايرلندية اسرها الانجليز وقتلوها رميا بالرصاص فهاجت لذلك دول العالم واعتبروا ما حدث وحشية ، وسلكوها فى عداد الشهداء .

(١١) مقال لمصطفى امين تحت عنوان « عندما خرجت المراة المصرية الى الشارع » .

(١٢) غربال : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٦٥ .

(١٣) الرافعى : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٣٠٦ .

(١٤) العقاد : المرجع السابق ، ص ٣١٣ .

(١٥) هيكل : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١١٧ .

(١٦) غربال : المرجع السابق ، جـ ١ ص ٩٠ — ٩١ .

(١٧) توفيق الحكيم : شجرة الحكم السياسى فى مصر ١٩١٩ — ١٩٧٩م القاهرة ، مكتبة الآداب ، ص ٣٨٧ .

(١٨) الرافعى : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ١٨٣ — ١٨٤ .

(١٩) نجلاء عز الدين : المرجع السابق ، ص ١٩٢ .

(٢٠) الرافعى : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ١٩٥ .

(٢١) نجلاء عز الدين : المرجع السابق ، ص ١٩٢ .

(٢٢) الرافعى : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ١٧٣ .

(٢٣) محمد حسين هيكل : المرجع السابق ، ص ١٢٧ .

(٢٤) راشد البراوى : مجموعة الوثائق السياسية جـ ١ ، القاهرة النهضة المصرية ، الطبعة الأولى ، ١٩٥١ ، ص ١٢٨ .

(٢٥) عبد الرحمن الرافعى : فى اعقاب الثورة ، القاهرة ، النهضة المصرية ١٩٤٦ ص ١٦١ .

(٢٦) محمد حسين هيكل : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ١٢٧ .

(٢٧) الرافعى : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٣٩ .

(٢٨) هيكل : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ١٢٧ .

(٢٩) محمد عبد الرحمن برج : قناة السويس — أهميتها السياسية والاستراتيجية وتأثيرها على العلاقات المصرية البريطانية ، القاهرة ، دار الكاتب العربى ، ١٣٨٨ هـ ، ص ٨١ .

(٣٠) عباس محمود العقاد : المرجع السابق ، ص ٤١٧ .

(٣١) الرافعى : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٣٩ .

(٣٢) هيكل : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ١٢٩ .

(٣٣) الرافعى : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٥٩ .

(٣٤) نجلاء عز الدين : المرجع السابق : ص ١٥٦ .

(٣٥) الرافعى : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ١١٥ .

(٣٦) عباس محمود العقاد : المرجع السابق ، ص ٤٢٧ .

(٣٧) الرافعى : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ١٧٦ ، ومحمد شفيق غربال : تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية ، جـ ١ ، القاهرة ، النهضة المصرية ، ١٩٥٢ ، ص ١٤٩ .

(٣٨) الرافعى : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ١٧٩ .

(٣٩) مذكرات ابراهيم الهلباوى : ص ٢٢٦ .

(٤٠) الرافعى : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٢٦٣ .

(٤١) غربال : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ١٧٩ .

(٤٢) الرافعى : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ١٣ .

(٤٣) غربال : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ١٧٦ .

(٤٤) الرافعى : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ١٨ .

(٤٥) غربال : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٢١٠ .

(٤٦) الرافعى : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ١١١ .

(٤٧) البراوى : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١٣٦ .

(٤٨) غربال : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٢٢٢ .

(٤٩) الرافعى : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ١٠٤ .

(٥٠) غربال : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٢٢٤ .

(٥١) هيكل : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٣٦٧ .

(٥٢) الرافعى : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ١٩ .

(٥٣) الرافعى : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ١٨٢ .

(٥٤) غربال : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٢٧١ .

(٥٥) نشرت جريدة الأهرام نصوص هذه المعاهدة فى السادس من سبتمبر ١٩٣٦ .

والجدير بالذكر أن بريطانيا عقدت مع العراق وشرق الاردن معاهدات على نفس النمط الذى عقدت به معاهدة ١٩٣٦ واذا كانت هناك اختلافات فهى فى الشكل وليس فى المضمون .

(٥٧) عبد الوهاب بكر : الوجود البريطانى فى الجيش المصرى ، القاهرة دار المعارف ، ص ٢٠ .

(٥٧) فى عام ١٩٣٧ الغيت الامتيازات الاجنبية طبقا لاتفاقية مونترو .

الفصل السابع

مصر من الحرب العالمية الثانية الى ارهاصات ثورة ١٩٥٢

١ — مصر فى الحرب العالمية الثانية .

٢ — مصر وحرب ١٩٤٨ .

١ — مصر فى الحرب العالمية الثانية :

عند نشـــوب الحرب العالمية الثانية كانت مصر مكبلة بقيود معاهدة ١٩٣٦ التى تفرض عليها الاشتراك فى الحرب بجانب الانجليز ، ونتيجـــة لنصوص المعاهدة أعلن على ماهر رئيس الحكومة قطـــع علاقـــات مصر السياسية مع المانيا ، كما أعلن الأحكام العرفية ، ووافق على وضع الموانى المصرية تحت رقابة السلطة البحرية البريطانية ، وفرض الرقابة عـــلى البريد والبرق والصحف ، ولكن بريطانيا لم تكتف بتلك الاجراءات وطلبت من مصر دخول الحرب الى جانبها ولكن مصر رفضت القيام بهذا الـــدور وحاول ساستها تجنيب البلاد ويلات الحرب (٢) .

يضاف الى ذلك أن الملك فاروق حاول انتهاج سياسة حذرة تجاه المعسكرين المتحاربين فى الظـــاهر ، ومساندة النازية والفاشية فى الباطن.

وعلى الجانب الشعبى فقد كان لكل من النظامين الهتلرى والفاشستى معجبون فى مصر ويبدو ذلك واضحا من خلال امتداح اسماعيل صدقى لها علانية فى مجلس النواب فى ٢١ ديسمبر ١٩٣٨ ، كما بدات تنتشر بين أفراد الشعب المصرى فكرة أن انتصار المانيا هو السبيل الأكيد لتحرير مصر من الانجليز .

وعلى الرغم من أن معاهدة ١٩٣٦ كانت تحتم على بريطانيا احترام رغبة المصريين فى تسيير أمورهم فانها لم تغير من طريقة القهر السياسى الذى مارسته على مصر ، فقد استمرت سياسة الانجليز الخفية للتدخل فى شؤون مصر والعبث بالحياة الدستورية فيها مما أدى الى توتر العلاقات بينهم وبين رئيس الوزراء على ماهر الذى تسانده السراى خصوصا وأنه رفض اعلان الحرب على ايطاليا بناء على طلب السفارة البريطانية واكتفى بقطع العلاقات معها وانتهى الأمر باستقالته وتكليف حسن صبرى وهـــو من المستقلين بتشكيل الحكومة الجديدة فى ٢٨ يونيو ١٩٤٠ وفى عهد حكومته رفضت مصر مرة أخرى اعلان الحرب على قوات المحور حتى لا يؤدى ذلك

الى قصف الايطاليين لمصر ونتيجة لوفاة حسن صبرى المفاجئة عهد الملك فاروق الى حسين سرى بتولى الوزارة فى الحادى والعشرين من نوفمبر ١٩٤٠ .

وقد تعرضت البلاد فى عهد هذه الوزارة لأزمات اقتصادية عديدة منها أزمة التموين وشح الغذاء الأساسى للشعب وقيام المظاهرات المنادية بسقوط بريطانيا والمرددة الى الامام ياروميل ، ونتيجة لانفلات زمام الأمور قدمت وزارة سرى باشا استقالتها فى الثانى من فبراير ١٩٤٢ وتطلع الناس من كل صوب تجاه القصر لمعرفة من سيقع عليه اختيار الملك ليؤلف الوزارة الجديدة (٣) .

وفى الثالث من فبراير استدعى الملك رؤساء الأحزاب ورأى أن تكون الوزارة الجديدة ائتلافية تضم الأحزاب كلها قدر المستطاع ، ولكن النحاس باشا رفض الاشتراك فى هذه الوزارة ، وعندما علم مايلز لامبسون السفير البريطانى بذلك تدخل فى الأمر وأخبر رئيس الديوان الملكى بضرورة تكليف النحاس زعيم الوفد بتأليف وزارة وفدية لأن الاوضاع العسكرية على الجبهة الغربية فى الصحراء لم تعد تحتمل ، وكان رد رئيس الديوان بأن المسألة مازالت تبحث بين الملك ورؤساء الأحزاب وفى الرابع من فبراير دعى رؤساء الاحزاب الى الاجتماع بقصر عابدين (٤) ولما علم الملك بمحاولة السفير البريطانى التدخل فى اختصاصاته الدستورية ومحاولة فرض حكومة برئاسة النحاس باشا عليه ورأى فى ذلك اعتداء صريحا على السيادة المصرية ولم يشأ تلبية رغبة السفير البريطانى ، مما دفع السفير الى ارسال انذار الى الملك جاء فيه « اذا لم أسمع قبل الساعة السادسة مساء أن النحاس باشا قد دعى لتأليف الوزارة فان جلالة الملك فاروق يجب أن يتحمل ما يترتب على ذلك من نتائج » .

ولما لم يكن القصر على استعداد للاستسلام ببساطة فقد قام الملك بدعوة رؤساء الأحزاب بما فيهم النحاس باشا لتبادل الرأى فى هذا الموقف ، ولما تشاور المجتمعون حاولوا احراج النحاس كى لا يقبل تشكيل الوزارة فى مثل هذه الظروف ثم اتفقوا على تأليف وزارة قوية برآسة النحاس ،

والاحتجاج على الانــذار الموجــه الى الملك ولكن النحاس رفض فكـرة الوزارة القومية ، وكان عاقبة ذلك الرفض ما تعرضت له البلاد من احداث .

ففى الساعة التاسعة من مســاء يوم ٤ فبــراير حاصرت القــوات البريطانية قصر عابدين بالدبابات واندفع بعض الجنود الانجليز الى القصر شاهرين مسدساتهم ودخل السير « مايلز لامبسون » وبصحبته الجنرال ستون رئيس البعثة البريطانية فى مصر ، الى باب القصر متوجها الى مكتب الملك حاملا ورقة بتنازل الملك عن العرش فانهار فاروق ، وكاد يوقع على التنازل لولا تدخل رئيس الديوان « أحمد حسنين » الذى اظهر استعداد الملك لقبــول الانذار والرضــوخ للاوامر البريطانية ، وانتهى الأمر بتكليف النحاس بتشكيل الوزارة (٥) .

وعندئذ قال احمد ماهــر فى حضرة الملك ان النحاس باشا يتولى الحكم مستندا على أسنة رماح الانجليز ، وكان رد النحاس على ذلك « لست أنا الذى يستند على أسنة الرماح » فقال له اسماعيل صدقى « اظن أن رفعتكم وصلتم الى هنا بعد انصراف الدبابات وحتى لا تزيد حدة النقاش الى مالا تحمد عقباه طلب الملك من المتحدثين السكوت ، وكرر أمره الى النحاس. وطلب اليه ان يذهب الى السفير البريطانى ويبلغه نبأ تكليفه تأليف الوزارة

وبعد أن اجتمع النحاس ببعض أعضاء حزبه اتفقــوا على ان يكتب النحاس الى السفير بسحب الانذار فاذا جاء الرد بسحبه شرع فى تشكيل الوزارة وقد قبل الانجليز هذا الحل خصوصا وانه لا يعدو ان يكون حــلا شكليا لا يحجب ما وقع فعلا من تدخل سافر فى شئون مصر ، ونتيجــة لذلك قام النحاس بتأليف وزارته .

وهكذا تدخل الانجليز فى شئون مصر بشكل مزرى واذلوا ملكها وكانوا جادين فى تهديدهم له خصوصا وانهم كانوا يعتقدون أنه وبعض رجالات القصر لهم صلات بالمحور مما جعل الملك يخشى على عرشه من الضياع .

وقد اختلف المؤرخون فى تفسير وقائع هذا الحادث وآثاره فمنهم من اعتبره نهاية للوفد كحزب وطنى يستطيع التعبير عن الراى العام المصرى ،

ونهاية للنحاس كزعيم شعبى ، ومنهم من رأى فيه ردعا لسلطة القصر ، ومع كل ذلك فلا يستطيع أحد ان ينكر ان ما حدث كان صدمة للمصريين جميعا الذين أحسوا بالاهانة والاذلال لما حدث لمليكهم الذى يمثل قمة السلطة فى وطنهم .

وفى أعقاب ذلك تمكنت قوات روميل من اجتياز الحدود المصرية واحتلال السلوم ودخول قوات المحور المدرعة « سيدى برانى » ومحاصرتها للعلمين واقترابها من الاسكندرية بما لا يزيد على مائة كيلو متر ، واعلانها احترام وضمان استقلال وسيادة مصر ، وطرد الانجليز منها مما شجع خصوم بريطانيا فى مصر على اظهار دعايتهم لصالح قوات المحور ، ولكن الرياح لا تأتى دائما بما تشتهى السفن ، فقد استطاعت بريطانيا أن تعد لهجومها المضاد بدقة ، وكسبت فى النهاية معركة العلمين وابعدت خطر قوات المحور العسكرية عن مصر [٦] .

وقبل ان تنتهى الحرب كانت افرازاتها على المسرح المصرى واضحة ، فقد شهدت مصر العديد من القلاقل السياسية والعقائدية ، ففى شهر فبراير ١٩٤٥ شهد البرلمان المصرى مشهدا داميا حيث تقدم شاب يدعى محمود العيسوى من أحمد ماهر رئيس الوزراء المصرى وأطلق عليه أربع رصاصات أردته قتيلا بحجة انه كان من الذين طالبوا بدخول مصر الحرب بجانب الحلفاء .

وهكذا تكلم الرصاص داخل ردهات البرلمان المصرى ، وارتفع الستار مخضبا بالدم ليعلن عن بداية مرحلة جديدة من مراحل النضال .

وفى اعقاب الحرب العالمية الثانية ، قدمت الحكومة المصرية برئاسة النقراشى باشا مذكرة الى الحكومة البريطانية فى ٢٠ ديسمبر ١٩٤٥ وضحت فيها أن معاهدة ١٩٣٦ وقعت تحت ضغط حوادث وظروف دولية زالت بانتهاء الحرب ، وظهور ميثاق الامم المتحدة وانها تريد الدخول فى مفاوضات لتعديل معاهدة ١٩٣٦ على أن تتناول المفاوضات مسألة السودان ، ونتيجة لذلك عقدت مفاوضات بين الطرفين تمسكت فيها بريطانيا ببقاء قواعدها

العسكرية فى مصر بينما اصر الجانب المصرى على ازالتها لما فيه من انتقاص لسيادة مصر على أراضيها .

ولما أصر الجانب البريطانى على ضرورة التحالف العسكرى بين مصر وبريطانيا فى زمن الحرب أو فى حالة التهديد به استقالت وزارة النقراشى لعدم قدرتها على مواجهة الموقف الداخلى ، وشكلت وزارة برئاسة صدقى باشا الذى سافر الى لندن فى عام ١٩٤٦ للتفاهم مع المستر بيفن حـول ايجاد تسوية ودية ، ونتيجة لذلك اعدت المشروعات الأولية التى عرفت فيما بعد باسم « مشروع صدقى — بيفن » [٧] والتى نصت على جلاء القوات البريطانية عن مصر نهائيا فى سبتمبر ١٩٤٩ غير أن الاتفاق لم ينفذ بسبب اختلاف الرأى بين الطرفين على وضع السودان وعلى الدفاع المشترك [٨]، وانتهى الأمر باخفاق المفاوضات وبسقوط حكومة صدقى وتأليف حكـومة جديدة برئاسة النقراشى .

ونتيجة لفشل المفاوضات بين مصر وبريطانيا تقدم محمود حسن باشا السفير المصرى فى واشنطن بمذكرة الى الأمين العام فى منظمة الامم المتحدة فى ١١ يونية ١٩٤٧ يطالب فيها مجلس الامن الدولى باقرار جلاء القوات البريطانية عن مصر والسـودان فى أسرع وقـت ممكن ودون أى شرط ، وتمسكت مصر فى مطلبها بتطبيق احكام ميثاق الامم المتحدة ، كما أوضحت أن خلافها مع بريطانيا قد يؤدى الى تعريض السلم والأمن فى هذه المنطقة للخطـر .

ولما بدأ مجلس الأمن فى دراسة القضية المصرية فى الخـامس من أغسطس ١٩٤٧ استعرض النقراشى باشا قضية بلاده فى خطاب أوضح فيه مطالب مصر والمتمثلة فى الغاء معاهدة ١٩٣٦ وقد رد عليه مندوب بريطانيا بتمسك بلاده بالمعاهدة .

ولـما اقترح المندوب البرازيلى اسـتئناف المفاوضـات المباشرة بين الدولتين ثقـة منه أن بالامكان ايجـاد طـريقة مبـاشرة بينهمـا لحـل القضية على أن تقدما الى مجلس الأمن نتائج ما توصلتا اليه ، اعـرب النقراشى عن تشاؤمه من استئناف المفاوضات .

وقد ايد المندوب السوفيتي موقف مصر . وبعد مشاورات ومداولات، ونتيجة لاختلاف وجهات النظر اخفق مجلس الأمن فى اتخاذ قرار بشأن النزاع المصرى الانجليزى قام بتأجيل النظر فى القضية [٩] .

٢ — مصر وحرب ١٩٤٨ :

كان قرار مصر بدخول حرب فلسطين مفاجئا لكثير من رجالات العرب والمصريين فبعد أن أعلن محمود فهمى النقراشى رئيس الوزراء عن عدم استعداد مصر لدخول الحرب خصوصا وانه ليس من المنطقى أن تدفع مصر جيشها الى فلسطين فتكون القوات البريطانية المرابطة على قناة السويس حائلا بينه وبين أرض الوطن [١٠] . وبعد أن أعرب بعض كبار رجالات الجيش المصرى عن افتقار الجيش المصرى الى العتاد الذى يمكنه من دخول الحرب [١١] ، وبعد ان طلبت الحكومة المصرية من المركز العام للاخوان المسلمين فى القاهرة سحب متطوعيه من فلسطين [١٢] جمع النقراشى أعضاء مجلس الشيوخ والنواب واقنعهم بالموافقة على قرار الملك المرتجل بدخول الحرب بحجة مسايرة الرأى العام ورفض وجود دولة صهيونية على حدود مصر .

والسؤال المطروح ما هى الدوافع والأسباب التى جعلت ملك مصر يغير موقفه فجأة من عدم الموافقة على دخول الحرب الى دخولها دون استعداد .

الواقع ان الملك وجد فى مسألة فلسطين ما يمكنه من استرداد بعض سمعته التى انهارت فى سنوات حكمه الاخيرة ، وان يدعم بدخول الحرب هيبته يضاف الى ذلك حرصه على أن يبنى لنفسه زعامة عربية يستطيع ان ينافس بها الأسرة الهاشمية المالكة فى العراق وشرق الأردن لدرجة انه كان يتردد ان الملك فاروق كان يتسابق مع الملك عبد الله فى ايهما يصلى الجمعة أولا فى المسجد الأقصى [١٣] .

وفى الرابع عشر من مايو ١٩٤٨ أصدر محمود فهمى النقراشى أوامره الى الجيش المصرى باجتياز الحدود وكان ذلك الأمر باسم الملك فاروق بوصفه القائد الأعلى للجيش ، وجاء فى البلاغ الرسمى الأول الذى أذاعته

الحكومة المصرية « ان عمليات فلسطين مجرد حملة لتأديب العصابات الصهيونية » [١٤] .

ولم تكن القوات المصرية التى اعدت لهذه المهمة تزيد عن مجموعة لواء مشاه [١٥] مدعم ببعض الوحدات المدرعة التى تم تجميعها فى منطقة العريش بطريقة سريعة دون أن يتاح لها التدريب المشترك تحت قيادة موحدة [١٦] ، كما أن كميات الذخيرة التى كان يمتلكها الجيش المصرى كانت غير كافية ، ولا توجد خطط واضحة للعمليات الحربية المزمع القيام بها ، كما كانت المعلومات بالنسبة لطبيعة الأرض وقوات العدو ضئيلة لدرجة جعلت رجالات الجيش المصرى يشعرون بالعجز وبان العملية ليست سوى حرب سياسية اكثر منها عسكرية [١٧] .

ومع ذلك قامت القوات المصرية بواجبها بحماس شديد وواصلت أهدافها بنجاح فبعد أن أجتازت حدود فلسطين قامت بحصار العديد من المستعمرات اليهودية واحتلت العوجة والعسلوج ودخلت مدينة بئر السبع واستطاعت السيطرة على الطريق المؤدى الى المستعمرات اليهودية الجنوبية ، وقطعت الطريقين الرئيسيين المتدين من الشمال الى النقب ولم يبق الا الطرق الفرعية [١٨] .

وخلال الحرب اقترح محمود فهمى النقراشى فى يوليو ١٩٤٨ ايجاد حكومة فلسطينية تتولى عبء المسئولية وتنطق باسم فلسطين أمام المجتمع الدولى [١٩] وتسعى لعرقلة اعتراف العالم بدولة يهودية فى منظمة الأمم المتحدة ويترك لها أمر المفاوضة مع الهيئات الدولية وغيرها ونظرا لاعتراض الأردن على هذه الفكرة رأى مجلس الجامعة العربية الاكتفاء بتعيين مديرين لتولى أمر ادارة فلسطين ، وقد تم تعيين هؤلاء دون أن يمارسوا اى عمل حقيقى .

وبعد ثلاثة أيام من القتال بين الطرفين سارع الوفد الامريكى فى الأمم المتحدة بتقديم مشروع قرار الى مجلس الأمن بوقف القتال أملا فى انقاذ اليهود من هزيمة محققة ونتيجة لضغوط دولية توقف القتال لمدة اربعة أسابيع خرق اليهود اثناءها شروط الهدنة اكثر من مرة وجاءتهم النجدات ،

كما اعادوا تنظيم قواتهم وتعزيزها بالطائرات والدبابات على حين انصرف القادة المصريون الى اعداد التقارير الضافية عن المعارك الى ان فرضت الهدنة الأولى ، ووصف حماس الجنود الذين كانوا كلما اقتحموا مستعمرة يهتفون بحياة قائدهم الاعلى فاروق الأول [٣٠] .

وبعد أن استؤنف انقتال على الجبهة المصرية فوجئت مصر بانسحاب القوات الأردنية من اللد والرملة [٣١] ، واستيلاء الصهاينة عليها مما أدى الى انكشاف ميمنة الجيش المصرى وانفراد اليهود بمواجهته وانسحابه من المواقع التى كان يحتلها وفى مقدمتها بئر السبع والنقب ومحاصرته فى الفالوجا وهزيمته ، وتقدم القوات اليهودية صوب الحدود المصرية ونتيجة لذلك فرضت الهدنة ثانية فى التاسع عشر من يوليو [٣٢] .

وقد جنحت مصر لعقد مباحثات مع اليهود باشراف هيئة الأمم المتحدة وبدأت المفاوضات بين مصر واسرائيل فى جزيرة رودس فى الثانى عشر من يناير ١٩٤٩ واستمرت حتى الرابع والعشرين من فبراير وقد مثل الوفد المصرى فيها القائمقام محمد ابراهيم سيف الدين والقائمقام محمد كامل الرحمانى ومثل الجانب الاسرائيلى والتر ايتان والقائمقام ايجال يادين وحضر المفاوضات الدكتور رالف بانش القائم بأعمال الوسيط الدولى لفلسطين والجنرال و.أ. رايلى ممثلين للامم المتحدة .

وانتهت بتوقيع هدنة دائمة تعهد فيها كلا الطرفين بعدم القيام بأى عدوان الطرف الآخر ، كما وافق الطرفان على اقامة خطوط للهدنة لا تتخطاها قواتهما على الا تعد هذه الخطوط حدودا سياسية أو اقليمية .

كما قضت الاتفاقية باحتفاظ مصر بالسيطرة على الممر الساحلى الممتد من قرية رفح على الحدود المصرية الفلسطينية الى نقطة تبعد ثمانية أميال الى الشمال من غزة [٣٣] .

وقد ترتب على هزيمة الجيش المصرى فى حرب فلسطين نتائج هامة نذكر منها :

١ — ضياع هيبة المسئولين وامتهان النظام برمته وتفكك كيان الحكومة [٣٤] .

٢ — افساح الطريق أمام الضباط الاحرار وتبلور أفكارهم حول القضاء على نفوذ السراى ، وطبقة الاقطاعيين وأصحاب المصالح ومحاربة الفساد بشتى صوره وأشكاله والعمل على تحقيق الامانى الوطنية والقومية مما عجل بقيام ثورة ٢٣ يوليو .

٣ — زيادة الكراهية للدول الاستعمارية التى ساعدت على قيام اسرائيل .

٤ — تطور الشعور القومى العربى ، والاقتناع بحتمية الوحدة العربية .

مراجع الفصل السابع

(١) مارسيل كولومب : تطور مصر : ترجمة زهير الشايب ، القاهرة ص ١١٦ .

(٢) رأى مجلس النواب عدم اشتراك مصر فى الحرب الا فى حالات ثلاث هى غزو الاراضى المصرية ، والاغارة على المدن والقرى ، وضرب المواقع العسكرية المصرية .

(٣) محمد حسين هيكل : مذكرات فى السياسة المصرية ، ج ٢ ، القاهرة ، ص ٢٢٧ — ٢٢٨ .

(٤) الرافعى : فى أعقاب الثورة ، ج ٣ ، القاهرة ، النهضة المصرية، ص ١٠١ — ١٠٢ .

(٥) هيكل : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٤٠ .

(٦) مارسيل كولومب : تطور مصر ١٩٢٤ — ١٩٥٠ — ترجمة زهير الشايب ، ص ١٣٩ — ١٤٢ .

(٧) شاكر الدبس : الدول العربية فى منظمة الأمم المتحدة . دمشق مطبعة الانشاء ، ١٩٤٨ ، ص ١٠٧ — ١٠٨ .

(٨) نجلاء عز الدين : المرجع السابق ، ص ١٥٨ .

(٩) الدبس : المرجع السابق ، ص ١٠٨ — ١١٥ .

(١٠) محمد حسين هيكل : مذكرات فى السياسة المصرية ، ج ٣ ، القاهرة ، دار المعارف ، ص ٤١ .

(١١) الأهرام فى ٢٤ مايو ١٩٥٣ حديث للفريق عثمان المهدى رئيس أركان الجيش المصرى .

(١٢) سبق الاخوان الجيش المصرى فى دخول فلسطين حيث اجتاز فريق منهم قناة السويس الى سيناء واخذوا فى التسلل الى فلسطين ووصلت طلائعهم فى فبراير ١٩٤٨ بقيادة البكباشى أحمد عبد العزيز، وأبلوا بلاء حسنا فى المعارك . ولم يقتصر التطوع من اجل انقاذ فلسطين على الرجال من الاخوان بل تعدى ذلك الى السيدات المسلمات ايضا .

(١٣) طارق البشرى : الحركة السياسية فى مصر ٤٥ — ١٩٥٢ ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٢ ، ص ٢٦٦ — ٢٦٧ .

(١٤) عارف العارف : النكبة ، جـ ٢ ، ص ٣٨١ .

(١٥) يقول عبد الناصر فى مذكراته عن حرب فلسطين انه لم تكن على الحدود سوى ثلاث كتائب : الكتيبة الأولى ورئيس أركانها زكريا محى الدين، والكتيبة السادسة ورئيس أركانها جمال عبد الناصر ، والكتيبة التاسعة ورئيس أركانها عبد الحكيم عامر ، انظــر آخر ساعة العدد ١٠٦٣ فى ٩ مارس ١٩٥٥ .

(١٦) محمد فيصل عبد المنعم : أسرار حرب ١٩٤٨ ، القاهرة ، ١٩٦٨، ص ٢٣٥ — ٢٣٦ .

ويبدو أن الحكومة المصرية كانت تعتقد ان الاشتباكات بين المصريين واليهود ستكون بمثابة مظاهرة سياسية اكثر منها عملا حربيــا وان الأمم المتحدة سوف تتدخل فى الأمر .

(١٧) آخر ساعة : العدد ١٠٦٣ فى ٩ مارس ١٩٥٥ تحت عنــوان مذكرات عبد الناصر .

(١٨) وزارة الحربية : مكتب المشير ، محفظة رقم ٩ جـ ١ .

(19) Middle East Journal (Washington) 3 January 1949 p. 74 .

(٢٠) انظر مذكرات عبد الناصر عن حرب ١٩٤٨ ، آخر ساعة العدد ١٠٤٦ فى ١٠ مارس ١٩٥٥ .

(٢١) حاول الملك عبد الله تحديد فترة الهدنة والتقيد بقرارات الأمم المتحدة ولكن الحكومة المصرية رفضت هذه الفكرة بحجة معارضة الرأى العام العربى لها .

(٢٢) حسن يوسف : القصر ودوره فى السياسة المصرية ٢٢ — ١٩٥٢ القاهرة ، مركز الدراسات السياسية بالاهرام ، ١٩٨٢ ، ص ٢٠٤ .

والجدير بالــذكر ان الشعب المصرى ظل جاهلا بتطــورات الأمور وتسربت اليه أخبار هزيمة قواته بالتدريج للتفاصيل انظــر :

John, Marlowe : Anglo Egyptian Relations p. 330 .

(٢٣) فلاح خالد : الحرب العربية الاسرائيلية ٤٨ — ١٩٤٩ وتأسيس دولة اسرائيل ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، ص ٢٧٦ .

(24) Lacouture : Egypt in Transition p. 103 — 104.

الفصل الثامن

ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢

وابرز التطورات السياسية فى مصر حتى انتصار اكتوبر ١٩٧٣

أولا ـــ الاوضاع السياسية فى مصر قبيل الثورة :

ثانيا ـــ مقدمات الثورة :

ثالثا ـــ الثورة واعلان الجمهورية :

رابعا : الثورة والتعليم :

خامسا : عبد الناصر وحرب ١٩٥٦ ٠

سادسا : الوحدة المصرية السورية ٠

سابعا : حرب الخامس من يونيو ١٩٦٧ ٠

ثامنا : حرب اكتوبر ١٩٧٣ ٠

ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢

الأوضاع السياسية فى مصر قبيل الثورة :

وفى أوائل عام ١٩٥٠ أعيد فتح المفاوضات ، واستمرت ثمانية عشر شهرا وقد تركزت حول انسحاب القوات البريطانية ، ولما طالت المفاوضات واتضح مراوغة الانجليز فى الانسحاب ازداد قلق الرأى العام المصرى وشكه فى النوايا البريطانية فأقدمت الحكومة المصرية ازاء هذا الضغط الشعبى على الغاء معاهدة ١٩٣٦ فى الثامن من اكتوبر ١٩٥١ بحجة ان هذه المعاهدة تتعارض مع روح ميثاق الأمم المتحدة الذى نص على مبدأ التساوى بين الدول الأعضاء ، ويتعارض مع قرار منظمة الأمم المتحدة الصادر فى ديسمبر ١٩٤٦ والذى نص صراحة على عدم بقاء قوات أجنبية على ارض دولة من الدول الأعضاء بدون موافقة هذه الدولة .

وقد قوبل الغاء المعاهدة بالابتهاج الحماسى فى مصر فترك العمال المصريون أعمالهم فى المعسكرات البريطانية بالآلاف ، وترك الشبان مدارسهم وجامعاتهم ليلتحقوا بحرب العصابات ضد القوات البريطانية ، واعتقد الانجليز أن اتخاذ الاجراءات العنيفة سيؤدى الى اخماد المقاومة .

وقد قصد من معركة الاسماعيلية التى وقعت بين قوات البولس المصرى وبين القوات البريطانية فى ٢٥ يناير ١٩٥٢ أن تؤدى هذا الغرض غير أنها زادت من حماس المواطنين فخرجت المظاهرات الساخطة فى اليوم التالى بالقاهرة ، وقد بدأت بجنود بلوكات النظام بالعباسية ثم انضم اليها طلاب الجامعة وبعض الأهالى وبينما حاولت الحكومة مقاومة السلطات الانجليزية رأت المخابرات البريطانية والقلم السياسى بوزارة الداخلية الذى كان يعمل لحساب القصر الملكى فى حرق القاهرة فرصة لاقالة الحكومة فاندس بين المواطنين فئة من المأجورين وقاموا باشعال النيران عمدا فى كثير من المحلات التجارية والفنادق الفخمة واماكن اللهو وبعض الشركات

والمؤسسات ، ولم تستطع السلطات ان توقف ما حدث بل تراخت فى الأمر . مما كان له اكبر الأثر فى النهاية التاريخية للنظام الملكى فى مصر وللقوى السياسية والاجتماعية التى تعاونت معه فيمجل الضباط الاحرار باعلان ثورتهم قبل الموعد المحدد لها .

٢ — مقدمات الثورة :

بعد ان عاد جمال عبد الناصر وزملاؤه الذين اشتركوا فى حرب ١٩٤٨ وكانوا محاصرين فى الفالوجا الى أرض الوطن فى مارس ١٩٤٩ تبلورت فى ذهنهم فكرة اجتثاث الفساد من أرض الوطن ، والتخلص من الاستعمار وأعوانه ، ومن ثم أخذ عبد الناصر يعمل على اعادة تنظيم جماعة الضباط الأحرار بعد أن تفرق شملهم بقيام حرب فلسطين واستشهد منهم من استشهد فى هذه الحرب ولما كانت توجد داخل الجيش منظمة سرية أخرى تضم جماعة من الضباط الساخطين فقد عمل عبد الناصر على توحيد جهود هاتين الجماعتين فى مجموعة واحدة [(١)] هى تنظيم الضباط الاحرار الذى صدر منشورهم الأول فى فبراير ١٩٥٠ ، وكان هذا ايذانا ببدء مرحلة جديدة من العمل الوطنى الثورى داخل الجيش .

وفى أعقاب ذلك تشكلت للضباط الاحرار قيادة تأسيسية ضمت جمال عبد الناصر ، وحسن ابراهيم ، وخالد محى الدين ، وكمال الدين حسين ، وعبد المنعم عبد الرءوف ، وعبد اللطيف البغدادى ، وعبد الحكيم عامر ، وصلاح سالم ، وجمال سالم ، وأنور السادات .

وقد حرص عبد الناصر على استقلالية الضباط الاحرار عن أى تنظيمات حزبية حتى لا يكون لهذه الاحزاب اى تأثير على موقفهم .

وبعد أن رتب الضباط الاحرار صفوفهم أخذوا فى متابعة الموقف الداخلى وتحين الفرص المناسبة استعدادا لساعة الخلاص وبينما كان السياسيون يواصلون خلافاتهم الحزبية ورجال القصر يواصلون مخططاتهم لاحكام سيطرتهم على مقدرات الأمور فى البلاد اعلن الضباط الاحرار ثورتهم فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فقامت فرق الضباط الاحرار باحتلال المراكز الهامة بالجيش .

واعتقال كبار القادة العسكريين ثم تم الاستيلاء على المرافق الهامة والمواقع الاستراتيجية بالقاهرة وتم احتلال مبنى الاذاعة فى الساعة الرابعة من صباح الثالث والعشرين من يوليو . وفى السابعة والنصف من نفس اليوم اعلن على الشعب البيان الأول باسم القائد العام للقوات المسلحة وكان موجزا مقتضبا لم يتضمن الا الدعوة الى تطهير الجيش ثم صدر البيان الثانى فى اليوم التالى ليشير الى ان القادة ينشدون التطهير والاصلاح فى البلاد ورفع لواء الدستور ثم توالت الاحداث التى مكنت رجال الثورة من السيطرة على زمام الأمور فى البلاد .

٣ — الثورة واعلان الجمهورية :

وجاءت حركة الجيش فى صبيحة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ تعلن نداء الثورة ، وتصر على ضرورة تنازل الملك فاروق عن العرش ، ومغادرته للبلاد فوجه رجال الجيش الى الملك انذارا نصه « من اللواء أركان حرب محمد نجيب .. باسم ضباط الجيش ورجاله الى جلالة الملك .. انه نظرا لما لاقته البلاد فى العهد الأخير من فوضى شاملة عمت جميع المرافق نتيجة سوء تصرفكم وعبثكم بالدستور وامتهانكم لارادة الشعب .. فوضنى الجيش الممثل لقوة الشعب أن أطلب من جلالتكم التنازل عن العرش لسمو ولى عهدكم الأمير أحمد فؤاد .. على أن يتم ذلك فى موعد غايته الساعة الثانية عشر من ظهر اليوم السبت ٢٦ يوليو ١٩٥٢ ، ومغادرة البلاد قبل الساعة السادسة من مساء اليوم نفسه ، والجيش يحمل جلالتكم كل ما يترتب على عدم النزول عن رغبة الشعب من نتائج [٢] .

وقد صاحب هذا الانذار ارسال بعض المدرعات والمدفعية لدعم قوات الثورة بالاسكندرية استعدادا لعملية عزل الملك بالقوة لو رفض الانذار [٣] ، ولكن الملك فاروق رضخ للانذار وصدر أمر ملكى رقم ٦٥ لسنة ١٩٥٢ يعلن التنازل عن العرش لولى العهد الأمير احمد فؤاد .

ولما أعلنت الاذاعة المصرية خبر تنازل الملك عن العرش ومغادرته للبلاد كان الخبر مفاجأة لجماهير الشعب المصرى الذين اعلنوا عن فرحهم وسعادتهم للتخلص من هذا الملك الذى أصبحت مباذله وسهراته مضغة

فى الأفواه فنزل الكثيرون منهم الى الشوارع مظهرين سرورهم وسعادتهم لهذا الخبر السار [٤] فقد احسوا ولأول مرة أنهم تخلصوا من الملكية . وأصبح حكامهم لأول مرة مصريين لحما ودما وروحا وتفكيرا [٥] .

وكانت أول قضية واجهت قادة الثورة هى قضية الوصاية على العرش ، وتعيين مجلس لها ، وهى قضية دستورية اذ تنص المادة ٥١ من الدستور على أن « لا يتولى أوصياء العرش عملهم الا بعد أن يؤدوا لدى مجلس النواب والشيوخ اليمين » [٦] الذى يتضمن احترام الدستور وقوانين الأمة المصرية والمحافظة على استقلال الوطن وسلامة أراضيه [٧] والملك حق اختيار هؤلاء الأوصياء على أن يقر المجلسان اختيارهم ، ولما كان مجلس النواب منحلا وجب أن يعود للاجتماع أو تجرى انتخابات جديدة [٨] ولما كانت الانتخابات ستستغرق وقتا غير قليل ، ورجال الثورة لا يرغبون فى دعوة المجلس القديم استقر الأمر على ايجاد نظام مؤقت للوصاية يؤلف من ثلاثة تتولى بعد حلف اليمين أمام مجلس الوزراء سلطة الملك الى أن تتولاها هيئة الوصاية الدائمة [٩] .

وشكلت هيئة الوصاية من الأمير محمد عبد المنعم وبهى الدين بركات باشا والقائمقام رشاد منها من ضباط المدفعية [١٠] .

ولما كان فى تشكيل مجلس الوصاية عودة الى النظام الملكى ، واستبعاد فكرة اقامة جمهورية فى مصر فقد ناشد الدكتور طه حسين رجال الثورة اعلان الجمهورية موضحا أن مصر « سئمت النفاق من الملوك ... وآن لها أن تستقبل حياة سياسية سمحة لا نفاق فيها » وذكر أن السبيل الى ذلك هو أن تتخلص مصر من الملكية ومن الأشخاص الذين لا يسألون ولا ينقدون ثم وضح أن المستقبل أصبح للنظام الجمهورى ، وان الملكيات الباقية أصبحت آثارا وتقاليد لا أكثر كما انها أصبحت كابوسا فى مصر يجثم على صدر الشعب كله ، ثم طالب رجال الجيش باعلان الجمهورية ، وأعرب عن أمله فى قيام الشعب المصرى باعلان الجمهورية اذا تردد رجال الجيش فى ذلك [١١] .

وعندما سئل الدكتور طه حسين عن نوع الجمهورية التى تتلاءم مع

مصر قال « انا أميل شخصيا الى الجمهورية الأوربية التى لا يحكم فيها الرئيس ، وانما هو رمز للدولة ليس غير ، وجائز أن نصل بعد تطور بعيد الى الجمهورية كما هى فى الولايات المتحدة ، ولكن يحسن الا يكون هذا الا بعد أن يتم النضج السياسى للشعب » (١٢) .

ولنا أن نتساءل هل كان فى فكر قادة ثورة ٢٣ يوليو فى بداية حركتهم رؤية واضحة عن تغيير الحكم فى مصر من ملكى الى جمهورى ؟ يذكر اللواء محمد نجيب أن رؤية قادة الثورة فى أول الأمر لم تكن قد وصلت الى حد اقامة الجمهورية بل اكتفوا بعزل الملك واحلال ولى العهد محله (١٣) .

ويذكر الرئيس جمال عبد الناصر انه فى « يوم ٢٣ يوليو لم يكن فى خاطرنا بأى حال من الأحوال ان نستولى على الحكومة ، ولكن كنا نعبر عن أمل الشعب فى القضاء على الملكية الفاسدة والقضاء على حكم أعوان الاستعمار ، ولكن لم يكن فى خاطرنا أبدا أن نحكم » (١٤) كما وضح انه بعد خروج الملك طلب مجلس قيادة الثورة من حزب الوفد أن يستعد لتولى الحكم (١٥) وقد أوضح الدكتور عبد العظيم رمضان ذلك فذكر أن ثوار ٢٣ يوليو لم يستهدفوا فى أول أمرهم أكثر من القيام بانقلاب محدود لاسقاط حكم فاروق واجراء بعض التطهير والاصلاح فى الحياة السياسية مع الاحتفاظ بنظام الحكم السابق الذى أرساه دستور ١٩٢٣ (١٦) .

والواقع أن تطور الاحداث يؤكد ذلك فقد أبقى قادة ٢٣ يونيو دستور ١٩٢٣ فى بداية الأمر ليكون القاعدة المنظمة لشئون الحكم بعد الثورة . مما جعلنا نتساءل لماذا لم يتجه قادة ٢٣ يوليو الى الدعوة للجمهورية مباشرة فى بداية حركتهم ؟

تؤكد الوثائق أن قادة الثورة تريثوا فى الموقف أول الأمر ترقبا للاحوال ، فكان موقفهم تكتيكيا حتى تستقر لهم الأمور فتجربة الثورة العرابية كانت ماثلة فى أذهانهم حيث تدخل الانجليز عسكريا فى مصر بحجة الحفاظ على الحقوق الشرعية للخديو توفيق ، فموضوع الشرعية

للملكية كان فى أذهانهم ولكى يكسبوا اعتراف الدول الكبرى بحركتهم تريثوا فى الموقف وخصوصا وان القوات الانجليزية كانت لا تزال موجودة على ضفاف القنال ويمكنها التدخل بحجة حماية الحقوق الشرعية للملك ، كما أن رجال الثورة أرادوا الا يعطوا الفرصة لآخرين فى الداخل وخصوصا وأن معظمهم كان ضد حزب الوفد لتأليب الأوضاع الداخلية ضدهم يضاف الى ذلك مخاوفهم مما يترتب على الغاء الملكية ، فقد كانت هذه العملية فى تصورهم كثيرة المخاطر ، ولكن الأمور كانت أسهل مما توقعوا .

ولما رأى قادة الثورة أنه من الصعب عليهم تحقيق التغييرات الثورية لأسس العلاقات السياسية والاجتماعية والاقتصادية للمجتمع المصرى فى ظل دستور ١٩٢٣ قرروا الغاءه فى ١٠ ديسمبر ١٩٥٢ ، وتأليف لجنة تضع مشروع دستور جديد ، حيث أصدر مجلس قيادة الثورة فى ١٣ يناير ١٩٥٣ مرسوما بتأليف لجنة لوضع مشروع دستور جديد يتفق مع أهداف الثورة (١٧) وتألفت هذه اللجنة من خمسين عضوا من مختلف الكفاءات والاتجاهات والاحزاب (١٨) وقد عقدت هذه اللجنة جلساتها فى مساء ٢١ فبراير سنة ١٩٥٣ بقاعة مجلس النواب بالقاهرة وانتخب على ماهر رئيسا لها كما انتخبت لجنة فرعية من ١٥ عضوا سميت لجنة الخطوط الرئيسية لمشروع الدستور تفرع منها لجنة من خمسة أعضاء (١٩) لكى تبحث نظام الحكم فى مصر هل يكون ملكيا أو جمهوريا ، وقد قدمت اللجنة الخماسية تقريرها ويتضمن قرارها بالاجماع على أن يكون نظام الحكم جمهوريا ، وأن يكون تقرير هذا النظام عن طريق استفتاء الشعب (٢٠) .

واخذ رجال الثورة يروجون لفكرة الجمهورية فى الصحف ففى ١٧ يونيو ١٩٥٣ أدلى جمال عبد الناصر بحديث لمندوب الاهرام أعلن فيه عن رأيه فى نظام الحكم الذى يجب أن تقوم عليه مصر الحديثة فقال « انى أرى أن النظام الملكى قد تآكل وانتهى بعد أن أتى سوس الفساد والخيانة على عرشه ولن تقوم لهذا النظام قائمة ثانية . وان الجمهورية آتية لاريب فيها » (٢١) .

وفى ١٨ يونية ١٩٥٣ أعلن عن اسقاط أسرة محمد على ، وخلع الملك احمد فؤاد الثانى ، وقيام النظام الجمهورى ذلك الحدث الهام الذى جاء ثمرة لتطور كفاح الشعب على تعاقب السنين ، كما قرر مجلس قيادة الثورة تولى اللواء محمد نجيب رياسة الجمهورية ، وأن يكون للشعب الكلمة الأخيرة فى تحديد نوع الجمهورية ، واختيار شخص الرئيس حيث أعلن باسم الشعب :

١ — الغاء النظام الملكى ، وانهاء أسرة محمد على مع الغاء الالقاب من أفراد هذه الأسرة .

٢ — اعلان الجمهورية وتولى اللواء محمد نجيب رياسة الجمهورية مع احتفاظه بسلطاته الحالية فى ظل الدستور المؤقت .

٣ — يستمر هذا النظام طول فترة الانتقال ، ويكون للشعب الكلمة الأخيرة فى نوع الجمهورية ، واختيار شخص الرئيس عند الاقرار على الدستور الجديد [٣٢] .

وصار يوم ١٨ يونية من كل عام عيدا وطنيا من الأعياد الرسمية سمى « عيد الجمهورية » وخصص قصر عابدين ليكون مقرا لرياسة الجمهورية وأطلق عليه « القصر الجمهورى » [٣٣] .

ولكى يكسب قادة الثورة اعترافا دوليا بما حدث أعلن البكباشى جمال عبد الناصر « ان قيام النظام الجمهورى فى مصر لا يعنى أن مصر تعادى النظام الملكى فى أى بلد من البلاد » [٣٤] كما علقت جريدة الاخبار على ذلك بأن مصر اذ تعلن النظام الجمهورى لا تنظر الا لمصالحها وظروفها [٣٥] .

وقد استقبل الشعب المصرى اعلان الجمهورية بحماسة بالغة حيث أحس ولأول مرة فى تاريخه الطويل انه تحرر من الملكية والملوك الذين أذلوه واستغلوه ، وأصبح حكامه لأول مرة مصريين لحما ودما وروحا وتفكيرا [٣٦] .

وقد عبرت مختلف طبقات الشعب عن فرحتها باعـلان الجمهـورية بارسال آلاف البرقيات لتعبير عن مباركتهم لمـا حدث [٢٧] ومع ذلك فان الاستاذ محمد زكى عبد القادر حذر فى مقاله « نحو النور » من انحـراف قادة الثورة الى المظاهر التى تقرب الجمهورية من الملكية ، وطالبهم بأن يكونوا أسوة حسنة لمواطنيهم ، فقال « أن تربية الشعوب تكون بالاسـوة الحسنة واشعارها بأن انحاكم يحترمها » [٢٨] كما أوضح الاستاذ كامل الشناوى فى مقال له « ان نجاح الجمهورية التى هى كسب عظيم للشعب يتطلب من الشعب جهادا شاقا فى تربية نفسه تربية جمهورية فلا ينبغـى أن يعامل رئيس الجمهورية كملك أو حاكم مطلق بل يجب أن ينظـر اليـه كفرد عادى يحاسبه على الخطأ ويبصره بالصواب » [٢٩] .

ولقد كان للتأييد الساحق الذى منحه الشعب للواء محمد نجيب اكبر الأثر فى جعله يصدق أنه زعيم الثورة الفعلى بينما كان عبد الناصر ورفاقه يتصرفون على أنه واجهة للثورة ، وسرعان ما اخذت تتباين وجهات النظر بين نجيب ورفاقه حول كثير من الأمور [٣٠] منها الاجراءات التى اتخذها ضباط القيادة لمحاسبة السياسيين القدامى وتشكيل محكمة الثورة ، ولمـا أحس مجلس قيادة الثورة ان محمد نجيب يشكل عقبة فى طريقهم انتهـزوا فرصة الغاء النظام الملكى واعلان الجمهورية فقرروا ابعـاده عن قيـادة القوات المسلحة [٣١] واصدروا قرارا بتعيين الصاغ عبد الحكيم عامـر قائدا عاما ، وترقيته أربع رتب مرة واحدة ليصل الى رتبة اللواء ، وقـد اعترض محمد نجيب على هذه القرارات كما اعترض على اعـلان النظـام الجمهورى دون استفتاء شعبى ، ووصل الأمر بينه وبين رجال الثـورة الى درجة التحدى [٣٢] ولم تلبث الأمور أن تدهورت بين الفـريقين حين أخذ مجلس القيادة يتجاهل اللواء محمد نجيب فى جلسـاته فقـدم نجيب استقالته فى ٢٣ فبراير ١٩٥٤ الى مجلس قيادة الثورة فكان ذلك بمثـابة المفجـر الحقيقى لأزمة مارس ١٩٥٤ [٣٣] .

ونظرا لما احدثته استقالة محمد نجيب من تـأثير فى الـراى العـام ورغبة من قيادة الثورة فى احتواء الأزمة ولو بصفة مؤقتـة وحفاظا على وحدة الأمة اعلن مجلس قيادة الثورة عودة اللواء محمـد نجيب بعد أن تم الاتفاق معه بخصوص ذلك .

وعاد محمد نجيب الي رئاسة الجمهورية ولكن بدون سلطات ، ومضى فى مهاجمة مجلس قيادة الثورة والدعوة الى الديمقراطية ، وكان واضحا أن نجيب سيمضى فى هذا التيار ما دام بعيدا عن السلطة ، وشعر عبد الناصر ان تحدى نجيب للثورة سوف يعرقل مسيرتها لذلك قام بمناورة بارعة اذ تقدم باقتراح الى الاجتماع المشترك لمجلس الثورة ومجلس الوزراء بعودة الأوضاع الى ما كانت عليه قبل استقالة نجيب واسناد رئاسة مجلس قيادة الثورة ورئاسة مجلس الوزراء الى رئيس الجمهورية مرة أخرى وبذلك ضمن عبد الناصر التهدئة مع نجيب خلال تلك المرحلة المصيرية التى تجتازها الثورة ، وفى نفس الوقت كان الهدف الآخر الذى يسعى اليه نجيب هو طرح رئاسة الجمهورية للاستفتاء الشعبى لأنه كان يشعر انه رئيس جمهورية بالتعيين (٣٤) . كما كان له عدة مطالب هى :

١ — أن يكون له كل سلطات رئيس الجمهورية البرلمانية فى حالة عدم وجود برلمان .

٢ — أن يستفتى الشعب على النظام الجمهورى قبل اقرار الدستور الجديد .

٣ — أن ينتخب الشعب رئيس الجمهورية قبل اقرار الدستور أيضا بالانتخاب المباشر .

٤ — أن يعود الضباط الى صفوف الجيش (٣٥) .

وفى ١٨ يونيو ١٩٥٤ وبمناسبة الاحتفال الأول بعيد الجمهورية القى اللواء محمد نجيب كلمة ذكر فيها أن الحكم الجمهورى هو حكم الشعب للشعب ولصالحه ، وانه التطور الطبيعى نحو احقاق العدل والمساواة بين الناس ، كما أوضح أن مصر قبل اعلان الجمهورية كانت سلعة يرثها الأبناء على آبائهم مهما كان الأب خاملا أو جاهلا أو كان الابن ظالما ومستبدا (٣٦) .

ولما ثبت من التحقيقات فى قضايا الاخوان المسلمين ان اللواء

محمد نجيب كان على اتصال بهم منذ ابريل ١٩٥٤ ، وانه معتزما بعد نجاح انقلابهم تأييد حركتهم ودعوة الجمهور للانضمام اليهم قرر مجلس قيادة الثورة فى ١٤ نوفمبر ١٩٥٤ اعفاءه من جميع المناصب التى كان يشغلها ، وان يبقى منصب رئيس الجمهورية شاغرا ، وان يستمر مجلس قيادة الثورة فى تولى كافة سلطاته بقيادة جمال عبد الناصر حتى يتم انتخاب رئيس الجمهورية .

وفى السادس عشر من يناير ١٩٥٦ تم اعلان الدستور مدعما برنامج الثورة وهو :

١ — القضاء على الاستعمار واعوانه .

٢ — القضاء على الاقطاع .

٣ — القضاء على الاحتكار وسيطرة رأس المال على الحكم .

٤ — اقامة جيش وطنى قوى .

٥ — اقامة عدالة اجتماعية .

٦ — اقامة حياة دستورية سليمة .

واعلن الدستور ان النشاط الاقتصادى الخاص حر بشرط الا يضر بمصلحة المجتمع ، ونص على مساواة المصريين فى الحقوق والواجبات .

كما أعلن حرية الاعتقاد ، وحرية التعبير عن الرأى فى حدود القانون ، وجعل التعليم حقا لكل المصريين .

وفى ٢٢ يونيو ١٩٥٦ انتخب جمال عبد الناصر رئيسا للجمهورية بالاستفتاء ، وبذلك تم ولأول مرة فى تاريخ مصر انتخاب الشعب فى استفتاء عام رئيسا لجمهورية مصر .

وبانتخاب جمال عبد الناصر حل مجلس قيادة الثورة ، واصبح جمال عبد الناصر هو المسئول عن مصر سواء من ناحية السياسة الداخلية او السياسة الخارجية ، وبذلك دخلت مصر فى طور جديد من حياتها السياسية .

وافتتحت الثورة عهدا جديدا ، فبدأ نضالها لاقتلاع جذور الاستعمار فى مصر ونجحت فى عقد معاهدة الجلاء فى ١٩ من اكتوبر ١٩٥٤ [٣٧] ، كما انتهجت سياسة عدم الارتباط بالأحلاف العسكرية أو بمشروعات الدفاع المشترك ، ورفضت أى قيود على تحركاتها الدولية ولما رفض الغرب بيع السلاح لها لتسليح جيشها عقد عبد الناصر صفقة الأسلحة التشيكية فى ٢٥ سبتمبر ١٩٥٥ ضاربا عرض الحائط باحتجاجات الغرب مما كان له أبلغ الأثر فى تغيير ميزان القوى فى منطقة الشرق الأوسط وتغير نظره أمريكا تجاه استئناس عبد الناصر وانسحابها مع بريطانيا من مشروع تمويل السد العالى، وكان رد عبد الناصر على هذه الضربة هو تأميم شركة قناة السويس فى السادس والعشرين من يوليو ١٩٥٦ .

٤ — ثورة ٢٣ يوليو والتعليم :

وبقيام ثورة ٢٣ يوليو تغير نظام التعليم فى مصر ، ودخل مرحلة جديدة مؤثرة فى حياة الانسان المصرى ، وكان من أول مشروعات اصلاح التعليم التى تبنتها الثورة ، وعمل على تنفيذها المرحوم اسماعيل القبانى عندما تولى أمر وزارة التربية عام ١٩٥٢ الغاء ثنائية التعليم فى المرحلة الأولى لكى تزداد الفرص المتاحة لجميع الشعب ، ولقد كان هذا الاصلاح يتفق مع الفلسفة الجديدة للمجتمع ، وقد زادت الحكومة من ميزانية التعليم وعلى غرار ذلك ازداد عدد المدارس بطريقة واضحة ففى العام السابق للثورة بنيت فى مصر ثلاث مدارس جديدة بينما بنى فى السنوات الخمس الأولى للثورة ١٢٣٥ مدرسة بمعدل ٢٤٨ مدرسة فى كل عام ، وانشىء بجانب المدارس الاعدادية العامة أنواع من المدارس الاعدادية الفنية زراعية وصناعية وتجارية ، واهتمت الثورة بالتعليم الفنى [٣٨] .

وقد عمدت حكومة الثورة الى تغيير اسم الوزارة التى تقوم بمهمةالتعليم من وزارة المعارف الى وزارة التربية والتعليم ، وسارت السياسة التعليمية يحدوها الأمل فى نشر التعليم ، وانتهى الأمر الى أن ست سنوات تعليمية هى الاساس المنطقى لتعليم شعبى تتهيأ فيه الفرص المتكافئة لجميع المواطنين، وبذلك تقرر أن يكون التعليم الابتدائى اجباريا مجانيا لمدة ست سنوات ، وأن يعاد النظر فى السلم التعليمى بحيث يتلاءم ومراحل التعليم واعمار

المتعلمين وانشئت لذلك مرحلة جديدة هى المرحلة الاعدادية بين المرحلة الابتدائية والمرحلة الثانوية . وقد هدفت السياسة التعليمية فى عهد الثورة الى ما يلى :

١ — تعميم التعليم الابتدائى وتدعيمه .

٢ — تكافؤ الفرص لجميع المواطنين فى جميع مراحل التعليم .

٣ — تخطيط التعليم فيما بعد المرحلة الاولى على أساس احتياجات البلاد وامكانياتها .

٤ — التوسع فى التعليم الفنى بأنواعه ، وخاصة فى المرحلة الاعدادية الفنية .

٥ — التوسع فى تعليم البنات .

٦ — تدعيم التعليم العالى والجامعى ورفع مستواه وتشجيع البحث العلمى .

٧ — مسايرة التطور العالمى فى العلوم والآداب والفنون حتى يتمكن المواطنون من الاستفادة بنتائج الفكر العالمى فى كل الميادين ، مع الحرص على تراثنا القديم فى كل العصور وحمايته .

٨ — التعاون الثقافى مع جميع الدول الصديقة فى العالم .

٩ — زيادة أواصر الوحدة الثقافية مع البلاد العربية [٣٩] .

ولما كان النظام التعليمى فى أى بلد يعكس الفلسفة الاجتماعية السائدة به ، فقد كان للقوانين الاشتراكية التى أعلنت فى مصر عام ١٩٦١ تأثيرها الفعال على التعليم فى مختلف مراحله حيث اعلنت مجانية التعليم فى كافة مراحله بعد أن درج التعليم المصرى منذ سنوات طويلة على أن يكون تعليما طبقيا بمعنى أنه كان هناك نوع من التعليم للاغنياء وآخر للفقراء ، فالغيت المصروفات واتسع مجال التعليم أمام جميع فئات الشعب، وتزايد عدد المقبولين عاما بعد عام ونشأ عن ذلك تكافؤ فى الفرص ، كما أصبح المجموع الكلى لدرجات الطالب الفيصل فى قبوله بالجامعات وغيرها.

وعلى الرغم من الظروف المريرة التى مرت بها مصر بعد هزيمة ١٩٦٧ فان برامج تطوير التعليم لم تتوقف فقد سار برنامج العمل الوطنى الصادر فى عام ١٩٧١ خطوة ابعد فى مجال رسم السياسة الواجب اتباعها فى مجال التخطيط التعليمى .

وقد أكد البرنامج على المبادىء التالية :

١ — أن تلتزم المرحلة الأولى من التعليم فى نهاية العشر سنوات ١٩٨٢/٧٢ بقبول جميع الملزمين .

٢ — التمهيد لرفع سن الالزام الى ١٥ سنة .

٣ — الارتفاع بمستوى التعليم وتطويره بما يتلاءم وانجازات العلم الحديث .

٤ — الارتفاع بمستوى اداء الخدمة التعليمية .

٥ — ربط التعليم باحتياجات المجتمع .

٦ — القضاء على الأمية .

وقد هدفت هذه الخطة الى تحقيق الفرصة المتكافئة . والمساواة الكاملة لابناء الشعب ، ورفع مستوى التعليم ، وتوفير الرعاية التربوية والصحية للطالب ، ووضع برامج توعية لمحو الأمية والاهتمام بالبحث التربوى ، وتطوير نظام الامتحانات ، وتحقيق التنسيق بين الاجهزة المعنية بالتعليم فى مستوياته المختلفة .

وتجيء ورقة أكتوبر لتركز على ان اهم ما طرأ على منطق التعليم والبحث فى العالم هو زوال المسافة بين الفكر والعمل ومعنى ذلك ان التعليم والتثقيف العام صار لهما هدفان :

١ — ايجاد الفرد المتعلم المستنير .

٢ — تزويده بخبرة متقدمة محددة تمكنه من القيام بدور يتناسب مع هذه الخبرة ، وتحقيق ذلك يستلزم عدة أمور منها عدم حبس التعليم

فى قوالب جامدة ومنها ربط انواع معينة من التعليم بالبيئة ، ومنها توثيق الصلة بين الجامعات والمعاهد على اختلافها ، ومنها القضاء على فكرة الفارق الاجتماعى فى التعليم وعلى الرغم من كل الجهود التى بذلتها حكومة الثورة لاصلاح التعليم وما تم احرازه من تقدم فى كثير من المجالات فانه يمكن انقول بأن التعليم فى مصر يحتاج الى اعادة النظر والاصلاح وتجىء هذه الصيحات لا من جانب المربين ورجال التعليم والمشرفين على امره فحسب ، ولكنها تصدر ايضا من آباء التلاميذ والمسئولين عن التخطيط للتنمية الاقتصادية والاجتماعية ، والجميع يؤمن ان اصلاح التعليم هو الاساس الذى تقوم عليه تنمية الثروة البشرية لاسعاد الناس وتقدم المجتمع .

ونحن نأمل ان تتمخض جهود المختصين عن اصلاح حقيقى فى التعليم يشمل ثورة حقيقية فى التعليم المصرى تتفق مع الآمال الكبيرة المعقودة عليه فى جميع الأوساط التعليمية والفنية والسياسية ، علما بأن اقامة اصلاح التعليم على اسس من البحث العلمى والتخطيط السليم هو الضمان لاستقرار هذا الاصلاح من جهة وديناميته من جهة اخرى .

يضاف الى ذلك ان اصلاح التعليم يحتاج الى توفير مصادر التمويل الكافية لمتطلبات هذا الاصلاح يتناسب مع الزيادة السكانية الضخمة فى كل عام واستيعاب جميع الاطفال والاستعانة بالوسائل التكنولوجية الحديثة فى التعليم يتطلب المزيد من الانفاق عليه بما يتناسب مع الأهمية التى ينظر اليه بها فى حياة الأمة المصرية .

ـ عبد الناصر وحرب ١٩٥٦ :

ادار الرئيس عبد الناصر حرب ١٩٥٦ على المستوى الوطنى والاقليمى والدولى ، وعلى المستوى العسكرى والسياسى والنفسى فى ظروف شديدة التعقيد ، وفى مواجهة توازن متشابك وخطير استفادت مصر من خلاله العديد من الدروس بحلوها ومرها وفيما يلى نعرض لهذه الحرب واسبابها ودور الرئيس عبد الناصر فى ادارة خيوطها حتى تحقق له فى نهاية الأمر قطع ذيل الأسد البريطانى وكسر أسنانه .

وعقب اعلان قرار الولايات المتحدة وبريطانيا سحب عروضهما الخاصة بالمساهمة فى تمويل بناء السد العالى بحجة أن قدرة مصر المالية لا تتحمل توفير المال اللازم للمساهمة فى بناء السد[٤٠]. رأى جمال عبد الناصر أن الرد المناسب على ذلك يكمن فى تأميم شركة قناة السويس ، خصوصا وأن هذا التأميم بالاضافة الى انه يحقق له امكانية بناء السد العالى فانه يلبى حقا مصريا يراود احلام كل المصريين ، ويؤكد استقلال الارادة السياسية المصرية ، ويضيف الى مصر أهم أرصدتها الاستراتيجية ومن أجل ذلك دعا عبد الناصر الى اجتماع مشترك بين أعضاء مجلس قيادة الثورة ومجلس الوزراء بكامل هيئته . . وفى الاجتماع طرح عبد الناصر فكرة التأميم ، ولما وجد من بعض المجتمعين من يحذر من احتمالات الخطر وتعدد مصادره أوضح أنه سيتحمل وحده مسئولية القرار[٤١] .

وأمام مؤتمر شعبى حاشد وقف عبد الناصر فى ميدان المنشية بالاسكندرية فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦ ليعلن تأميم الشركة العالمية لقناة السويس شركة مساهمة مصرية ، ونقل جميع مالها من أموال وحقوق ، وما عليها من التزامات الى الدولة[٤٢] مما تسبب فى حدوث اصداء واسعة ارتجت لها مصر خاصة وان القناة كانت جرحا فى ضمير كل مصرى ، وكان استعادتها لمصر حلما من الاحلام ، كما ارتج لها العالم الذى هزته هذه الخطوة الشجاعة .

ونتيجة لأن معظم التوقعات كانت ترى أن بريطانيا وفرنسا وربما دول أخرى لن تسكت على هذه الضربة التى قوضت هيبة الغرب وحطمت هيبته وكانت بمثابة الكابوس لاحتكاراته[٤٣] . وان هذه الدول قد تصعد الأمر الى درجة التدخل العسكرى فقد رأى عبد الناصر ضرورة تفادى قيام حرب غير متوازنة عن طريق تكثيف العمل السياسى المصرى ، وتكتيل الجو الدولى العام لصالح مصر حتى يتم تفويت فرصة استعمال السلاح على الذين يفكرون فيه ، ويتم كسب الوقت حتى تبرد الأزمة وتهدأ نارها خصوصا وانه كان يتصور أن احتمال التدخل العسكرى سوف يكون محققا بنسبة ٨٠٪ خلال الاسبوع التالى للتأميم فاذا انقضت هذه الفترة الحرجة تناقصت احتمالات التدخل وانحسرت فرصته[٤٤] وتمكنت مصر من بسط سيطرتها

على القناة . والى حد كبير نجح عبد الناصر فى جذب انظار العالم نحو حق مصر فى تأميم القناة فأكد أكثر من مرة أن مصر تتعهد باحترام الوضع الدولى للقناة وتم ابلاغ السكرتير العام لهيئة الأمم المتحدة بذلك كما عمل على أن تستمر كفاءة الحركة الملاحية فى القناة دون أى معوقات بعد انسحاب المرشدين الأجانب منها [(٤٥)] حتى لا يحس العالم بأى تقصير .

والى جانب ذلك كان عبد الناصر يشعر انه يمسك معظم الأوراق الرابحة فى الأزمة بكلتا يديه فمع انه كان لا يستبعد قيام بريطانيا بعمل عسكرى ضد مصر فانه كان يرى أن ايدن لم تكن لديه قوات جاهزة فى الشرق الأوسط للقيام بأعمال عسكرية فورية ، وان الأمر يحتاج لبعض الوقت لتجهيز هذه القوات ، وخلال ذلك يمكن تكتيل الراى العام العالمى لصالح مصر ، وتكثيف الجهود السياسية مما قد يؤدى الى تفويت فرصة التدخل المسلح .

ومع أنه كان لا يستبعد قيام الحكومة الفرنسية بمغامرة عسكرية ضد مصر للتخلص من قيادتها التى كانت تمد الثوار الجزائريين بالسلاح والدعم المعنوى ، فانه كان يرى أن تورط فرنسا عسكريا فى الجزائر ، وفقدانها السيطرة على العديد من المناطق التى يتمركز بها الثوار الجزائريين ، وشبح هزيمتها فى « ديان بيان فو » (الهند الصينية) قد يجعلها تتردد فى القيام بعمل عسكرى ضد مصر [(٤٦)] .

الأمر الذى استبعده عبد الناصر ، واستحال وقوعه هو أن تلجأ بريطانيا وحدها أو بريطانيا بالتنسيق مع فرنسا الى الاستعانة باسرائيل فى أى عملية ضد مصر لاستعادة القناة بالقوة خصوصا وان ذلك سيعرض مركزهم ومصالحهم فى الشرق الأوسط للخطر ، ويكون وحده كفيلا باسقاط كل النظم الموالية لانجلترا وفرنسا فى المنطقة ، كما يترتب عليه الدعوة الى خروج العراق من حلف بغداد ، وزيادة النقمة على فرنسا فى شمالى أفريقية [(٤٧)] .

وحول موقف الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى من الأزمة فقد كان تقدير عبد الناصر أن واشنطن وموسكو ستكونان بعيدتين عن أى مساندة عسكرية أو سياسية للمعتدين خصوصا بعد ان اظهرت الولايات المتحدة عدم

استجابتها للاشتراك فى أى عمل عسكرى ضد مصر ، ورفضت فكرة تقديم أى مساندة استراتيجية أو سياسية لدول العدوان وفضلت تسوية المشكلة سلميا ، وبعد أن أظهر الاتحاد السوفيتى رغبته فى عقد تسوية سليمة للمسألة وأعلن عن تعاطفه مع موقف مصر الذى تدافع فيه عن سيادتها .

والى جانب ذلك فقد تعاطفت دول مؤتمر باندونج ، ومعظم الدول العربية تجاه موقف مصر ، فأعلنت الهند والصين تأييدهما لموقف مصر وقضيتها ، كما تجلت وحدة المشاعر والعاطفة العربية من الشعوب العربية تجاه مصر واعلنت الدول العربية التى تتحكم فى انتاج وضخ البترول تأييدها ومساندتها لموقف مصر .

والسؤال المطروح هل تحققت كل استنتاجات عبد الناصر تجاه الأزمة أم ان تطورات الأحداث قلبت توقعاته راسا على عقب .

الواقع أن تقدير عبد الناصر للموقف قد جانبه الصواب فقد وقع العدوان على مصر بعد ثلاثة شهور وكان عبد الناصر يستبعده اذا تاخر شهرا ، واشتركت انجلترا وفرنسا فى العدوان على مصر مع اسرائيل مع أنه كان يستبعد ذلك ولا يتوقعه [٤٨] . اذا ما هى الأسباب التى قلبت توقعات عبد الناصر وافسدت حساباته ؟

الواقع أن بريطانيا وفرنسا كانت لها حسابات أخرى فقد كانا يريان أن انهماك الحكومة الامريكية فى انتخابات الرئاسة وتطاحن الأحزاب من أجل الوصول الى السلطة قد يبعد الولايات المتحدة عن التفكير فى الأزمة أو اتخاذ مواقف محددة تجاهها لذلك لم يخبرها أحد بخطة العدوان ، بل حاول الانجليز والفرنسيين تشويش الأمور أمامها وتضليلها حتى لا تتدخل فى المسألة . والى جانب ذلك فقد توقعا عدم اهتمام السوفيت بالمسألة خصوصا وان أمور القناة كانت لا تهمهم كثيرا ، كما أنهم كانوا منهمكين فى مشاكل المجر والتطورات الجارية فيها .

وعلى أى حال فقبل حدوث العدوان عملت بريطانيا وفرنسا على تعمية الرأى العام العالمى واخفاء نواياهم العدوانية على مصر وذلك باصدار التصريحات المتلاحقة بالرغبة فى حل المشكلة بالطرق السلمية ، والقيام

بشن حرب دعائية عنيفة ضد مصر وشخص عبد الناصر بالذات ، والشكوى الى مجلس الأمن بأن مصر استولت تعسفا على قناة السويس خرقا للاتفاقات الدولية مما يعرض الملاحة فى هذا الممر الحيوى لاخطار داهمة ، والدعوة الى وضع القناة تحت ادارة دولية [٤٩] والتشجيع على انعقاد نادى المنتفعين لبحث المسألة . وخلال ذلك كانت خطط العدوان قد وضعت وحشدت القوات لغزو مصر [٥٠] ، ورسمت الخطة على الوجه التالى :

تقوم القوات الاسرائيلية بشن هجوم واسع النطاق على القوات المصرية فى سيناء أمام نقطة الكونتلا فى التاسع والعشرين من أكتوبر ١٩٥٦ بهدف قطع مواصلات الجيش المصرى والوصول الى منطقة قناة السويس ، وبعدها توجه الحكومتان البريطانية والفرنسية نداء بالتوازى الى الحكومتين المصرية والاسرائيلية يتضمن وقف جميع الأعمال الحربية ، وسحب كل القوات المسلحة من الطرفين الى مسافة عشرة أميال بعيدا عن القناة وقيام القوات الانجلو فرنسية مؤقتا باحتلال مواقع رئيسية فى كل من بور سعيد والاسماعيلية والسويس لضمان حرية المرور بها ، والقيام بالفصل بين المتحاربين حتى يتم الوصول الى ترتيبات نهائية واذا لم تستجيب القوات المتحاربة لهذا النداء خلال اثنتا عشرة ساعة تنتهى فى تمام الساعة السادسة والنصف من صباح الأربعاء الموافق ٣١ من أكتوبر فان القوات البريطانية والفرنسية سوف تستخدم القوة اللازمة لتنفيذ شروط الانذار [٥١] .

والمتفحص لشروط هذا الانذار يتضح له ان التحرك الاسرائيلى والانذار كان خيوطا مشتركة فى نسيج واحد فالانذار لم يوضع بهذه الصيغة الا لكى ترفضه مصر خصوصا وانه كان يحمل بين جنباته شبح التواطؤ وسوء النية ، والرغبة فى طعن مصر من الخلف . فليس من المنطقى أن تسحب مصر قواتها الى مسافة عشرة أميال غرب القناة ، وتوقف كافة الأعمال الحربية لصد القوات الاسرائيلية الغازية لأراضيها ، ثم تكافىء اسرائيل باحتلال سيناء والابتعاد فقط مسافة عشرة أميال شرق القناة بل المنطق العادل كان يحتم انذار اسرائيل بالعودة الى ما وراء الحدود ، والرجوع من حيث اتت ، ودعوة مصر الى وقف الأعمال الحربية حتى لا يحدث تعطيل لسير الملاحة فى قناة السويس ولكن بريطانيا لم تكن تريد وقف العدوان الصهيونى ، بل

كان هذا العدوان جزءا لا يتجزأ من الخطة المرسومة للغزو الثلاثى لمصر ، وللاطاحة بنظامها [٥٢] .

وفى جلسة لمجلس الوزراء المصرى بتاريخ الثلاثين من اكتوبر ١٩٥٦ انتهى الرئيس عبد الناصر الى رفض الانذار البريطانى الفرنسى شكلا وموضوعا لأنه لم يكن مقبولا بضياع استقلال مصر الوطنى وعودة النفوذ البريطانى الى المنطقة [٥٣] .

ونتيجة لرفض مصر الانذار تزايدت احتمالات الخطر وبدأت موجات القصف الجوى على مدن مصر وقراها وامتد جسر من اسراب الطائرات تعمل ليل نهار من بريطانيا الى شرق البحر المتوسط مما ادى الى تخريب العديد من المنشئات والمرافق .

وحتى يحقق العدوان أهدافه ويتم وضع العالم أمام الأمر الواقع قبل ان تستفحل الأمور وتتشابك ، رأى قادة الغزو أن تكون الحرب سريعة وحاسمة بحيث يتم كل شىء فى خلال ثلاثة أو أربعة أيام تحتل فيها مصر ، وتسقط حكومة عبد الناصر وتحل محلها حكومة تقبل كل شىء يطلب منها حتى لا يجرؤ أحد على الاعتراض . مادامت الحكومة الجديدة قد تكونت وباركت الغزو .

ونتيجة للتطورات المتلاحقة دعا عبد الناصر الى اجتماع مع القادة العسكريين وبعض أعضاء مجلس قيادة الثورة لتقييم الموقف واعادة النظر فى خطط مصر العسكرية بعد أن اتضحت نوايا العدوان . وفى هذا الاجتماع كان الجو مشحونا بالقلق والتوتر واختلاف وتضارب الآراء ففى حين تبنى عبد الحكيم عامر موقف حتمية القتال ومواجهة المعتدين حتى آخر طلقة والى آخر رجل رأى صلاح سالم عضو مجلس قيادة الثورة أن حجم القوى المعتدية لاقبل لمصر بمواجهته ، وانه لا خيار أمام عبد الناصر سوى أن يذهب الى السفير البريطانى ويسلم نفسه له وبسرعة قبل أن يتمكن الطيران المعادى من تدمير مرافق مصر الحيوية وتمزيق جيشها [٥٤] والحاق كارثة محققة بالبلاد . ولكن عبد الناصر الذى لم يفقد اعصابه خلال الاجتماع نجح فى سحب البساط من تحت أقدام المتشائمين ، ومضى فى شرح وجهة نظره

موضحا أن المستهدف هو مصر وشعبها واذا لم يقف الشعب المصرى بكافة فئاته فى مواجهة المعتدين فان مصيره سيصبح معرضا للضياع .

وفى أعقاب ذلك قرر عبد الناصر سحب قوات مصر الرئيسية من سيناء وارتدادها الى غرب القناة حتى لا تتعرض من الخلف لضربات الغزاة ، وتصبح هدفا للتطويق ، وحتى يمكن أن يشكل منها اداة ضاربة واحدة استعدادا لمواجهة هجوم بريطانى فرنسى على مصر قادما عبر البحر المتوسط فى اتجاه الاسكندرية أو بور سعيد لذلك صدرت الأوامر بعودة فرقتين من سيناء أحداهما مدرعة والأخرى مشاه [٥٥] ، كما صدرت الأوامر ايضا بتوزيع السلاح على المواطنين حتى لا تصبح البلاد عزلاء عديمة المقاومة .

ولحفز همم العالم على سرعة التدخل فى الموقف ، صدرت الأوامر بتعطيل الملاحة فى قناة السويس [٥٦] مما ادى الى نقص واردات أوربا الغربية من البترول بمقدار ٣٠٠ الف برميل يوميا ، ووضع دول العالم امام واقع جديد ، وتسبب فى خسارة فادحة لحركة التجارة العالمية . وتفاديا لتأثير الأحداث على الشعب المصرى ، وعلى الرغم من فداحة الخطر ذهب عبد الناصر لتأدية صلاة الجمعة فى الأول من نوفمبر بالجامع الأزهر ، وتحرك فى سيارة جيب مكشوفة بين هتافات الجماهير ، ووقف على منبر الأزهر ليعلن بصوت مشحون بالانفعالات « اننا جميعا سوف نقاتل ولن نستسلم ابدا ... سأقاتل معكم ضد أي غزو والى آخر نقطة دم .. وسنبنى بلدا وتاريخا ومستقبلا .. وسننتصر » .

وبعد أن أعلن عبد الناصر عن انشاء جيش التحرير الوطنى وفتح باب التطوع أمام المواطنين ، هبت جموع الشعب للذود عن حياض الوطن ، وتكاتفت قوى الشعب والقوات المسلحة للدفاع عن مصر وتم تشكيل جيش التحرير الوطنى من قوات الحرس الوطنى والفدائيين ، ووحدات المقاومة الشعبية ، وكتائب الشباب [٥٧] .

وعلى الرغم من تزايد شعبية عبد الناصر بين الناس الذين وجدوا فيه بديلا ثوريا للتعبير عن ارادتهم فقد برزت أمامه صعاب جديدة تمثلت فى اجتماع عدد من رجالات الاحزاب واتفاقهم على مطالبته بالتنحي عن منصبه

نظرا لأن العدوان يستهدفه أكثر مما يستهدف مصر . ولكن عبد الناصر الذى لم تلن له قناة أصدر أوامره باعتقال الذين حضروا هذا الاجتماع وهم سليمان حافظ ومحمد صلاح الدين وغيرهم ، كما أمر باعتقال عدد من السياسيين ومنهم فؤاد سراج الدين وابراهيم فرج حتى لا يستطيع هؤلاء التأثير فى الروح المعنوية لدى الجماهير أو بث روح الدعاية المناهضة لعبد الناصر (٥٨) .

وعلى أى حال فبعد أن استمرت موجات القصف الجوى على مدن مصر وقراها طوال الفترة من ٣١ اكتوبر الى ٤ نوفمبر بدأت قوات المظلات البريطانية الفرنسية تهبط ابتداء من اليوم الخامس من نوفمبر فوق المنطقة الشمالية من قناة السويس ، وتشتبك مع القوات المصرية والأهالى فى معارك بالأسلحة الصغيرة بينما كانت مدافع الاسطول الانجليزى الفرنسى تطلق نيران قنابلها الضخمة على مدينة بور سعيد وما حولها .

وفى فجر الخامس من نوفمبر تقدمت حاملات الجنود البريطانية والفرنسية تحت حماية مدافع الاسطول ، وبدأت موجاتها تنزل على الشاطىء وتتسلل الى مدينة بور سعيد كى تصطدم معها قوات المقاومة الشعبية التى كانت بمثابة الوجه المشرق للشعب المصرى .

وخلال ذلك كثفت مصر جهودها السياسية لكشف وفضح حقيقة العدوان ونواياه فطالبت بعقد جلسة لمجلس الأمن للنظر فى وقف العدوان (٥٩) واثبتت لدول العالم مدى بشاعة العدوان ضد المدنيين الآمنين . كل ذلك ادى فى كل دول العالم الى اجتياح موجة من الغضب والسخط ضد المؤامرة، فهوجمت المنشآت والسفارات البريطانية والفرنسية فى معظم العواصم الافريقية والآسيوية ، وتعرضت مصالح المعتدين للخطر فى العالم العربى واشتعلت نيران الغضب فى كل قارات العالم ضد العدوان والى جانب ذلك تبنى البرلمان الانجليزى معارضة قوية تتربص بحكومة ايدن الدوائر ، وتوجه اليها التهم (٦٠) ، ووصلت المظاهرات ذروتها فى لندن وباريس تهتف بسقوط ايدن وجى موليه كما وقفت الحكومة السوفيتية موقفا حازما من العدوان . وخلال ذلك كان منبر الأمم المتحدة يشهد أعنف المناقشات .

وخشية من استفحال الأمر ، واتساع مسرح العمليات بتدخل اطراف اخرى فى النزاع وقفت الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى معا اثناء التصويت ضد المعتدين حتى تم الاتفاق على مشروع القرار الكندى الذى يقضى بوقف العمليات الحربية ، وانشاء قوات طوارىء دولية لاعادة الأمور الى نصابها ، ومراقبة عملية انسحاب قوات العدوان ثم للمرابطة على خطوط الهدنة لمنع تجدد الاشتباكات بين مصر واسرائيل .

ومع ان قرار مجلس الأمن (٦١) نص على انسحاب المعتدين فى مدة لا تزيد عن الشهر فقد تجاهلت القوات المعتدية الأمر واخذت فى توسيع أماكن احتلالها وتثبيت أقدامها فمركز الفرنسيون وجودهم فى بور فؤاد ، والانجليز فى بور سعيد ، وأعلن القائد البريطانى ان انسحاب قواته فى هذه الفترة القصيرة لا يتفق مع الكرامة العسكرية ، وانه لابد من قيام قواته بتطهير القناة .

ونتيجة لذلك طلبت الحكومة السوفيتية من الولايات المتحدة القيام معا باخراج المعتدين من مصر بالقوة ولما لم تستجب الولايات المتحدة لهذا الطلب بعث الرئيس السوفيتى بولجانين كتابا الى رؤساء حكومات بريطانيا وفرنسا واسرائيل يدين العدوان ويطالب بتنفيذ قرارات الأمم المتحدة بوقف القتال وسحب المعتدين فورا حتى لا تتحول الأمور الى حرب عالمية ثالثة ، كما انه اشار بكل وضوح بان الحكومة السوفيتية مصممة على اخراج المعتدين فورا ودون ابطاء وهدد بأن لندن وباريس ليستا بعيدتين عن مدى الصواريخ النووية السوفيتية (٦٢) .

والى جانب ذلك أعلن الاتحاد السوفيتى عن استعداده لارسال متطوعين الى مصر لانهاء الاحتلال (٦٣) .

وخشية من انفلات الأمور ، اتخذت الأمم المتحدة قرارا مجددا فى الرابع والعشرين من نوفمبر يقضى باجلاء المعتدين فورا عن مصر . ونتيجة لكل ذلك وجدت الدول المعتدية نفسها واقفة ضد ارادة المجتمع الدولى وان عليها الانسحاب فورا ، لذلك بادرت قواتها بالانسحاب من بور سعيد ، وتم جلاء آخر فوج من القوات المعتدية فى مساء الثالث والعشرين من ديسمبر ١٩٥٦ بعد أن قضت فى احتلالها ثمانية واربعين يوما لم تنعم فيها بالراحة ،

بل كان يؤرقها دائما جهاد الفدائيين المصريين وهجماتهم ، وارتفع العلم المصرى فوق بور سعيد واصبح يوم الثالث والعشرين من ديسمبر يوما تحتفل فيه مصر كل عام بانتصارتها على المعتدين .

أما عن اسرائيل فانها تحدت قرار الانسحاب معلنة أنها لن تنسحب الا اذا اخذت ضمانات لحرية مرور السفن الاسرائيلية فى خليج العقبة ، وعدم استخدام غزة كقاعدة ضدها ، وقد رفضت مصر أى شرط للانسحاب ، وتدخلت الحكومة الامريكية فى الأمر فضغطت على اسرائيل للانسحاب ، وضغطت على مصر لتبقى قوات طوارىء دولية فى شرم الشيخ حتى لا تتاح للقوات المصرية مستقبلا فرصة اغلاق خليج العقبة ، ومنع الملاحة فيه [٦٤] واخذت اسرائيل فى الانسحاب بعد تدمير وتخريب كل ما يصل اليها من منشئات سيناء .

وهكذا انتهى العدوان الثلاثى بالفشل الذريع ، وتحررت مصر من شبهة التحالف مع الغرب ، وبدأت فى تطهير القناة حتى أعيد افتتاحها فى التاسع والعشرين من مارس ١٩٥٧ .

نتائج العدوان الثلاثى على مصر وزعامة عبد الناصر :

وضعت حرب السويس العالم بأسره أمام مرحلة جديدة من العلاقات الدولية ، وازدادت حدة المنافسة بين المعسكرين الغربى والشرقى ، وظهرت مصر كدولة لها ثقلها الكبير فى المنطقة العربية وفيما يلى نعرض لأهم النتائج :

١ — من الناحية السياسية :

١ — كان تأميم شركة قناة السويس بمثابة انقلاب تاريخى عالمى ونقطة تحول كبرى فى تاريخ التحرر العملى للشعوب ، حيث انهار مركز انجلترا وفرنسا فى الشرق الأوسط ، وتزايدت عوامل السخط ضدهما فى العالم العربى ، واستطاعت مصر انهاء كافة التزاماتها مع بريطانيا طبقا لاتفاقية الجلاء التى ابرمت فى ١٩ من اكتوبر ١٩٥٤ [٦٥] ، كما استطاع عبد الناصر أن يعلم شعوب العالم الثالث كيف تكون شجاعة الثورة .

٢ — ازدياد ثقة الشعب المصرى بقادته ، والتكاتف الكامل بين قوى الشعب واصراره على مواجهة شتى المواقف الصعبة .

٣ — ظهور القومية العربية كعامل مؤثر فى صنع الاحداث ، واثبات قدرة الأمة العربية على مواجهة التحديات ، اذا توفرت لها استراتيجية موحدة وسياسة عامة (٦٦) .

٤ — هيأ النصر السياسى فى جولة السويس ١٩٥٦ الدور القيادى لمصر لقيادة حركة التحرر فى افريقيا ، والوقوف مع القوى الثورية ضد الاستعمار فى اى بلد وأى مكان الأمر الذى ادى الى انهماك القدرات المصرية فى معارك مستمرة ضد الاستعمار (٦٧) .

٥ — بروز جمال عبد الناصر كشخصية دولية لها تأثيرها على مسرح الاحداث وازدياد مركزه داخل مصر وخارجها وارتفاع شعبيته الى مستوى لم يحصل عليه زعيم عربى فى العصر الحديث لدرجة ان اسمه أصبح يتردد فى الآفاق العالمية كرمز للوطنية المصرية والقومية العربية ، وحركات التحرر الوطنى فى آسيا وافريقية وأمريكا اللاتينية .

٦ — كشف حقيقة اطماع اسرائيل التوسعية امام العالم العربى .

(ب) من الناحية الاقتصادية :

١ — تحرير الاقتصاد القومى المصرى بتمصير الشركات والمؤسسات الأجنبية .

٢ — ازدياد رصيد مصر من العملات الصعبة بتحصيل رسوم المرور بالقنال .

٣ — فتح أسواق تجارية مع دول الكتلة الشرقية وآسيا .

٤ — انشاء اسرائيل خط انابيب من ايلات الى جنوب حيفا .

٥ — ضياع أرباح ضخمة من عائدات الأسهم التى تمتلكها الحكومتين البريطانية والفرنسية .

٦ — اهتمام مصر بمرافقها العامة والبدء فى بناء السد العالى (٦٨) .

(ج) من الناحية العسكرية :

١ — فشل قوات العدوان فى احتلال مصر ، وزعزعة حكم عبد الناصر ، وتحطيم الجيش المصرى ، والاستيلاء على قناة السويس .

٢ — استمرار مصر فى استكمال تسليحها من دول الكتلة الشرقية والتوسع فى تعميم التدريب العسكرى خصوصا وان انتصارها فى المعركة كان سياسيا وليس عسكريا .

٣ — تسابق دول الغرب على التسلح الذرى والصاروخى بعد الانذار السوفيتى ، واتجاه بريطانيا لتخفيض قواتها فى منطقة الشرق الأوسط .

وفى النهاية يمكن القول ان العدوان الثلاثى على مصر انتهى بلا كسب سياسى أو عسكرى لأطراف العدوان بل حقق لمصر سيادتها واعاد لها كافة حقوقها ، وعصفت بايدن وجى موليه وغيرهما من قادة العدوان .

حقيقة لقد انتصرت مصر سياسيا ، ومع ذلك لا يستطيع احد أن ينكر أن اسرائيل ايضا حققت مكسبا هاما بالنسبة لها وهو حقها فى المرور بخليج العقبة .

٦ — الوحدة المصرية السورية ونشأة الجمهورية العربية المتحدة :

مصر وسورية من الأقطار العربية التى جمعت بينهما عوامل مشتركة وثيقة الارتباط منها التاريخية والسياسية والعسكرية والاقتصادية والتى كانت تحتم ضرورة ايجاد صيغة عمل مشتركة ، واستراتيجية تعاون بين البلدين .

وبعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وتمسك مصر بالنضال ضد الاستعمار ودعوتها الى التمسك بالقومية العربية ازدادت عوامل التقارب بين البلدين ، واتفقا على التصدى لحلف بغداد ، وكافة الأحلاف العسكرية التى تؤدى الى ربط البلدان العربية بفلك الاستعمار ، كما اتفقا على تكوين قيادة عسكرية مشتركة واقامة تنظيم دفاعى بينهما ونتيجة لذلك عقد اتفاق عسكرى بين الدولتين فى الحادى والعشرين من اكتوبر ١٩٥٥ وبمقتضاه تقرر أن أى اعتداء على أحداهما يعد موجها ضدهما معا ، ولتحقيق ذلك اتفقت مصر وسوريا على انشاء مجلس أعلى ، ومجلس للحرب ، وقيادة مشتركة وابرمت هذه الاتفاقية لمدة خمس سنوات وتأكدت بتوقيع اتفاقية التضامن العربى فى التاسع عشر من يناير ١٩٥٦ [٦٩] .

وبعد قيام الرئيس عبد الناصر بتاميم شركة قناة السويس وما تلاه من عدوان ثلاثى غادر على مصر تأكدت أواصر الوحدة والمصير المشترك بين البلدين فوقفت سورية بجانب مصر تشد من أزرها وتناصرها بشتى السبل والامكانات فوضعت موانيها ومطارتها وقواتها تحت تصرف القيادة المصرية، كما قام العمال السوريون بنسف انابيب البترول التى تمر عبر بلادهم وتعمل لحساب الدول المعتدية والتى تسير فى فلكها .

ونتيجة للتعاون المشترك بين البلدين خلال العدوان الثلاثى ومرورا بالحصار الاقتصادى على مصر ثم نهاية بمشروع ايزنهاور فى عام ١٩٥٧ تعرضت سورية لضغوط قوية هددت أمنها وسلامتها ، فحشدت تركيا قواتها على حدود سورية ، ودبرت حكومة نورى السعيد فى العراق وحكومة كميل شمعون فى لبنان المؤامرات ضد سورية بهدف زعزعة الحكم الوطنى وابعادها عن التيارات التحررية ومن هذا المنطلق شعرت سورية ومصر بالحاجة الماسة لتوطيد كافة أواصر التعاون بينهما لمواجهة المد الاستعمارى والصهيونى الذى يسعى الى السيطرة على مقدرات الأمة العربية ونتيجة لذلك استمرت المحادثات بين الطرفين فقام وفد مصرى بزيارة دمشق والاشتراك فى مباحثات مع الحكومة السورية لوضع اسس الوحدة الاقتصادية بين البلدين ، كما توصلت لجنة الشئون العربية فى مجلس الأمة المصرى ، ولجنة الشئون الخارجية فى مجلس النواب السورى الى قرار بشأن قيام الوحدة بين البلدين تحقيقا لارادة الأمة العربية . والى جانب ذلك اجتمع مجلس القيادة فى الجيش السورى وتبنى الضباط الوحدويون والبعثيون طلب الوحدة . وعلى الطريق لتحقيق الوحدة بعث الرئيس السورى شكرى القوتلى برسالة الى الرئيس عبد الناصر يطلب فيها باسم الشعب السورى الاسراع فى تنفيذ الوحدة الاندماجية بين الشعبين المصرى والسورى ، كما قرر مجلس الوزراء السورى ايفاد صلاح الدين البيطار على رأس وفد الى القاهرة لاجراء المباحثات مع الحكومة المصرية حول تحقيق الوحدة .

وقد استقبل الرئيس عبد الناصر هذا الوفد واستمرت المباحثات والمراسلات بين القاهرة ودمشق حول ذلك الموضوع كما حضر الرئيس القوتلى الى القاهرة لبحث كافة التفاصيل الخاصة بموضوع الوحدة . ومع ان عبد الناصر كان يرى عدم الاسراع فى قيام وحدة اندماجية بين البلدين ،

فانه وافق فى نهاية الأمر على قيام الوحدة متخليا بذلك عن كل الدراسات التى أشارت الى التريث فى الأمر وان كان قد وضع شروطا لقيام الوحدة أهمها :

١ — حل الاحزاب السياسية القائمة فى سورية أسوة بالأوضاع القائمة فى مصر .

٢ — ابتعاد ضباط الجيش عن الاشتغال بالسياسة أو ممارستها .

وفى الثامن والعشرين من يناير ١٩٥٨ اعلن الرئيس القوتلى فى دمشق « انه ليسعدنى ان احقق رسالة العرب القومية فاسلم الأمانة الغالية يدا بيد الى الرئيس جمال عبد الناصر الشاب المتلىء عروبة وحماسة واخلاصا للامة العربية » .

وفى الحادى والثلاثين من يناير ١٩٥٨ اجتمع مجلس الوزراء المصرى والسورى فى القاهرة لاتمام موضوع الوحدة ، وفى الأول من فبراير ١٩٥٨ أعلن عن قيام الجمهورية العربية المتحدة كخطوة أولى نحو تحقيق الوحدة العربية الشاملة ، وفى الثانى والعشرين من فبراير وافق مجلس الأمة المصرى ومجلس النواب السورى على قيام الجمهورية العربية المتحدة كدولة ديمقراطية مستقلة ذات سيادة تتكون من اقليمين هما سورية ومصر على أن يكون لها علم واحد ، ويتولى السلطة التنفيذية فيها رئيس الجمهورية يعاونه وزراء يكونون مسئولين امامه كما يتولى السلطة التشريعية مجلس تشريعى واحد يطلق عليه مجلس الأمة وان تكون القاهرة هى العاصمة .

وبعد أن تم الاستفتاء على الوحدة القى الرئيس شكرى القوتلى بيانا أعلن فيه ترشيح جمال عبد الناصر رئيسا للجمهورية العربية المتحدة ، وصدق مجلس النواب السورى على ذلك الترشيح بالاجماع .

ولقد كان لخبر اعلان الوحدة وقيام الجمهورية العربية المتحدة صدى كبير فى الأوساط العربية والعالمية بين مؤيد ومعارض ففى حين ابتهجت شعوب الأمة العربية بهذا الاعلان واعتبرته الطريق الى الوحدة العربية الشاملة انزعجت العناصر الرجعية داخل العالم العربى من هذه الخطوة

واعتبرتها بداية الطريق للقضاء على نفوذها وامتيازاتها واستعانت بالدول الاستعمارية من اجل القضاء على هذه الدولة الناشئة ، والى جانب ذلك رأت اسرائيل فى قيام هذه الوحدة عائقا قويا أمام أهدافها التوسعية .

وعلى اى حال فقد كان قيام الجمهورية العربية المتحدة بداية لتكوين كيان اقتصادى وسياسى وعسكرى قوى زاد من شعور العرب بعزتهم وكرامتهم ونجح فى احكام طوق الحصار على اسرائيل .

ونتيجة للحماس العربى المتزايد الذى صاحب قيام الوحدة تقدمت اليمن تطلب الانضمام الى الوحدة الجديدة فى أمور التمثيل السياسى والدفاع والصحة والتعليم وتم توقيع ميثاق الاتحاد بين الطرفين فى الثامن من مارس ١٩٥٨ على اساس قيام اتحاد كونفدرالى[٦٩] وعلى أن تكون رئاسة مجلس الاتحاد سنوية بالتناوب بين الدول الاعضاء .

والجدير بالذكر ان الوحدة الاندماجية بين مصر وسورية لم تعمر طويلا للاسباب الآتية :

١ — تربص الاستعمار والصهيونية بهذه الدولة الناشئة ومحاولاتهما الايقاع بها .

٢ — ان هذه الدولة كانت تفتقد الى الوحدة الجغرافية فمصر وسورية لا يربط بينهما حدود برية مباشرة مما دعم عوامل الانفصال وجعل الاتصال بينهما غير كامل .

٣ — الاستعجال فى تحقيق خطوات الوحدة ، قد أوقعها فى العديد من الثغرات والاخطاء .

ونتيجة لذلك وقع الانفصال فى الثامن والعشرين من سبتمبر ١٩٦١ .

٧ — حرب الخامس من يونيو ١٩٦٧ :

قبل يونيو ١٩٦٧ كان العرب لا يعرفون اسرائيل بالقدر الذى كانت تعرفهم به مما أدى الى نجاح الصهاينة فى تحقيق انتصار على العرب اكبر

مما كانوا يستحقون وجعل الأمة العربية تصاب بهزيمة فادحة اكبر من كل التوقعات .

حقيقة لقد كانت الفجوة واسعة بين الجيوش العربية التى كان قادتها يتخذون من وظائفهم طريقا للحياة السياسية والجيش الاسرائيلى الذى كان يطبق مبادىء الحرب الحديثة وحقيقة كانت الخلافات على اشدها بين القادة العرب كما ان توقيت ما حدث كان غير موات للدخول فى مغامرة غير مأمونة العواقب سواء على الجوانب العسكرية او السياسية خصوصا وان القوات المصرية كانت فى معظمها مشغولة فى حرب اليمن التـــى استنـــزفت معظم قدراتها ، وان المواقف المتناقضة بين القيادتين المصرية والأمريكيـــة كانت واضحة ومع كل ذلك فان ما حدث كان مفاجأة مذهلة للانسان العربى الذى تم شحنه بالشعارات المثيرة والزائفة ثم وجد نفسه فجأة أمام أفـــدح هزيمة عسكرية حطمت آماله والتهمت رجاله ومعداته .

وطبقا لسيناريو الأحداث نذكر أن مصر طبقا لاتفاقية الدفاع المشترك هبت لمساندة سورية ضد الحشود الاسرائيلية على حدودها وفى مواجهة الصيحات التى كانت تتهددها بالغزو على لسان ليفى اشكول رئيس وزراء اسرائيل وبعض قادته العسكريين فأعلنت حالة الاستعداد القصوى للقتال فى السادس عشر من مايو ١٩٦٧ وبدات القوات المصرية تتجمع فى سيناء استعدادا لخوض المعركة ضد اسرائيل اذا تعرضت سورية لأى عدوان ، كما كلفت القيادة السياسية فى مصر الفريق أول محمد فوزى رئيس أركان حرب القوات المسلحة — فى ذلك الوقت — بارسال خطاب الى الجنرال الهندى (ريكى) قائد قوات الطوارىء الدولية — التى كانت موجودة فى سيناء لتكون فاصلا بين مصر واسرائيل منذ خروج القوات الاسرائيلية من سيناء بعد عدوان ١٩٥٦ — بسحب هذه انقوات وانهاء وجـــودها على الأراضى المصرية . وبعد اتصالات تمت بين مصر والمستر يوثانت السكرتير العام للامم المتحدة اجيبت مصر الى طلبها وبدأ الجنرال (ريكى) فى سحب قواته ، وتسلمت القوات المصرية مواقعها فى منطقة شرم الشيخ المطلـــة على خليج العقبة وغيرها من المناطق .

ولم يتوقف تصعيد الموقف عند هذا الحد بل اعلنت الحكومة المصرية

فى الثالث والعشرين من مايو اغلاق خليج العقبة فى وجه الملاحة الاسرائيلية، وحظر مرور البضائع الاستراتيجية الى اسرائيل ولو كانت على بواخر غير اسرائيلية ، ومنع ناقلات البترول المتجهة الى ميناء ايلات على اختلاف جنسياتها ، وصدرت التعليمات المفصلة الى كل السفن والبواخر القادمة الى خليج العقبة باتباع القواعد التى تقررها السلطات المصرية حفاظا على سلامتها خاصة وان بعض المواقع داخل مياه مصر الاقليمية قد وضعت فيها الغام بحرية . ونتيجة لذلك تحول الصراع مع اسرائيل من قضية تهديد لسوريا وحشد القوات المصرية فى سيناء الى قضية اغلاق أحد الممرات البحرية فى وجه الملاحة الاسرائيلية ، واتخذ هذا النبأ مكان الصدارة فى صحف العالم مقترنا بحملة اعلامية مضادة ضد مصر وهيأ لاسرائيل الأسباب والمبررات التى استندت اليها فى اتخاذ قرار الحرب فقد اتهم رئيس وزرائها ليفى اشكول مصر بخرق القانون الدولى ، واوضح أن اسرائيل لا تستطيع قبول هذا القرار ، وانها سوف تحارب دفاعا عن كيانها وبالفعل تشكلت وزارة حرب فى اسرائيل عين فيها « موشى ديان » وزيرا للدفاع ، كما أعلنت التعبئة العامة فى اسرائيل وتم استدعاء المتطوعين اليهود فى الولايات المتحدة وأوربا للمشاركة فى التعبئة .

وقد ردت مصر على ذلك بأنها على استعداد للحرب ومواجهة اسرائيل، وانها سوف تضرب بكل قوة أى حركة عدوانية فى أى اتجاه ، وفى أى ميدان ، كما بدأت أجهزة الاعلام المصرية تدق طبول الحرب وتواصل الهاب مشاعر الجماهير معلنة أن مصر ستدمر اسرائيل لو بدأت بالعدوان .

وفى محاولة للحد من تدهور الموقف ، وحتى لا تصبح الحرب أمرا لا مفر منه قام سكرتير عام الأمم المتحدة بزيارة لمصر فى الرابع والعشرين من مايو وقابل الرئيس عبد الناصر كما قابل محمود رياض وزير الخارجية بقصد البحث عن طريق للسلام ، ولكنه لم يوفق فى مساعيه .

وفى الثانى من يونيو عقد الرئيس عبد الناصر اجتماعا بمكتب المشير عامر بالقيادة العليا للقوات المسلحة بمدينة نصر حضره كبار قادة القوات المسلحة وبعض السياسيين وخلال ذلك تم استعراض الموقف السياسى والعسكرى وتوقع عبد الناصر قيام الحرب مع اسرائيل بنسبة مائة فى المائة

وأوضح أن اسرائيل ستبدأ بالهجوم خلال يومين أو ثلاثة اى فى الرابع او الخامس من يونيو ، وانها ستبدأ هجومها بضربة جوية مفاجئة بهدف شل قدرات قوات الطيران المصرى ودفاعات مصر الجوية ، واوضح انه لاعتبارات سياسية يتحتم على مصر أن تترك المبادأة للعدو ، وتستعد لتلقى الضربة الجوية ، واتخاذ ما يلزم لتقليل خسائرها حتى يمكن بعد ذلك توجيه ضربة جوية رادعة ضد اسرائيل . وعلى الرغم من ذلك لم يأخذ القادة العسكريون توقعات عبد الناصر مأخذ الجد وفى ضربة مباغته قامت القوات الجوية الاسرائيلية بغارات مكثفة على المطارات المصرية فى الخامس من يونيو ١٩٦٧ نجحت خلالها فى تدمير معظم الطائرات المصرية وهى جاثمة على الأرض ، وفى أعقاب ذلك اصيبت جبهة القتال فى سيناء بانهيار شامل ، ودبت حالة من الفوضى العارمة بين القوات نتيجة لصدور اوامر من المشير عبد الحكيم عامر فى السادس من يونيو ١٩٦٧ بالانسحاب دون وضع خطة تكتيكية منظمة له فانسحب الجيش المصرى من سيناء انسحابا باهظ الثمن فظيعا فى منظره ونتائجه وآثاره بل كان عبارة عن مجزرة بشرية رهيبة خاصة وان الأمر بالانسحاب السريع لجيش كبير انتشر فى الصحراء ، واتخذ مواقعه بمعداته الثقيلة تحت وابل من نيران العدو يعد بمثابة قرار اهوج غير مدروس مما أدى الى تحول الجيش النظامى الى شراذم مبعثرة لا هدف لها سوى النجاة بأنفسها دون اية محاولة للصمود امام العدو ، تاركة اسلحتها ومعداتها غنيمة للقوات الاسرائيلية دون اطلاق طلقة واحدة والى سيطرة العدو على قطاع غزة والزحف على سيناء والوصول الى الضفة الشرقية من قناة السويس .

وعلى جانب الجبهات العربية تمكنت القوات الاسرائيلية من الاستيلاء على هضبة الجولان السورية ، والسيطرة على مدينة القدس العربية والضفة الغربية لنهر الاردن ونتيجة لالحاح من مصر ، ومحاولات مستميته من الدول الصديقة للعرب تم دعوة مجلس الأمن لعقد دورة استثنائية عاجلة بحث خلالها الموقف وصدر القرار رقم ٢٣٤ فى السابع من يونيو الذى يطالب بالوقف الفورى لاطلاق النار .

وفى أعقاب ذلك ووسط شماتة الاعداء وذهول الأصدقاء لما حدث سعى مجلس الأمن لايجاد حل جذرى للمشكلة . وبعد مشاورات ومداولات

وخلافات بين أعضاء المجلس تمكن المجلس فى نهاية الأمر من اصداره قراره رقم ٢٤٢ فى الثانى والعشرين من نوفمبر ١٩٦٧ والذى يقضى بانسحاب اسرائيل من الأراضى التى احتلت وانهاء حالة الحرب بين دول المنطقة واحترام السيادة الاقليمية والاستقلال السياسى لكل دول المنطقة ، وحقها فى العيش بسلام ضمن حدود آمنة ومعترف بها ، كما نص القرار على ضمان حرية الملاحة فى الممرات الدولية وتسوية مشكلة اللاجئين وان يقوم الأمين العام للامم المتحدة بتعيين ممثل خاص له للذهاب الى الشرق الاوسط لاقامة اتصالات مع الدول المعنية بهدف الوصول الى اتفاق ومساعدة الجهود لتحقيق تسوية عملية ومقبولة على أساس النصوص والمبادىء التى تضمنها القرار (٧٠) ولتحقيق ذلك تم تعيين الدكتور جونار يارنج سفير السويد فى موسكو ممثلا خاصا للسكرتير العام للقيام بالاتصالات المناسبة فى محاولة لتسوية المشكلة غير أن جهوده لم تكلل بالنجاح وتوقفت مهمته نتيجة لرفض اسرائيل التعهد بالانسحاب من الأراضى العربية التى احتلتها واعلانها عن رغبتها فى الاحتفاظ ببعض هذه الأراضى تحت دعوى الحدود الآمنة لها (٧١) .

والسؤال المطروح لماذا تصر اسرائيل على عدم تطبيق القرار ، وتجد بعض الآذان الصاغية فى المجتمع الدولى تساندها ؟

الواقع ان القرار ٢٤٢ حمل بين طياته بعض عناصر الابهام واختلفت فيه الآراء مما جعل اسرائيل تستغل ذلك الى أبعد الحدود فاسرائيل ترى ان القرار ربط تعليق الانسحاب من الأراضى العربية بتحقيق ما يكفل لها حدودا آمنة خلافا لوضعية الأراضى العربية التى تم احتلالها فى عام ١٩٦٧، وان القرار يطالبها بالانسحاب من أرض عربية وليس كل الأراضى المحتلة مستندة فى ذلك الى النص الانجليزى للقرار الذى يقول :

With drawal of Israli armed Forces Form territories occupied in the recent Conflict .

وترجمته انسحاب القوات الاسرائيلية من أراضى احتلت فى القتال الأخير . فى حين تصر الأطراف العربية على أن القرار يعنى استرداد كل الأراضى التى تم احتلالها فى عام ١٩٦٧ .

وعن موقف المجتمع الدولى من القرار فانه يربط استرداد الأراضى العربية باقامة سلام دائم مع اسرائيل يكفل وجودها ، أما ما يتردد حول هل ينبغى اعادة كل أو بعض الأراضى المحتلة ففى تصورنا أن اغتصاب أراضى الغير بالقوة يتنافى مع ميثاق الأمم المتحدة ، كما يتنافى مع كل الأعراف الدولية ويكفى لدحض هذا الادعاء أن نذكر ما ورد فى مقدمة القرار من أن مجلس الأمن يؤكد عدم جواز الاستيلاء على أراضى الغير عن طريق الحرب، كما أن نصوص اللغات غير الانجليزية التى حرر بها القرار تؤكد أن الانسحاب يشمل جميع الاراضى .

وهكذا تسببت حرب يونيو ١٩٦٧ فى مهانة للامة العربية لا نزال تتجرع من كأسها ، وتحصد ما جنته أيدى قادتها الذين لم يقدروا عواقب تسرعهم وانفعالاتهم وخططهم غير المدروسة وحتى تكون الاستفادة مما حدث نبراسا للاجيال الحاضرة يمكننا ان نرجع اسباب الهزيمة فيما يلى .

١ — ان الأمة العربية خاضت المعركة من خلال واقع الصراعات والتجزئة التى كانت تفرق بين قادتها وتبدد قواها وتهدد طاقتها فلم تكن هناك جبهة عربية موحدة ، ولم تستغل امكانات العرب العسكرية جميعها فكانت معظم القوات المصرية منهكة القوى فى حرب اليمن ولم تكن هناك خطة عسكرية متكاملة قابلة للتنفيذ على مستوى العالم العربى بحيث تستغل الامكانات العربية سواء اكانت عسكرية او اعلامية أو جغرافية أو اقتصادية بطريقة سليمة .

٢ — أن العرب كانوا يواجهون عدوا يعرف عنهم أكثر مما يعرفونه عنه ، وانه تلقى امدادات عسكرية وتكنولوجية تفوق قدراتهم وان هذا العدو تصرف فيما حصل عليه من امكانات ببراعة ومقدرة فائقة ، والى جانب ذلك فان هذا العدو اختار أن يفاجئنا بالتحدى فى ظروف غير مواتية للامة العربية من الناحيتين السياسية والعسكرية واستطاع استدراج قادتنا الى مصيدة يونيو وان يحشد كل الأوراق بين يديه لينزل بنا ضربة عسكرية قاسية ، وليفرض على قواتنا خوض معركة غير متكافئة .

ونتيجة لما حدث ، وعلى الرغم من محاولات الجانب المنتصر املاء شروطه وبث روح القنوط واليأس فى الجانب العربى ، وبالرغم من مشاعر

الآلام التى انتابت الشعب المصرى ، وانفترة حالكة السواد التى عاشتها مصر فى أعقاب الحرب فقد فشلت كل محاولات الاحباط فى التسرب الى نفوس المصريين ، فرفض الانسان المصرى الهزيمة واصر على الصمود والنضال من أجل استرداد الحق المسلوب ، واعادة الكرامة التى اهدرت ، وكانت مشاعر الألم التى انتابته بمثابة الوقود الذى دفعه للعمل من اجل محو العار الذى الم بالأمة فدخل الى القوات المسلحة ما يزيد عن مليونى شاب دربوا على السلاح وتعرضوا لتجارب الحياة القاسية فى الصحراء وصهرتهم التدريبات الشاقة واثقين ان ما اخذ بالقوة لا يسترد الا بالقوة مما مهد لقيام حرب أكتوبر ١٩٧٣ .

٨ — حرب اكتوبر ١٩٧٣ :

كان أول درس من دروس هزيمة حرب ١٩٦٧ هو ضرورة تجنب المفاجأة والتعرف على العدو بشكل أوضح ، والاصرار على الصمود والنضال لاسترداد الحق بالقوة فما أن انتهت المعركة حتى راحت الدول العربية تكثف جهودها السياسية والدبلوماسية واسعة النطاق لرفض الهزيمة وايجاد تسوية مقبولة للنزاع وفى نفس الوقت بدات دول المواجهة مع اسرائيل تعيد بناء قواتها المسلحة بكل اصرار وعزيمة فجرت عملية بناء القوات المسلحة بكفاءة هائلة انتظارا ليوم الحسم وبمفهوم جديد يتناسب مع المهام المنتظرة ونتيجة للتعنت الاسرائيلى ورغبته فى فرض الأمر الواقع بكل ما يحمله من اجحاف تحطمت شتى جهود التسوية السلمية ففشلت جهود جونار يارنج فى ايجاد حل سلمى للازمة ، كما لم يستطع مشروع السلام الذى قدمه الاتحاد السوفيتى فى يناير ١٩٦٩ اقناع اسرائيل بتسوية النزاع بالطرق السلمية . ونتيجة لاصرار العدو على فرض شروطه على العرب فى اطار مفاوضات مباشرة معهم رأت مصر تحريك جمود الموقف بشن حرب استنزاف مع اسرائيل فيما بين سبتمبر ١٩٦٨ ويوليو ١٩٧٠ ، وقد استطاعت القوات المصرية ان تشن هذه الحرب عبر قناة السويس بنجاح فوجهت ضربات مستمرة فى اماكن متفرقة على خط المواجهة لدرجة ارتفعت فيها خسائر اسرائيل من الأفراد والمعدات بشكل ملحوظ ، كما صدقت القيادة السياسية على البدء فى الخطة المعروفة لدى العسكرين جرانيت رقم (١) وهى الخطة التى تم رسمها لعبور القوات المصرية للقناة على خمسة

محاور [٧٢] وفى مواجهة هذا الموقف بدأ العدو فى تركيز نشاطه الجوى على العمق حتى مشارف القاهرة بهدف تحطيم الجبهة الداخلية .

ونتيجة لتصاعد الموقف تقدم المستر روجرز وزير الخارجية الامريكى بمبادرة فى الخامس من يونيو ١٩٧٠ بهدف ايقاف حرب الاستنزاف والبحث عن حلول جديدة للسلام فنصت المبادرة على نقطتين هما الانسحاب ووقف اطلاق النار لمدة تسعين يوما يجرى فيها وسيط الأمم المتحدة المفاوضات بين الاطراف المعنية من اجل تسوية المشكلة ، وعلى الرغم من قبول عبد الناصر للمبادرة ، فان جهود روجرز تحطمت أمام الضغوط الاسرائيلية، وبدأت حالة اللا سلم واللا حرب تسود المنطقة .

وبعد وفاة عبد الناصر وتولى انور السادات رئاسة الجمهورية بدأ التفكير فى تحريك القضية سلميا بمبادرة تقوم بها مصر فاعلن الرئيس السادات فى الرابع من فبراير ١٩٧١ انه على استعداد لفتح قناة السويس للملاحة العالمية مقابل انسحاب جزئى للقوات الاسرائيلية كمرحلة أولى من الانسحاب الكامل تبدأ مصر خلالها فى تطهير القناة واعادتها للملاحة [٧٣] .

وعلى الرغم من ترحيب العالم بهذه الفكرة فقد رفضتها اسرائيل واعلنت عن تمسكها بالأراضى المحتلة ، ورغبتها فى أن يكون الاتفاق على اعادة فتح قناة السويس منفصلا عن موضوع الصراع العربى الاسرائيلى .

وفى حين استمرت مصر فى جهودها لتحقيق سلام عادل فى المنطقة عن طريق مطالبة المجتمع الدولى بتحمل مسئولياته عزمت اسرائيل على فرض سياسة الأمر الواقع والتلويح باليد العليا وذراع الردع الطويلة مما جعل القيادة المصرية تتيقن صحة المبدأ القائل « ما اخذ بالقوة لا يسترد الا بالقوة » وان جمود الموقف لا يكسره الا استخدام السلاح لتحرير الأراضى وتحقيق السلام العادل المنشود [٧٤] . ومن اجل ذلك اعدت مصر خططها المنشودة للحرب فاستمرت القوات المسلحة المصرية فى تدريباتها الشاقة العنيفة فى ظروف بالغة الصعوبة والتعقيد خاصة وان اسرائيل كانت تمارس كافة ضغوط الارهاب النفسى ضدها وتحاول التشكيك فى قدرات مصر

وامكاناتها لدفعها الى التخلى عن واجبها الوطنى ، والى جانب ذلك كانت القوات الاسرائيلية لا تزال تتمتع بميزة التفوق الجوى وتتزود بأحدث اسلحة الحرب الالكترونية يضاف الى ذلك أن وجود خط بارليف والساتر الترابى كان يشير الى صعوبة مهمة المقاتل المصرى .

وعلى الرغم من كل ذلك فقد اقتنع افراد القوات المسلحة المصرية بأن القتال ضرورة حتمية لاسترداد الحقوق المغتصبة واسترجاع الأرض المحتلة ، ومحو عار الهزيمة وان ذلك لا يتأتى الا بالتركيز على واقعية التدريب ، واستيعاب السلاح ورفع قدرة المقاتلين للسيطرة الكاملة عليه والى جانب ذلك بدات القيادة المصرية فى اعداد الجبهة الداخلية لتقبل التضحيات ، وحماية الخطوط الخلفية للقوات المسلحة وحتى يمكن تهيئة الرأى العام العالمى التى تأثرت رؤيته للصراع بحرب يونيو ١٩٦٧ قامت القيادة السياسية بتكثيف جهودها خصوصا بعد أن تأثرت القضية بتطور علاقات التفاهم بين القوى العظمى بعد زيارة الرئيس الأمريكى نيكسون للصين والاتحاد السوفيتى فى عام ١٩٧٢ وما أسفر عنهما من رغبة فى استرخاء الموقف العسكرى فى منطقة الشرق الأوسط والتهوين من شأن العرب ، ووضع قضاياهم على الرف [٧٥] .

وبعد أن تكاملت صورة الموقف ، وبذلت كافة الجهود السياسية والعسكرية بدات القيادة المصرية بالاشتراك مع القيادة السورية فى اعداد خطط الهجوم لتحرير الأرض فى اطار من السرية المطلقة ، وقد صاحب ذلك العمل خداع استراتيجى وتعبوى شاركت فيه كافة الجهات صاحبة الاختصاص وفى اعقاب ذلك تم دراسة عملية اختيار التوقيت المناسب لتحديد ساعة الصفر بالنسبة للجبهتين المصرية والسورية معا وفى اجتماع تم بالاسكندرية فى اغسطس ١٩٧٣ اختير «يوم كيبور » أى يوم الغفران أو التكفير عند اليهود وكان يوافق السادس من اكتوبر موعدا لعبور القناة وتحرير الأرض العربية . ويرجع اختيار هذا اليوم بالذات الى انه اليوم الذى تصاب فيه الحياة فى اسرائيل بشلل شبه تام ، كما انه فى نفس الوقت يوافق العاشر من رمضان ذلك الشهر صاحب التأثير المعنوى القوى على المسلمين .

فضلا عما يمكن تحقيقه من مفاجأة حيث يصوم فيه المسلمون ولا يتوقع العدو فيه قيام القوات المصرية بالهجوم عليه وزيادة فى خداع العدو حتى تكتمل المفاجأة اختير قلب النهار وفى وضحه بداية للعبور وليس كما هـو متبع فى الحروب اول ضوء فى الشروق أو آخـر ضوء فى الغروب فتحددت الساعة الثانية وخمس دقائق بعد الظهر كساعة للصـفر حيث انطلقت الشرارة وبدات خطة « بدر » حسب تعبير العسكريين (٧٦) ، وكانت المفاجأة للعدو فى الجو والبر والبحر فقامت مائتا طائرة على ارتفاع منخفض جـدا بالضربة الأولى على جميع مواقع ومطارات العدو المؤثرة فى سيناء ، ومائة طائرة بالضربة الأولى على الجبهة السورية ، وقامت المدفعية تهدر بطلقاتها المتلاحقة على امتداد الجبهة للتمهيد للعبور ثم بدأ الهجوم الأول بنزول اطقم اقتناص الدبابات الى الماء وصرخة الايمان المدوية « الله اكبر » تهز الأجواء ثم اخذت باقى القوات المصرية تنزل الى قوارب المطاط وغيرها وتعبر الى سيناء تحت ساتر من النيران ، ولم تنجح مقاومة العدو من نقاطها الحصينة بخط بارليف فى صد الهجوم بل اذهلتها المفاجأة ، واخذت القوات المصرية تواصل اقتحامها للنقط الحصينة للعدو بالمدافع الرشاشة والقنابل اليدوية وتحررها وتقوم برفع الاعلام المصرية عليها وخلال ذلك تمكن سلاح المهندسين من بناء الجسور التى عبرت عليها الدبابات خصوصا فى قطاع الجيش الثانى، وتحركت القوات البحرية لضرب الاهداف البحرية الاسرائيلية على شواطىء البحرين المتوسط والأحمر ، وبدات القوات المصرية فى تعميق وتوسيع وضم رؤوس الكبارى حتى تزايد عدد الجنود العابرين للقناة الى اكثر من خمسين الف مقاتل . وقد نجحت مظلة صواريخ الدفاع الجوى فى صد هجمات العدو الجوية (٧٧) ، كما فشلت هجمات العدو المضادة لوقف زحف القوات المصرية مما أفقد العدو المتغطرس توازنه ، وزاد من ارباكه واعاد للامة الجريحة شرفها بعد أن سيطرت القوات المصرية على الجانب الشرقى للقناة ونجحت فى عبور سيناء .

وبعد التقاط العدو لانفاسه بدأ فى هجومه المضاد واسرع فى طلب النجدة من يهود اوربا والولايات المتحدة وبدات اسرائيل تجد نفسها ولاول مـرة تخوض حربا دفاعية ضد القوات المصرية على طول جبهات القتال .

وخلال ذلك ازداد تماسك الجبهة الداخلية فى مصر واستمرت فى العمل لزيادة الانتاج واستعدت لتقبل التضحيات مما كان له اكبر الاثر على حفز طاقات المقاتلين ، كما كان لوحدة الصف والتآزر بين الدول العربية الذى تجلى فى أروع صورة خلال المعركة اكبر الاثر فى تمكن الأمة العربية من اثبات ذاتيتها أمام العالم . فقد هبت الأمة العربية للمساهمة فى المعركة بجنودها وسلاحها ودعمها ، كما استخدم العرب سلاح البترول بفعالية لأول مرة مما نقل القضية من الجمود الى الحركة السريعة ، وجعل العرب يستردون ثقتهم فى أنفسهم ويستعيدون كبرياءهم وخلال ذلك عقد مجلس الأمن دورة طارئة فى الثامن من اكتوبر لمناقشة الموقف ، وبعد مداولات طويلة ومعقدة توصل المجلس الى اصدار القرار رقم ٣٣٨ فى الثانى والعشرين من اكتوبر ١٩٧٣ والذى تضمن وقف القتال ودعوة الأطراف المعنية الى بدء المفاوضات فورا بهدف اقامة سلام عادل ودائم فى الشرق الأوسط .

وفى محاولة من اسرائيل للتقليل من شأن ما حدث حاولت قواتها التسلل لاحتلال بعض المواقع المصرية غرب القناة والاقتراب من مدينة الاسماعيلية وقد تمكنت القوات المصرية من ايقاف تقدم العدو كما تمكنت بالتعاون مع عناصر الدفاع الشعبى وقوات الشرطة والأهالى من حصر قوات العدو فى قطاع ضيق ملاصق للقناة شمال البحيرات المرة وفى مناطق الاشجار والاحواش .

والى جانب ذلك قامت قوات العدو فى الثالث والعشرين من اكتوبر بخرق اتفاقية وقف اطلاق النار ودفع جماعات صغيرة من الدبابات والمشاه الميكانيكية عبر المسالك الجبلية والمدقات وحاولت اقتحام مدينة السويس والاستيلاء عليها ، وعلى الرغم من توغل دباباتهم الى قلب المدينة فقد كانت المقاومة ضدها عنيفة جدا حيث تكاتف شعب السويس بكل طوائفه وطبقاته ومختلف اعماره مع قواته المسلحة فى الذود عن حياض المدينة ببسالة منقطعة النظير ، وكبد العدو خسائر فادحة مما اضطره الى التراجع (٧٨) وجعل وضعه فى غرب القناة بمثابة رهينة فى قبضة القوات المصرية ثم جاء اتفاق

الفصل بين القوات ، وانتهت عملية الثغرة التى اطلق عليها أغلب المحللين انها لم تكن انجازا عسكريا بقدر ما كانت عملا اعلاميا يشبه الدعاية التلفزيونية .

وفى النهاية يمكن القول ان الانجاز الضخم الذى حققته القوات المسلحة المصرية باجتيازها أصعب مانع مائى وتحطيمها لخط بارليف لسوف تظل على امتداد الاجيال القادمة موضع فخر واعتزاز وتقدير لانها عكست وبحق ارادة وتصميم المقاتل المصرى ، واثبتت قدرته على استخدام الأسلحة الحديثة بمقدرة ومهارة هذا الى جانب ان حرب اكتوبر ١٩٧٣ اثبتت فشل نظرية الأمن الاسرائيلى ، واسطورة اسرائيل التى لا تقهر وجعلت الاسرائيليين يدركون أن الحدود الآمنة قد لا تضمن بالضرورة امنهم ، كما اظهرت للعرب أن التنسيق فى المواقف بينهم يمكنهم من تحقيق أهدافهم وان قوتهم الذاتية هى الضمان الوحيد لاسترداد حقوقهم فقد تمكنوا من قلب الموازين العالمية رأسا على عقب بعد توقفهم عن تصدير البترول ، فتفجرت مشكلة الطاقة وانقلبت أحوال سوق المال العالمية وشغل العرب مكانهم تحت الشمس . ونتيجة لذلك نشطت فعاليات هيئة الأمم المتحدة بعد حرب أكتوبر فدعت الأطراف المعنية الى حضور مؤتمر دولى بمشاركة الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ، وقد اختيرت مدينة جنيف السويسرية كمقر لانعقاد المؤتمر . وخلال ذلك اعربت مصر عن استعدادها لتنفيذ كل الالتزامات المترتبة على قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ . هذا وقد تم الاتفاق بين مصر واسرائيل فى الثامن عشر من يناير ١٩٧٤ على فك الاشتباك بين القوات المصرية والاسرائيلية فى سيناء باعتباره خطوة أولى نحو التسوية الشاملة ، ثم عادت الدولتان وابرمتا اتفاقية فك اشتباك ثانية فى أول سبتمبر ١٩٧٥ باعتباره خطوة جديدة لاقامة سلام دائم فى المنطقة .

ونتيجة لاختلاف وجهات نظر بعض الأطراف العربية حول السلام وامكانيات مؤتمر جنيف على تحقيقه وانعدام الثقة المتبادلة بين اطراف الصراع فى المنطقة قام الرئيس السادات بزيارة القدس فى التاسع عشر

من نوفمبر ١٩٧٧ بهدف تحريك مساعى السلام واثبات رغبة مصر فى تحقيقه أمام الرأى العام العالمى . وفى غضون ذلك استمرت الجهود الدولية من أجل تنشيط عملية السلام ، وبدات الولايات المتحدة فى ممارسة ضغوطها على الطرفين لتحقيق نتائج ايجابية حتى انعقد مؤتمر « كامب ديفيد » فى سبتمبر ١٩٧٨ وصدر عنه وثيقتان سميت الأولى « اطار السلام فى الشرق الأوسط » وسميت الثانية « اطار لابرام معاهدة سلام بين مصر واسرائيل » مما آثار ردود فعل واسعة النطاق ، وبدات منطقة الشرق الأوسط تـدخل فى منعطف جديد .

مراجع الفصـــل الثامن

(١) أحمد فريد على : العلاقات المصرية الانجليزية وأثرها فى تطـــور الحركة الوطنية فى مصر ١٤ — ١٩٥٢ ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، ص ٧٣١ .

(٢) سيد مرعى : أوراق سياسية ، جـ ١ ، القاهرة ـــ المكتب المصرى الحديث ص ٢٠١ — ٢٠٢ .

(٣) محمد نجيب : كلمتى للتاريخ ، القاهرة ـــ دار الكتاب النموذجى ١٩٧٥ ص ٤٦ .

(٤) عبد اللطيف البغدادى : مذكرات عبد اللطيف البغدادى ، جـ ١ ، القاهرة ، المكتب المصرى الحديث ص ٦١ .

(٥) الجمهورية ، العدد ١٩١ فى الجمعة ١٨ يونية ١٩٥٤ .

(٦) الحكومة المصرية ، أمر ملكى رقم ٤٢ لسنة ١٩٢٣ بوضع نظـــام دستورى للدولة المصرية ، القاهرة ـــ المطبعة الأميرية ١٩٢٣ ص ٧ .

(٧) نفسه ، المادة ٥٠ ص ٧ .

(٨) دار الوثائق : محاضر جلسة لجنة الدستور . الدستور المصرى وقانون الانتخاب فى ٢٢ أكتوبر ١٩٣٠ (المادة ٥٢) .

(٩) محمد نجيب : كلمتى للتاريخ ص ٦٤ .

(١٠) عبد اللطيف البغدادى : المذكرات السابقة ص ٦٥ .

(١١) روز اليوسف العدد ١٢٨٠ فى ١٩٥٢/١٢/٢٢ تحت عنـــوان « طه حسين يتكلم : لماذا أدعو الى الجمهورية ـــ لقد سئمت النفاق » .

(١٢) روز اليوسف : العدد السابق حديث للصحفى سامى داود مع الدكتور طه حسين .

(١٣) محمد نجيب : المرجع السابق ص ٢٢ .

(١٤) مصلحة الاستعلامات : مجموعة خطب وتصريحات وبيانات الرئيس جمال عبد الناصر ، القسم الثالث فبراير ١٩٦٠ — يناير ١٩٦٢ خطاب فى الاجتماع الأول للجنة التحضيرية للمؤتمر الوطنى بتاريخ ٢٥ نوفمبر ســـنة ١٩٦١ ص ٥٧٥ .

(١٥) نفســـه .

(١٦) عبد الناصر وأزمة مارس ١٩٥٤ . القاهرة — روز اليوســـف ص ١٢ .

(١٧) طعيمة الجرف : القانون الدستورى ومبادىء النظام الدستورى فى الجمهورية العربية المتحدة ، القاهرة ص ٨٨ .

(١٨) عن هذه الاسماء انظر عبد الرحمن الرافعى : ثورة ٢٣ يوليـــو ١٩٥٢ ، القاهرة — النهضة المصرية ، الطبعة الاولى ص ٦٦ — ٦٧ .

(١٩) هؤلاء الأعضاء هم : عبد الرازق الســـنهورى — عبد الرحمن الرافعى — مكرم عبيد — السيد صبرى — عثمان خليل عثمان .

(٢٠) الرافعى : المرجع السابق ص ٦٧ .

(٢١) مصلحة الاستعلامات ، مجموعة خطب وتصريحـــات وبيانـــات الرئيس جمال عبد الناصر — القسم الأول ٢٣ يوليو ١٩٥٢ — يناير ١٩٥٨ ص ٣١ — ٣٢ .

(٢٢) النظارات والوزارات المصرية ، ج ١ ، ص ٥٣٧ .

(٢٣) الرافعى : المرجع السابق ص ٨٧ .

(٢٤) الاخبار : العدد ٣١٣ فى الاحد ٢١ يونية ١٩٥٣ .

(٢٥) نفسه : تحت عنوان « كلمة اليوم » .

(٢٦) الجمهورية : العدد ١٩١ فى ١٨ يونية ١٩٥٤ .

(٢٧) الأخبار الجديدة : العدد ٣١٣ من السنة الثانية فى ١٩٥٣/٦/٢١ تحت عنوان « فرحة الشعب باعلان الجمهورية » .

(٢٨) نفسه تحت عنوان « نحو النور » .

(٢٩) نفسه : العدد ٣١٤ من السنة الثانية فى ٢٢ يونية ١٩٥٣ .

(٣٠) د. عبد العظيم رمضان : المرجع السابق ص ١٦٠ .

(٣١) أنور السادات : البحث عن الذات ، القاهرة — المكتب المصرى الحديث ، مايو ١٩٨٠ ص ١٣٩ .

(٣٢) سيد مرعى : المرجع السابق ، ج ٢ ص ٢٧٦ .

(٣٣) عن هذه الأزمة وتطوراتها انظــر : د. عبد العظيم رمضـــان : عبد الناصر وأزمة مارس ص ١٦٧ وما بعدها .

(٣٤) سيد مرعى : المرجع السابق ، ج ٢ ص ٢٨١ — ٢٨٦ .

(٣٥) عبد اللطيف البغدادى : مذكرات عبد اللطيف البغدادى ج ١ ، القاهرة : المكتب المصرى الحديث ص ١٢٧ .

(٣٦) الجمهورية ، العدد ١٩١ فى ١٨ يونيو ١٩٥٤ .

(٣٧) على الرغم من أن هذه المعاهدة انهت عهد الاحتلال البريطانى فى مصر فقــد تمسك الجانب البريطانى فيها بالاشراف على قاعدة قنـــاة السويس ، والاحتفاظ بعدد من الفنيين للقيام بالأعمال الفنية بالقاعدة ، وعودة القوات البريطانية الى قناة السويس اذا ما تعرضت مصر أو احدى الدول الاعضاء فى جامعة الدول العربية المرتبطة بميثاق الضمان الجماعى فى ذلك الوقت لأى خطر خارجى .

(٣٨) الرافعى : ثورة ٢٣ يولية ١٩٥٢ تاريخنا القومى فى سبع سنوات ١٩٥٢ — ١٩٥٩ . القاهرة . النهضة المصرية ١٩٥٩ ص ٤٤٢ — ٤٤٣ .

(٣٩) سجل العرب للعلاقات الثقافية والاقتصادية ص ٩٤ — ٩٥ .

(٤٠) يرجع السبب الحقيقى فى ذلك اطراد نمو العلاقات بين مصر ودول الكتلة الشرقية منذ توقيع صفقة الاسلحة التشيكية فى عـــام ١٩٥٥ واعتراف مصر بحكومة الصين الشعبية وهو الأمر الذى اعتبرته الولايـــات المتحدة بمثابة صفعة قوية لها .

(٤١) محمد حسين هيكل : ملفات السويس ، القاهرة ، مركز الاهرام للترجمة والنشر ، ١٩٨٦ ، ص ٤٦٤ — ٤٦٦ .

(٤٢) انظر خطاب الرئيس جمال عبد الناصر فى ٢٦ من يوليو ١٩٥٦ القاهرة ، ادارة الشئون العامة بوزارة التربية والتعليم ص ٦٠ .

(٤٣) كان معنى قرار التأميم متفاوتا عند الدول التى تأثرت مباشرة به وان كان مذاقه مريرا عندها جميعا .

(٤٤) هيكل : مرجع سابق ص ٤٦١ .

(٤٥) رفض ٦٠ مرشدا كانوا فى اجازات بالخارج العودة الى مصر من مجموع ٢٠٥ مرشدين ، وازداد ضغط الشركة وايعازها للمرشدين بترك العمل فى مصر ، فعرض رئيس الشركة جاك جورج بيكو مرتب ثلاث سنوات

مقدما لمن يرفض العمل من المرشدين تحت الادارة المصرية ، ثم هدد بفقدان المرشدين الباقين لمعاشهم أحمد حمروش: قصة ثورة ٢٣ يوليو ج٢، مجتمع عبد الناصر بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٨ ص ٩٧ — ٩٨ .

(٤٦) وزارة الدفاع : حرب العدوان الثلاثى على مصر ج ١ ، القاهرة، هيئة البحوث العسكرية ، ص ٤٢ .

(٤٧) هيكل : مرجع سابق ص ٥٣٢ .

(٤٨) مع ان كل الشواهد كانت تؤكد أن بريطانيا كانت تبيت للعدوان على مصر فان عبد الناصر يذكر انه لم يعرف باشتراكها الا عند سماعه أزيز الطائرات البريطانية ، فصعد الى سطح منزله ليتأكد من ذلك بنفسه .

انظر : توفيق الحكيم : شجرة الحكم السياسى فى مصر ١٩١٩ — ١٩٧٩ ص ٣٧١ .

(٤٩) حمروش : مرجع سابق ج ٢ ص ٩٥ .

(٥٠) خلال الفترة من ١٢ الى ١٤ من اغسطس ١٩٥٦ بدات الطائرات والسفن الانجليزية والفرنسية تحمل قوات العدوان الى قبرص ومالطة كما امتد جسر من اسراب الطائرات المخصصة لحلف شمال الأطلنطى تعمل ليل نهار من بريطانيا الى شرقى البحر المتوسط ، ودهنت الدبابات بلون أصفر مشابه لرمال الصحراء استعدادا للغزو المرتقب .

(٥١) وزارة الدفاع : مرجع سابق ص ٦٢ .

(٥٢) محمد عوض محمد : العدوان الثلاثى وعواقبه . مقال منشور بالمجلة . العدد الثانى فبراير ١٩٥٧ ص ٥ .

(٥٣) حمروش : مرجع سابق ج ٢ ص ١٠٣ .

(٥٤) هيكل : مرجع سابق ص ٥٢٤ .

(٥٥) وزارة الدفاع : مرجع سابق ص ٤٨ .

ومما لا شك فيه أن قرار الانسحاب وان كان قد ساعد على سرعة تقدم القوات الاسرائيلية داخل سيناء ، واحتلالها شبه الجزيرة ، فانه قد أدى الى تلاحم الجيش والشعب فى الدفاع عن مصر وقناتها .

(٥٦) عندما صدر القرار بسد قناة السويس تحركت ست من سفن الشحن المحملة بالاسمنت الى منطقة البحيرات المرة وتم اغراقها .

(٥٧) وزارة الدفاع : مرجع سابق ص ٢٥٤ .

(٥٨) حمروش : مرجع سابق ج ٢ ص ١٠٨ .

(٥٩) عجز المجلس عن اتخاذ قراره بسبب استخدام انجلترا وفرنسا لحق الفيتو ، مما دفع المستر داج همر شلد السكرتير العام لهيئة الأمم المتحدة الى التهديد بالاستقالة ، وجعل المندوب اليوجسلافى يتقدم بدعوة الجمعية العامة المتحدة الى اجتماع عاجل .

(٦٠) محمد عوض محمد : المقال السابق ص ٨ .

(٦١) صدر القرار فى السابع من نوفمبر ١٩٥٦ .

(٦٢) هيكل : مرجع سابق ص ٥٥٤ .

(٦٣) مذكرات محمود رياض : البحث عن السلام والصراع فى الشرق الاوسط والجدير بالذكر انه عندما انزعجت بريطانيا من الانذار السوفيتى وطلبت مساعدة الولايات المتحدة كان الرد « على الذين تصرفوا منفردين دون الموافقة الصريحة للولايات المتحدة أن يتحملوا عواقب تصرفهم » .
أنظر هيكل : مرجع سابق ص ٥٥٦ .

(٦٤) حمروش : مرجع سابق ج ٢ ص ١١٨ .

(٦٥) نصت الاتفاقية على عودة القوات البريطانية الى قناة السويس اذا ما تعرضت مصر أو احد اعضاء جامعة الدول العربية المرتبطة بميثاق الضمان الجماعى — فى ذلك الوقت — لأى خطر خارجى اثناء السنوات السبع التالية لتوقيع الاتفاقية .

(٦٦) على الرغم من قيام سورية بنسف انابيب البترول المارة عبر أراضيها وقيام السعودية بوقف امداداتها البترولية لانجلترا وفرنسا ، واعلان الأردن وقوفها بجانب مصر فان موقف حكومة نورى السعيد فى العراق وكميل شمعون فى لبنان كان مزريا .

(٦٧) أحمد يوسف وآخرون : الاستقلال الوطنى ، القاهرة ، المركز العربى للبحث والنشر ، ١٩٨٢ ص ١٩٣ .

(٦٨) محمد كمال عبد الحميد : معركة سيناء وقناة السويس ، القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر ص ١٨٩ .

(٦٨) مصطفى صفوت : مصر المعاصرة وقيام الجمهورية العربية المتحدة ، القاهرة النهضة العربية ، ١٩٥٩ ص ٢٨١ .

(٦٩) بمعنى أن تظل كل دولة محتفظة بنظام الحكم القائم فيها وبمؤسساتها وبشخصيتها الدولية .

(٧٠) د. ابراهيم العنانى : معاهدة السلام المصرية الاسرائيلية فى ضوء قواعد القانون الدولى ص ١١ .

(٧١) السياسة الدولية عدد يوليو ١٩٧١ .

(٧٢) محمد حسنين هيكل : خريف الغضب ، القاهرة ، مركز الاهرام للترجمة والنشر ، ١٩٨٨ ص ٨٤ .

(٧٣) أنور السادات : البحث عن الذات ص ٢٣٢ .

(٧٤) لواء حسن البدرى وآخران : حرب رمضان ، الجولة العربية الاسرائيلية الرابعة ١٩٧٣ ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٥ ص ٩ .

(٧٥) الندوة الدولية لحرب اكتوبر ١٩٧٣ ، المجلد الثانى ، القطاع السياسى ، القاهرة ١٩٧٦ ، ص ٣٠ — ٣١ .

(٧٦) الاهرام فى ١٩٧٣/١١/١٨ من حديث للفريق أول أحمد اسماعيل

(٧٧) موسى صبرى : وثائق حرب اكتوبر ، القاهرة ، المكتب المصرى الحديث ، ص ٥٤٨ .

(٧٨) البدرى وآخران : المرجع السابق ، ص ١٧٥ .

الفصل التاسع

من منجزات مصر الحضارية

أولا ــ الانجازات الاقتصادية والعمرانية :

١ ــ القناطر الخيرية .

٢ ــ قناة السويس .

٣ ــ انشاء بنك مصر .

٤ ــ مديرية التحرير .

٥ ــ الوادى الجديد .

٦ ــ السد العالى .

ثانيا ــ الانجازات العلمية والثقافية :

١ ــ المطبعة الأميرية .

مجمع اللغة العربية .

اولا ــ الانجازات الاقتصادية والعمرانية

١ ــ القناطر الخيرية

بعد أن وصلت الحملة الفرنسية الى مصر فى عام ١٧٩٨ رأى بعض علمائها أن نهر النيل عندما يصل الى راس الدلتا ينفصل الى فرعين هما فرع رشيد ودمياط ، وأن فرع رشيد رغم كبره يمر فى بقاع معظمها لا يصلح للزراعة فيذهب معظم مائه هباء ، وبالنسبة لفرع دمياط فعلى الرغم من انه يخترق أراضى جيدة التربة فان مياهه لا تكفى للرى فى زمن التحاريق ، كما أن صعيد مصر تشح فيه المياه فى زمن التحاريق لارتفاع أرضه ، ولا ترتوى جيدا الا فى زمن الفيضان . ومن هنا فكروا فى البحث عن وسيلة للانتفاع بمياه فرع رشيد باضافة مياهه الى فرع دمياط عن طريق بناء قناطر على عرض الفرعين عند أول تفرعهما عند راس الدلتا ، وان يصنع لهذه القناطر ابواب من الحديد تغلق وتفتح عند الاقتضاء فاذا اقفلت قناطر أحد الفرعين انصرف جانب من الماء المنحدر اليه الى الفرع الآخر ، واذا كان الفيضان قليلا تقفل قناطر الفرعين فترتفع المياه فى الصعيد حتى تروى أراضيه ثم ينصرف منها ما يلزم لرى الوجه البحرى [١] .

ونتيجة لعدم استقرار الأمور للفرنسيين فى مصر وخروجهم منها فى عام ١٨٠١ تعثر تنفيذ المشروع حتى وصل محمد على الى اريكة الحكم فى مصر وبدأ فى تنفيذ مشروعاته الاقتصادية ادرك قيمة المياه التى تضيع هباء من النيل الى البحر المتوسط واخذ يفكر فى السيطرة على زمام النيل والتحكم فى مياهه والاستفادة منها فى رى القطن والمحاصيل الصيفية مما يعود على مصر بالخير والرخاء وبدأ فعلا فى انشاء قناطر صغيرة على ترعة بحر موريس لتوصيل المياه الى الشرقية وبعد أن نجحت الفكرة [٢] طلب محمد على مشورة مهندسى عصره فقاموا باعداد التقارير ورفعها اليه وكان من أبرز هذه التقارير تقرير كبير مهندسيه المهندس الفرنسى رينان الذى حاز مشروعه قبول والى مصر ويتضمن مشروع

« رينان » انشاء قنطرتين كبيرتين عند راس النيل اى بعد تفرعه وفى كل قنطرة عيون لتخرج منها المياه ، ويتم التحكم فى هذه العيون بانشاء البوابات والأهوسة والأحواض عليها فى كلا الفرعين بحيث اذا حجزت هذه القناطر المياه عن أحد الفرعين أرتفع منسوب المياه فى الفرع الآخر ، وبالتالى تمتلىء ترع هذه الفروع بالمياه التى تروى الأرض فى فصل الصيف حيث يتم الحاجة اليها فى زراعة القطن فى الوجه البحرى الذى كان يعتمد عليه محمد على اعتمادا كبيرا ، كما يتم تصريف المياه الزائدة وفى وقت الفيضان يتم فتح هذه الأبواب وبالتالى تسير المياه فى مجراها الطبيعى .

ونتيجة لذلك اصدر محمد على فى الثانى من جمادى الآخرة عام ثلاثة وستين ومائتين والف قرارا الى ديوان المالية بصرف ماكولات ولوازم الخمسمائة الف عامل الذين سيتم تكليفهم بالعمل لانشاء القناطر الخيرية .

كما جاء فى صحيفة الوقائع المصرية تعيين المهندس الفرنسى لينان للاشراف على تنفيذ حفر الرياحات الثلاثة المراد حفرها وهى ترعة المنوفية والشرقية والبحيرة لايصال ما تحجزه القناطر من مياه كما عين نظارا لادارة أمور العمال وتنظيم أحوالهم بما يضمن انجاز العمل [٣] وقد بدأ الحفر فى الترع الثلاث فى ١٥ جمادى الآخرة ١٢٦٣ هـ ، ولأهمية المشروع أمر محمد على نجله ابراهيم باشا وحفيده عباس باشا بمتابعة العمل ، وسار انشاء القناطر بأسرع ما يستطاع من الهمة والنشاط[٤] وصدرت الأوامر بتسهيل كافة متطلبات المهندسين القائمين بالعمل فى المشروع [٥] ومع ذلك فقد تعرض المشروع لبعض العقبات خصوصا فى عام ١٨٣٥ نذكر منها :

١ — تعرض العمال المكلفين بالحفر للأوبئة التى قضت على معظمهم مما ادى الى بطء العمل فى المشروع .

٢ — تعرض مشروع رينان لمجموعة من الانتقادات الفنية مما أدى الى توقف العمل فيه .

ومع كل ذلك لم تفتر همة محمد على فبعث بالمهندس الفرنسى موجيل

Mougel الذى كان يعمل فى خدمته الى باريس لاستشارة المهندسين المدنيين هناك فى الطرق المثلى لاقامة المشروع على أساس علمى سليم وبعد أن عاد موجيل الى مصر فى عام ١٨٤٢ وعرض على محمد على الأفكار الجديدة بشأن المشروع والتى من أهمها انشاء بعض الاستحكامات عند التقاء فرعى النيل لتكون موضعا حربيا يصلح للدفاع عن مصر وافق محمد على على الفكرة وقرر المضى فى المشروع ، ووضع حجر الأساس لبناء القناطر الخيرية فى التاسع من ابريل من عام ١٨٤٧ وبدأ العمل فى حفر الرياحات الثلاثة الكبرى فى ٣١ مايو ١٨٤٧ وظل العمل ساريا حتى توفى محمد على وخلفه فى الحكم حفيده عباس الأول وفى عهده توقف العمل بالقناطر لفترة بحجة أنه يكلف الخزانة المصرية الكثير من الأموال التى ترهق كاهلها ، وارتأى عباس توفيرا للنفقات أن تؤخذ الأحجار اللازمة للبناء من الهرم الأكبر ، ولكن المسيو لينان أقنعه بخطأ هذا الرأى بحجة أن اقتلاع الأحجار من الهرم يقتضى من النفقات ما يزيد عن نفقات اقتلاعها من المحاجر (٦) ، وسار العمل فى المشروع ببطء مما أغضب الباشا ودفعه الى عزل موجيل واسناد اتمام المشروع الى المهندسين المصريين مصطفى بهجت ومحمد مظهر بك ، واستؤنف العمل بالمشروع ولكن واجهته بعض الصعوبات ولم يتم بناء القناطر وانشاء رياح المنوفية الا فى عهد سعيد باشا (٧) .

وفى أعقاب ذلك لحق باساسات المشروع خلل هدده من اساسه . ولما تولى اسماعيل باشا الحكم ووجه عنايته الى اصلاح الخلل فى المشروع (٨) عهد الى كبار مهندسيه من الأجانب والمصريين باتخاذ اللازم ولكن مقترحاتهم لم تخرج الى حيز التنفيذ .

وبعد أن تولى الخديو توفيق عرش مصر فى عام ١٨٧٩ تطورت الأمور فى البلاد لدرجة انتهت بها الى الاحتلال الانجليزى ، ومع ذلك فقد تم خلال عهده القيام بمجموعة من الأعمال والانشاءات لاصلاح هذا الخلل (٩) .

وفى عهد عباس الثانى استكملت بعض الاصلاحات بحيث أصبحت القناطر من المتانة ما سمح لها بتأدية عملها بشكل واضح وفى أعقاب

ذلك وجهت الحكومة المصرية جهودها لاصلاح معظم الترع التى تستقى من القناطر ، كما عملت على تحسين الملاحة فى الترع ، وتسهيل سبل وصول السفن من الترع الى النيل ومد خليج القاهرة بمقادير كافية من المياه طوال أيام السنة .

وهكذا كان مشروع القناطر الخيرية من أهم أعمال الرى التى شيدت فى العالم فى ذلك الوقت .

الفوائد التى حققتها القناطر الخيرية لمصر :

١ ـ زيادة مساحة الأراضى الزراعية من ٢ مليون فى عام ١٨٢١ الى ثلاثة ملايين وثمانمائة وستة وخمسين الف فدان فى عام ١٨٤٠ .

٢ ـ زيادة وتنوع الحاصلات الزراعية واتساع حركة النشاط التجارى .

٣ ـ تحويل نظام الرى فى الوجه البحرى ومصر الوسطى من رى الحياض الى الرى الدائم .

٤ ـ زيادة محصول القطن بالوجه البحرى بما يقرب من مليون وستمائة الف قنطار .

٥ ـ تخزين المياه فى وقت الفيضان للانتفاع بها فى رى الأراضى الزراعية وقت انخفاض منسوب النيل وزمن الجفاف .

٦ ـ رى معظم أراضى الوجه البحرى عن طريق ما تخزنه القناطر خلفها من مياه .

٢ ـ نشأة وتطور فكرة قناة السويس

فكرة ربط البحرين الأحمر والمتوسط لها تاريخ طويل ، مرتبط بتاريخ مصر على مر العصور ويرجع السبب فى ذلك الى وجود منطقة تفصل البحر الأحمر عن البحر المتوسط ، وتعرف ببرزخ السويس .

وقد دفعت فكرة ايصال البحر المتوسط بالأحمر العديد من ملوك مصر فى عهد الفراعنة الى البحث عن الطرق الموصلة الى ذلك وانحصر جل اهتمامهم أن يكون ذلك الاتصال عن طريق وادى النيل [١٠] ومن اشهر هذه المحاولات قيام سنوسرت الثالث ، احد ملوك الأسرة الثانية عشر بربط البحرين بطريق غير مباشر عن طريق وادى النيل وفروعه فأصبحت السفن القادمة من البحر المتوسط تلزم السير فى الفرع البيلوزى من النيل حتى تصل يوباستس (الزقازيق الحالية) ومنها تتجه شرقا الى تيخاو (أبو صير الحالية) ثم تعبر البحيرات المرة الى البحر الاحمر [١١] ولم تلبث هذه القناة أن ردمت الى أن أعاد فتحها الفرعون « نخاو الثانى » فى عام ٦١٠ ق.م ولكنها أهملت .

وبعد أن حكم الفرس مصر اهتم دارا الأول ملك الفرس فى عام ٥١٠ ق.م ببرزخ السويس حيث كان الطريق الموصل الى بلاد فارس فاعاد حفر القناة وادخل عليها بعض التحسينات ، ثم أهمل شأنها بعد ذلك . وعندما استولى الاغريق على مصر قام الملك الاغريقى بطليموس الثانى فى عام ٢٨٥ ق.م ثم بطليموس الثالث فى عام ٢٤٦ ق.م باصلاح مجرى القناة واعادة الملاحة اليها ، ولكنها اهملت على مر الأيام [١٢] وبعد أن وصل الرومان الى مصر اهتم الامبراطور الرومانى تراجان (٩٨ — ١١٧م) بحفر قناة جديدة عرفت بقناة تراجان [١٣] ولكنها اهملت فى العهد البيزنطى وطمرتها الرمال الأمر الذى جعلها غير صالحة للملاحة [١٤] .

ولما وصل الفتح الاسلامى الى مصر أمر الخليفة عمر بن الخطاب قائده عمرو بن العاص بضرورة اعادة اصلاح القناة بعد اندثارها فى العصر البيزنطى [١٥] وظلت القناة مفتوحة للملاحة بعد أن أعاد « عمر بن العاص » شقها فى عام ٢٢هـ ٦٤٢م وسميت بقناة أمير المؤمنين ، واستمر الحال على ذلك ، حوالى مائة وخمسين سنة حتى اغلقت بأمر من الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور ، حتى لا تستخدم فى التمرد على سلطته .

ونتيجة لذلك قلت أهمية هذا الطريق خصوصا بعد قيام حركة الكشوف الجغرافية واكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح .

هذا عن فكرة شق القناة فى العصور القديمة والوسطى أما فى العصر الحديث فقد بذلت أربع محاولات لانشاء قناة تصل بين البحرين كانت أولها فى عهد السلطان العثمانى مصطفى الثالث الذى طلب من المهندس الفرنسى البارون دى توت القيام بدراسة هذا المشروع ، ولكن وفاة هذا السلطان قد أدى الى عدم اتمام هذه المحاولة [١٦] وقد حدثت المحاولة الثانية عندما وصلت الحملة الفرنسية الى مصر حيث اهتم بونابرت بفكرة حفر القناة ، وأوكل هذه المهمة الى المهندسين الذين رافقوه فى حملته [١٧] ولكن نتيجة لمعلومات خاطئة اعتقد المهندس الفرنسى ليبير وبعض زملائه بأن منسوب مياه البحر الأحمر تزيد بحوالى تسعة أمتار [١٨] عن مستوى سطح البحر المتوسط مما أدى الى توقف المشروع[١٩] .

وفى عصر محمد على نبتت المحاولة الثالثة لانشاء المشروع حيث قامت جماعة السان سيمونيين المشهورة بانشاء جمعية الدراسات الخاصة بقناة السويس ، وارسلت هذه الجمعية بعثة لاقناع محمد على بالمشروع ، ولكن محمد على لم يستجب لطلبهم ، بحجة انه يريد أن يقوم بهذا العمل بنفسه ،وبغير تدخل من أية شركة اجنبية ، ولكن بمعاونة مهندسين أوربيين مهرة يلحقهم بخدمته ، مؤكدا أن القناة يجب أن تنشئها مصر ، وان تكون ملكا مطلقا لها ، وان تظل بعد حفرها على الحياد المطلق تنتفع بها جميع الدول على قدم المساواة دون أن يكون لأية دولة منها امتياز على دولة أخرى ، وانه فى حالة موافقة الدول الكبرى على ذلك فانه سيبدأ بتنفيذ المشروع [٢٠] .

وظل محمد على متمسكا بآرائه حول تنفيذ هذا المشروع حتى وفاته .

أما عن المحاولة الرابعة فقد حدثت فى عهد سعيد باشا رابع أولاد محمد على الذى وافق المهندس الفرنسى فرديناند دى ليسبس على أهمية القيام بشق قناة السويس مما أغضب الحكومة الانجليزية التى كانت تخشى من امتداد النفوذ الفرنسى ، الا أن وزير الخارجية الفرنسى نفى صلة دى ليسبس بالحكومة الفرنسية واعلن أن حكومته لا تهدف الى

تحقيق مصلحة خاصـــة من وراء هذا المشروع [٢١] ومع ذلك فقد بذلت بريطـــانيا جل جهودها لمنع الفرنســـيين من الانفراد بهذا المشروع التى كانت تعده خطرا على سياستها فيما وراء البحار [٢٢] .

ولكنها لم تفلح فى مســـعاها حيث نجح دى ليسبس [٢٣] فى الحصول على امتيـــاز حفر قناة السويس فى ٣٠ نوفمبر ١٨٥٤ وكان سعيد باشـــا سخيـــا مع صديقه الفرنسى فمنح شركته امتيازا لاستغلال منطقة القنـــاة لمدة ٩٩ عاما تبتدىء من يوم فتحه للمـــلاحه ، وصحب ذلك منحه تسهيلات واســـعة النطـــاق [٢٤] مما جعل هذه الشركة دولة داخل الدولة ثم أعقب ذلك الامتيـــاز امتياز آخر فى عام ١٨٥٦م كانت شروطه كما يلى :

١ ــ انشـــاء ترعة للمياه العذبة تأخذ مياهها من النيل وتتفرع الى فرعين أحدهما يصـــل الى السويس والآخر الى بور سعيد .

٢ ــ تتنازل الحكومة عن جميع الأراضى المطلوبة لانشـــاء القنـــاة للشـــركة مجـــانا .

٣ ــ تتنازل الحكومة عن جميع الأراضى القـــابلة للزراعة لتقـــوم الشركة باستصلاحها وزراعتهـــا .

٤ ــ انتزاع بعض الأراضى المملوكة للأفراد لمصلحة الشركة .

٥ ــ يحصل الأفراد الذين يريدون الانتفـــاع بمياه الترعة العذبة على ترخيص من الشـــركة ، ويدفعون تعويضا مقـــابل ذلك .

٦ ــ تعفى الشركة من دفع الرســـوم والضرائب والتعويضات عن استغلال المنـــاجم والمحاجر ، وكذلك الرسوم الجمركية والعـــوائد مـــن الآلات والمواد المستوردة من الخارج طول مدة الامتياز .

٧ ــ حدد أجل الامتيـــاز بمدة ٩٩ عاما من افتتاح القناة ثم تؤول بعد ذلك الى الحكومة المصرية .

٨ ــ يحق للشركة أن تفرض ما تـــراه من الرسوم على الســـفن

المارة بالقناة أو الترع والمبـــانى التابعة لها على الا تزيد عن عشرة فرنكات عن كل طن وكل شخص من المســـافرين .

٩ — فى مقابل الأراضى والامتيازات تحصـــل الحكومة المصـــرية على ما نسبته ١٥ ٪ من صافى الأرباح السنوية .

١٠ — تعهدت الحكومة المصرية بمد الشركة بأربعة اخمـــاس العمال اللازمين للحفر ، كما كلفت الحكومة موظفيها وعمالها بمساعدة الشركة(٢٥) .

وبنظرة فاحصـــة نستطيع ان نذكر ان شروط امتياز القنـــاة كان ضررها فـــادحا بالنسبة لمصر خصـــوصا وان آلاف الرجـــال الذين كانوا يعملون فى الحقـــول سحبوا للعمل بهذا المشروع وفتكت بهم الحمى ورداءة الجـــو والجوع ، على كل حـــال فقد تأسست الشركة برأسمال قـــدره ٢٠٠ مليون فرنك ، أى ما يوازى ٧٫٧١٥٫٠٠٠ جنيه مصرى وقسم هـــذا المبلغ على ٤٠٠٫٠٠٠ سهم ، وكانت القيمـــة الأسمية للسهم ٥٠٠ فـــرنك وقد خصصت الشركة لكل دولة من الدول عددا معينـــا من هذه الاسهم وكانت حصـــة مصر منها ٩١٠٩٦ سهما ، ولما لم تســـتطع خزينتها الوفاء بهذه الالتزامات استدانت ٢٨ مليون فرنك بفوائد باهظة .

ومع كل ذلك فاذا كانت مصر قد انفقت أمـــوالا طائلة لانجاح المشروع فمن المعلوم أن هـــذا المشروع أدى الى فقدانها ما هـــو أعز من المـــال الا وهو الاستقلال والحرية(٢٦) .

وفى الخامس والعشرين من ابريل ١٨٥٩ م ومن موضع مدينة فـــرما الأثرية (بور سعيد حاليا) كانت ضربة الفـــأس الأولى لحفـــر القنـــاة الحـــالية الذى استمر حـــوالى عشر سنوات .

وبعد وفـــاة سعيد وتولية اسماعيل اريكة الحـــكم حاول ان يعدل من شروط الامتيـــاز المجحفة التى وافق عليها سلفه مما جعـــل المهنـــدس « دى ليسبس » يرغى ويزيد ويطلب نجـــدة حكومته ، ونتيجة لـــذلك تدخلت فرنســـا فى الأمر لدى الحكومة المصرية . واسترضاء لفرنسا قبل الخديو اســـماعيل تحكيم الامبراطور الفرنسى نابليون الثـــالث فى هـــذا الموضـــوع .

وبدلا من مقابلة روح الود بمثلها استغل الامبراطور الفرنسى هذه الفرصة لتعويض الشركة بمبالغ طائلة من المال على حساب الخزانة المصرية فنص قرار التحكيم الصادر فى السادس من يوليو على دفع تعويض مقداره ٣٫٣٦٠٫٠٠٠ جنيه مصرى للشركة فى مقابل تخليها عن الأراضى الزراعية الواقعة على جانبى القناة ، واعادة ملكية ترعة المياه العذبة الى الحكومة المصرية [٢٧] .

وعلى كل حال فقد استمر العمل فى حفر القناة فى ظل ظروف قاسية ، واجور منخفضة للعمال المصريين بشكل كاد يجعل هذا العمل أقرب ما يكون الى السخرة فحدد أجر العامل المصرى ما بين قرش وثلاثة قروش [٢٨] .

وبعد جهود وتضحيات من جانب العمال المصريين انتهى العمل فى القناة ، واتصلت مياه البحرين وبلغ طول القناة ١٦٤ كيلومترا وانشئت على شاطئها مدينتى بور سعيد والاسماعيلية وسميت القناة « قناة السويس » ، وافتتحت للملاحة العالمية فى ١٧ نوفمبر ١٨٦٩م .

وقد استعدت مصر للاحتفال بهذا الافتتاح بكل امكاناتها [٢٩] فسافر اسماعيل الى أوربا فى يوليو ١٨٦٩ لدعوة ملوك أوربا وملكاتها لحضور حفل الافتتاح [٣٠] دون أن يخطر السلطان العثمانى بذلك الأمر أو حتى يدعوه للحضور . كما أمر باقامة ثمانية قصور للمدعويين . منها قصر الجزيرة (فندق ماريوت الآن) ونادى الجزيرة كان جزءا منه وقد أعده لاقامة أوجينى امبراطورة فرنسا وزوجة الامبراطور نابليون الثالث .

وقد أمر اسماعيل بوضع ٧٥ نوعا من الحيوانات ، ١٥٠ نوعا من الطيور وزرع النباتات الاسبانية لتكون تحت نافذة حجرة نوم الامبراطورة « أوجينى » الذى كانت أهم ضيوف حفل الافتتاح وموضع اهتمام خديو مصر بها [٣١] كما رأى اسماعيل أن ينشىء دارا للاوبرا بمناسبة الافتتاح فتولى تصميمها مهندسان ايطاليان ثم عهد الى مارييت باشا مدير الآثار المصرية باختيار قصة موضوعها مصرى تدور حولها الالحان فكانت أوبرا

عايدة التى لحنهـا الموسيقـار الايطالى المشهور « فيردى » فى نظير مبلغ ١٥٠ الف ليرة ايطالية ذهبية [٣٢] . وقد احتفل بافتتاح القناة فى ١٧ نوفمبر ١٨٦٩ بتلاوة من القرآن الكريم ، وبعدها اقام الخديو حفلا ساهرا فـى مدينة الاسـماعيلية حضره اكثر من ثمانية آلاف مدعو فى قصور وخيـام وسـط الصحراء [٣٣] كل ذلك زاد الخزانة المصرية ارهاقا حيث بلـغ مجموع ما انفق على هذه الحفلات ما يزيد عن المليون والنصف من الجنيهات، وهـو مبلغ يوازى حوالى سـدس ايراد مصر فى سنة كاملة [٣٤] .

ونتيجة لاسراف الخديـو اسماعيل وعدم قدرته على سداد ديـونه قام ببيـع أسهم مصر فى القنـاة الى انجلترا وعددها ١٧٦٦٤٢ بمبلـغ أربعـة ملايين جنيه استرلينى وكان بنك روتشيلد هو الذى مول الصفقة، وكان هـو فى نفس الوقت صـاحب القسـط الأكبر من ديون اسماعيل. وعندما شحنت أسـهم مصر فى قناة السويس فى عـدد من الصـناديق الحديدية على ظهر البـاخرة البريطانية « ملابار » فى شهر نوفمبر ١٨٧٥ أصبح واضحـا أن مصر لم تعد تملك شيئـا فى شركة القناة ، بـل ان الشركة هى التى أصبحت بوسـعها أن تحدد مصير مصر [٣٥] وتواصل دور الدولة داخل الدولة ، مما جـر على مصر الويلات ، وأدى الى زيادة الأطمـاع الأوربية فيها ، وعلى الرغم من ذلك فقد أدى حفر القنـاة الى انتعـاش الحركة العمرانية على جانبيها ، كمـا أدى الى زيادة الحركة الملاحية والنقل البحرى العـالمى خصوصا بعـد استخـدام البخـار ، وظهور الثورة الصناعية فى أوربا [٣٦] .

كمـا أن قناة السويس قد اختصرت المسـافة التى كانت تقطعهـا السفن التجـارية بين الشرق والغرب عن طريق راس الرجاء الصالح ، وافتقدت البلدان المطلة على البحر المتوسط كالبندقية وجنـوة اهميتهـا التجـارية [٣٧] .

وازدادت أهمية القناة بعد ظهور البترول لقربها من مناطق الانتاج .

واذا كانت القناة قد فقدت أهميتها السياسية والاستراتيجية بعد الحرب العالمية الثانية نتيجـة للاستراتيجية النووية التى اختصرت المسافة وقصرت من بعد المكان ، وقللت من أهمية القنـاة فى الاستراتيجية العـالمية فان

قيمة القناة الاقتصادية والتجارية قد بقيت ثابتة خصوصا بعد تزايد احتياج دول أوربا وأمريكا الى البترول التى ينقل معظمه من الشرق الأوسط عبر القناة [٣٨] . هذا الى جانب ان عمليات التطوير المستمرة فى القناة ، وزيادة عمقها واتساعها قد جعل من الممكن مرور ناقلات البترول الضخمة والتى تزيد حمولتها عن ٤٥ مليون طن فى القناة [٣٩] .

تأميم القناة والعدوان الثلاثى على مصر

بعد أن أجرت مصر مباحثات مع البنك الدولى للانشاء والتعمير بخصوص عقد قرض بمبلغ ٢٠٠ مليون دولار لانشاء السد العالى وأبدت كل من الولايات المتحدة وبريطانيا استعدادهما للمساهمة فى تنفيذ المرحلة الأولى من المشروع أعلنت الحكومة الأمريكية فجأة تراجعها عن تمويل المشروع فى ١٩ يوليو ١٩٥٦ م وتبعتها بريطانيا فى اليوم التالى ، وتذرعت الدولتان أن السبب فى ذلك هو التشكيك فى مركز مصر المالى وعدم مقدرتها على الوفاء بالتزاماتها . وكان رد مصر على ذلك هو اعلان جمال عبد الناصر فى خطابه التاريخى فى ميدان المنشية بمدينة الاسكندرية فى السادس والعشرين من يوليو ١٩٥٦ قرار تأميم شركة قناة السويس من أجل الافادة من دخلها فى تنفيذ مشروع السد العالى مما أحدث ضجة عالمية شديدة وكان بمثابة ادارة الزر لمجموعة متلاحقة من الأحداث تدافعت وكانما كانت حبيسة فى قمقم ، فلم تكد تحس انه قد اذن لها فى الانطلاق حتى خرجت مندفعة الى الامام . فنتيجة لهذا القرار سحبت الدول الأوربية مرشديها من القناة ، مما أعطى دفعة كبيرة للادارة المصرية للقناة للقيام بدورها التاريخى حتى لا تعطى لدول الغرب فرصة التدخل فى شؤون مصر بحجة عدم قدرتها على ادارة الشركة ، واستعانت فى ذلك باستقطاب بعض المرشدين من الهند ويوجوسلافيا والاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة بالاضافة الى المرشدين المصريين وتم ادارة الشركة باقتدار .

وقد ايدت معظم الدول العربية مصر وخاصة السعودية ، وسوريا، والأردن ، ولبنان ، والعراق .

ونتيجة لفشل المؤتمرات التى عقدتها بريطانيا وفرنسا بهدف بحث موضوع تأميم القناة اجتمع مجلس الأمن لبحث اعمال انجلترا وفرنسا المهددة للسلام العالمى بالاضافة الى مناقشة طلب انجلترا وفرنسا النظر فى موقف مصر بالنسبة للقناة وبعد المناقشات السرية والعلنية تقرر ما يلى :

٢ — أن تحترم سيادة مصر على القناة .

١ — ان تكون الملاحة فى القناة حرة ومفتوحة للجميع دون تمييز .

٣ — ان تكون ادارة القناة منفصلة عن سياسات كل الدول .

٤ — أن تحدد رسوم القناة بالاتفاق مع المنتفعين .

٥ — أن تخصص نسبة عادلة للتحسينات والتطوير .

٦ — فى حالة النزاع يسوى الأمر بالتحكيم (٤٠) .

وعلى الرغم من موافقة مصر على هذه القرارات فان بريطانيا وفرنسا رفضتها ، وبدأت استعداداتها العسكرية ، كما اتفق قادة كل من فرنسا وبريطانيا واسرائيل على القيام بعدوان ثلاثى على مصر بهدف القضاء على حكم عبد الناصر .

وكانت خطة الهجوم أن تشن اسرائيل عدوانها على سيناء حتى تشغل القوات المصرية بمواجهتها على أن تقوم بريطانيا وفرنسا بتوجيه انذار الى كل من مصر واسرائيل بوقف الاعمال الحربية والانسحاب عشرة أميال من ضفتى القناة كما أعلنتا عن رغبتهما فى احتلال بور سعيد والاسماعيلية اذا لم تلبى مصر الانذار خلال اثنى عشرة ساعة (٤١) .

ومن هنا انكشفت المؤامرة ، وقد رفضت مصر الانذار واعتبرته اعتداء على حقوقها وكرامتها وطالبت بانعقاد مجلس الأمن للنظر فى هذا العدوان الغاشم كما أعلنت التعبئة العامة وصممت على القتال (٤٢) .

وقد عمدت القوات المصرية الى سد مداخل القناة للدفاع عنها ،

فى حين أخذت انجلترا وفرنسا تضرب مدينة بورسعيد بقنابل الطائرات وبطاريات البوارج الحربية كما انزلت كتائب من المظليين الى المدينة[٤٣] .

ونتيجة لذلك وقفت دول العالم الحر بجانب مصر كما تدخل مجلس الأمن لوقف العدوان والدعوة لوقف اطلاق النار فورا وسحب القوات الأجنبية من الأراضى المصرية فورا ، كما أرسل مجلس الأمن قوة من البوليس الدولى لمراقبة تنفيذ القرار والوقوف بين قوات مصر واسرائيل درءا لتجدد الاشتباكات[٤٤] .

وهكذا انتهى التآمر الثلاثى دون أن يحقق أهدافه فخرجت قوات المعتدين تجر اذيال الخيبة والفشل بينما خرجت مصر منتصرة ، فالغت كافة الاتفاقات المعقودة بينها وبين بريطانيا وفرنسا .

وفى أعقاب ذلك بدأت مصر فى تطهير قناة السويس ، واشرفت الأمم المتحدة على عمليات التطهير التى تمت بسرعة فائقة وكفاءة ممتازة ، وعادت الملاحة فى قناة السويس فى التاسع من ابريل ١٩٥٧م وأصبحت تحت اشراف الهيئة المصرية لقناة السويس .

ومنذ أن عادت قناة السويس الى أصحابها الحقيقيين بقرار التأميم وهم يديرونها بقوة وبكل جهد لتطويرها وتحسينها ، ونظرا لتطور حركة الملاحة العالمية والتطور الكبير فى بناء ناقلات السفن كان لزاما دراسة تطوير القناة لتساير هذا التطور فى بناء السفن ففى عام ١٩٥٨ بدأت هيئة قناة السويس بتنفيذ مشروع توسيع وتعميق القناة للوصول بمساحة القطاع المائى الى ١٨٠٠ مترا مربعا والغاطس المسموح به ٣٨ قدما .

وفى منتصف عام ١٩٦٦ قامت هيئة قناة السويس بعمل دراسات لتطوير القناة للوصول بمساحة القطاع المائى الى ٣٦٠٠ مترا مربعا والغاطس المسموح به ٦٠ قدما وذلك لاستيعاب الناقلات الضخمة .

ومع بداية عام ١٩٦٧ بدأت الهيئة تنفيذ المشروع ، ولكن توقف العمل فيه ، كما توقفت الملاحة بالقناة بسبب العدوان الاسرائيلى فى ٥ يونيو ١٩٦٧ .

وكان للعدوان الاسرائيلى على مصر فى عام ١٩٦٧ أكبر الأثر على تعطيل حركة الملاحة بقناة السويس لمدة استمرت ثمانى سنوات كانت القناة خلالها تمثل مانعا طبيعيا يفصل بين الجيش المصرى والاسرائيلى على الضفة الشرقية للقناة خطا دفاعيا سمى بخط بارليف ليخفى وراءه تحركاته ، ومن هنا تأثرت القناة تأثرا مباشرا ، ونتيجة لذلك قامت هيئتها بنقل غالبية معداتها وورشها ومخازنها الى مناطق بعيدة عن مدافع الاسرائيليين ، ومع ذلك فقد بلغت جملة خسائر قناة السويس من ايرادات وتلفيات حوالى ١٥٠٠ مليون جنيه ، كما كان لتوقف الملاحة أثره الواضح على التجارة والاقتصاد العالميين خصوصا وان وضعها الجغرافى يجعلها أقصر الطرق التى تربط بين الشرق والغرب ولقد قرر مؤتمر الأمم المتحدة المنعقد فى جنيف فى اكتوبر ١٩٧٣ الخسائر التى أصابت الاقتصاد العالمى نتيجة لتوقف الملاحة بالقناة بحوالى ١٧٠٠ مليون دولار أمريكى سنويا تتمثل معظمها فى زيادة تكلفة النقل .

ومع كل هذه المعوقات والخسائر فان هيئة القناة لم تفقد الأمل فى عودة الملاحة الى وضعها الطبيعى فى القناة حتى تؤدى رسالتها فى خدمة الملاحة العالمية .

وبعد حرب اكتوبر ١٩٧٣ وما حققه الجيش المصرى من عبور ناجح للقناة بدأ التمهيد لتطهير القناة واعدادها لاعادة الملاحة فيها وقد تم ذلك فى ٥ يونيو ١٩٧٥ وكان لذلك أثره الكبير على المنطقة بصفة عامة .

ونتيجة لما تحملته مصر من نفقات باهظة فى تطهير القناة وزيادة صلاحيتها لخدمة حركة الملاحة ، واعتزام الهيئة المضى قدما فى توسيعها وتعميقها بما ييسر حركة المرور فيها ، وبالنظر الى التغييرات الجذرية التى تعرض لها الاقتصاد العالمى فى السنوات الأخيرة رأت الحكومة المصرية ضرورة اعادة النظر فى رسوم استخدام مرفق القناة التى كانت سارية قبل اغلاقها ، وتجديد فئات رسوم جديدة تتفق وتلك المتغيرات[٤٥] وعن نظام المرور فى القناة فان السفن تمر بنظام القوافل ، وتدخل القناة ثلاث قوافل يوميا ، قافلتان من الشمال ، وقافلة من الجنوب،

وتخضع كل قافلة لنظام محدد من حيث موعد دخول القناة والسرعات والمسافات بين السفن فى القافلة الواحدة وتسمح القناة بالمرور فى اتجاه واحد ، وتزدوج فى ثلاث مناطق الأولى عند بور سعيد بطول أربعة كيلومترات ، والثانية عند البلاح بطول عشرة كيلومترات ، والثالثة فى البحيرات المرة الكبرى عند كبريت بطول سبعة كيلومترات ، وذلك لربط قافلتى الشمال فيها للسماح لقافلة الجنوب بالعبور دون توقف حيث انها تضم سفن البترول المحملة .

ويتم ارشاد السفن من منطقة الانتظار حتى خروجها ، ويقدر الزمن فى المتوسط الذى تستغرقه السفينة عادة منذ وصولها الى منطقة الانتظار حتى خروجها للبحر المفتوح بحوالى ٢٤ ساعة الى ٢٦ ساعة منها حوالى ١٤ ساعة عبورفعلى [٤٦] .

ولم يقتصر نشاط هيئة قناة السويس على الملاحة عبر القناة فقط بل تقوم أيضا بتقديم الخدمات اللازمة للسفن العابرة للقناة وذلك عن طريق ترسانتى (بور سعيد البحرية وبور فؤاد البحرية) فى صورة اصلاحات خفيفة أو عمرات كاملة .

وعن أثر قناة السويس فى الاقتصاد العالمى فانها تختصر المسافة بين الشرق والغرب بين ١٧ ٪ و٥٩ ٪ وتوفر الوقود بين ٥٠ ٪ و٧٠ ٪ تبعا لحمولة السفن وسرعتها ووجهتها ، ولا شك أن اى وفر فى المسافة ينعكس كوفر فى وقت الرحلة وفى تكاليف النقل علاوة على زيادة عدد الرحلات السنوية التى تعملها السفينة ، ومن كل هذا تعتبر قناة السويس خير مقياس للتطور الاقتصادى العالمى اذ أن البضائع التى تعبر القناة تمثل نسبة كبيرة من التجارة بين الشرق والغرب ، ومهما حاول بعض المغرضين التقليل من أهمية قناة السويس على أنها لم تتمكن من أداء مهمتها بعد بناء الناقلات العملاقة ، فان هذه القناة اثبتت انها قادرة على استيعاب الناقلات العملاقة بعد تنفيذ مشروع تطويرها .

٣ — بنك مصر

كانت فكرة بنك مصر حلما راود الوطنيين المصريين منذ استبد الأجانب باقتصاديات البلاد فى عهد الخديو اسماعيل فاجتمع كبار التجار فى شهر ابريل ١٨٧٩ لتقرير « أمر يحاولون به تخليص الوطن من أسر الديون » التى أثقلته وهو الشروع فى فتح بنك وطنى يكون راسماله أربعة عشر مليونا من الجنيهات تجمع من سائر أبناء الأمة على اقساط . وتقدم هؤلاء الى الحكومة بمذكرة تفسيرية عن هذا البنك ذكروا فيها أن ادارة البنك ستكون وطنية ونتيجة لاحتلال انجلترا لمصر خمدت فكرة انشاء مثل هذا البنك الى أن دعا طلعت حرب الى انشاء بنك مصر ، وكان من نتيجة المقالات التى كتبها حول هذا الموضوع أن عرض المؤتمر المصرى الذى انعقد فى عام ١٩١١ لفكرة بنك مصر وقررت لجنة المؤتمر حاجة البلاد الى انشاء بنك مصرى وبانتهاء الحرب العالمية الأولى شمر طلعت حرب عن ساعديه يدعو الى انشاء البنك بكل همة ونشاط حتى أعلن فى ٧ مايو ١٩٢٠ تأسيس بنك مصر وخطب فى المحتفلين قائلا (بجانب البنوك الأجنبية أراد المصريون أن يكون لهم بنك يعمل عمل هذه البنوك ، ويخدم مصر كما يخدم كل منها بلدا آخر ، ويضع يده فى يد كل ناهض بمصر الى الامام ، وكل مريد الخير لها) .

والواقع أن تأسيس بنك مصر ونجاح رسالته كان امتحانا تاسيا لكفاءة المصريين ومقدرتهم ومدى تمسكهم بحقوقهم وغيرتهم على واجبهم . وكان المصريون جميعا أمام امتحان عسير يمثل الدفاع عن كرامتهم وسمعتهم كشعب يأبى الاستغلال الاقتصادى ولم يكن الموقف مقصورا على أولئك الـ ١٢٦ مصريا الذين اشتروا أسهم بنك مصر ودفعوا لطلعت حرب ثمانين الف جنيه راسمال البنك فى عام ١٩٢٠ .

وتقدم طلعت حرب بقلب ثابت وارادة قوية دفعت بالبنك الى الامام فبعد أن كان راس مال البنك ثمانين الف جنيه فى عام ١٩٢٠ أصبح نصف مليون جنيه فى ٢٦ يناير ١٩٢٥ ثم ارتفع الى مليون جنيه فى ٢٦ ديسمبر ١٩٢٧ .

وهكذا نجحت فكرة طلعت حرب فازدادت ثقة المصريين بأنفسهم لقد أوجد طلعت حرب طائفة من المصريين تحسن أعمال البنوك واستطاع ان ينشيء بنك مصر بعشرين موظفا فتح بهم البنك أبوابه وبدأ معاملاته فاذا العشرون يصبحون مائة ضعف ويزيد يديرون أعمال البنك صغيرها وكبيرها .

ولم يقف الأمر عند بنك مصر فى القاهرة ، فقد أصبحت له فروع ومكاتب فى العاصمة ثم فى سائر المدن المصرية ثم جاوز حدود مصر الى العواصم العربية مشيرا الى قوة العزيمة المصرية فى مواجهة التحديات (٤٧) .

٤ — مديرية التحرير

انشئت هذه المديرية لزيادة الثروة القومية بزراعة مساحات كبيرة من الصحراء ، ولكى تصبح مصدرا جديدا للانتاج ، ولقد أصبح هذا المشروع حقلا للتجارب الخاصة بزراعة الصحراء ، وبمثابة نقطة ارتكاز فى استصلاح واستزراع وتعمير الصحراء .

وقد بدأ استصلاح الصحراء بتسوية الأرض حيث قام أسطول ميكانيكى ضخم حتى لا تتجمع مياه الرى فى الاجزاء المنخفضة دون غيرها واستخدمت فى ذلك جرارات قوية ، وبعدها تم حرث الأرض وتخطيطها بالوسائل الميكانيكية الحديثة وامدادها بالسماد العضوى ثم زرعها .

وتم حفر الترع بواسطة كراكات ، ويبلغ طول ترعة التحرير الرئيسية والتى تستمد مياهها من الرياح البحيرى حوالى ٢٠ كيلومترا ، وهذا خلاف الترع الفرعية المبطنة التى يقدر طولها بحوالى عشرين كيلومترا كما أنه تم انشاء ١٩ محطة للرفع بها ٥٢ ماكينة من أنواع مختلفة ، ولقد تم انشاء ٣٣٥ بئرا ، كما تم اقامة محطات للكهرباء بهدف الاستفادة من القوى الكهربائية فى ادارة محطات الرى كما تم انشاء أربعة كبارى على ترعة التحرير الرئيسية ، وكذا تم اقامة ٢٢ قنطرة على فروع ترعة التحرير .

وكان الهدف الاول عند وضع السياسة الزراعية لمديرية التحرير هو بناء تربتها والمحافظة عليها وحمايتها من عوامل الارتداد ، وتمكين السكان من الحصـــول على دخل مناسب لهم ، وكذا توجيه الزراعة نحو الاكتفاء الذاتى مع التخصص فى الوقت نفســه ، ولذلك انشىء بالمديرية قســم لابحاث الأرض واقيم معمل كبير فى قرية أم صابر لتحليل التربة ، كـــما زرعت مصـــدات الرياح من الأشجـــار الخشبية على جـــوانب الطرق ، وحول الأرض المزروعة لحمـــايتها من العواصف الرملية . كمـــا أنه تمت زراعة الفـــواكه والموالح على اختلاف انواعها ، ويزرع بالمديرية محاصيل صيفيـــة وهى الفول الســـودانى والبرسيم والبطيخ والطماطم والـــذرة الهجين والخضروات ، ومحـــاصيل شـــتوية وهى القمح والشعير والفول البـــلدى والرومى والعدس والكتـــان والحلبة والبســـلة كما تزرع أنواع من الشـــمام وكوز العســـل والفراولة وغيرها واهتمت المديرية بالتوسع فى الانتاج الحيوانى ، ويضم قسم الانتاج الحيوانى بها سلالات ممتازة ، وانـــواعا نادرة من الأبقـــار ، وتدر الواحدة منها حوالى ستة آلاف رطل لبن طـــول الموســـم كما توجد بالمديرية قطعـــان كبيرة من الأغنام وأكبر حظـــائر للدواجن والأرانب من أنواع مختلفة .

وتتكون القرية من مبـــانى سكنية اعدت للموظفين والفلاحين وروعى فيها تـــوافر الشروط الصحية ، وبنيت هذه المســـاكن من الطوب الاسمنت المفرغ لعزله عن العوامل الجوية من حر وبرد .

وقد اقيم بالمديرية مركز لتحقيق أغراض التصنيع الزراعى بالمديرية ولســـد حاجتها بما يلزمها من صناعات مختلفة فاقيمت مصانع الأغـــذية المحفوظة والطـــازجة لتصنيع منتجـــات المديرية الصناعية ، كما زودت بمبنى للثلاجات وغرف التبريد ، واقيم مصنع للطـــوب والمواســـير الاسمنتية ومصنع للصفيح وآخر للميـــاه الغـــازية والعـــديد من المصـــانع اللازمة للحياة الكاملة حتى بلغت المساحة الكلية المقـــام عليها هذه المصانع حوالى ١٢٠ فدانا[٤٨] .

٥ ــ الــوادى الجــديد

فى الواحات الخــارجة والداخلة وســيوة والفرافرة توجد مساحات واســعة صالحة للزراعة وتبلغ مســاحتها ملايين الأفدنة ، ومجموع هذه الأراضى اطلق عليه الوادى الجديد ، وقد اثبتت التقــارير الفنيــة التى أجريت صــلاحية ٣٠ الف فدان حول قرية بــاريس للــزراعة وكــذلك ١٧٫٥٠٠ فدان موزعة فى منطقة المحــاريق وعــين الملك فى الواحــات الخارجة ، وقد بدأ الخبراء فى زراعة الف وثلثمائة فــدان بصفة مبدئية. وتبين أن الميــاه متوافرة فى باطن الأرض بكميــات كبيرة ودرجة الملوحــة بالمياه معتدلة بل اقبــل من ملوحة المياه الجوفية بوادى النيل نفسه .

ويزرع فى منطقة الوادى حــاليا القمح والذرة والارز والشــعير والبطــاطس والملوخية والخبيزة والباميــة والسبانخ والطماطم والبصل وغيره ، ويبلغ الدخل الأهلى من الانتــاج الزراعى والحيوانى ٣٥٠ الف جنيــه ســنويا .

وقد نجحت زراعة القطن فى الــوادى وانتج الفدان أربعة قناطير من القطن الأشــمونى ، وبدأ تنفيــذ مشروعات تحســين المــراعى .

وتوجد فى منطقة الوادى حــاليا من المعادن الشبه والملح الانجليزى، وعلى يمين الطريق التى تربط الواحات الداخلة بالخارجة توجــد تلال من الفوسفات طولها ستون كيلو مترا تقــريبا ، ويــؤكد الخبراء أن هــذا الفوسفات يحتوى على خامات اليورانيوم ، ويوجد الحديد فى الواحــات الداخلة ، كمــا أن منطقة باريس غنية بالذهب ويوجد الفحم فى الواحات الخارجة على عمق ستمائة متر تقريبا .

وقد تم تخطيط الوادى الجــديد ، فخططت المنطقــة الشرقية مــن الواحات الخارجة ، وانشئت المبانى الحــديثة ، وتم تــركيب ماكينــات الاضــاءة لانارة المســاكن ، كما تم رصف ما يزيد عن مائة كيلو متر لربط الوادى الجديد بوادى النيل[٤٩] .

٦ ــ السـد العــالى

ترجع فـكرة انشاء السد العالى الى عام ١٩٠٢ عندما تقدم بعض المهندسـين الايطاليين بمشروع لانشـاء سد قرب أسوان(٥٠) يمكن عن طريقه السـيطرة على مياه النيل ووقف خطر الفيضـان ، ثم تجـددت الفكرة فى عام ١٩٣٤ بعد أن تعذر تعلية خـزان أسوان للمـرة الثـالثة ورؤى انشـاء خزان آخر يمكن عن طريقه حجز المياه ويقع أمام الخزان الحـالى ، وقد قدرت تكاليفه وقتئذ بحوالى ستة ملايين جنيه .

وعلى الرغم من أن اللجان التى قامت بدراسـة فكرة هذا المشروع دراسـة علمية أوضحت أن النتائج المرجوة من انشائه ستكون عظيمـة الأهمية وسـتؤدى الى زيادة الدخل فان انشاء السد العالى بجنـوب أسوان لم يتم تنفيذه الا بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

ونظرا لضخـامة المشروع وتـكاليفه الكبيرة كان من الطبيعى أن تسعى مصر لطلب مساعدة من البنك الدولى للانشـاء والتعمير ، ومـن بعض الدول الغربية الكبرى وقد عرضت الولايات المتحدة وبريطانيا تقديم مبلغ ٧٠ مليون دولار مسـاهمة فى المشروع ، كمـا وافق البنك الدولى من حيث المبدأ على اقراض مصر ٢٠٠ مليون دولار لاستكمـال الخطـوات النهائية المشروع وفجـأة وبدون سـابق انذار أعلنت الولايات المتحدة وبريطانيا سـحب عروضهما لتمويل المشروع ، وفسرا هذا التراجع بأنه ناجـم عن التطورات السـياسية الأخيرة وخاصة اقتـراب مصر مـن بلدان الكتلة الشرقية واعترافها بالصين الشيوعية وشرائها للسـلاح من دول الكتلة الشرقية بجـزء كبير من محصول القطن المصرى مما يشـكك فى مقدرة مصر الاقتصادية على اتمـام المشروع بعد البدء فيه ، كمـا أعلن البنك الدولى سـحب عرضه لتمويل المشروع لعدم ثقته فى قدرة الاقتصاد المصرى علي اتمـامه (٥١) ولما وجدت مصر فى ذلك تدخلا فى شـئونها الداخلية ورغبة فى تعـويق تقدمها أعلن الرئيس عبد الناصر تأميم شركة قنـاة السويس فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦ حتى تتمكن مصر من الاستغنـاء عن القروض والهبـات الأجنبية وتقوم بتنفيذ المشروع عن طـريق وضـع

مواردها الوطنية فى خدمته ونشبت الحرب بحجة حماية القناة ، وبعد فشل العدوان الثلاثى على مصر بدأت القيادة المصرية فى الاعداد للمشروع خصوصا بعد اعلان الاتحاد السوفيتى عن استعداده لتمويل المشروع بقروض طويلة الأجل ، وعلى أساس ما تم من دراسات مشتركة بين البلدين .

وفى السابع والعشرين من ديسمبر ١٩٥٨ تم الاتفاق بين الجمهورية العربية المتحدة والاتحاد السوفيتى على بناء المرحلة الأولى من مشروع السد العالى وقعه عبد الحكيم عامر عن الجانب الأول وبيترنيكتين والسفير السوفيتى فى القاهرة كيسيليف عن الجانب الثانى وفيه تعهد الاتحاد السوفيتى بتقديم المعونة الاقتصادية والفنية لمصر .

وتنص الاتفاقية عن أن حكومة الجمهورية العربية المتحدة وحكومة اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية بدافع من العلاقات الودية بين البلدين ورغبة فى زيادة توطيد التعاون الاقتصادى والفنى بينهما على أساس من المساواة وعدم التدخل فى الشئون الداخلية والاحترام الكامل للكرامة والسيادة القومية فى كل من البلدين ونظرا لما لانشاء السد العالى بأسوان من عظيم الأهمية الاقتصادية القومية لحكومة الجمهورية العربية المتحدة فقد تم الاتفاق على البدء فى المرحلة الأولى .

وفيما يلى نعرض لأهم شروط الاتفاق .

مادة (١) : تلبية لرغبة حكومة الجمهورية العربية المتحدة فى تنمية اقتصادها القومى فان حكومة اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية تبدى موافقتها على التعاون مع حكومة الجمهورية العربية المتحدة فى انشاء المرحلة الأولى من السد العالى بأسوان .

وتتضمن هذه المرحلة انشاء الجزء الأمامى من قطاع السد الرئيسى، والسد الخلفى ، وانشاء تحويل المياه والبوابات والمعدات اللازمة لهذه المشروعات كما تتضمن مشروعات تحويل رى الحياض واصلاح الاراضى وسيحدد مقدار المعونة التى سيقدمها الاتحاد السوفيتى بالتنسيق بين الطرفين لتنفيذ المشروعات .

مادة (٢) : تحقيقا للاتفاق المنصوص عليه فى المادة الأولى من هذا الاتفاق تقوم حكومة اتحاد الجمهوريات السوفيتية بما يلى :

أ — اعداد برامج تنفيذ الأعمال وكذلك الأبحاث والدراسات اللازمة التى يتفق عليها بين الجانبين طبقا للشروط والبيانات الموضوعة بمعرفة الجمهورية العربية المتحدة .

ب — تقوم وفقا لما يتفق عليه الطرفان بتوريد البوابات والآلات والمعدات مع قطع الغيار اللازمة لها .

ج — تقديم المعونة الفنية اللازمة للتشييد والانشاء .

مادة (٣) : تقوم جمهورية مصر العربية بتكوين هيئة خاصة لادارة المشروع يعهد اليها بالشئون الادارية والفنية والمالية وبتفيذ الأعمال التى تطلبها حكومة الجمهورية العربية المتحدة للمرحلة الأولى من السد العالى الى مقاولين يتم اختيارهم بموافقة الطرفين وذلك على أساس استخدام المعدات السوفيتية والاستعانة بالخبراء والفنيين السوفيت .

مادة (٤) تكون الهيئات السوفيتية مسئولة عن الادارة الفنية لانشاء اعمال المرحلة الأولى من السد العالى على اتم وجه وصيانتها، ولهذا الغرض توفد الهيئات السوفيتية خبيرا فنيا على مستوى عال مع المجموعة اللازمة من المهندسين والفنيين والعمال السوفيت ، ويتم الاتفاق فى تنسيق العمل بين الاخصائيين السوفيت والمصريين فى الاشراف الفنى على الاعمال المشار اليها .

مادة (٥) تقدم حكومة الاتحاد السوفيتى الى حكومة الجمهورية العربية المتحدة قرضا مقداره ٤٠٠ مليون روبل وذلك لتغطية نفقات ما تقوم به الهيئات السوفيتية فيما يختص بوضع برامج تنفيذ المشروع واعمال البحث والدراسات وتسليم المعدات والآلات والمواد اللازمة وأيضا نفقات سفر الخبراء السوفييت عند سفرهم .

مادة (٦) : تسدد الجمهورية العربية المتحدة المبالغ المستحقة

عليها من هذا القرض على أثنى عشر قسطا متساوية تبدأ بعد عام من اتمام المرحلة الأولى للسد العالى بحيث لا يتأخر ذلك عن أول يناير ١٩٦٤ وان تكون سعر فائدة القرض ٥ر٢٪ سنويا .

مادة (٧) : تسدد حكومة الجمهورية العربية المتحدة القرض وفوائده بالجنيه المصرى عن طريق حساب خاص يفتح فى البنك المركزى بالجمهورية العربية المتحدة لصالح بنك الدولة لاتحاد الجمهوريات السوفيتية ، ويحسب سعر الروبل بالنسبة للجنيه على أساس سعر التعادل الذهبى بين العملتين فى يوم الدفع وتستخدم الهيئات السوفيتية جميع المبالغ المدفوعة فى هذا الحساب فى شراء سلع من الجمهورية العربية المتحدة .

وقد افتتح العمل رسميا فى المشروع فى التاسع من يناير ١٩٦٠ عندما ضغط الرئيس عبد الناصر على زر أحمر فجر به أول شحنة من الديناميت بمجرى قناة التحويل فكان ذلك بدء العمل فى انشاء المرحلة الأولى للسد العالى وفى اعقاب ذلك تم حشد العدد الوفير من المهندسين والعمال والفنيين من جميع الحرف المختلفة وسار العمل قدما الى الأمام بمعدلات عالية خصوصا وأن ظمأ البنائين المصريين الى سرعة الانجاز كان واضحا .

ونتيجة لرغبة الحكومة المصرية فى أن تستمر مساندة الحكومة السوفيتية لتمويل بناء المرحلة الثانية من السد فقد اعلنت الحكومة السوفيتية انها ستنظر بعين الود الى هذا الطلب ، وبعد دراسات ومشاورات تم فى السابع والعشرين من اغسطس ١٩٦٠ توقيع الاتفاقية الخاصة بتمويل المرحلة الثانية والتى تقضى بأن تقدم الحكومة السوفيتية قرضا فى حدود تسعمائة مليون روبل أى ما يوازى ٧٨ مليون جنيه مصرى يسدد على نفس الأسس الاقتصادية التى انطوت عليها الاتفاقية الأولى .

وقد انتهت المرحلة الأولى من السد بغلق مجرى النيل وتحويل المياه الى قناة جانبية فى ١٥ مايو ١٩٦٤ وقد بلغ جملة ما صرف عليها حوالى مائة مليون جنيه وفى أعقاب ذلك بدأ العمل فى المرحلة الثانية

وفى التاسع من يناير ١٩٦٨ احتفل بتشغيل التوربينات الثلاثة الأولى من محطة توليد الكهرباء ، وفى الثالث والعشرين من يوليو ١٩٧٠ تم تشغيل التوربين الثانى عشر وتمت اعمال السد ، وفى الخامس عشر من يناير ١٩٧١ احتفل رسميا بانتهاء العمل فى المشروع الذى تكلف حوالى ٢٤٠ مليون جنيه شملت انشاء السد والقناة ومبنى المحطة والتوربينات والخطوط الكهربائية هذا بخلاف الأعمال المترتبة على انشاء السد كالتوسع الزراعى ، وتحويل رى الحياض الى رى دائم وانشاء الطرق والسكك الحديدية والاسكان وخلافه وتبلغ تكاليفها ٥٠٠ مليون جنيه[٥٢] .

والسد العالى عبارة عن سد ركامى على شكل هرمى يتكون من ركام الجرانيت والرمال والطمى وهو مقام عبر نهر النيل جنوبى اسوان بحوالى سبعة كيلو مترات .

ويبلغ طول السد ٣٦٠٠ مترا عند القمة منها ٥٢٠ مترا بين ضفتى النهر ، ويبلغ عرضه ٩٨٠ مترا عند القاع ، ٤٠ مترا عند القمة أما ارتفاعه من قاع النهر فيصل الى ١١١ مترا ويصل اكبر ضاغط للمياه عليه الى ٧٨ مترا .

ويتكون السد من ثلاثة أجزاء رئيسية ، السد الجزئى الامامى ويبلغ طوله ٦٠٠ مترا وارتفاعه ٥٠ مترا فوق قاع النهر ، والسد الجزئى الخلفى بطول ٥٠٠ مترا وارتفاع ٣٠ مترا ينحصر بينهما السد الرئيسى بارتفاع ١١١ مترا .

والغرض من السدين الامامى والخلفى هو تحويل مجرى النهر الى قناة صناعية انشئت بالبر الشرقي ويعمل السد الأمامى والخلفى على حصر منطقة العمل فى السد الرئيسى حتى ينشأ فى منطقة ساكنة لا حركة للمياه فيها .

وقد اشتمل السد العالى على عمليتين رئيسيتين :

الأولى : حفر قناة بعمق ٨٠ مترا فى الجبال الجرانيتية الواقعة على الضفة الشرقية للنهر لتحويل مجرى النهر اليها بعد أن اقفل

مجراه الأصلى ، وقد تخلل الجزء الاوسط من هذه القناة ستة انفاق محفورة فى الصخور الجرانيتية ومزودة ببوابات ضخمة للتحكم فى مياه النهر وتصريفها بالقدر المطلوب ، ويبلغ طول قناة التحويل ١٩٥٠ مترا (٥٣) .

الثانية : انشاء محطة لتوليد القوى الكهربائية فوق القناة عند مخارج الانفاق وتعتبر هذه المحطة من اكبر المحطات الكهربائية فى العالم اذ تبلغ قدرتها الاجمالية ٢,١ مليون كيلو مترات وتعادل طاقتها الكهربائية عشرة امثال الطاقة الكهربائية التى كانت متوفرة لمصر عام ١٩٥٢ .

الآثار الاقتصادية لمشروع السد العالى :

يعد مشروع السد العالى من اضخم المشروعات الهندسية التى عادت على مصر بفوائد عديدة اهمها :

١ — ضمان المياه الكافية لمواجهة احتياجات الرى وتحويل ٧٠٠ الف فدان من أراضى الحياض الى الرى الدائم وزيادة الأراضى المنزرعة أرزا .

٢ — تأمين طاقة كهربائية رخيصة لخدمة الاغراض الصناعية مقدارها عشرة مليارات كيلو وات ساعة سنويا .

٣ — توسيع رقعة الأرض الزراعية بمساحة جديدة قدرها ١,٣ مليون فدان أى حوالى ٢٠٪ من مساحة الأراضى المصرية الصالحة للزراعة .

٤ — وقاية البلاد من أخطار الفيضان العالية التى تكلف الدولة أموالا طائلة كل عام فى انشاء الجسور وتقويتها .

٥ — تحسين الملاحة النيلية وجعلها ميسورة على مدار السنة .

٦ — زيادة الثروة السمكية فى بحيرة ناصر التى تعد من أكبر البحيرات الصناعية فى العالم .

الآثار الجانبية للمشروع :

ادى انشاء السد العالى الى عدة آثار جانبية من اهمها ازدياد ملوحة التربة فى مصر ، وازدياد النحر فى مجرى نهر النيل وفروعه ، وانخفاض نسبة الطمى المخصبة للارض ، وتآكل شواطىء الدلتا ، وهجر السردين لشواطىء دمياط ورشيد وبورسعيد .

ومما سبق يتضح أن السد العالى يعد مفتاح استراتيجية الرى فى مصر ، ومن أهم المنجزات الاقتصادية فى تاريخ مصر الحديث التى تحكى مدى مثابرة وكفاح الشعب المصرى من أجل التقدم والبناء وقهر التخلف .

وعلى الرغم من أن السد العالى قد وفر لمصر الماء اللازم للزراعة والطاقة الكهربائية اللازمة للصناعة ، فانه قد ترك بعض الآثار الجانبية منها انه حرم الأراضى الزراعية من الطمى القادم مع ماء النيل ليزيدها خصوبة مما أثر على تركيبها وقوامها ، وغير من بعض خصائصها .

ومع كل ذلك فمما يذكر للسد العالى بالخير انه انقذ مصر وشعبها من كارثة الجفاف التى حدثت لافريقية فى السنوات القليلة الماضية مما يجعلنا نجزم ان آثاره الايجابية تجاوزت آثاره الجانبية وسلبياتها .

ثانيا — الانجازات العلمية والثقافية

٧ — انشاء المطبعة الاميرية

يعود تاريخ انشاء المطبعة الأميرية فى بولاق الى عام ١٢٣٥ هـ ١٨٢٠ م اى فى عصر محمد على ، وقد تم استيراد آلات هذه المطبعة وحروفها العربية وكذلك الورق من ايطاليا .

وكانت مهمتها قاصرة على طبع الكتب الحربية والمؤلفات العسكرية اللازمة للجيش ، ثم اتسع اختصاصها وتنوعت أعمالها فأصبحت تقوم فوق ذلك بطبع الكتب الأدبية والعلمية والمدرسية التى تحتاج اليها المدارس ، فساهمت بذلك مساهمة فعالة فى الحركة الفكرية فى البلاد .

وتعد المطبعة الأميرية أساسا للبعث الفكرى الذى قامت عليه نهضة مصر فى العصر الحديث ففيها صدرت الكتب الخاصة بالطب والهندسة والزراعة وفن الحرب والعلوم الطبيعية والرياضية والأدبية ، فاستطاعت بذلك أن توجه تفكير المصريين نحو حاضر امتهم وثقافتها .

وأخذت المطبعة الأميرية تضىء الطريق أمام العلم والمعرفة وانفردت بقاعدة الحروف العربية التى تستخدمها منذ عام ١٩٠٦ فى صف الحروف اليدوية ، التى تمتاز بجمال خطها ، وحسن تركيبها .

ومنذ عام ١٩٢٥ والمطبعة تقوم بطبع المصحف الشريف مستخدمة فى ذلك الحروف المصفوفة يدويا والتى تفوق فى اتقانها وسهولة قراءتها ودقتها كل ما يطبع بطرق الطباعة الأخرى .

وبتوالى السنين ازداد حجم المطبوعات الحكومية ، فبدأ التفكير فى عام ١٩٢٦ بتوسيع مبانى المطبعة فى بولاق ، وأعدت لهذا الغرض عدة مشروعات لاقامة مبنى حديث لها فى السنوات ١٩٣٤ ، ١٩٣٩ ، الا انه لم ينفذ أى مشروع منها بالرغم من ضيق مكانها القديم ، وازدياد عدد العمال الذى ارتفع من ٣٥٠ عاملا الى ما يقرب من ٣٨٠٠ عامل .

وظلت كذلك الى أن قامت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فكان لها النصيب الأوفى من رعاية الدولة فهيئت لها المبنى الضخم الذى تقطنه حاليا بامبابة ووفرت للعمال أسباب الأمن والاستقرار وفى ١٣ أغسطس ١٩٥٦ صدر القرار رقم ٣١٢ لسنة ١٩٥٦ بانشاء الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية والحاقها بوزارة الصناعة ، ومنذ ذلك التاريخ شهدت الهيئة تحولا كبيرا نحو التقدم فى كافة المجالات فاستوردت العديد من الماكينات الحديثة واوفدت الهيئة بعض مهندسيها وعمالها الى مصانع الطباعة بأوربا لمتابعة فنون الطباعة هناك (٥٤) .

مجمــع اللغة العربية

منذ أوائل القرن التاسع عشر ، ومع بداية ظهور فجر النهضة المصرية أحس رجال الفكر فى مصر أن اللغة العربية التى عايشت القرن الثامن عشر أصبحت لا تفى بأغراض هذه النهضة خصوصا بعد أن بدا التغلغل الثقافى الأدبى يطفو على سطح الحياة المصرية .

ولما عاد طلاب البعثات التى أرسلها محمد على الى أوربا لتنهل من علمها وتنقل عن الغرب والغربيين كل جديد قاموا بنقل مادرسوه من علوم الى اللغتين العربية والتركية ليسهل تدريسها فى المدارس الحديثة التى أسسها محمد على ، وكان من أبرز هؤلاء رفاعة الطهطاوى الذى قام بجهود هائلة فى نقل المعارف الأوربية الى اللغة العربية ، وعمل على تعريب الأسماء الأجنبية مع الاحتفاظ باسمها الأصلى ، كما قام بوضع مصطلحات عربية تتقابل فى معناها مع المصطلحات الفرنسية، ووازن بين اللغتين كما دعا الى تبسيط علم النحو العربى ، وتيسيره على طلاب العلم .

وجاء بعد رفاعة الشيخ محمد عبده ، فحاول الاسهام فى تطوير اللغة العربية فجدد فى أسلوب التأليف ، وطالب بانشاء مدرسة دار العلوم لاعداد المعلم الصالح والمساهمة فى تطوير اللغة .

ورغم كل ما بذل من جهود لتحديث العلوم والثقافة العربية ، فان اللغة العربية لم تستطع مواكبة التقدم العلمى الهائل فى كافة مجالاته فاختلطت العامية بالكلمات العربية ، واستبدلت العامية بالفصحى ونتيجة لذلك أحس بعض العلماء ، وكبار الأدباء فى مصر بالخطر الداهم على اللغة العربية ، وخشوا أن يزعزع ما يحدث من أركانها ويسلبها بنيانها ، وفكروا فى انشاء هيئة تحفظ لهذه اللغة حياتها ، وسلامة النطق بها والتعبير عن معانيها ، وتجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون .

وقد تعددت المحاولات والجهود الأهلية والحكومية فى ذلك فانشئت عدة نوادى وجمعيات من أجل هذا الفرض ، استمرت هذه المحاولات حتى صدر المرسوم الملكى بانشاء المجمع اللغوى عام ١٩٣٢[٥٥] .

وقد ظل المجمع ولا يزال هيئة نابضة بالحياة ، تحرس اللغة العربية وتحافظ على سلامتها ، وقد امتد نشاطه الى نواحى أهمها تشجيع الانتاج الأدبى والعلمى ، وتحرى السلامة فى اللغة وتيسيرها يضاف الى ذلك جهوده فى الترجمة والتأليف والنشر العلمى .

ورغم كل ما قدمه المجمع للغة العربية من خدمات فلا تزال أمامه مهام صعبة خصوصا وان الحياة فى تطور سريع ، وحاجة الناس الى مرونة اللغة تشتد كلما ازداد هذا التطور ، وعلى المجمع ان يطور اللغة طبقا واحتياجات كل عصر بحيث يحقق للناطقين بالضاد ما يحتاجون اليه من اليسر فى التعبير من غير مشقة فى الأداء وصعوبة فى التفكير .

مراجع الفصل التاسع

(١) جرجي زيدان : تاريخ مصر الحديث ج ٢ القاهرة ، مطبعة الهلال ، ١٩٢٥ ص ١٨١ .

(٢) أمين سامى : ملحق تقويم النيل عن الجسور والكبارى والخزانات على النيل وفروعه ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب ١٩٣٦ ص ١ .

(٣) دار الوثائق : محفظة رقم (٤) أوامر مالية ، ترجمة الارادة رقم ٢٨٨ أصلى بتاريخ ١١ شعبان ١٢٦٣ ﻫ وايضا القرار الصادر من المجلس العمومى رقم ١٧٩ .

(٤) محمد فؤاد شكرى وآخران : بناء دولة مصر محمد على ، القاهرة دار الفكر العربى ١٣٦٧ ﻫ/١٩٤٨ م ص ٤٩٢ .

(٥) دار الوثائق : دفتر ٣٧٩ معية تركى ، ترجمة المكاتبة رقم ٨٨٣ رقم أصلى ٧١ بتاريخ ١٤ ذى الحجة ١٢٦٠ﻫ .

(٦) أمين سامى : مرجع سابق ص ٨ .

(٧) عبد الرحمن الرافعى : عصر محمد على ، القاهرة ، النهضة المصرية ، الطبعة الثالثة ١٩٥١ ص ٥٨١ .

(٨) للتفاصيل انظر أمين سامى : مرجع سابق ص ٧٦ — ٧٨ .

(٩) نفسه ص ٨٥ .

(١٠) جرجى زيدان : تاريخ مصر الحديث ج ١ القاهرة ، مطبعة الهلال الطبعة الثانية ١٩١١ ص ٢٠٦ .

(١١) وزارة الدفاع المصرية : حرب العدوان الثلاثى على مصر ، القاهرة ، مطابع الأهرام ص ١٣ .

(١٢) فاروق عز الدين : جغرافية النقل ، القاهرة ، الأنجلو المصرية ١٩٨١ ص ٣٣٦ .

(١٣) جورج كيرلس : قناة السويس . القاهرة — دار المعارف د.ت ص ٨١ — ٨٢ .

(١٤) وزارة الدفاع : المرجع السابق ص ١٣ .

(١٥) محمد فيصل عبد المنعم : قناة السويس ، القاهرة ، مطابع الأهرام التجارية ١٩٨٠م ص ١٢ .

(١٦) محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، بيروت ، دار الجيل ، ١٣٩٧ هـ — ١٩٧٧ م ص ٣١٤ .

(١٧) وزارة الدفاع : المرجع السابق ص ١٤ .

(١٨) عبد الرحمن الرافعى : عصر اسماعيل جـ ١ القاهرة ، الطبعة الأولى ص ٥٢ .

(١٩) اسقط هذا القول البحث الذى أجرى فى عام ١٨٤٠م بواسطة بعض ضباط من الانجليز ، والدراسة التى قامت بها لجنة من المهندسين الفرنسيين فى عام ١٨٤٧ حيث تحقق أن مسطح البحرين متساو .

أنظر . محمد فريد : المرجع السابق ص ٣١٤ — ٣١٥ .

(٢٠) للتفاصيل انظر . انجلو ساماركو : الحقيقة فى مسألة قناة السويس — ترجمة طه فوزى — القاهرة ١٩٤٠ ص ٢٧ — ٢٩ .

(٢١) محمود صالح منسى : مشروع قناة السويس بين اتباع سان سيمون وفرديناند دى ليسبس ، القاهرة ، دار الاتحاد العربى للطباعة ، ١٩٧١ ص ٢٦٧ .

(٢٢) زاهية قدورة : تاريخ العرب الحديث ، بيروت ، النهضة العربية الطبعة الثانية ١٩٧٥ ص ٣٥٥ .

(٢٣) فاروق عز الدين : المرجع السابق ص ٣٣٨ .

(٢٤) محمد فريد : المرجع السابق ص ٣١٥ .

(٢٥) جورج كيرلس : المرجع السابق ص ٩٢ .

(٢٦) عبد الرحمن الرافعى : عصر اسماعيل جـ ١ ، ص ٥٧ .

(٢٧) محمد فريد : المرجع السابق ص ٣١٦ .

(٢٨) زاهية قدورة : المرجع السابق ص ٣٥٦ .

(٢٩) جورج كيرلس : المرجع السابق ص ٩٤ .

(٣٠) محمد فريد : المرجع السابق ص ٣١٧ .

(٣١) رآها الخديو اسماعيل لأول مرة فى باريس وفتن بها ، وأراد أن يضمها الى حريمه .

للتفاصيل انظر : اخبار اليوم فى ٢ — ١٢ — ١٩٨٩ مقال للاستاذ محسن محمد بعنوان : المشى فوق الاشواك .

(٣٢) مثلث فى القاهرة فى عام ١٨٧١ .

(٣٣) أخبار اليوم فى ٢ — ١٢ — ١٩٨٩ .

(٣٤) محمد فريد : المرجع السابق ص ٣١٩ .

(٣٥) محمد حسنين هيكل : ملفات السويس ، القاهرة ، مركز الأهرام للترجمة والنشر الطبعة الأولى ١٩٨٦ ص ١٠٦ .

(٣٦) محمد عبد الرحمن برج : قناة السويس ، أهميتها السياسية والاستراتيجية ، القاهرة ، دار الكتاب العربى ١٩٦٨ ص ٥ — ٦ .

(٣٧) محمود صالح منسى : مشروع قناة السويس ، القاهرة ، دار الاتحاد العربى ١٩٧١ ص ٢٦ .

(٣٨) جمال حمدان : قناة السويس نبض مصر ، القاهرة ، عالم الكتب ص ٣٢ — ٣٤ .

(٣٩) من المعروف ان طول قناة السويس يبلغ ١٦١ كيلو مترا وكان عرضها يتراوح ما بين ٦٠ الى ٧٥ مترا وبعد التوسعة وصل ما بين ١٦٠ الى ٢٠٠ مترا أما عمقها فيصل الى ١٥ر٥٠ مترا .

(٤٠) جورج كيرلس : المرجع السابق ص ١٢٦ .

(٤١) ابراهيم علوان : مشكلات الشرق الأوسط والوطن العربى بيروت ، المكتبة العصرية ١٩٧٠ ص ٥٩ — ٦٠ .

(٤٢) حمدى حافظ : العدوان الثلاثى على مصر ، القاهرة الانجلو المصرية د.ت ص ٦٣ .

(٤٣) ابراهيم علوان : المرجع السابق ص ٦١ .

(٤٤) أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ص ١٤٨ .

(٤٥) جمهورية مصر العربية : نشرة قناة السويس ١٩٧٥ .

(٤٦) جمهورية مصر العربية : نشرة قناة السويس ١٩٧٦ .

(٤٧) سجل العرب للعلاقات الثقافية والاقتصادية ص ٥٩ — ٦٢ .

(٤٨) سجل العرب للعلاقات الثقافية ص ٨٢ — ٨٣ .

(٤٩) سجل العرب للعلاقات الثقافية والاقتصـــادية من المحيط الى الخليج ص ٣٨ .

(٥٠) كان أول خزان حقيقى يقام على النيل ، وقد بدأ العمل فيه فى عام ١٨٩٨ وانتهى فى عام ١٩٠٢ ، وكانت سعة تخزينه للمياه مليار متر مكعب .

(٥١) الجدير بالذكر أن الدكتور القيسونى وزير مالية مصر فى ذلك الوقت كان قد تلقى خطـــابا من المســتر بـــلاك مدير البنك الدولى يؤكد عزم البنـــك على تمويل المشروع ، مما يوضـــح اعترافه بقدرة مصر على ســـداد القروض ، ولكنه تراجع عن موقفه بعد انسحاب امريكا وبريطانيا من تمـــويل المشروع مما يثبت خضـــوع البنك الدولى لســـيطرة ورغبات الدول الرأسمالية والى جانب ذلك يذكر الســـناتور فولبرايت عضو مجلس الشـــيوخ الأمريكى انه لم يكن هناك أى دليل على ســـوء حالة الاقتصاد المصرى عندما قررت الولايات المتحدة سحب عرضها .

فليب جلاب : هل نهدم السد العالى ص ٤٧ .

(٥٢) عثمان أحمد عثمان : السد العالى من النـــواحى التـــاريخية والهندسية والاقتصادية ص ٣٧ .

(٥٣) الهيئة العامة للاستعلامات : السد العالى ص ١٦ وما بعدها .

(٥٤) وزارة الصناعة : الهيئة العامة لشـــئون المطابع الأمـــيرية . يوليو ١٩٧٣ .

(٥٥) د. عبد المنعم الجميعى : مجمع اللغة العربية — دراســـة تاريخية ص ٧ — ٨ .

الفصل العاشر

دراسات في تاريخ مصر قبيل ١٩٥٢

١ — الأحزاب والممارسة الديمقراطية .

٢ — المرأة المصرية والتعليم الجامعى .

٣ — مجتمع القاهرة من خلال ثلاثية نجيب محفوظ .

٤ — الفيوم بين ثورتى عرابى وسعد زغلول .

٥ — سيناء فى التاريخ الحديث والمعاصر .

١ ــ الاحزاب والممارسة الديمقراطية فى مصر (*)

١٩٢٣ ــ ١٩٥٢

بصدور دستور ١٩٢٣ انتقلت مصر الى مرحلة جديدة من حياتها تقوم على قاعدة النظام الدستورى الذى هو أساس الدولة القانونية مع توزيع السلطات العامة بين الملك والوزارة والبرلمان . وعلى هذا الأساس انتهى التوكيل الشعبى الذى كان الوفد يتحدث بمقتضاه عن الأمة المصرية بما يلائم عهد الديمقراطية ليصبح حزبا برلمانيا يمثل اغلبية الأمة بعد أن كان وكيلا لها ، فدخل الانتخابات ، ونال الأغلبية الساحقة وعلى اثر ذلك شكل سعد زغلول الوزارة وفيما يلى نعرض لمواقف بعض الأحزاب المصرية من الممارسة الديمقراطية ، وعلاقة ذلك بمواقفهم من الملك والانجليز ونخص بذلك الوفد ، وحزب الاحرار الدستوريين ، وحزب الاتحاد ، وحزب الشعب .

اولا : الوفد

خرج الوفد من الانتخابات بتأييد شبه جماعى من الأمة ، ورأى نوابه ضرورة تنفيذ مبادىء الدستور وتطبيق احكامه بروح تامة من الحرية والديمقراطية [١] ومع ذلك فقد أثبتت الأحداث ان دفاع الوفد عن الديمقراطية لم يستمر خلال تربعه على أريكة الحكم ، بل تم استغلال الوفد للديمقراطية فى الحاق الهزيمة باعدائه ومنافسيه فى بعض الأحيان والدليل على ذلك انه بمجرد وصول الوفد الى الحكم كان يستبدل دكتاتورية خصومه بدكتاتوريته مع أنه خلال سنوات المعارضة كان يخوض معركته ضد الملكية باسم الديمقراطية والحريات النيابية ، وينشط فى تقديم الالتماسات والعرائض الى الملك يطلب فيها عودة البرلمان واعادة الحياة النيابية [٢] وفيما يلى نعرض لبعض هذه المواقف .

(*) قدمت هذه الدراسة لمركز الدراسات السياسية بالاهرام فى عام ١٩٨٣ .

(أ) موقف الوفد من احزاب المعارضة :

اذا كان فقهاء القانون يقولون أن أساس الحياة النيابية هو أن تحيا البلاد فى جو من الحرية يظهر فيه اختلاف الآراء ، ويتمسك فيه الناس بما يتفق مع أهدافهم وميولهم ، وأن يدرك أبناء الأمة انهم ابناء وطن واحد فيحق لنا أن نتساءل هل سار حزب الوفد على هذا المفهوم ، وتعامل مع احزاب المعارضة بطريقة ديمقراطية ؟

الواقع أن سعد زغلول لم ينس خصومته مع الاحرار الدستوريين ، فبعد أن ألف وزارته الدستورية الأولى رأى فى وصوله الى السلطة فرصة للتنكيل بهم وابعادهم عن المراكز الهامة فمثلا لم يتردد سعد فى أن تكون حكومته وفدية لحما ودما ، فبعد أسبوعين فقط من توليه الوزارة اقال بعض المديرين والعمد من أنصار الأحرار الدستوريين وقدمهم للمحاكمة [٣] وولى مكانهم أنصاره بحجة انه لم يبق على موظف لا يثق فيه تمام الثقة وقد أدى ذلك الى تذمر بعض الأهالى فى القرى لعزل عمدتهم ، وأظهروا عدم ثقتهم فى العمد الجدد [٤] .

ولما حددت الحكومة يوم ١٥ مارس ١٩٢٤ موعدا لافتتاح الدورة البرلمانية الأولى ، وحلف اليمين الدستورية دعيت جميع الصحف المصرية والأجنبية الى هذا الافتتاح عدا جريدة السياسة التى كانت تمثل الأحرار الدستوريين [٥] مما يعد انتهاكا لحقوق المعارضة التى كان يتجاهلها سعد ويعتبرها طائفة هزيلة تكونت من رجال خوارج على النضال الوطنى [٦] .

والى جانب ذلك اخذت المظاهرات المدبرة بمعرفة الوفد تسير فى مختلف الأقاليم تنادى بسقوط المعارضة ، وتقذف منازل أعضاء حزب الأحرار الدستوريين بالحجارة ، كما عمل سعد زغلول على اسقاط عضوية مجلس النواب عن محمد محمود أحد قادة حزب الأحرار الدستوريين [٧] ولما نجح فى ذلك وتقدم محمد محمود لاعادة ترشيح نفسه فى دائرته باسيوط عمل الوفد على اسقاطه فلجأ وكيل المديرية بايعاز من الوفد الى تهديد العمد واعضاء لجان الانتخابات المؤيدين

لمحمد محمود ، ولما احس محمد محمود بذلك تنازل عن ترشيح نفسه محافظة على مصالح أهله وأنصاره ففاز فى انتخابات الدائرة رجل لم يكن معروفا لدى أهلها .

وعندما أثيرت قضية « فى الشعر الجاهلى » أمام مجلس النواب وكان المتهم هو الدكتور طه حسين المحرر الأدبى لجريدة السياسة الناطقة باسم حزب الأحرار الدستوريين خصم الوفد العنيد أثار أعضاء الوفد وعلى راسهم سعد زغلول زوبعة فى البرلمان ضده كما وصل الأمر بسعد زغلول أن خطب فى احدى المظاهرات التى قامت تطالب براس الدكتور طه قائلا « هبوا أن رجلا مجنونا يهذى فى الطريق فهل يضر العقلاء شىء من ذلك »(٨) .

ولم تتوقف تجاوزات الوفد للديمقراطية بعد وفاة سعد فعندما تولى النحاس رئاسة الحكومة لم تنج الجامعة من تدخل حزب الوفد فى شئونها فبعد أن أعلنت كلية الآداب ارادتها فى عام ١٩٢٨ بتعيين الدكتور طه حسين عميدا لها حدثت أزمة سياسية لأن حكومة النحاس لم تكن راضية عن ذلك التعيين لصلة الدكتور طه حسين الوثيقة بحزب الأحرار الدستوريين فطلب وزير المعارف من الدكتور طه ان يستقيل وحسما للامر قبل الدكتور طه ان يستقيل بشرط اعتماد تعيينه أولا تنفيذا لارادة الجامعة فعين ووقع بعض الأوراق ، وفى المساء قدم استقالته (٩) .

يضاف الى ذلك أن الاتهامات التى أثارها خصوم الوفد ضده تضمنت ميله الى الاستبداد والتسلط والتدخل فى حرية الانتخابات لصالح مرشحيه وتهديد منافسيه (١٠) والطموح الى الحكم الدكتاتورى عن طريق تنظيم حركات الشباب الوفدى فى منظمات شبه عسكرية مثل القمصان الزرقاء وان الوفديين كانوا وهم فى الحكم يقفون ضد الانجليز موقفا يفضى الى أزمات متوالية تنتهى دائما باستقالة الوزارة قبل الأوان ، فاذا ما اعتزلوا الوزارة وقفوا انفسهم على اقامة العراقيل فى وجه الحكومات التى تليهم فيمنعونها من البقاء فى الحكم اكثر من أشهر معدودة (١١) اما فى البرلمان فان الخوف من الأغلبية الوفدية كان

السمة البارزة فى جميع المناقشات ، وكان بعض الوفديين يؤلفون اللجان السرية لارهاب كل من يجرؤ على انتقاد الوفد .

هذا عن الجانب غير الديمقراطى للوفد أما عن الجانب الديمقراطى فنذكر ان سعد زغلول لم يكن فى مقدوره أن يتناسى انه زعيم حزب سياسى كرس جهده للحصول على استقلال مصر والسهر على حراسة الدستور ولذلك فانه لم يشأ أن يخرس الانتقادات التى كان بعضها يمس الوجود البريطانى فى مصر بينما مس بعضها الآخر نفوذ القصر كما يصعب على احد ان ينكر أن النحاس حاول تثبيت قواعد الدستور والحد من سيطرة القصر على الحكم بانشاء وزارة للقصر وادخال نظام وكلاء الوزارات البرلمانيين وذلك لتوطيد أواصر الثقة بين العرش والأمة ، وتوطيد النظام البرلمانى على الأسس الديمقراطية [١٢] . كما ان وزارة النحاس أصدرت قانونا بالعفو الشامل عن الجرائم السياسية التى ارتكبت منذ يونيو ١٩٣٠ الى مايو ١٩٣٦ عدا القتل العمد، كما الغت قانون حماية الموظفين الذى كان يمنع رفع الدعوى عليهم مباشرة أمام محكمة الجنح .

ثانيا : مواقف الوفد من الملك :

على الرغم أن الملك فؤاد قد أعلن عن سعادته لتأسيس البرلمان على المبادىء العصرية ودخول البلاد فى دور التنظيمات النيابية التى قررها الدستور [١٣] فانه اعتبر الدستور مصدر ازعاج له ، ولم يكن على استعداد لقبول دور الملك الدستورى دون سلطات لذلك صمم على أن يملك ويحكم [١٤] وكان شغله الشاغل طوال عهده أن يبعد الوفد عن الحكم ، ولم يترك وسيلة من اجل ذلك الا ولجأ اليها ووصل الأمر ان اتفق القصر مع احزاب الأقليات على مناوءة حزب الوفد وعرقلة حكمه ، ولما لم يستطع هؤلاء مواجهة التيار الشعبى الجارف الذى يمثله الوفد لجأوا الى تعطيل البرلمان لمدة شهر ثم باصدار قرار بحل مجلس النواب فور انتهاء مدة التعطيل ، فاذا جرت انتخابات جديدة تمخض عليها وصول الوفد الى الحكم اضطر القصر الى تعطيل الحياة النيابية .

وقد شهد شهر نوفمبر ١٩٢٤ مولد أول صراع بين الملك ومجلس الوزراء الوفدى فقد تصور سعد زغلول رئيس الوزراء أن فى مقدوره باسم الدستور أن يفرض على القصر سلطة الاشراف على تعيين كبار موظفى الدولة وعندما رفض الملك ذلك قدم سعد زغلول استقالته ولكن البرلمان جدد ثقته به ، واجتاحت المظاهرات شوارع القاهرة متجهة الى قصر عابدين وهى تهتف سعد أو الثورة كذلك توجه وفد من أعضاء مجلس الشيوخ لمقابلة الملك الذى اضطر فى النهاية الى أن يرضخ لمطالب الوفد ، وان يقبل تقليص نفوذه الاوتوقراطى ليصبح مجرد حاكم دستورى تكون قراراته خاضعة للتصديق عليها من رئيس الوزراء والوزراء المختصين .

وعلى الرغم من ذلك فقد استمر الملك فؤاد فى محاولاته للاطاحة بالوفد لدرجة انه من تاريخ النظام النيابى فى مصر فى يونيو ١٩٢٤ حتى وفاة الملك فؤاد فى ابريل ١٩٣٦ لم يصل الوفد الى منصة الحكم سوى مدة تقل عن عامين مرة برئاسة سعد زغلول من مارس الى ديسمبر ١٩٢٤ ومرة ثانية وعلى فترتين برئاسة مصطفى النحاس أولهما من مارس الى يونيو ١٩٢٨ والثانية من يناير الى يونيو ١٩٣٠ كما يلاحظ أن أى مجلس نيابى لم يستطع أن يكمل دورته ومدتها خمس سنوات كما حددها الدستور كما أنه كان من النادر أن تنتهى دورة برلمانية دون حدوث أزمة دستورية تفضها فجأة قبل موعدها .

وعندما فشل الوفد فى تدعيم الدستور وصيانته رأى وضع مشروع يقضى بمحاكمة الوزراء الذين يحاولون الاعتداء على الدستور بخرق احد مواده أو تعطليها بعقوبات قاسية تصل الى حد الأشغال الشاقة ولكن القصر انتقد هذا المشروع عن طريق جريدته البلاغ وحذر وزارة النحاس من المضى فيه لأن وضع مثل هذا القانون يعنى بأن هناك جهات معينة تتآمر على الدستور (١٥) .

وبعد وفاة الملك فؤاد سلمت مقاليد سلطات الملك الدستورية الى مجلس وصاية حتى يبلغ ابنه فاروق سن الرشد ، وكانت البلاد تسير فى ظل ائتلاف يمثل كافة الأحزاب . ولما اجريت الانتخابات

لم تتدخل فيها الحكومة ، وكانت نتيجتها فوز الوفد بالأغلبية فشكل النحاس الوزارة .

وخلال تولى النحاس الوزارة رأى الوفد أن الخطر على الديمقراطية ينبع من مصدرين هما الشعبية الكبيرة التى كان يكتسبها الملك فاروق بين الجماهير والديوان الملكى الذى كان مركزا للوشاية والدسيسة ضد وزارة الأغلبية ، وازاء ذلك كان خطة النحاس تنطوى على استغلال صغر سن الملك لوضعه تحت وصايته ، ثم ادخال الديوان الملكى فى المسئولية الوزارية عن طريق تحويله الى وزارة باسم وزارة القصر ، وتعيين وزير باسم القصر يعين مع الوزارة ويستقيل باستقالتها من الحكم وبذلك يبقى تحت رقابة الأمة (١٦) .

ثالثا : مواقف الوفد من الانجليز :

لقد كان الوفد باعتباره بطل التطلعات القومية للمصريين هو عدو الانجليز فثورة ١٩١٩ من صنعه كما أن زعماءه انكروا كل قيمة لتصريح ١٩٢٢ وظلوا يطالبون بالجلاء ، واستقلال وادى النيل من الاسكندرية الى الخرطوم ومع ذلك فقد قبل سعد زغلول مبدأ المفاوضات وكانت العلاقة بينه وبين حكومة العمال فى انجلترا تسير سيرا حسنا ولكن فشل المفاوضات التى أجراها سعد فى لندن فى عام ١٩٢٤ والانذار البريطانى الذى اعقب اغتيال السردار قد أوضحا له مدى اتساع الخلافات فى وجهات النظر بينه وبين الانجليز لدرجة أن سعد بتأييد ومساندة مجلس النواب اشتد فى معاملة سلطات الاحتلال فقد انتهز سعد فرصة مناقشة الميزانية فصوت على قرار بالغاء مساهمة مصر فى نفقات جيش الاحتلال مع مطالبة انجلترا بالجلاء عن مصر وظلت علاقات الوفد بالانجليز يسودها التوتر حتى وصل الامر بانجلترا الى اتهام حزب الوفد بانه يريد « تحويل الجيش الى سلاح فى يده » (١٧) كما انتقد الوفد ما تردد من أن ممثل انجلترا فى مصر يعامل معاملة رسمية قبل أن يقدم أوراق اعتماده (١٨) كما طالب بجلاء القوات الانجليزية من أرض مصر والسودان خصوصا بعد أن أصبحت دولة ذات سيادة على أرضها بعد أن تنازلت تركيا عن هذه السيادة .

ونتيجة لذلك فكرت انجلترا فى ابعاد سعد زغلول عن الحكم فقد أدركت أن استمراره فى رياسة الوزارة مع ما يتمتع به حزبه من اغلبية ساحقة فى البرلمان يسبب مشاكل لها ولرجالها فى مصر [١٩] .

ولما تولى النحاس رئاسة حزب الوفد جعل نصب عينيه ضرورة تحقيق استقلال البلاد بابرام معاهدة تحالف مع بريطانيا وكان نتيجة ذلك توقيع معاهدة ١٩٣٦ ولكن هل ظل موقف الوفد من الانجليز على هذا المنوال ؟

الواقع أن الوفد توهم أن معاهدة ١٩٣٦ ستتيح له فترة التقاط انفاس طويلة ، كما أن الانجليز رأوا أن حكومة الوفد على الرغم مما تسببه لهم من متاعب الا أنها كانت تقف موقفا صريحا ضد الفاشية بعكس القصر وعلى راسه الملك [٢٠] .

ومع بداية الحرب العالمية الثانية اتبع الوفد سياسة معتدلة مع انجلترا فلم يتردد فى اعلان ارتباطه بقضية الديمقراطيات واكد أن مصر تمد يدها الى انجلترا ، وان الشرف يقتضى من كل مصرى ان يساعد الدولة الحليفة مما دفع أنجلترا الى ارغام الملك فاروق على اعادة النحاس الى الحكم [٢١] .

وقد استمر موقف الوفد من الانجليز بين متشدد ومعتدل حتى اعلن مصطفى النحاس فى البرلمان فى الثامن من أكتوبر قطع المحادثات السياسية بين مصر وبريطانيا بعد أن تبين بجلاء عدم جدواها والغاء معاهدة ١٩٣٦ وبذلك دخلت مصر مرحلة جديدة من مراحل الكفاح الوطنى ضد الانجليز .

وهكذا يتضح ان الوفد لعب دورا هاما فى الحياة السياسية المصرية فقد حاول أن يجعل من الملك ملكا دستوريا يملك ولا يحكم كما هو الحال فى دول أوربا الغربية ، وقام بدور بارز فى مواجهة أوتقراطية الملك وتسلط الانجليز على مقدرات البلاد ، ومع ذلك فان مواقفه وهو فى داخل السلطة لا تخلو فى بعض الأحيان من الدكتاتورية .

ثانيا : حزب الاحرار الدستوريين :

من المعروف أن هذا الحزب قد تم تكوينه فى أكتوبر عام ١٩٢٢ من صفـــوة المصريين المعتدلين ذات الكيان الاجتمـــاعى المتميز وكانت الرغبة فى الوصول الى الســلطة وراء نشـــاط هذا الحزب ونتيجة لذلك تعامل مع القضية الوطنية باعتدال واعتبر المفاوضـــات بمثابة الأمـــل الوحيـد لتحقيق مطالب مصر[٢٢] وفيما يلى نعرض لمواقف هذا الحزب من الاحزاب الأخرى ومن الملك والانجليز .

(أ) موقفه من الأحـــزاب :

نتيجة لمقتل السير لى ستاك فى التـــاسع عشر من نـــوفمبر ١٩٢٤ توترت العلاقات بين مصر وبريطانيا الأمر الذى حمـــل الانجليز على املاء شروطا اضطرت امامها وزارة ســـعد زغلول الى التخلى عن الحكم فانتهز الملك فؤاد الفرصـــة وعهد بتشـــكيل الوزارة الى أحد مؤيديه وهـــو « أحمد زيور » واشـــترك فيها حزب الأحرار الدستوريين . وقد استهلت وزارة زيور حياتها بانتهـــاك الديمقراطية فقبضت على عدد من النـــواب الوفديين على الرغم من حصـــانتهم البرلمانية ووجهت اليهم تهمة التواطؤ فى حادث السردار[٢٣] كما استصدرت مرسوما من الملك بضرورة تأجيل البرلمان شـــهرا ، ولما رفع الوفديون الالتماسات الى الملك بضرورة عقد البرلمان كان الـــرد هو حـــل مجلس النواب فى السادس والعشرين من ديسمبر ١٩٢٤ وتأجيل موعد الانتخـــابات . واستمر زيور لمدة تزيد عن عام كامل يحكم البلاد فى غيبة عن البرلمـــان ، وعلى هامش الدستور .

والواقع أن الاعتداء على الحيـــاة البرلمانية من جـــانب الملك يرجع لدافعين هما كراهية القصر امتلاك الوفد للاغلبية الســـاحقة فى البرلمان، واجتمـــاع الزعامة الشـــعبية ورياسة الحكومة فى يد سعد زغلول ، ثـــم ضيق أصحـــاب المناصب الحكومية والسياسيين الذين تربوا فى مدرســـة الوظائف بالحياة النيابية . ومما يؤخذ عن خصوم البرلمان الوفدى هـــو الوســـائل التى اتخذوها لبلوغ أهدافهم فقد عطلـــوا الحيـــاة النيـــابية بالتأجيل تارة ، وبالحل تارة أخرى ، ثم تعرضوا للحقـــوق والحـــريات

بطريقة لا ترضى العدالة ، وعلى وجه تقشعر له الأبدان أحيانا ، واغروا الناس بالوعد والوعيد على أن يتخذوا من مبادئهم سلما تباع وتشترى [٢٤] .

وقد لجأت وزارة زيور الى اتخاذ اجراءات استبدادية ضد الوفد وزعيمه [٢٥] حتى تسوقه الى هزيمة ساحقة فى الانتخابات التى تقرر اجراؤها فى عام ١٩٢٥ فحتمت عليه الحصول على اذن سابق قبل عقد اى اجتماع عام ، وكان هذا الاذن يرفض فى أغلب الأحيان كما حرم على الزعماء الوفديين استقبال انصارهم فى منازلهم ، واتخذت اجراءات غير شرعية للتأثير على الناخبين فوجهت التهديدات للفلاحين ، وتعرض الأغنياء للاغراء والمساومة ، ووضع اتباع الوفد تحت المراقبة، واسيئت معاملتهم ، وفتش البوليس منازلهم كما أعادت حكومة زيور العمد المطرودين وعزلت بعض العمد من انصار حزب الاتحاد والوفد . ونتيجة لذلك ازدادت شكاوى الأهالى الى الملك يوضحون فيها سوء الأحوال [٢٦] .

ولقد استفاد القصر من حادث مقتل السردار ، واعلنها حربا على الوفد ، ولكن الأمة وقفت بجانب سعد فى انتخابات رئيس مجلس النواب ولم يظفر مرشح الحكومة عبد الخالق ثروت بأكثر من خمسة وثمانين صوتا بينما بلغت أصوات المؤيدين لسعد مائة وثلاثة وعشرين .

وعلى الرغم من ذلك فقد اضطر الاحرار الدستوريون أحيانا الى الانضمام مع الوفد ضد القصر فى محاولة لاعادة الحياة النيابية ، فاشترك الحزبان فى وزارة ائتلاف برئاسة عدلى فى مايو ١٩٢٦ ، قبل سعد خلالها منصب رئيس البرلمان . ولم يستمر ذلك الوفاق طويلا فقد تجدد الخلاف بين الحزبين نتيجة لمحاولات الوفد الاستئثار بالأمر ، وعلى اثر ذلك حل مجلس النواب والشيوخ وتم تأجيل الانتخابات [٢٧] والى جانب ذلك فان حزب الاحرار الدستوريين كان يقبل الحكم احيانا بوسائل غير دستورية ، وكانوا يبررون ذلك امام انفسهم بأنهم يمثلون قسما هاما من الرأى العام المصرى من حقه أن يستأثر بالحكم لأنه القسم الذى يضم أصحاب المصالح الرئيسية [٢٨] ووصل بهم

الأمر الى قبول الوزارة على شرط تعطيل الحياة الدستورية فبعد أن أقال الملك وزارة النحاس فى عام ١٩٢٨ قبل محمد محمود تأليف الوزارة الجديدة من الأحرار الدستوريين والاتحاديين وهكذا عاد الحزبان الى التآمر على الدستور . ومع أن محمد محمود قال فى كتابه الى الملك بعد قبول الوزارة « وسيكون رائدنا أن يظل الدستور فى حمى جلالتكم ركن الحكم الركين وعماده المتين » فانه لم يكن صادق الوعد فى قوله اذا كان أول عمل هام له هو تأجيل البرلمان شهرا ثم أعقب التأجيل حل البرلمان بمجلسيه وايقاف الحياة الدستورية ثلاث سنوات .

وقد قوبل تعطيل الدستور بالسخط والاستنكار فى أرجاء البلاد خاصة وانه كان حرمانا للامة من حقوقها التى اكتسبتها خلال جهاد طويل [٢٩] ولما قابل الوفد تعطيل البرلمان بالاحتجاج اعتقلت الحكومة الكثير من معارضيها مستعينة فى ذلك بقوات من الجيش والبوليس للقضاء على الديمقراطية ومع أن الرغبة فى الحفاظ على كرسى الحكم كان يسى حزب الاحرار الدستوريين الممارسة الديمقراطية ، فان وجوده خارج الحكم كان يعيده الى صوابه . فعندما امتهن صدقى ارادة الأمة بالغاء دستور ١٩٢٣ قرر حزب الأحرار الدستوريين عدم الاشتراك فى الانتخابات التى تقع خلال حكم صدقى [٣٠] كما اتفق مع حزب الوفد على مقاطعة الانتخابات ، وأصدر قرارا بهذا المعنى ، واشتركا معا فى تأليف لجنة اتصال بينهما لتنفيذ قرار المقاطعة .

وبعودة الأحرار الدستوريين الى الحكم بعد اقالة وزارة النحاس عام ١٩٣٨ استصدر محمد محمود مرسوما بتأجيل انعقاد البرلمان شهرا ثم أصدر مرسوما آخر بحل البرلمان وأدخلت وزارته تعديلات كثيرة فى الدوائر الانتخابية حتى أصبحت نتيجتها فى صالح انصار الحكومة ، وبذلك لم يتحقق شىء من الوعود التى قالها محمد محمود بأنه سيجيىء بنواب يحاسبون الحكومة ويراقبونها ، فاذا به قد جاء بمجموعة من المؤيدين لحكومته [٣١] .

وعلى الرغم مما أخذ على الأحرار الدستوريين من مآخذ غير ديمقراطية فان وزارة محمد محمود استصدرت مرسوما بقانون فى العاشر

من فبراير ١٩٣٨ بالعفو الشامل عن بعض الجرائم التى وقعت فى الفترة من مايو ١٩٣٦ الى ديسمبر ١٩٣٧ أى فى عهد وزارة النحاس ، ومرسوما آخر بقانون بتاريخ الثامن من مارس ١٩٣٨ بحظر الجمعيات أو الجماعات التى يكون لها صورة التشكيلات شبه العسكرية وقد طبق هذا على فرق القمصان الزرقاء الوفدية ، وفرق القمصان الخضراء التى انشأتها جماعة مصر الفتاة مما يعد فى حد ذاته انتصارا للديمقراطية والحد من الارهاب .

ب — موقفه من الملك :

سار الحزب مؤيدا من القصر ضد الوفد ، ونجح فى انتخابات ١٩٢٥ ، وشكلت الوزارة بينه وبين حزب الاتحاد ، ولكن الملك فؤاد كان يعتبر هذا الحزب الوريث الشرعى لحزب الأمة الذى ورث فيما ورث، عنه عداء رجالاته للقصر ولطغيانه ، كما اعتبر أن تأليف هذا الحزب كان من اجل مقاومة نزعة القصر الاوتوقراطية واندفاع عن مشروع الدستور، لذلك فان الملك فؤاد لم يحبذ الاستعانة بهذا الحزب كثيرا [٣٢] .

وسارت الأمور على هذا المنوال حتى أصدر على عبد الرازق كتابه « الاسلام وأصول الحكم » الذى ادحض فيه الرأى القائل بوجوب الخلافة فى الاسلام ، فغضب الملك عليه وتحرش به وبحزب الأحرار الدستوريين الذى ينتمى اليه كما اهتم الاتحاديون بتجريد الشيخ على عبد الرازق من صفة العالمية ارضاء للقصر مما أدى الى انفصام الروابط بين حزبى الاتحاد والأحرار ، واعادة العلاقات بين الأحرار والوفد من أجل الديمقراطية ولخوض صراع ضد حكومة ليس لها من نفوذ داخل البلاد ، بل يتوقف استمرارها على تأييد الملك . واستعد الاتحاديون لخوض معركة الانتخابات منفردين وانتهى هذا الصراع بعودة الحياة النيابية الى البلاد واستقالة زيور . ومع أن سعد زغلول كان له الحق فى رئاسة مجلس الوزراء بصفته رئيسا للحزب الذى حاز على اكبر المقاعد فى مجلسى النواب والشيوخ فانه ترك هذا المنصب لعدلى يكن فشكل عدلى الوزارة من الوفديين والأحرار الدستوريين وفى العاشر من يونيو ١٩٢٦ عقد البرلمان جلسته الافتتاحية ، وانتخب سعد زغلول

رئيســا لمجلس النــواب الذى قرر الغــاء كافة المراسيم التى أصدرتها الحكومة السابقة فى غيبة البرلمان [٣٣] .

والواضــح أن القصر كان فى ذلك الحين قد ورط الأحرار الدستوريين فى كثير من المخــالفات الدستورية التى كشفت زيف ماكانوا يدعونه مــن الحرص على الدســتور والدفاع عنه والتظــاهر بأنهم من غلاة المحافظين مما أضعف مركزهم السياسى فى البلاد [٣٤] .

جـ — موقفه من الانجليز :

مما يؤخذ على حزب الأحرار الدستوريين انه وضع قاعدة التساهل مع الانجليز للوصــول الى حل للقضية المصرية ، وكان أعضاؤه يفاخرون بهذه السياسة ويسمونها كياسة .

وقد حرص الحزب منذ تأسيسه على هذه السياسة حتى انه لم يذكر فى برامجــه كلمة الجلاء ، وكان وجــود هذا الحزب موضــع رضــاء السياسة البريطانية فكانت تقوم على مساندته وتعضيده [٣٥] .

ومما ســبق يتضح أن هذا الحزب لم يستند على مؤازرة الشعب نه بل ارتكن الى القصر بمعنى انه لم يكن حزبا شعبيــا بل كان جل اعتماده يرتكن على قــوة الحكم ، ومن هناجاء تغليبه لسلطة الحكومة على سلطة الشعب ، وميله الى اهــدار ســلطة الأمــة كى يصــل الى منــاسب الحكم لذلك يمكن القول ان اسم هذا الحزب لا يتفق مع افعاله ، فلا هو ممن نادوا بالجلاء حتى يتضمن اسمه الأحرار ، ولا هو حافظ على الممارسة الديمقراطية ليسمى بالدستورى .

حــزب الاتحــاد :

قام القصر بتأليف هذا الحزب من بعض المنفصلين عن الوفد بقصد ايجــاد نوع من التوازن بين الوفد والأحــرار الدستوريين داخل مجلس النواب ، وكان لحسن نشــأت وكيل الديوان الملكى القسط الأكبر فــى تأسيس هذا الحزب وتوجيهه الى الخطط التى تتطلبها السراى بحيث يكون القصر مرجع الحــكم ومصــدره ، وان يحكم الشعب بواســطة حكومة

تفرض عليه فرضـــا وفيما يلى نعرض لموقف هذا الحزب من الاحـزاب الأخرى وموقفه من الملك .

ا — موقف الحزب من الأحزاب الأخرى :

ضـــاق الوفد وقيـــاداته وضاق حزب الأحرار الدستوريين وقياداته أيضـــا من قيـــام حزب الاتحاد ، ونظروا الى مؤسســـيه نظـــرة ازدراء وســـخرية وبدأ ائتلاف بين الحزبين لمناهضـــة هذا الحزب والتصـــدى له مما جعـــل قيادات هذا الحزب تواجه هذه المواقف بزيادة الارتماء فـــى احضان القصر وتحـــاول فرض نفسها ولكن يبدو من الظروف التى نشأ فيها هذا الحـــزب ومن اعضائه المؤسسين له ، ومن موقف الشعب منه أن هذا الحـــزب ولد ميتا وان كان القصر قـــد استطـــاع أن يستخـــدمه بنجـــاح فى دفع الاحزاب الأخرى الى التسابق فى اعلان ولائها للملك .

ب — موقف الحزب من القصر :

لم يكن لحزب الاتحـــاد مهمة غير مســـاندة القصر على حكم مصر بقوانين ملكية بـــدلا من حكمه عن طريق دســـتور وبرلمان خصوصا وانه حزب قام على أســـاس الولاء للعرش وان تكون السراى مرجع الحـــكم ومصـــدره . ونرى أن تأليف هذا الحزب على الصـــورة التى تم بهـــا وولاءه التـــام للعرش لم يكن من الحكمة السياســـية ولا من الاخـــلاص للقضية الوطنيـــة فى شىء . فالملك كان يجب أن يكون بعيدا عن الأحزاب خصـــوصا وان نزوله الى هذه الحلبة كان مخاطرة جسيمة من جـــانبه عرض نفسه فيها لنقمة وغضب الأحزاب الاخرى .

رابعا : حزب الشـــعب

فى محاولة لتعديل الدســـتور وتكوين وزارة يرضى عنها القصر عهد الملك فـــؤاد الى اسماعيل صدقى فى التاسع عشر من يونيو ١٩٣٠ برئاسة الوزارة .

وفى اعقـــاب ذلك قامت وزارة صـــدقى بالغـــاء دســـتور ١٩٢٣ وقانون الانتخاب ، وخـــرج صدقى على البـــلاد بدستور جـــديد عـــرف

بدستور ١٩٣٠ ذكر أن الغرض منه هو ان يمكن العناصر الرشيدة من خدمة الأمة ، وأن يكفل صحة التمثيل مع ضمان الحريات العامة [٣٧] كما انه خير علاج للحالة الحاضرة[٣٨] .

وكانت النتيجة الطبيعية لصدور الدستور الجديد تأليف حزب يستند اليه فى فرض النظام الذى وضعه حتى يدخل به الانتخابات فألف حزب الشعب .

ونتيجة لذلك اتفق الوفد وحزب الاحرار الدستوريين على مقاطعة الانتخابات التى اعتزم صدقى اجراءها على أساس دستوره الذى وضع السلطة التشريعية فى يد الملك بالاشتراك مع مجلسى النواب والشيوخ [٣٩] بينما قرر الحزب الوطنى وحزب الشعب ، وحزب الاتحاد خوض معركة الانتخابات [٤٠] .

وفى ٦ نوفمبر ١٩٣٠ اصدر الوفد قرارا بعدم الاعتراف بالدستور وقانون الانتخاب الجديد ، ومقاطعة الانتخابات العامة من اساسها ، كما أصدر حزب الاحرار الدستوريين قرارا بهذا المعنى ، واشتركا معا فى تأليف لجنة اتصال بينهما لتنفيذ قرار مقاطعة الانتخابات التى اعتزم صدقى اجراءها ، وتعاهدا على الكفاح من اجل اعادة دستور ١٩٢٣ كما أوعز كل من الحزبين الى انصاره من العمد والمشايخ بالاعراض عن الاشتراك فى انتخابات صدقى وتقديم استقالاتهم احتجاجا عليها[٤١] كما طلب مصطفى النحاس من اعضاء الهيئة البرلمانية الوفدية السابقة أن يقوموا فى دوائرهم بالحض على مقاطعة الانتخابات ثم قام انصار الحزبين برفع الشكاوى الى الملك فؤاد يطلبون فيها اقالة وزارة صدقى واعادة دستور ١٩٢٣ [٤٢] .

ولم تسكت حكومة صدقى على احزاب المعارضة وجرائدها فقد اتهمت حزب الوفد بأنه يتخذ من الرعب الذى ينشره بين الناخبين والنواب سببا للحكم والتحكم [٤٣] كما استخدم اسماعيل صدقى القوة فى قهر الراى العام . وقد حدث ان قرر الوفد ان يخرج النحاس على رأس اعضاء مجلس النواب المنحل فى مظاهرة كبيرة تقتحم أبواب البرلمان ،

ولما علم صدقى بذلك هدد باطلاق النار على المظاهرة وقتل النحاس فعدل الوفد عن قراره ولما خرج النحاس على راس رجال الاحزاب الى طنطا أمر صدقى بمنعهم من السفر ، وعندما اقتحموا المحطة وركبوا القطار أمر صدقى بفصل العربة التى يركبها النحاس عن سائر العربات وتحرك بها قطار خاص الى منطقة نائية فى الصحراء تركتهم هناك(٤٤) يضاف الى ذلك أن حكومة صدقى فصلت واضطهدت الموظفين الذين ينتمون الى احزاب المعارضة (٤٥) .

اما عن موقف حكومة صدقى من جرائد المعارضة فكان التعطيل والاغلاق ففى الخامس عشر من يوليو ١٩٣٠ أمرت بتعطيل جرائد البلاغ وكوكب الشرق واليوم تعطيلا نهائيا كما أنذرت جرائد الضياء ، والفلاح المصرى ، والمساء ، والريفى والجورنال دى كير بسبب نشرهم خطبا منسوبة لرئيس الوفد (٤٦) كما فصلت العمد والمشايخ الذين انحازوا للمعارضة ، واضطهدت الأهالى الذين اعلنوا عن ولائهم للوفد أو للاحرار الدستوريين .

وقد أجريت الانتخابات الصورية فى مايو ويونيو ١٩٣١ فى جو خانق من الاكراه والتزوير وسفك الدماء ، وكانت على درجتين الأولى الانتخابات الخمسونية أى أن ينتخب كل خمسين ناخبا مندوبا عنهم ، ثم الانتخابات البرلمانية وفيها ينتخب المندوبون اعضاء مجلس النواب ثم اعضاء مجلس الشيوخ .

وعلى الرغم من اعلان الكثيرين من الناخبين رفضهم لعملية الانتخابات فقد اعلن اسماعيل صدقى أن نسبة عدد الناخبين الذين اشتركوا فيها كانت تفوق كل نسبة سبقتها (٤٧) .

والواضح أن الحكومة قد عمدت الى تزوير عملية الانتخابات فاوعزت الى لجان الانتخابات أن تزور محاضرها بحيث تثبت فيها حضور الناخبين كذبا وزورا (٤٨) وبذلك تمت المأساة الانتخابية ، وكانت سابقة خطيرة اتبعتها الادارة فى العمليات الانتخابية كلما ارادت الحكومات التالية اصطناع برلمان صورى .

يضاف الى ذلك أن الجامعة لم تنج من بطش حكومة صدقى فبعد انتخاب الدكتور طه حسين الذى كان ينتمى الى حزب الأحرار الدستوريين عميدا لكلية الآداب بيومين طلبت منه الحكومة أن يستقيل من الجامعة ليصبح رئيسا لتحرير جريدة الشعب لسان حال حزب صدقى فرفض وآثر البقاء فى الجامعة فأسرها صدقى فى نفسه وزاد من غضب صدقى على طه حسين أنه كان متمسكا بضرورة استقلال الجامعة فعارض منح الألقاب الشرف العلمية للسياسيين حتى لا يورط الجامعة فى السياسة ، فتحينت الحكومة الفرصة لابعاده عن الجامعة [٤٩] .

والغريب أن تلك الوزارة التى ظفرت بأكبر قسط من سخط الناس كانت أطول الوزارات عمرا فى التاريخ البرلمانى فى ذلك الوقت ، ولكن عندما سقط صدقى تخلى عنه الجميع ، تخلى عنه حزبه ، وتخلت عنه جريدته ، وتلك نتيجة طبيعية فالبناء الذى يقام على السلطان يذهب بذهاب السلطان .

موقف الحزب من القصر :

كانت دعوة الملك لاسماعيل صدقى لتشكيل الوزارة انما هى دعوة ليتولاها لحساب القصر وليس لحساب الأمة أو حساب طبقة بعينها لذلك فليس من المستغرب أن ترتمى هذه الوزارة فى احضان الملك وتقوم بتنفيذ كل رغباته وأوامره .

موقف الحزب من الانجليز :

كان صدقى يرى بعد ارساء نظامه الجديد الاتفاق مع بريطانيا حول القضية المصرية ، ولكن الحكومة البريطانية رأت ضرورة الاتفاق مع حكومة مصرية تتمتع بثقة الأغلبية فى برلمان منتخب انتخابا حرا وهو ما لا ينطبق على حزب الشعب كما أن السير لامبسون المندوب السامى البريطانى بعد أن درس عشرات الآلاف من الشكاوى التى وصلته من مختلف طبقات الأمة من اضطهاد حكومة صدقى رأى خطورة أن يتم الاتفاق مع حكومة على هذه الحال لأن ذلك يهدد سلامة الامبراطورية البريطانية فى مصر مما دفعه الى التقارب ناحية الوفد [٥٠] .

ومما سبق يتضح فشل حكومة صدقى فى ارغام الأمة على دستور من صنع السراى ، وعلى الرغم من تزوير الانتخابات والمواقف العدائية العنيفة التى استخدمها حزب الشعب ضد الأحزاب المعارضة فان الشعب أظهر صلابته فى مواجهة هذه الأحداث حتى اضطر الملك فى نهاية الأمر الى اعادة دستور ١٩٢٣ .

وخلاصة القول فان مصر وان كان لها دستور ولها نظام يسمى بالديمقراطى فى معظم الفترة من ١٩٢٣ الى ١٩٥٢ فانها لم تحكم بمقتضى الأساليب الدستورية بالمعنى الوارد فى الدستور ، ولا بمقتضى المبادىء الديمقراطية الغربية المتمثلة فى حرية الراى ويرجع السبب فى ذلك الى المسلك الذى سلكته الأحزاب فى سعيها الى تحقيق استقلال مصر فالبرلمان الأول الذى شكل برئاسة سعد زغلول كان يخضع لكلمة ذلك الزعيم الذى اكسبته معارضته الطويلة وتضحياته الكثيرة سلطة عظيمة فكانت الحكومة فى واقع أمرها مطلقة وتحت تصرف سعد زغلول ، ثم تلت ذلك حكومة ادارية برئاسة أحمد زيور باشا تكونت بعد مقتل السردار واثناءها تعطل الدستور ، وكان المنتظر بعد اعادة البرلمان أن يتم تحقيق الأغراض التى رمى اليها بناة الدستور ، ولكن وفاة سعد زغلول اعقبه فترة انتظار ، ووجدت البلاد نفسها مضطرة الى الاصلاح الداخلى ثم تكونت حكومة الائتلاف ، ولكن اتضح أن زعماء الاكثرية فى الائتلاف من النواب والشيوخ لم يدركوا تماما الفرق بين التهييج السياسى والعمل الوطنى بمعنى أن البلاد لم تتمتع بحكومة برلمانية بل كانت تتحكم فيها لجنة دكتاتورية ، وهى اللجنة التنفيذية البرلمانية للحزب الوفدى ، وكان النواب لا هم لهم سوى مضايقة الوزراء والتدخل فى أعمالهم حتى لو كان هذا العمل فى دور التنفيذ والتوسط لدى الوزراء ومرعوسيهم يضاف الى ذلك أن آثار الانقسام بين الأحزاب انتقلت الى دوائر الحكومة مما أدى الى افساد نظام العمل وتعريض مصالح الجمهور للعسف والعبث ، ومن نشر القلق والاضطراب بين الموظفين لدرجة انه بوصول حزب المعارضة الى الحكم يتم تشتيت الموظفين من انصار الحكم السابق وتشريدهم وانتهى الأمر بأن أصبحت الحياة النيابية مصدر طغيان فئة على أخرى[٥١] وأصبح النظام الحزبى فى مصر

نظام ضار لا يقوم على أسس سليمة خاصة وان الهدف الأول لكل حزب من هذه الأحزاب أن يصل الى كراسى الحكم وان يكيد لأحزاب المعارضة دون اعتبار للمصلحة الوطنية ولا مراجعة لضمير . يضاف الى ذلك ان معظم هذه الأحزاب كانت تعتمد على زعيم أكثر من اعتمادها على مبدأ كما كانت تعتمد على الشعارات أكثر من اعتمادها على البرامج المدروسة .

٥ — المرأة المصرية والتعليم الجامعى (٥٢)

بعد أن افتتحت الجامعة المصرية رسميا فى ٢١ ديسمبر ١٩٠٨ رأى بعض القائمين على أمرها ضرورة الأخذ بيد المرأة المصرية والارتقاء بها ادبيا وعلميا ، ومن أجل ذلك خصصت الجامعة ابتداء من العام الثانى من افتتاحها محاضرات خاصة بالسيدات تشمل تاريخ المرأة على مر العصور ، وبالرغم من الحذر الشديد فى اتخاذ هذه الخطوة خشية غضب المحافظين على التقاليد ، ومفاجأة الرأى العام بشىء لم يستعد له فان بعض الصحف المصرية باركت ذلك الاتجاه وهللت له وشجعت على دراسة العلوم النسائية للنساء موضحة أن النساء المصريات فى حاجة كبيرة الى من يصقل أفكارهن ويقوم اعوجاجهن ويرفع عنهن غشاوة الجهل فطالبت جريدة « الظاهر » بانشاء جامعة للنساء حتى يتعلمن ما لهن وما عليهن فقالت « نريدهن متعلمات عارفات بكل ما يجب لهن وعليهن بارعات فى تدبير المنزل والنظر فى شئون اطفالهن ، فمن شاء اصلاح مصر وترقيتها حقيقة فليجهر معنا بضرورة لزوم جامعة للنساء يتعلمن فيها علم تدبير المنزل وتربية الاولاد [٥٣] وقد أيدت اللواء ذلك فطالبت بانشاء جامعة للنساء موضحة أن اصلاح البلاد لا يتم بدون انشاء مثل هذه الجامعة [٥٤] .

ولا يعنى هذا ان اللواء فى مناداتها بانشاء جامعة للنساء قد تراجعت عما نادى به مصطفى كامل بضرورة فرض الحجاب على المرأة ورفضه لفكرة التحرر من قيودها فقد حددت فى مناداتها بانشاء هذه الجامعة أن يقتصر التعليم على ما يساعد المرأة فى تدبير شئون منزلها وتربية أولادها وتهذيب أخلاقها ليتكون منها امهات المستقبل .

ونتيجة لتشجيع بعض الصحف للجامعة الوليدة على السير فى خطاها نحو تعليم المرأة قررت الجامعة انشاء قسم نسائى بها اقتصر التدريس فيه أول الأمر على محاضرات فى علم نفس المرأة والفلسفة والتربية والتاريخ وبعض الموضوعات العصرية هذا بالاضافة الى تدريس بعض الموضوعات الأساسية فى علم الصحة والطب [٥٥] .

ولما كانت الدراسة بالجامعة للرجال فى المساء فقد رأت الجامعة أن تكون الدراسة بها للنساء فى الصباح حرصا على تجنب التلاقى بين الجنسين داخل أروقتها .

وعلى الرغم من تعنت التقاليد وشدتها فى ذلك الوقت فانه يتضح من وثائق الجامعة الأهلية أن عدد النساء اللاتى خاطرن بدخول الجامعة فى عام ١٩١٠ كان ستة وثمانين قيد جميعهن كطالبات مستمعات وكان عدد المصريات منهن خمسا وثلاثين أما الباقى فكان من جنسيات مختلفة ، واذا قسنا ذلك العدد بعدد الرجال فاننا نجد أن عدد الرجال المقيدين بالجامعة فى نفس هذه السنة كان ثلثمائة وسبعة عشر طالبا أى أن عدد الطالبات بالنسبة لعدد الطلبة كانت تزيد نسبته عن الربع وهذه نسبة ليست بالقليلة اذا نظرنا اليها فى ضوء تقاليد ذلك العصر . وقد يدفعنا ذلك الى أن نتساءل عن نوعية النساء المصريات اللاتى حضرن الى الجامعة فى ذلك الوقت للاستماع الى محاضراتها الواقع أن المواظبات منهن على حضور تلك المحاضرات كن من عقائل البيوتات المصرية ومنهن هدى شعراوى وصفية زغلول وفاطمة عمر شقيقة عبد العزيز باشا فهمى ، هذا بالاضافة الى عقيلات وكريمات بعض الباشوات أمثال ارتين وقطاوى ورشدى وذو الفقار ولم تكن هؤلاء كل من التحقن بالجامعة مستمعات من بنات مصر بل كانت هناك معهن اميرات من الأسرة المالكة أمثال فاطمة فاضل وعين الحياة[٥٦] .

وقد وصفت احدى النساء حضور المستمعات الى مبنى الجامعة ، فقالت « تتاطرت العربات والسيارات مقلة كرائم السيدات وعقائل البيوتات، وكانت وجهة هذا الجمع الرقيق من الجنس اللطيف سراى الجامعة المصرية فدخلن زرافات ووحدانا الى البهو العظيم المعد لمحاضرة السيدات [٥٧] .

هذا عن المستمعات من الطالبات أما عن المحاضرين فقد كان معظمهم من السيدات وذلك حتى لا تضطر المستمعات الى وضع الحجاب داخل قاعة الدرس وقد حاضر فى هذا القسم النسائى نبوية موسى ناظرة المعلمات بالمنصورة وتركزت محاضراتها فى مجال تاريخ مصر الحديث وما يسود العالم من علوم عصرية ولبيبة هاشم صاحبة مجلة فتاة الشرق وقد تحدثت عن التربية والأخلاق واثرهما فى حياة الأمم وطالبت بايجاد الوسائل اللازمة لتحسين التربية فى المدارس وتعليم الفتيات قوانين الصحة وقواعد الآداب الصحيحة حتى اذا أصبحن أمهات ادركن ما عليهن من خطر الواجبات [٥٨] .

وحاضرت رحمة صروف فى شئون التدبير المنزلى ، وحاضرت ملك حفنى ناصف (باحثة البادية) فى حقوق المرأة وواجباتها وموقف الاسلام من ذلك ، كما حاضرت فى موضوعات تدور حول « المقارنة بين المرأتين المصرية والغربية وعاداتهما » وكانت تلقى على مستمعيها النصائح وتبين للحاضرات سوء العادات ومضار الخرافات ومن ذلك ما ذكرته من أن المرأة الغربية تقوم بتغذية طفلها غذاء حقيقيا سريع الهضم . وتتحفظ عليه من موجات البرد والحر نجد المصرية تطعمه أثقل الغذاء وتبادر باعطائه اللحم وما يتعذر هضمه فيصاب بالاسهال والنزلات المعوية ، ولا تكترث لنظافة جسده لئلا يحسده أحد ، واذا مرض تم علاجه بالتعاويذ والتمائم ، كما تحدثت عن الزار فقالت انه ابو الخرافات ومفسد البيوت ، وانها لا تدرى لماذا اختارتنا العفاريت مسكنا لها ، وتساءلت لماذا لم نلجأ الى ارسطو وابن رشد وفيثاغورث وغيرهم بدلا من أن نلجأ الى الشيخة رمانة وسعيفة ويوسف مرتع وغيرهم ممن لا يطلبون الا الخلاخيل والمصوغات وأوضحت كذلك أن كثيرات من المصريات ادعين ركوب العفاريت اياهن ، ولما ضربهن رجالهن بسبب ذلك لم تعد اليهن العفاريت ولم يطلبن الزار [٥٩] .

واشترك فى القاء هذه المحاضرات ايضا بعض الاجنبيات مثل الآنسة كوفرور المدرسة بمدرسة راسين بباريس واقتصرت فى محاضراتها على علم النفس والاخلاق [٦٠] كما كان يلقى بعض الاطباء من المصريين والأوربيين محاضرات فى حفظ الصحة والعناية بالأطفال [٦١] .

ولم يقتصر نظام الدراسة بالقسم النسائى على ذلك بل أخذ يتطور بتطور نظام الجامعة وبرامج التدريس فيها ففى عام ١٩١٢ أصبحت الدراسة بهذا القسم تشتمل على محاضرات فى التربية وعادات المصريين وتأثير الاسلام فيها ودولة المماليك ، وحروب فرنسا ، واشهر النساء فى التاريخ ، وعلم التدبير المنزلى والتدابير الصحية واختيار المنزل واثاثه والحياة الزوجية وسعادة الاسرة والآداب المنزلية والاخلاق (٦٣) .

وعند مقارنتنا لهذا البرنامج ببرنامج التدريس الذى سبقه يتضح أن كلا من البرنامجين ركز على الاهتمام بمواد تهم حياة المرأة الزوجية والمنزلية والأسرية أكثر من غيرها ، وربما كان يرجع هذا الى أنه لم يكن يتطرق الى ذهن أحد فى ذلك الوقت قيام المرأة المصرية بالعمل بالمصالح كالرجال بل يقتصر دورها على تدبير شئون المنزل ، وتهذيب الأولاد .

وعلى الرغم من اقبال بعض السيدات والآنسات عن حضور هذه الدراسات فى الجامعة فان الرجال المتمسكين بالتقاليد منعوا زوجاتهم واقاربهم من حضور هذه المحاضرات ويتضح ذلك من مناشدة بعض النساء على صفحات الجرائد دون أن يذكرن اسماءهن الرجال الا يمنعوا زوجاتهم واخواتهم وبناتهم من حضور المحاضرات بالجامعة (٦٣) .

والجدير بالذكر أن انشاء القسم النسائى بالجامعة قد أثار ثائرة بعض المحافظين فبالرغم من أن معظم المحاضرات كانت تلقيها نساء ، وكانت تتركز على التربية المنزلية والحياة الأسرية فقد تجمع بعض الرجال أمام الجامعة للتعرض للنساء ومنعهن من الدخول لأن ذلك سيؤدى من وجهة نظرهم الى خروجهن على الآداب ، ويرفع عنهن صفة العفاف التى تتحلى بها كل قابعة بالمنزل ، وعندما أرسل عبد العزيز فهمى سكرتير الجامعة خطابات الى نساء الطبقة الواعية يدعوهن للحضور أعتبر بعض الغيورين على الاخلاق العامة وجود اسماء نسائية على اظرف الخطابات ، فيراها رجل البريد بمثابة عار يلحق بسمعتهن ومن الفضائح الكبرى التى لا يمحوها الا الدم ، فارسلوا

خطابات تهديد بالقتل الى عبد العزيز فهمى اذا لم يكف عن هذا العمل (٦٤) .

وعلى كل حال فانه نتيجة لحضور بعض النساء المحاضرات فى الجامعة حدثت مناظرات فكرية على صفحات الجرائد بين معارض تعليم المرأة ومؤيديه وتصارعت الافكار بينهما فذكر المعارضون أن البلاد فى حاجة الى امرأة تحمل ولدها على كتفها لا أن تصدر الأوامر بقلمها وتدير الشئون العامة فى الدواوين (٦٥) .

وانها من يوم أن تولد الى يوم أن تموت تنتقل من رعاية رجل الى رعاية آخر لان الرجال قوامون على النساء شرعا كما صور بعض هؤلاء للمرأة جمال خدرها وضرورة الاستقرار فيه (٦٦) ورأى بعضهم الآخر ان سبب شقاء الجنس البشرى حواء التى أغوت آدم (٦٧) ، ولم تقتصر معارضة تعليم المرأة على الكتاب بل عارضه ايضا أمير الشعراء فقد شبه أحمد شوقى المرأة المصرية بالطير من حيث ضعفها وتقيدها بمشيئة الرجل ، وانه يجب على النساء التمسك بالحجاب صونا لعفافهن وذلك فى قصيدته الموسومة بين الحجاب والسفور فأوضح لهن فى شخص عصفور الكناريا انهن محجوبات منحبسات لنفاستهن والخوف عليهن من عاديات الخارج وضرب لهن الأمثال للتحريض على الخضوع للرجل فقال (٦٨)

صداح يا ملك الكنار ويا أمير البلبل
حرصى عليك هوى ومن يحرز ثمينا يبخل
شهد الحياة مشوبة بالرق مثل الحنظل
ان طرت عن كنفى وقعت على النسور مثل الجهل (٦٩)

وقد ردت احدى النساء على هذه القصيدة معاتبة امير الشعراء فقالت حكمت على ايها الشاعر بالأسر ونصحتنى بالصبر ولم تدر أنى فقدت كل صبر فى حبسك اياى بدون داع فلم يعد لى شعور ولا ادراك بعد أن اغتصب منى حقى الطبيعى الذى دونه قتل النفس وازهاق الارواح ايها الشاعر نسبت حالتى هذه الى الطبيعة ، وما هى الا نتائج حبك لأسرى . أسرتنى لأحررك ، أحزنتنى لافرحك . اناشدك الحق هل

سمعت نحيبى داخل القفص وهل راقك منظرى مكبلا بتلك السلاسل الحديدية [٧٠] .

وعلى كل حال فان أمر مهاجمة سفور المرأة لم يقتصر على الرجال بل أيد ذلك بعض النساء حتى اللائى أصبح لهن بعد ذلك شأن فى مجال التعليم الجامعى ومن هؤلاء الدكتورة عائشة عبد الرحمن فقد ذكرت فى بداية عهدها بالكتابة عن انطباعاتها عن نساء القاهرة عندما رأتهن لأول مرة فى مقال تخيلت فيه انها تخاطب صديقة لها فتقول « ستذهبين الى القاهرة وتدخلين فى دنيا جديدة وتشعرين بحال غريبة فتثور فى نفسك ثورات كامنة لا عهد لك بها اذ تجدين الفتيات عاريات الا ما يستر عوراتهن وستريهن فى حالة مهيجة قبيحة يمشين كاسيات عاريات ضاحكات ساخرات ، كأنهن بين جدران مخادعهن أو من وراء ستار » [٧١] .

اما مؤيدو تعليم المراة فقد ذكروا أن انحطاط المرأة المصرية يعتبر دليلا على انحطاط الرجل ، وان المرأة خلقت مساوية للرجل فى كل شىء وانه يجب أن تنال من الحقوق ما يناله الرجال تماما [٧٢] .

وعلى كل حال فقد أدى احتجاج المعارضين لحركة التجديد وكانوا فى ذلك الوقت قوة لا يستهان بها ، الى ايقاف التدريس بالفرع النسائى بالجامعة خلال العام الدراسى ١٩١٢ — ١٩١٣ [٧٣] ظل الحال على هذا المنوال فترة طالت الى ما بعد أن أصبحت الجامعة المصرية تابعة للحكومة فعلى الرغم من حصول بعض الفتيات على البكالوريا التى تؤهلهن للالتحاق بالجامعة فان الطريق كان شائكا وأبواب الجامعة كانت مغلقة فى وجوههن ولولا مساندة بعض قادة الفكر من الرجال فى ذلك الوقت أمثال أحمد لطفى السيد وطه حسين لما تحققت للمرأة فرصة التعليم الجامعى وتفاصيل ذلك ان بعض الفتيات لجأن الى لطفى السيد مدير الجامعة يطلبن مساواتهن بالرجال فى التعليم الجامعى ، وان بعض عمداء الكليات واساتذتها طلبوا أن تقبل الفتيات الحائزات على البكالوريا فى كلياتهم ، وكان طه حسين هو أول من عرض على لطفى السيد قبول الطالبات فى الجامعة ، وحين سأله لطفى السيد هل قانون الجامعة يمنع دخول البنات اجابه بأن القانون يقول ان الجامعة للمصريين ولم يحدد

النوع [٧٤] يضاف الى ذلك ان بعض الصحف طالبت بضرورة ان يشمل التعليم الجامعى الفتيات ولكن الموقف لم يكن سهلا فقد كانت هذه المسالة شائكة خصوصا وان انصار هذا الراى بالنسبة للراى العام ككل كانوا قلة وكان الأمر يستلزم التريث والتزام التكتم وعدم مناقشته أو عرضه على الرأى العام حتى لا يثور المتزمتون ويتعقد الموقف ، وفى غفلة من هؤلاء وضعت الجامعة الرأى العام والحكومة أمام الأمر الواقع عندما فتحت كلية الآداب أبوابها للطالبات ودخلتها اربعة هن سهير القلماوى وفاطمة سالم سيف ، وفاطمة فهمى خليل ، وزهيره عبد العزيز .

ويتضح ذلك فيما كتبه لطفى السيد فى مذكراته اذ يقول لا أخفى اننا قبلنا الطالبات اعضاء فى الأسرة الجامعية فى غفلة من الذين من شأنهم ان ينكروا علينا اختلاط الشباب باخواتهن فى الدرس [٧٥]

وعلى كل حال فان هذا الاجراء كان بمثابة ثورة فكرية وتعليمية احدثت ضجة شديدة فى أوساط المحافظين ولكن سنة التطور الاجتماعى كانت فوق هذه الضجة التى كانت سحابة صيف لم تلبث أن ذهب بها الزمان وأصبحت فى خبر كان .

فسارت كليات الحقوق والعلوم والطب — وكانت هى الكليات التى تضمها الجامعة فى ذلك الوقت — على منوال كلية الآداب فوافقت كل منها على قبول الطالبات فدخلت الحقوق الطالبة نعيمة الايوبى أما كلية العلوم فقد التحقت بها ثمانية طالبات منهن نفيسة سماحة وعايدة انطون والتحقت بكلية الطب أربع طالبات هن نفيسة محمد ، وفاطمة حسن ، وزينب ابراهيم ، وحكمت البدرى ومع أن التحاق الطالبات بهذه الكليات كان أمرا طبيعيا الا انه اثار الكثير من النقاش والجدل داخل الجامعة وخارجها وقد فقدت المراة معضديها داخل الجامعة نتيجة لاقالة الدكتور طه حسين من عمادة كلية الآداب فى عهد وزارة صدقى [٧٦] ثم تقديم لطفى السيد استقالته من منصبه كمدير للجامعة عام ١٩٣٢ احتجاجا على تدخل السلطات فى شئون الجامعة بنقلها طه حسين الى وظيفة خارج الجامعة على غير ارادتها وقد يعزى الى ذلك تاخر

دخـــول الفتيات للكليات الأخرى بعض الوقت فقد ظلت كلية الهندســة والزراعة ممتنعين عن قبـــول الفتيات فترة وسارت على هذا المنـــوال كلية التجــارة ولكن لم تلبث اليقظة الزاحفة أن طغت على الأفكار القديمة فغزت المرأة تلك الحصـــون التى كان يحتكرها الرجل ففتحت أبواب هذه الكليات للطالبــات ، فدخلنهـــا واستطعن أن يحصلن على نتائج تبعث على التفــاؤل وتدريجيــا ضمت كليـــات الجامعة الفتيات ، ولم يتأخر فــى ذلك ســوى كلية دار العلوم التى لم تفتح أبوابها للفتيات الا فى العـــام الدراسى ١٩٥٣/١٩٥٤ أى بعد ضمها الى جامعة القاهرة .

والى جـــانب اتاحة التعليم العالى للفتاة بجميع صوره وتخصصاته رؤى ضرورة توافر نوعية معينة من التعليم الجامعى تفى باحتيـــاجات الأسر المحـــافظة التى لا ترغب فى اختـــلاط بناتها مع الشبان ومن هنـــا انشئت كلية البنـــات عام ١٩٥٠ واصبحت احـــدى كليـــات جـــامعة عين شمس عام ١٩٥٦ وكانت قبـــلا معهد التربية للمعلمات وفى العـــام الدراسى ٦٢/١٩٦٣ انشـــئت كلية البنـــات الاسلامية جامعة الأزهر وبذلك دخلت المرأة مجالا جديدا من التعليم العالى والتعليم الدينى (٧٣) .

واخـــذ عدد الطـــالبات اللائى يلتحقن بالجامعة فى التزايد فبعد أن كان عددهن فى عام ١٩٢٩ وهى الســـنة التى قدر لهن فيها الســـماح بدخول الجامعة سبعة عشر طالبة تجاوز الآن ١٣٨ الف طالبة .

وبعد أن كان عـــدد الملتحقات بالجامعة فى عام ١٩٢٩ ثمانية بكلية العـــلوم واربعة بكلية الآداب ، واربعة بكلية الطب وطالبة واحدة بكليـــة الحقوق اصبح عددهن فى كليـــات الآداب فقط حتى عـــام ١٩٧٩ ٢٤ الف طالبة (٧٨) .

وعن اختلاط الطالبات بالطلبة داخل الجامعة فقد تحاشت الطالبات فى أول دخولهن الجامعة أى صـــلة تربطهن بالطلبة ، ودخلن قـــاعات المحاضرات مغطيـــات الرءوس وامتنعن عن الاقتراب من الأمـــاكن التى يتواجد فيها الطلاب وتجـــاهلن التحيات الموجهة اليهن ، ورفضن الاشتراك فى مناقشـــة الاساتذة خـــلال الدرس ، وقد حـــاول الدكتور طه حسين

أثنـــاء عمادته لكلية الآداب تشـــجيع الاختلاط بين الطالبات والطلبة ففى الحفل الذى اقامته الكلية فى نادى الجـــامعة بمناسبة النجاح الذى احرزه مشروع القرش فى فبراير ١٩٣٢ نشرت جريدة الأهرام صورة تظهر طلبة الكلية حـــول عميدهم طه حسين وقد جلست كل طالبة بجانب طالب (٧٩) مما اثار الرأى العـــام وتوتر موقفه من الجـــامعة أكثر مما كان فحمل أحد أعضـــاء مجلس النـــواب حملة شديدة فى البرلمان ضد د. طه حســـين وموقفه من هذا الاختـــلاط وعلى كل حـــال فان رهبة الطـــالبات مـــن الاختـــلاط بزملائهم الطلاب لم تستمر طـــويلا ففى أول محنـــة تعـــرض لهـــا استقلال الجامعة بفصـــل الدكتور طه حسين على غير ارادته من الجـــامعة خرجت الطـــالبات من عزلتهن وثرن مع الثـــائرين ، وارتفعت أصواتهن لأول مرة تخطب وتحمس وتدعو الى النضـــال انقاذا لاستقلال الجـــامعة من تلاعب الأهـــواء (٨٠) وكان اشتراكهن فى المظاهرات دافعا لزيادة حماس الطـــلاب ، كما ظهرت لدى بعض الطالبات القـــدرة على اقنـــاع زملائهن الطلبة للعدول عن بعض المواقف ويكفى للتدليل على ذلك أنه فى اثنـــاء الاضراب نادى عميد الحقوق الطالبة نعيمة الايوبى ودعاها الى اقنـــاع زملائها بوقف الاضراب والعمل على اعـــادة النظام فعـــادت الأمور الى نصـــابها .

وبدأت طـــالبات الجامعة يتطلعن الى المزيد من الحرية فمـــارسن الألعـــاب الرياضية خصوصا لعبة التنس وبدأ ذلك فى كلية الآداب عندما ظهرت طالبة فى ملعب التنس .

ورغم ثـــورة الرأى العـــام على هذه الحرية التى اتيحت لفتـــاة الجـــامعة ، ورغم الاحتجاجات الشـــديدة التى وصـــل مداها الى القصر الملكى (٨١) بخصـــوص ممارسة الطـــالبات للالعاب الرياضية فى الجامعة فقد استمرت المســـيرة النسائية نحو المزيد من الحرية فاخذت مـــلاعب الجامعة تكتظ بالطـــالبات من مختلف الكليـــات ، ولـــم يقتصر ذلك على التنس بل تطرق الى كرة الســـلة وغيرها من الالعاب .

ورغم كل ذلك فقد كانت بعض الطـــالبات يحسبن الف حســـاب لمعارضى تحررهن داخل الجـــامعة ويتضح ذلك فى تأخر دخولهن اتحـــاد

الطـلاب بالجامعة ، فبالرغم من أن هذا الاتحـاد منح حق العضـوية للطالبات الا أنهن لم يرشحن انفســهن فى عام ١٩٣١ رغم تشجيع البعض لهن ، وقد اعربت احـدى الطالبات عن سبب ذلك بقولها « انى أجد فى ذلك مجازفة كبرى لما تكنه قلوب العـارضين من تهكم وسخرية (٨٢) .

ولكن هذه الرهبـة لم تستمر طويلا فقد شـاركت الطالبات الطلاب فى انشـطتهم الاجتماعية فعندما أنشئت جمـاعة النهضة الاجتماعية فى كلية العـلوم عام ١٩٣٧ بهـدف جمع التبرعات من الطـلاب الاغنيـاء وتوزيعها على زملائهم الفقـراء وأقيمت سـوق خيرية فى الجامعة من اجل هذا الغرض قـامت الطـالبات بعرض اشـغال من صنعهن فى هـذه السوق وساهمن فى جمع التبرعات من الآخرين .

يضـاف الى ذلك قيام الفتيات بالاشتراك فى المناظرات والمحاضرات التى اقيمت داخل وخارج الجامعة .

وعلى كل حال فقد أدى دخـول الفتاة المصرية الجامعة الى اثبات وجـودها ، وبانها لا تقـل قدرة وكفاءة عن الفتاة الأوربية ، كما أنهـا لا تقل ذكاء ومقدرة عن الرجل .

وفى عـام ١٩٣٣ تخرجت أول دفعـة من طالبات الجامعة المصرية وكانت مكـونة من نعيمة الايوبى من كلية الحقـوق وسهير القلمـاوى ، وفاطمة سـالم ، وفاطمة خليل من كلية الآداب ولم يقتصر الأمر على ذلك بـل أن كلية الآداب ضمت ثلاثة منهن نـواة لاعضاء هيئة التدريس بها وهن سـهير القلماوى فى اللغة العربية ودرية فهمى للانجليزية وفـاطمة سـالم للدراسات القديمة (٨٣) .

وقد اثبتت خريجـات الجامعة من الفتيات القدرة على منافسـة الرجـال فى الحصول على الدرجات العـالية وتولى المنـاصب الاكاديمية فى الجـامعة نفسها ، واذا نظرنا الى المكانة التى تحتلها المرأة فى الجامعة حـاليا يتضح أنها تشـغل جميع المناصب الاكاديمية فيها على اختـلاف أنواعها ابتداء من وظيفة معيد الى رئيس قسـم وعميد .

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل واكبه ايفاد الفتيات المصريات فى بعثات الى الخارج للتأهيل فى التخصصات غير المتوافرة فى الجامعات ، وكذلك التخصصات العالية التى تؤهلهن للتدريس فى الجامعات الى جانب التأهيل اللغوى فى اللغات الانجليزية والفرنسية لاعداد مدرسات وطنيات يحللن محل الاجنبيات [٨٤] .

وبعد أن اثبتت الفتاة الجامعية مقدرتها على المساواة بالرجل كان عليها أن تواجه معركة أخرى وهى الحصول على وظيفة والخروج الى معترك الحياة العملية ولكن بعض العائلات استنكرت ذلك ورأت أنه من الخير للفتاة الجامعية الا تزج بنفسها فى ميدان العمل من غير تسلح ولا استعداد وانه من الأفضل بعد تخرجها الاستفادة بها بتزويجها لتكون نواة صالحة للبيت المصرى الحديث [٨٥] خصوصا وان مشكلة المتعلمين المتعطلين ستزداد سوءا اذا ما شاركت الفتاة الرجل فى الحياة العامة [٨٦] .

يضاف الى ذلك أن المعارضين لسفور المرأة وخروجها الى مجال العمل قاموا بحملة شديدة لوقف تيار حصول المرأة على وظيفة واتبع بعضهم فى ذلك الأسلوب اللاذع الذى يستنهض همم الرجال ويدفعهم الى معارضة تشغيل النساء ونقتطف فى هذا المقام بعض ما جاء فى مجلة كل شىء والدنيا فى يوليو ١٩٣٢ فاعلا توقيع فضولى ذكرت هذه الابيات

حلقت رجالكم اللحى	لما علا أمر النسا
والآن ترتزق النساء	وتأكلون بلا عناء
فليحلق الموسى الشوارب	انها منكم براء [٨٧]

وبالرغم من كل ذلك فقد كان هناك رأى آخر يرى انه لا مانع من اشتغال الفتاة بعد تخرجها لتجاهد بجانب الرجل فيستفيد منها المجتمع اكثر من ركونها الى الحياة المنزلية لأنه لا معنى أن تعد الفتاة للحياة ، ثم تحرم من العمل بعد هذا الاعداد [٨٩] .

وتحفظ البعض نحو هذا الموضوع فرأى توجيه الفتيات بعد تخرجهن الى الأعمال التى تتناسب مع قدراتهن والتى يختلفن فيها عن

الرجال [٩٠] واخيرا رجحت كفة المؤيدين لدخول المراة مجال العمل فعندما رغبت نعيمة الايوبى أولى خريجات كلية الحقوق فى العمل بالمحاماة ترددت لجنة قبول المحامين فى الموافقة على قيد اسمها فى أول الأمر ، ثم انتهى الخلاف بين اعضائها بانتصار جبهة المؤيدين لقبولها وعلى كل حال فالملاحظ أن الذى دافع عن المراة المصرية وتعليمها الجامعى ثم خروجها الى مجال العمل ومساواتها بالرجل كان الرجال لا النساء أصحاب الشأن فى هذا الموضوع ويبدو ذلك واضحا من الالتماسات التى قدمت الى القصر الملكى والتى يعرب فيها أصحابها عن استيائهم من المحاضرات التى يلقيها بعض الرجال مثل محمود عزمى افندى والدكتور ميخائيل فرج ومحمد توفيق دياب ، داخل الحرم الجامعى ، ودعوتهم فيها للمساواة بين المراة والرجل وعلى كل حال فانه بمضى الوقت دخلت المراة مجال العمل ، وعملت فى جميع الوظائف العامة واصبحنا نسمع عن اسماء مصريات برزن فى كافة ميادين الحياة حتى وصلن الى منصب الوزارة .

والسؤال الذى يطرح نفسه هو هل خروج المراة الى مجال العمل بحكم حركة التطور والانتقال التى يمر بها المجتمع قد اثر على شخصيتها الاجتماعية ايجابا أم سلبا ؟

لقد اظهرت دراسة نفسية اجتماعية حديثة ان خروج المراة الى مجال العمل برغم ما قد يترتب عليه من آثار سلبية على ادائها كزوجة وكأم اى على ادوارها التقليدية كانثى فانه قد اضاف ادوارا جديدة الى ادوارها السابقة فأدى الى انضاج شخصيتها ، وزاد من ثقتها فى نفسها واكسبها قدرا من المرونة وحسن التصرف فى المواقف الاجتماعية التى تتعرض لها يضاف الى ذلك انه كلما زاد مستوى التعليم عند المراة زادت قدرتها على التخلص من الآثار السلبية لخروجها الى العمل ومكنها من التخلص من آثار الصراع الذى ينشأ لديها نتيجة لأدوارها المتعددة خاصة فى ظل ظروف مجتمع يمر بمرحلة انتقالية كمجتمعنا [٩٢] .

وهكذا أسهم التعليم الجامعى فى اعداد المراة المصرية اعدادا اتاح لها الخوض فى كافة مناحى الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى

مصر والتجاوب مع حركة تجديد المجتمع والتفاعل معها ، ولكن يجب أن يعترف النساء بأن وراء ذلك كانت جهود بذلها بعض الرجال الذين وقفوا بجانب المرأة ودافعوا عن حقوقها .

وكذلك استطاعت الجامعة تحويل النصف الآخر من المجتمع الى قوة مثقفة عاملة ومنتجة فى كافة ميادين الحياة ، تساهم فيما يصبو اليه الوطن من مراقى التقدم بين الأمم الناهضة .

٦ — بين الأدب والتاريخ
مجتمع القاهرة من خلال ثلاثية نجيب محفوظ (*)

تعدد الجوانب فى كتابات نجيب محفوظ دفعت بالعديد من المتخصصين خصوصا الأدباء والفنانين والصحفيين الى الانكباب على هذه الكتابات ودراستها ، وابداء الرأى وجهات النظر حولها أما عن المؤرخين وباحثى التاريخ فانهم لم يطرقوا باب هذه الكتابات بالدراسة وان كان معظمهم قد قرأها وربما كان ذلك لتشككهم فى أن المادة الروائية تصلح أساسا لكتابة التاريخ .

والهدف من هذه الدراسة هو تلمس الخيوط التى حاكها نجيب محفوظ فى وصفه لمجتمع القاهرة فى فترة ما بين الحربين وتسجيله لواقع البيئة المصرية بشقيها الاجتماعى والسياسى ثم محاولة الاجابة على التساؤلات الآتية :

هل الأدب الروائى يمكن أن يصلح مادة يعتمد عليها فى كتابة التاريخ؟ وما هى الخيوط التى يمكن أن يتلمسها المؤرخ فى وصف أديب للمجتمع الذى يكتب عنه ، وهل اعتمد نجيب محفوظ فى كتابه رواياته على الدراسات التاريخية الجادة ؟ وهل كان نجيب محفوظ أديبا لطبقة بعينها أم كان أديبا لكل طبقات المجتمع ، وهل قدم نجيب محفوظ فى ثلاثيته حلولا للمشكلات التى طرحها أم تعرض لها دون أن يقدم لها حلولا .

وقبل أن نتعرض لاطار الثلاثية الاجتماعى والسياسى ينبغى لنا أن نتعرف على كاتبها .

(*) ألقى هذا البحث فى سمنار كلية البنات جامعة عين شمس فى الثلاثاء ١١ ديسمبر ١٩٨٤ .

ولد نجيب محفوظ فى حى الحسين أكثر احياء القاهرة شعبية فى عام ١٩١٢ من أسرة متوسطة لا تتمتع بشىء من الثراء ، ولم يكن لها سوى الدخل المحدود الذى يعود على ربها من عمله وعايش هذه البيئة ، وعاصر مشاكلها ، واهتم بقراءة الروايات البوليسية فى مراحل حياته الأولى ، ودرس الفلسفة فى المرحلة الجامعية بكلية الآداب حتى تخرج منها فى عام ١٩٣٤ ثم أخذ يحتطب بنفسه ثقافته الحرة فأكثر من الاطلاع على انتاج رواد الأدب فى مصر ، وتأثر بشكل خاص بكتابات سلامة موسى ، ثم واصل قراءاته للاداب الأجنبية واطلع من خلالها على مناهج كتابة الرواية المختلفة (٩٤) مما كان له أكبر الأثر فى ثقافته الفنية التى اعانته على كتابة الرواية بالمستوى الرفيع الذى بلغته وشهد له به معظم نقاد الأدب العربى الحديث وغيرهم يضاف الى ذلك أنه ظل مغرما بقراءة التاريخ المصرى والاستعانة به فى كتابة رواياته ، وقد يرجع ذلك الى تأثره بالتيار القومى الذى اتجه المثقفون المصريون الى احيائه كرد فعل لتغلغل الثقافة الأوربية والاحتلال البريطانى ، وربما يرجع أيضا الى أنه عاصر فى فترة شبابه الاكتشافات الهامة للعديد من الآثار الفرعونية . والثلاثية باجزائها انتهى نجيب محفوظ من كتابتها قبل قيام ثورة ٢٣ يوليو بثلاثة شهور ، وكانت حين دفع بها الى المطبعة فى المرة الأولى عبارة عن رواية واحدة فى مجلد واحد غير أن اعتراض الناشر على ضخامتها واقتراحه بتقسيمها جعل نجيب محفوظ يقسمها الى ثلاثة أجزاء .

وهكذا ظهرت الرواية ثلاثية مكونة من بين القصرين ، وقصر الشوق ، والسكرية (٩٥) .

وعن الفترة الزمنية التى شملتها أجزاء الثلاثية يتضح انها شملت ثلاث فترات منفصلة فرواية بين القصرين جرت حوادثها بين اكتوبر ١٩١٧ الى ابريل ١٩١٩ ، ورواية قصر الشوق وقعت أحداثها من يوليو ١٩٢٤ الى ٢٣ اغسطس ١٩٢٧ أما عن رواية السكرية فقد جرت حوادثها ما بين يناير ١٩٣٥ الى صيف ١٩٤٤ .

وقد اعتمد نجيب محفوظ فى كتابة ثلاثيته على ذاكرته التى اختزنت

تلك الأحداث ابان طفولته ، وعلى أقوال شهود عيان هذه الفترات ، هذا بالاضافة الى رجوعه الى بعض الصحف .

والثلاثية فى مجموعها تنتمى الى ادب القضايا الفكرية الذى يبلور قضية أو أزمة معينة ، يقوم بتجسيدها أكثر مما يستهدف تحليلها (٩٦) وتستند عبر السياق على ادلة اجتماعية وبراهين تاريخية تأتى فى ثنايا الرواية وتؤدى وظيفتها ، وتقحم نفسها على اهتمام القارىء دون أن تمنعه من مواصلة قراءته الأدبية .

ومحور الثلاثية يدور حول اسرة مصرية من طبقة محدودة تتكون من ستة أفراد عاشت فى أحد أحياء القاهرة القديمة المتاخمة لمسجد سيدنا الحسين فى شارعى بين القصرين ، وقصر الشوق وحارة السكرية عبر ثلاثة اجيال من الآباء والأبناء والاحفاد لكل منهم فكره الخاص ورؤيته للمستقبل .

وللثلاثية وجهان أحدهما يحمل طابعا اجتماعيا تمثل فى تصوير الواقع الاجتماعى للقاهرة فى فترة ما بين الحربين من خلال شريحة معينة من طبقات المجتمع المصرى ممثلة فى أسرة أحد التجار التى يتوزع صراعها فى الحياة بين التمسك بالتقاليد من ناحية التمرد الخفى عليها والتطلع الى الحرية فى مختلف اشكالها من ناحية أخرى .

أما الوجه الآخر فيتمثل فى تصوير نجيب محفوظ للاحداث السياسة الكبرى فى مصر من جهة ، ولمسار الحركة الوطنية المتمثلة فى ثورة ١٩١٩ وأهدافها من جهة أخرى .

وليس معنى ذلك أن وجهى الثلاثية الاجتماعى والسياسى منفصلان بل كثيرا ما تكون المشكلة السياسية متفرعة من مشكلة اجتماعية وبالعكس .

وعن القضايا الاجتماعية التى صورها نجيب محفوظ فى ثلاثيته فقد هدف منها الى رصد حركة المجتمع المصرى من خلال تتبعه احداث أسرة التاجر أحمد عبد الجواد اليومية ، وتفاعلها مع مجتمعها الصغير

من ناحيـــة ، ومع الأحداث الســـياسية التى مرت بهـــا مصر بين الحربين من ناحيـــة اخرى كما صور القضـــايا التى كانت تشغل اهتمـــام الطبقـــة الوســطى ، وتتبع تطور مفاهيمها وقيمها .

فقد تتبع نجيب محفوظ هـــذه الأسرة من خلال واقع المجتمع المصرى الملىء بالمتناقضات ، ومن خلال التقاليد المتوارثة بمثالبها ومشـــاربها ، ومحاولات الكبـــار والصغار التمرد عليها ، ولكن بطريق خفى فقدم القاهرة المعزية ، وكأنها عـــالم تراكمت فيه عادات وتقاليد تحـــاول فرض نفسها على ساكنيها وتحدد ســـلوكهم كما صور لنا نماذج من التفكير رســـمت صورا للقديم والجـــديد ، والتقليد والتجـــديد ، والجمـــود والتحـــرر ، والتخلف والتقـــدم وكان الصراع بين هذه الأطراف هو احدى سمات الحياة والحركة فى الثلاثية .

وعن شخصيـــات الثلاثية فقد ربطهـــا الكاتب بمحيطها الاجتمـــاعى وبمنظور صـــور فيه الانسان المصرى تصويرا بارعا حمل فى ثناياه ما يدور فى اعمـــاق النفس البشرية من خير وشر ، ومـــن احـــاسيس ومشـــاعر متضاربة ، كما صـــور ما يدور فى واقع مجتمع القاهرة فى النصف الأول من القرن العشرين من عـادات وتقاليد تتجاذبها عوامل التجديد من جهـــة ، وعوامل المحافظـــة على القديم من جهـــة اخرى ، فرب الأسرة سى السيد كان مثـــالا للرجل الشرقى الذى يـــدير بيته بطريقة استبدادية بينما فى خارج منزله يحيـــا حيـــاة مختلفة ســـواء فى دكانه من خـــلال عالم التجارة أو فى مجالس الأنس والســـهر والخليلات والعـــوالم التى يحياها ليلا ، ورغم ذلك فهو يحرص على ان يمسك بزمام أسرته يحركها كما يشاء ويلقى الاحترام الكامل من زوجتـــه واولاده ، ويحـــاول أن يظهر أمامهم بمظهر الجـــد والصرامة والاستقامة بالرغم من انه كان صورة للعبث والمجون خـــارج بيته لدرجة أن ابناءه لم يتعرفوا على وجهه الباســـم الا بعد أن دخل أحدهم عليه دكانه فجأة فرآه يمـــازح أحد أصدقائه ، ويستمر الأمر على ذلك حتى يكشف أحد الأبنـــاء النقـــاب عن الجانب الخفى من حياة أبيه حـــين رآه صدفة من ثقب البـــاب فى بيت زبيـــدة العالمة ، وهو يهرج ويضرب بالدف بين الخليلات والأصدقاء ، فتتغير نظرته الى والده .

وامينة الزوجة كانت مثالا للمرأة المحجبة المطيعة لزوجها والتى تحبه ، وتعتبر نفسها خادمة له ، وتخشى غضبه ، وتحاول تجنب أى مخالفة لرأيه ، ومع ذلك يتغلب عليها الجانب الدينى ، وتدفعها نوازع الايمان والشوق لرؤية مسجد الحسين الى القيام بمغامرة خطرة وخيمة العواقب بزيارتها الحذرة له دون أوامر من زوجها مما كلفها الكثير [٩٧] حيث خرجت من بيت زوجها مطرودة وذهبت الى بيت أمها بالخرنفش .

وهكذا صور نجيب محفوظ الصراع بين النوازع الدينية داخل نفس أمينة وبين تمسكها بالتقاليد التى تقضى باطاعة أوامر زوجها ، وتغلب النزعة الدينية على التمسك بالتقاليد .

وعن بنات الأسرة فقد صورهن نجيب محفوظ بالمحجبات المحافظات على التقاليد المتوارثة التى تقضى بألا تخرج الابنة من بيت أبيها الا الى بيت زوجها ، ولا من بيت زوجها الا الى القبر ، ومع ذلك كن يحاولن اختلاس النظر من حين الى آخر من المشربية لمشاهدة ما يحدث فى الشارع ومن يمر به من الشبان .

كما تعرض نجيب محفوظ من خلال هذه الأسرة الى أحد التقاليد المتوارثة فى الأسرة المصرية وهى زواج البنت الكبرى قبل الصغرى مصور البنت الكبرى فى غير جمال أختها الصغرى الشقراء ، وكانت النتيجة الطبيعية لذلك أن تقدم الخطاب لخطبة الصغرى ، بينما لم يتقدم للكبرى أحد منهم مما أدى الى تعطيل أمر زواج الصغرى وخيبة أملها رغم حبها لضابط البوليس التى كانت تراه ويراها من المشربية ، كما أدى أيضا الى اصابة البنت الكبرى باضطراب فى سلوكها وتعاملها مع أفراد أسرتها مما أثر فى مجرى حياتها لعدم تقدم أحد لخطبتها ولاحساسها بابتعاد راغبى الزواج عنها .

أما عن ابناء أسرة عبد الجواد فقد صورهم نجيب محفوظ شأنهم فى ذلك شأن أبناء معظم الأسر المصرية من حيث اختلاف التكوين والمشارب رغم ان الارضية الاجتماعية التى انبتتهم واحدة ، فكان منهم الكسول الخامل المحب للهو الذى يقنع بعمل كتابى فى احدى المدارس الابتدائية

يذهب اليه مكرها ، وفى طريق عودته يعبث ويتفكه اثناء وقوفه عند بائع البسبوسة ، ويشارك فى كل شىء مشاركة سلبية بالقلب واللسان دون العمل ، ومنهم الجاد الذى درس الحقوق بشغف ، وتمنى أن يبلغ من التعليم أحسنه ، واتخذ من السياسة والوطنية قبلة له تختفى أمامها كل مغريات الحياة ومع ذلك تلتهب عاطفته فى حبه الشديد لمريم بنت الجيران فيقابلها فوق السطوح ، ويغازلها خلال اللقاء الليلى بينهما ، ومنهم الصبى الصغير الذى يذهب الى المدرسة مكرها وتتناقض أفكاره بين الأحاديث التى يسمعها فى المدرسة وتلك التى تطرق أذنه من أمه فى المنزل ، ومنهم اليمينى الذى يتمثل فيه فكر الاخوان المسلمين ، ويجد فيه الطريق للاصلاح ، ومنهم اليسارى الذى يرى فى الحل الماركسى السبيل الى الحياة الأفضل .

ومن خلال ذلك يبرز نجيب محفوظ تأثير الوراثة على ابناء الأسرة ، فيصور ياسين وقد ورث عن أبيه ازدواجيته فى الحياة ، وان كانت بصورة مختلفة فازدواجية الأب كانت مقسمة بين حياته الجادة فى البيت ، وحياة اللهو خارجه ، أما ازدواجية ياسين فبرزت فى حرصه على مظهره واناقته رغم اهماله لثيابه الداخلية اهمالا ملحوظا[٩٨] بمعنى أن كل منهما كان يختلف فى ظاهره عن باطنه كما صوره وقد ورث من أمه هنية تلك المرأة اللعوب حبها للملذات ، وسرعة الملل من الزواج ، فبعد أن زوجه والده من زينب ابنة صديقه محمد رفعت سئمها قبلما ينتهى شهر العسل ، ورجع الى خليلاته مثل نور الجارية وغيرها ، وكانت الفضيحة الكبرى حين ضبطته زوجته متلبسا ، ورغم فداحة هذه الخيبة التى منى بها ياسين فى حياته الزوجية ، ورغم نفوره من رتابة هذه الحياة فقد وضعه نجيب محفوظ داخل غلاف الرجل الشرقى الذى يجد فى الزواج المستقر والملاذ والرعاية ومن هنا فانه لم يفكر لحظة فى قطع حياته بزوجته نهائيا .

ومن خلال هذه الأسرة أيضا يتطرق نجيب محفوظ الى عادة الحسد السائدة بين المصريين ، وبخاصة اذا كان الحاسد ليس له ولد والمحسود كثير الأولاد فصور اصطحاب أحمد عبد الجواد لأبنائه

الى مسجد الحسين لتأدية صلاة الجمعة لالتماس البركة ، وخشية الأم من أن تصيب عين الحسود أحدا من ابنائها عند زيارتهم لمسجد الحسين بصحبة والدهم وحيرتها بين استحسان زيارة ابنائها للمسجد من ناحية ، وخشيتها من أن يحسدهم حاسد ، وتدعو الله أن يقيهم شر عين الحسود من ناحيةأخرى .

وعن الحب بين الرجل والمراة ، وعدم تأثيره القوى فى هز الفوارق الطبقية بين أبناء المجتمع أشارت السكرية الى وقوع أحد أفراد أسرة سى السيد فى حب فتاة ارستقراطية تفوقه مالا وجاها ، ولكنها رفضت الزواج منه لأن مرتبه يقل عن خمسين جنيها ، رغم علاقة الحب الملتهبة من جانبه تجاهها ، وفضلت عليه ابن المستشار الذى يتفق وطبقتها مما جعله يعترف « بأن القلب فى اهوائه لا يعرف المبادىء ، وهيهات أن تتعارض المبادىء الشعبية مع الحب الارستقراطى » يضاف الى ذلك أن هذا الفارق كان له اثر بصورة معاكسة فى علاقته بسوسن ابنة عامل المطبعة فرغم حبه الشديد لها فان أسرته لم توافق على زواجه منها بسهولة ، كما أنها رفضت زواج أخيه من ابنة زنوبة العوادة لعدم أهلية هذا الزواج .

ورغم هذا التصوير فى تأثير الفوارق بين الطبقات بحيث يكون لكل طبقة مكانتها فى الزواج فانه من غير المنطقى اطلاق هذا القول على علاتة ففوراق الطبقة وفوارق السن أيضا لم تكن وحدها هى التى تجعل من الزواج غاية مستحيلة خصوصا اذا تواجد حب متبادل بين رجل وامراة .

فقد كانت التجربة العاطفية بين كمال وعايدة قائمة على طرفين متناقضين تماما ، فالجانب العاطفى عند كمال تمثل فى الوفاء والعطاء والعشق الروحى [(٩٩)] أما عايدة فقد كان المطلب الأول عندها هو شغفها بأن تكون فتاة احلام كل ما يتصل بها من الشباب ، وشتان ما بين فكر كل منهما [(١٠٠)] .

بهذا التناقض بين ما ترغبه النفس البشرية وما ترهبه صور نجيب محفوظ الانسان المصرى تصويرا قال الدكتور طه حسين عن صاحبه

أن نجيب محفوظ « أصبح فقيها بالنفس الانسانية بارعا فى تعمقها وتحليلها قادرا على أن يطلع قارئه على أسرارها ودقائقها »[١٠١] .

وحين نرجع الى ما كتبه نجيب محفوظ عن الأسرة المصرية من حيث سيطرة الأب على أسرته ، وخضوع المرأة لزوجها خضوعا كاملا وخشيتها لمخالفة أمره ، وارتدائها الحجاب يتضح أنه بالرغم مما نادى به قاسم أمين فى كتابه « تحرير المرأة » و « المرأة الجديدة » حول ضرورة تغيير وضع المرأة المصرية ، ودعوته الى السفور ، وبالرغم من الأفكار التى وردت الى مصر حول أن الحرية الشخصية أصبحت حقا لكل انسان ذكرا كان أو أنثى فان الطبقة المصرية الوسطى كانت بصفة خاصة هى المحافظة على التقاليد ، وهى التى ظلت فى معظمها متمسكة بتلابيب الماضى وتخشى الخروج عليه ، ولكن ذلك لم يستمر طويلا من خلال المعركة بين القديم والجديد ، والصراع بين التراث والموروث ، والنقلة الحضارية التى حدثت فى مصر نجد أن أسرة أحمد عبد الجواد فى السكرية تختلف عنها فى بين القصرين ، ففى بين القصرين كانت الشمس والاجرام السماوية ، وليست الساعة هى التى تمثل المواقيت بالنسبة لهذه الأسرة فالفجر يعنى استمرار دقات العجين المرتفعة معلنة يوما جديدا ، كما يعنى استعداد الزوجة لاعداد فطور للاسرة ، والصباح يعنى استعداد الأسرة لاستقبال يوم جديد ، ومغيب الشمس يعنى الخلود الى الراحة وجلوس الأسرة فى مجلس القهوة[١٠٢] .

أما فى السكرية فقد خطت هذه الأسرة خطوات واسعة نحو المدنية الحديثة فدخلت الكهرباء منزلها ، وسمع المذياع من داخل جدرانها[١٠٣] وانشئت الجامعة ، والتحق بها احفاد أسرة عبد الجواد يضاف الى ذلك أن السيد نفسه أفاد من أثر هذه المدنية أثناء مرضه رغم معارضته لها قبل ذلك .

هذا عن بعض ملامح الجانب الاجتماعى فى ثلاثية نجيب محفوظ التى رصدها بوعى وبنضج وحساسية شديدة عكست واقع مجتمعنا المتناقض ، وكانت احياء لدينا كاملة من الناس بافكارها وآرائها واحساساتها وتميزاتها ومغامراتها[١٠٤] .

وقد ظهر من ثنايا هذا كله مدى التغيير العميق الذى طرأ على حياة الأسرة المصرية منذ أن صورها نجيب محفوظ فى بين القصرين الى أن انتهى بها فى السكرية ، كما ظهر مدى الصراع بين الأجيال من ناحية الحفاظ على القيم والتقاليد الموروثة من جهة ، وبين تيار التجديد وعدم الانغلاق من جهة أخرى ، ولكن هل يعنى هذا أن أدب الثلاثية يمكن اعتباره صورة لتاريخ مصر الاجتماعى فى النصف الأول من القرن العشرين .

الواقع أن الأديب أو الروائى ليس مطالبا بعمق الدرس ولا بدقة التحليل العلمى شأنه فى ذلك شأن المؤرخ الاجتماعى بقدر ما هو مطالب بأن يكون أصيلا فى تعبيره عن العاطفة الاجتماعية ، فنجيب محفوظ اتخذ من الاحداث الاجتماعية مادة وصل عن طريقها الى عيوب ومشاكل المصريين الاجتماعية التى لم ترتهن بفترة روايته بل مازلنا نعانى من بعضها حتى الآن . كما يلاحظ أن نجيب محفوظ فى ثلاثيته لم يقدم حلولا لعلاج ما يحيط بواقعنا الاجتماعى من مشاكل ، ولم يرسم طريقا للخلاص منها وانما أشار باسلوبه الروائى الى مواطن الضعف ، ومكمن المفاسد وأبان العلة وشخص الداء دون أن يوضح ما هو الدواء بل كان هدفه هو ايقاظ الرأى والتفكير والحفز على تحريك الدوافع الانسانية لدى الافراد والهاب شعورهم واذكاء حماسهم نحو ايجاد الطرق الموصلة للاصلاح ، خصوصا وأن التنبيه الى الأحوال الاجتماعية غير المتوازنة يهدف الى وأد الشلل الفكرى فى الأمة ، وقد يكون سببا لاستفزاز الشعور والعمل من أجل اعادة التوازن بعد فهم الناس لأخطائهم .

وعن الجانب السياسى فى الثلاثية فيتضح انه سار جنبا الى جنب مع الجانب الاجتماعى ، وان تعارض معه احيانا وتشابك معه احيانا أخرى فمن خلال أسرة أحمد عبد الجواد يتتبع نجيب محفوظ الأحداث السياسية التى مرت بمصر ويربطها بحوادث تاريخية معروفة مثل اعلان الحماية ، ووفاة السلطان حسن كامل ، ونفى سعد زغلول ، وقيام الثورة ، ووفاة سعد ، وعيد الدستور ... الخ . فمن الأغلال الثقيلة التى كبلت الشعب المصرى باعلان الحماية على مصر ١٩١٤ وما آل اليه أمر الناس من ضيق ومعاناة خلال سنوات الحرب وبادار

فى خلدهم صور نجيب محفوظ التاجر أحمد عبد الجواد فى صورة ربه الأسرة المستاء من اختفاء السلع ، وارتفاع اسعارها خلال سنوات الحرب ، والذى يلعن جنود الاحتلال الذين يسلبون الأهالى موارد رزقهم ، وفى نفس الوقت يذكرنا بما تردد من رغبة الأهالى على لسان أمينة فى عودة الخديو عباس الى عرش مصر مؤيدا بجيوش عثمانية بعد أن عزله الانجليز حيث تقول ربنا قادر على أن يعيد الينا افندينا عباس ، كما يذكرنا بعاطفة الولاء الدينى نحو الدولة العثمانية والتمسك بالخلافة على لسان الشيخ متولى عبد الصمد الذى يسأل الله أن يعيد الى البلاد افندينا عباس مؤيدا بجيش من جيوش الخليفة .

وعن رغبة بعض المصريين فى انتصار الألمان على الانجليز يصور نجيب محفوظ هذا الموقف فيما يسوقه على لسان ياسين من أن ينتصر الألمان وحلفاؤهم الاتراك حتى تسترد الخلافة ما سلبه الانجليز منها ، ويعود الخديو عباس والزعيم محمد فريد الى مصر . وعن ثورة ١٩١٩ ونفى سعد زغلول واصحابه الى مالطة ، واستياء طبقات الشعب المصرى لذلك النفى ربط نجيب محفوظ بين هذا الحدث وبين نفى عرابى الى سيلان فأوضح ما أصاب الناس من جزع وتساؤلهم « أيجرى نفس المصير على سعد وصحبه وينقطع ما بينهم وبين الوطن الى الأبد فتموت هذه الآمال الكبار وهى لا تزال فى مهد الأزهار » ونتيجة لهذا الاستياء تقوم الثورة ويشترك فيها فهمى مما آثار ردود فعل متباينة فى محيط الأسرة وتتطور المظاهرات الى معارك بين الشعب والانجليز لتشترك فيها جميع طبقات وطوائف الأمة هاتفة « يحيا الاستقلال ، ونموت ويحيا الوطن ، ويحيا سعد » .

ونتيجة لذلك يتصدى الانجليز لهذه المظاهرات بعنف ، ويسقط العديد من الشهداء ، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل يتعرض الانجليز للمصريين بالمضايقات فى شوارع القاهرة وحاراتها فيشير نجيب محفوظ الى تعرض الانجليز لأحمد عبد الجواد بالقرب من بيته(١٠٥) والى ماأصاب ابنه ياسين فى المسجد ، ويفرج عن سعد ويتصافح الجميع ، ويتبادلون التهانى ، وتقوم المظاهرات التى عمت البلاد ابتهاجا بعودة سعد ثم يموت فهمى خلال هذه المظاهرات برصاصة طائشة بما يشير

يه الكاتب الى تطور الاحداث والايحاء بانتكاسة الثورة والنهاية المنتظرة لها والملاحظ على موقف الطبقة البرجوازية المصرية من هذه الثورة انه بالرغم من أن هذه الطبقة قد باركت الثورة فانها فى نفس الوقت كانت تخشى أن يكون أفرادها وقودا لها فالثورة عند أحمد عبد الجواد التاجر من الأشياء الجديرة بالاحترام مادامت بعيدة عن أولاده وعن بيته ، أما اذا اشترك فيها أبناؤه انقلبت فى نظره الى هوس وخروج على المألوف مما نتج عنه انضمام ابنه فهمى طالب الحقوق الى حركة الجهاد الوطنى دون علم ابيه حتى لا يتعرض لثورته وغضبه .

كما يلاحظ انه فى وصف نجيب محفوظ لموقف الشعب المصرى من ثورة ١٩١٩ نجده يلتقط الحدث من كل زواياه فليس ابطاله كلهم متحمسين للقضية الوطنية ، كما انهم ليسوا بمنصرفين عنها ، ففهمى ثائر على الانجليز يشارك فى الثورة بفكره ودمه ، وزينب فى الجانب الآخر تظهر غضبتها على سعد زغلول ، وبين الطرفين توجد درجات من الحماس .

وهكذا صور نجيب محفوظ البيئة المصرية خلال ثورة ١٩١٩ تصويرا قال عنه الدكتور طه حسين « لست اعرف قاصا صور الثورة المصرية فى اعقاب الحرب الأولى كما صورها نجيب محفوظ ، صورها حية كأقوى ما تكون الحياة ، وصورها متغلغلة فى اعماق الشعب على اختلاف طبقاته مؤثرة فى حياة العابثين والجادين معا ، وفى حياة الشيوخ والشباب والصبية جميعا مغيرة وجه الحياة المصرية تغييرا تاما ، وصورها بكل ما فيها من جود الشباب بنفوسهم ودمائهم، وجود الشيوخ بأموالهم ، وجود الأمهات والأخوات بأمانيهم ودعائهم، وصورها بما فيها من قسوة الانجليز وبطشهم ، وغدرهم واستخفافهم بكل شيء ، وبكل انسان وبكل مكانة ، وانتهاكهم للحرمات وخروجهم عن طور المتحضرين »[(١٠٦)] وتستكمل قصر الشوق ما توقفت عنده بين القصرين فتسرد تاريخ مصر منذ تولية سعد الوزارة حتى وفاته فتظهر خديجة معبرة عن رأى غالبية الشعب المصرى فى التمسك بزعامة سعد زغلول والكراهية لعدلى وثروت فعندما ذكرها ياسين بعدلى وثروت استعاذت بالله ولقبتهما بالخونة الذين يهتف الناس بسقوطهم ليل نهار .

وبعد الضربة التى أصابت وزارة سعد زغلول بعد اغتيال السردار صور نجيب محفوظ خيبة الأمل التى اعقبت استقالة سعد ، فرمز الى أن هذه الاستقالة قد أدت الى أزمة دستورية ، والى ضياع السودان، كما اشار الى أن قتل السردار كان ضربة موجهة الى وزارة سعد بهدف التخلص منها .

وعن فجيعة الأمة المصرية فى موت سعد زغلول ، عكس نجيب محفوظ صورة الشعب المصرى يوم الوفاة بتصوير كمال ، وهو يهتف من الأعماق لرجال الثورة والنفى والحرية .

وعن الروح الرجعية التى تمثلت فى السلطة الحاكمة التى حاولت ان تعصف بمكاسب الشعب فى جهاده بالغاء دستور ١٩٢٣ واستبداله بدستور ١٩٣٠ فى عهد وزارة صدقى ، وتصريح وزير خارجية بريطانيا صمويل هور بعدم رغبته فى عودة دستور ١٩٢٣ ولا دستور ١٩٣٠ لعدم صلاحية أولهما للعمل ، ورفض الأمة للثانى عبر نجيب محفوظ فى السكرية عن احاديث ومشاعر الناس حول هذا التصريح بقول احدهم « يجب ان يرد على هور وتصريحه المشئوم » وقول آخر « ابن الكلب قال نصحت بأن لا يعاد دستور ١٩٢٣ ولا دستور ١٩٣٠ ما شأنه ودستورنا» .

ويقف نجيب محفوظ الى جانب حرية الشعب ، وتطلعه الى استكمال مقومات المجتمع الأمثل ، واحساسه بكيانه ، ويشاركه فى قضاياه فينتقد الحكام الذين عبثوا بذلك الجيل الحائر المعذب فى صورة كمال الذى وعى حاجة الأمة الى الثورة ضد طغيان هؤلاء الحكام واصفا محمد محمود ، واسماعيل صدقى وتوفيق نسيم بأنهم سلسلة مشئومة من الطغاة والخونة غرتهم قوتهم فزعموا أنهم أوصياء على شعب قاصر (١٠٧) .

وعن دور الاحزاب السياسية فى مصر يقيم نجيب محفوظ دورهم على لسان عدلى كريم رئيس تحرير مجلة الانسان الجديد فيقول « الوفد حزب الشعب ، وهو خطوة تطورية خطيرة وطبيعية فى آن واحد . كان الحزب الوطنى حزبا تركيا دينيا رجعيا أما الوفد فهو مبلور القومية

المصرية ، ومطهرها من الشوائب والخبائث الى أنه مدرسة الوطنية والديمقراطية ، ولكن المسألة أن الوطن لا يقنع وما ينبغى له أن يقنع بهذه المدرسة الا اننا نريد مرحلة جديدة من التطور ، نريد مدرسة اجتماعية لأن الاستقلال ليس بالغاية الأخيرة ، ولكنه وسيلة لنيل حقوق الشعب الدستورية والاقتصادية والانسانية .. ولكن ينبغى أن يكون الوفد نقطة البدء ، أما مصر الفتاة فهى حركة فاشستية رجعية مجرمة ، ليست دون الرجعية الدينية خطرا وهى ليست الا صدى للعسكرية الالمانية والايطالية اللتين تعبدان القوة ، وتقومان على الاستبداد ، وتزريان بالقيم الانسانية والكرامة البشرية . ان الرجعية داء مستوطن فى الشرق كالكوليرا والتيفويد فينبغى استئصاله » [١٠٨] .

وفى تقديرنا ان نجيب محفوظ رمز باسم عدلى كريم الى الكاتب التقدمى سلامة موسى خصوصا وانه يمكننا أن نعثر على مثل هذه الآراء فى كتابات سلامة موسى المتبعثرة ، كما رمز بالانسان الجديد الى المجلة التى أسسها سلامة موسى فى منزله بالفجالة عام ١٩٢٩ والموسومة « المجلة الجديدة » .

أما عن تقييم الأحزاب الذى طرحه نجيب محفوظ فاننا نرى أنه كان لكل حزب دوره فى الحياة السياسية المصرية سواء أكان هذا الدور ايجابيا أم سلبيا ، وانه اذا كان قد انحاز الى حزب الوفد فانه انحاز الى المبادىء التى نادى بها الوفد اثناء الثورة كالاستقلال والديمقراطية والقومية التى تجعل من مصر وطنا حرا للمصريين على اختلاف عناصرهم واديانهم [١٠٩] وبالرغم من اتهاماته للحزب الوطنى بأنه كان حزبا تركيا رجعيا ، فمن الصعب أن ننكر أن هذا الحزب نجح فى توجيه جماهير الشعب المصرى فكريا ونفسيا فى فترة من احلك الفترات التى مرت بها مصر قبيل الحرب العالمية الأولى ، وانه هو الذى اضاء الطريق لقيادة ثورة ١٩١٩ .

وعن تزوير الانتخابات فى مصر وسقوط النحاس ومكرم يعبر نجيب محفوظ عما يجيش فى صدر الشعب فى صورة كمال الذى يقف عند

الديمقراطية والدستور فيقول « انتخابات مزورة ، وكل شخص فى البلد يعلم أنهــا مزورة ، ومع ذلك يعترف بها رسميا ، وتحــكم بها البلاد ، ويعنى هذا أن يستقر فى ضمير الشعب ان نوابه لصــوص سرقوا كراسيهم ووزراءه لصــوص سرقوا بالتــالى مناصبهم وأن ســلطاته وحكــومته مزيفة مزورة ، وأن السرقة والتزييف والتضليل مشروعة رسميا ، أفلا يعذر الرجل العــادى الذى كفــر بالمبــادىء والخـــلق ، وآمــن بالــزيف والانتهازية (١١٠) .

وفى نهاية الثلاثية يبرز نجيب محفــوظ دور اليســاريين وأفكارهم حــول الثورة الأبدية ، ودخولهم السجن مما يعنى أن اليسار المصرى قد دخل مرحلة جديدة من مراحل أزمة الحرية .

وهكذا يتضح تطــور المفهوم السياسى لدى شخصيات الثلاثية فبين القصرين مثلت حــركة الانتماء الى الحزب الوطنى ، وارهاصات تكــوين الوفد وموقف فهمى البطــولى ابان ثورة ١٩١٩ ، .

وقصر الشوق مثلت المرحلة بين الانتمــاء الوفدى والانتماء اليسارى بينمــا الســكرية مثلت الانتماء نحو اليسار بعد أن عجز حزب الوفــد على أن يقدم حلولا للمشــكلات الاجتماعية ، وللطبقات الشــعبيــة التى آزرته فى كفــاحه الوطنى .

وهكذا رصــدت ثلاثية نجيب محفوظ تاريخ مصر فيما بين الحربين فى صــورة روائية أقرب الى الحقيقة منها الى الخيــال ، ومما يلاحــظ على هذه الكتابات أن الثوريين كانوا على هامش الحيــاة السياسية لا فى قلبهــا ، وانهم جميعا كانوا من صغــار البرجوازيين الذين لم يتنقــوا المبــادىء الثورية عن طريق المعــاناة الطبقية ، ولكن عن طريق قراءتهم وثقافتهم العقلية ، كمــا يلاحظ أنه بالــرغم من الاحداث التــاريخية المعروفة التى ذخرت بها الثلاثية فانها أولا وقبل كل شىء كانت عملا روائيا لا تاريخيــا ، واذا اعتمدنا عليها فى دراساتنا للمجتمع القــاهرى فــى فترة ما بين الحربين فينبغى أن نتقبل ما بها بحرص وحــذر شــديدين خصوصا وأن العمل الروائى يعتمــد على الخيــال بجانب الواقع ، وقــد

يستلزم ذلك كما يذكر نجيب محفوظ استخدام عمليات المكر والحيل[١١١] ومن هنا فان من المغامرة غير العملية الاعتماد عليها ، وان كان يمكن الاستئناس بها فى التعبير عن الجو النفسى السائد خلال هذه الفترة فنجيب محفوظ حين كتب الثلاثية لم يؤرخ لمصر ، وانما كان دافعه الرغبة الفنية الخالصة التى يظللها أحيانا الفنان ، وليست علاقة المفكر السياسى أو المؤرخ .

وبعد أن تعرضنا للثلاثية يطرح علينا سؤال نفسه وهو ما هى الطبقة التى يمكن أن تنسب اليها كتابات نجيب محفوظ الواقع ان الآراء اختلفت حول هذا الموضوع ، وخرج النقاد بمقالات تحلل أدب نجيب محفوظ تحليلا طبقيا ، وانتهى بعضهم الى انه اديب البرجوازية الصغيرة أو المتوسطة الصغيرة[١١٢] ومن أبرز هؤلاء النقاد كان الدكتور عبد العظيم انيس الذى رأى أن تعبير نجيب محفوظ عن البرجوازية الصغيرة كان صادقا ورائعا ، ومن هنا لقبه بروائى البرجوازية الصغيرة المصرية والمعبر بصورة رائعة عن مشاكلها[١١٣] .

وسماه البعض الآخر بأنه الكاتب التقدمى، وأديب الطبقة العاملة مشيرين فى ذلك الى أن تصويره لواقع المجتمع المصرى من خلال الثلاثية كاد يقترب من الواقعية الاشتراكية حيث أن واقعية الثلاثية قد حملت فى ثناياها بصيصا خافتا من الضوء لبشائر فجر جديد من التغيير الذى يتكفل بمعالجة الفساد القائم وهذا من اسس الايديولوجية الاشتراكية التى ترى ضرورة فهم المستقبل والادراك الواعى بتطور المجتمع وبنائه ، والايمان بامكانيات الانسان فى صنع مستقبله ، والوصول بنفسه وبمجتمعه الى واقع أفضل يكفل للانسان حريته وكرامته[١١٤] يضاف الى ذلك أن رؤية نجيب محفوظ لمشكلات المجتمع المصرى كانت رؤية يسارية اتضحت من تفهمه للبناء التركيبى للاحداث ودلل أصحاب هذا الرأى على صحة تسميتهم بما أدلى به نجيب محفوظ فى المحاكمة الأدبية التى أعدها له ضياء الدين الريس بأنه يؤمن بتحرير الانسان من الطبقية والاستغلال بكافة أنواعه ، وان يتمتع الفرد بحرية الفكر والعقيدة وبتحقيق الديمقراطية باشمل معانيها كما دللوا بما اشار اليه نجيب محفوظ من تعاطفه الشديد مع الماركسيين حيث قال « لا أستطيع أن

اعتبر نفسى ماركسيا رغم التعاطف الشديد » [١١٥] يضاف الى ذلك انهم تمسكوا بما ذكرته أحد شخصيات الثلاثية عن الثورة الابدية والاضطهاد والآلام والعذاب وما شابه ذلك .

والواقع أن نجيب محفوظ لم ينغلق ضمن دائرة فكرية معينة بل كان حياديا فى كتاباته ، ورافضا لفكرة التقوقع داخل رؤية معينة ، ودليلنا على ذلك أن فكره فى الثلاثية لم يصدر عن واقعية اشتراكية حين قدم الحل الدينى متمثلا فى الفكر اليمينى الذى يمثله الاخوان المسلمون والمتجسد فى شخصية عبد المنعم ابراهيم شوكت كعلاج لتردى الاوضاع الاجتماعية والاخلاقية حيث يرفض لقاء الظلام على بسطة السلم او فوق السطوح مع بنت الجيران ويطلب أن يكون جزاء ذلك الرجم [١١٦] كما يعتبر الالحاد هروبا من واجبات الانسان حيال ربه ونفسه والناس [١١٧] .

وفى نفس الوقت يعطى للحل الماركسى متمثلا فى احمد ابراهيم السبيل لحل مشكلات المجتمع عن طريق الايمان بالعلم وبالانسانية وبالغد « وبما التزمه من واجبات ترمى فى النهاية الى تمهيد الارض لبناء جديد » هذا بالاضافة الى أن شخصياته من الاشتراكيين تكاد تكون باهتة وغير واضحة ، وتبلغ هذه الحيادية روعتها حين يجعل المؤلف من ممثلى الفكرين الاسلامى والماركسى شقيقين مع اعطائهما خلافا فى العمر اشارة الى التتابع المرحلى للفكر الانسانى ، وهذا ما يرغب فيه نجيب محفوظ من أن يشير الى أن لكل عصر فكره الخاص به وان لم يميز أحد هذين الفكرين على الآخر [١١٨] .

واذا كان البعض قد سمى نجيب محفوظ بأنه أديب البرجوازية المتوسطة والصغيرة ، وسماه البعض الآخر بأنه الكاتب التقدمى وأديب الطبقة العاملة فلا ندرى هل الأديب لابد أن يكون كاتبا لطبقة معينة بذاتها أم أن أدبه ينبثق من كافة الطبقات ويعود اليها ، وهل من الضرورى وجود طبقة معينة يعبر عنها الكاتب أم أن الأفضل هو وجود طبقة يعبر الكاتب من خلالها لقد رفض نجيب محفوظ فكرة انه يوجه انتاجه لطبقة معينة بالذات عند كتابته ، وأوضح انه يصور

النماذج التى تعيش معه اكثر [١١٩] وانه اذا كانت له ايديولوجية فهى ليست فى عقله ، ولكنها فى قلبه لا يكتب عنها وانما تعمل فى داخله [١٢٠] ومع كل ذلك فاننا نرى أن نجيب محفوظ بالرغم من حيادية كتاباته ، فانه كان أقرب الى التعبير عن الطبقة الوسطى واقرب تفهما لقضايا هذه الطبقة من غيره من الكتاب لدرجة انه استطاع أن يعبر بصورة واقعية صادقة عن ادق ما تعرضت له هذه الطبقة من مشاكل ، وكانه قد عايش هذه المشاكل وتعايش معها ، ويؤكد ذلك نفيه للحيدة التامة فى تصويره للثلاثية حيث يقول « وبالنسبة للثلاثية اعتقد أن فيها وجهة نظر مؤكدة » [١٢١] .

وهكذا ارتبطت الثلاثية بالانسان المصرى ، وعبرت عما يعن به من مشاعر واحاسيس ، كما انها سايرت تاريخ مصر وتطوره فى شكل يتناسب مع مستوى القارىء المصرى حتى اصبحنا نرى فيها حياتنا ، وقصص كفاحنا وازماتنا بطريقة شملت الحياة المصرية بمثالبها ومشاربها لدرجة أن أدبه أصبح ظاهرة قومية نعتز بها .

٧ — الفيوم بين ثورتى عرابى وسعد زغلول

تفخر البلاد دائما بأبنائها البررة ، وتتبارى المدن والقرى والنجوع فى الاعتزاز بالاسماء التى نبتت على أرضها ثم سطعت على مسرح الأحداث ، وكافحت من اجل وطنها ودافعت عن حريته واستقلاله وطالبت بحقوقه وعملت على رفعته ونيل آماله .

وفى الفيوم اسماء لامعة برزت فى تاريخ مصر الحديث واشتركت فى احداثه ، واهم هذه الأسماء اللواء على الروبى ابن قرية دفنو بمركز اطسا محافظة الفيوم والذى لم يشارك فقط فى الثورة العرابية بل كان صاحب اليد الطولى فى تشكيل جمعية الضباط السرية ١٨٧٩ التى كانت النواة ومركز التجمع للقادة الذين قاموا بهذه الثورة ، ومن هذه الأسماء اللامعة أيضا حمد باشا الباسل ابن الفيوم الذى شارك سعد زغلول فى كفاحه ونفى الى مالطة وتعرض للاضطهاد والتشريد كما سافر الى باريس لحضور مؤتمر الصلح والدفاع عن القضية المصرية .

ولم يقتصر دور الفيوم على تفريخ الزعامات القادرة على المشاركة فى الاحداث بل تقدم ابناءها الصفوف ، وشاركوا الوطن فى كل محنة المت به ، وكان ابناؤها دائما على مستوى الاحداث ففى اثناء الثورة العرابية وبعد أن سرق المستر كولفن Colvin الانجليزى خزينة الحكومة المصرية ووضعها فى الاسطول الانجليزى (١٢٢) قام اهالى الفيوم بجمع التبرعات للجيش من غلال وعتاد ومئونة وميرة وخيول ومواشى، وجاءوا بكل ما فى وسعهم من اجل الوطن كما تطوع الكثيرون منهم فى الجيش جنودا مقاتلين يجودون بأرواحهم فى سبيل مصر ويؤكد ذلك الوثائق الرسمية ، ففى محافظ الثورة العرابية نرى أن حسان فراج احد عربان الفيوم قام بمساعدة العرابيين بالمال والعتاد والرجال فقد توجه هو وجماعة من العربان يقدرون بمائتى فرد ومعهم خيولهم وعتادهم الى معسكر عرابى يطلب منه الاشتراك فى القتال من اجل نصرة الوطن والدين (١٢٣) .

وتؤكد محفوظات الداخلية ووثائق الثورة العرابية أن خليفة طنطاوى عمدة سنورس وأخاه أبا زيد قد « تبرعا بسبعين فحل جاموس وسبعين رأس غنم » (١٢٤) كما قاموا بجمع التبرعات من الأهالى وارسالها الى عرابى من أجل الدفاع عن الوطن (١٢٥) ومن الوثائق أيضا يتضح أن شيخ العرب السعداوى الجبالى وشيخ العرب عبد القوى الجبالى عمدة قبيلة الحرابى بمديرية الفيوم حضرا طرف أحمد عرابى وأعربا عن رغبتهما فى التطوع هما واتباعهما مع الجيش المحارب وتسليمهما أسلحة من الجهادية ، وقد وافق عرابى على طلبهم ، وتم بمعرفة مديرية الفيوم ارسالهم بخيلهم الى معسكرات العرابيين بكفر الدوار فى وابور مخصوص ، وهناك تم ترتيبهم داخل التشكيلات العسكرية (١٢٦) .

هذه نماذج عن دور أبناء الفيوم فى الكفاح من أجل الوطن اثناء الثورة العرابية أما عن دور على الروبى ابن الفيوم فى هذه الثورة فقد كان دورا هاما وخطيرا ومع ذلك لا ندرى لماذا لم يعطه المؤرخون حقه ؟

الواقع أن على الروبى هو المؤسس الأول للجمعية السرية لضباط

الجيش المصرى الوطنيين عام ١٨٧٩ أى فى أواخر عهد الخديو اسماعيل والتى كانت تهدف الى فتح باب الترقى أمام المصريين وانقضاء على الخديو اسماعيل [١٢٧] ، وأن احمد عرابى انضم الى هذه الجمعية بعد أن أسسها على الروبى [١٢٨] وأن العلاقة بين على الروبى وعرابى توطدت أثناء حرب الحبشة وخاصة عندما عين على الروبى رئيسا لفرع المهمات ، وقد ساعد على توطيد العلاقة بينهما الاتجاه الوطنى المشترك لكل منهما [١٢٩] .

وتذكر الوثائق البريطانية أن الخديو اسماعيل بعد أن علم بالجمعية السرية التى أسسها على الروبى اعتمد عليه وعلى عرابى فى العمل على اسقاط الوزارة الأوربية [١٣٠] التى كانت تحد من نفوذ الخديو .

وعند قيام الثورة العرابية كانت ثقة عرابى فى على الروبى قوية لدرجة أنه وضعه فى المناصب الحساسة والمؤثرة فى مسيرة الثورة ، فعندما عين عرابى وزيرا للحربية رقى على الروبى الى رتبة اللواء ، وعندما تآمر الضباط الجراكسة على الثورة العرابية شكل عرابى مجلسا عسكريا لمحاكمتهم من خمسة عشر عضوا كان من بينهم على الروبى [١٣١] . وعندما أسس عرابى المجلس العرفى للتشاور فى أمور البلاد اختار على الروبى ضمن اعضائه ، وعندما تأزمت علاقة العرابيين بالخديو حتى وصل الأمر الى أن أمر الخديو بعزل عرابى ، قام على الروبى بين أعضاء المجلس العرفى يوضح دور عرابى فى الدفاع عن الوطن وشرف الدين منددا بالخديو الذى يريد تسليم البلاد للانجليز [١٣٢] وموضحا ضرورة الاستمرار فى الحرب [١٣٣] حتى لا يدخل الانجليز البلاد ويهتكوا الأعراض ويعتدوا على المقدسات [١٣٤] وبعد أن انتهى على الروبى من كلمته تعالت اصوات الحاضرين بحياة عرابى وبضرورة تواجده على رأس الجيش .

وعندما قامت الحرب بين العرابيين والانجليز عين عرابى اللواء على الروبى قائدا لمنطقة مريوط العسكرية ، ونتيجة لاصابة راشد باشا حسنى وعلى باشا فهمى فى معركة القصاصين استدعى عرابى اللواء

على الروبى لقيــادة منطقة للتل الكبير لثقته فيه وفى قدرته على ادارة الحرب لأنه كما يذكر « كان حائزا لاعظم الصفـــات الممدوحة التى لا يمكن القيام بحصرها »[١٣٥] .

وفى التل الكبير كانت المعــركة الفاصـــلة بين العرابيين والانجليز ، وقد حضر على الروبى عصر يوم ١٢ سبتمبر ١٨٨٢ الى التل الكبير وكانت المعــركة فى فجر ١٣ سبتمبر ، وهنا نقرر أنه ليس فى امكان أى قائـــد عســكرى أن ينظم قــواته خـلال ساعات معـدودة ويترتب عـلى ذلك أنه لا يمكننـــا أن نرجع عدم القــدرة على الصمود أمام الانجليز الى اللواء على الروبى بقــدر ما يمكننا ارجـــاعه الى عنصر المفاجأة والتغيير السريع فى القيـــادة ، كما يمكن ارجـــاعه الى انضمام بعض الخونة من أعـــوان الخديو الى الضباط الانجليز مثل على يوسف خنفس الذى أبلـــغ خـــطط وتحركات الجيش المصرى الى الأعداء .

وبعد الهزيمة اتجـــه كل من عرابى وعلى الروبى الى القـــاهرة فى قطـــار[١٣٦] وذهبا الى مقر وزارة الحربية لمشـــاورة أهل الـــرأى فى البـــلاد فيما حدث وانتهى الأمر بالتســـليم ، وقدم اللواء على الـــروبى الى المحـــاكمة[١٣٧] ، وحـــكم عليه بالنفى الى جهـــة مصـــوع بالسودان لمـــدة عشرين سنة ، وتجريده من رتبه ونياشـــينه[١٣٨] كما صـــدرت احكام اخرى ، منها احكام صـــدرت على ابناء الفيوم الذين ســـاعدوا الثورة ومن هؤلاء سعداوى الجبـــالى عمدة قبيـــلة الحـــرابى بالفيـــوم فقد حـــكم عليه بأن يقيم فى بلده تحت الملاحظة مع دفـــع تأمين مـــالى وتجريده من الرتب والامتيازات[١٣٩] ، وحســـان فراج ومحمد المسيرى من اعيـــان الفيوم وقد حكم عليهمـــا بأن يقيم كل منها فى بلده تحت الملاحظة وتجريدهما من الرتب والمناصب[١٤٠] كما قضى بتجريد يعقوب بك صبرى مدير الفيـــوم وعبد النبى عبد الله البيـــاضى عمدة عـــربان البراعصـــة بمديرية الفيوم من علامات الشرف والامتيازات والرتب[١٤١] .

أما عن ضبـــاط الجيش من أهالى الفيوم الذين اتهموا بالاشتراك فى الثورة وجردوا من رتبهم وامتيازاتهم وحرموا من مرتب الاستيداع ومعاش التقـــاعد فهم[١٤٢] :

اليوزباشى بياده أحمد سيد أحمد	من سنورس
واليوزباشى بياده السيد عبد الرحمن	بندر الفيوم
واليوزباشى بياده منجـود محمود	ترسـا فيوم
والملازم أول سوارى أحمد حمـدى	بندر الفيوم
والملازم أول بياده ابراهيم حسنين	ابجيـج
والملازم أول بياده محمد رمضان	من هواره عدلان
والملازم أول بياده محمد على	الفيـوم

هذا عن دور الفيوم وابنائها فى الثورة العرابية التى قامت من أجل الدفاع عن حقوق الشعب المصرى وكرامته .

أما عن دور أبنـاء الفيوم فى ثورة ١٩١٩ فانه ما ان تأكد نبأ القبض على سعد زغلول ، وصحبه حتى أخذت سـمات الغضب ترتسم على النفوس ، كمـا ازدادت روح السـخط ضد الانجليز فانـدفعت الأمـة الى الثـورة .

وفى الفيـوم بدات المظاهرات يوم ١٥ مارس ١٩١٩ احتجاجا على اعتقـال زعمـاء الثورة ومنهم حمد باشـا الباسل صـاحب النفـوذ السـاحق واليد الطولى على بدو الفيوم واستمرت المظاهرات فى الأيـام التـالية ، وفى ١٩ منه بينمـا كانت مظاهرة تطـوف فى المدينة أطـلق بعض المتظـاهرين عيارات نارية فى الهواء ، فانتهزت القوات البريطانية ذلك وتصـدت لجمـوع المتظاهرين ، واطلقت النـار عليهم من البنادق والمدافع الرشـاشة فقتل كثيرون ذكر الرافعى منهم :

١ — محمد وهبه ترزى	٢ — محمد عبد الدايم
٣ — توفيق عبد الباسط	٤ — درويش ابراهيم
٥ — ريـاض على	٦ — عبد العـال رزق
٧ — احمد احمد حسين	٨ — بدوى عبد النبى

٩ — سيد محمود
١٠ — احمد روبى
١١ — محمود محمد
١٢ — نعمان ابراهيم
١٣ — محمد مسعود
١٤ — عبد الباقى حسن
١٥ — غريب محمد
١٦ — عثمان عطيه
١٧ — أحمد حنفى
١٨ — السيد فتح الباب
١٩ — محمد عبد الله
٢٠ — خميس بدوى
٢١ — أحمد رمضان
٢٢ — عبد الجواد أحمد
٢٣ — حميدة سليمان
٢٤ — محمد عزازى
٢٥ — محمد فرحات
٢٦ — عبد العليم حافظ
٢٧ — عبد النبى على
٢٨ — محمد عطا الله
٢٩ — عبد الباسط عبد التواب
٣٠ — نظير على
٣١ — محمد جبره
٣٢ — منصور ابو بكر
٣٣ — على محمد
٣٤ — حسن حسين
٣٥ — محمود محمد
٣٦ — فاطمة محمد
٣٧ — سيد على
٣٨ — نعمات محمد[١٤٣]

ونتيجة لذلك قام بعض البدو بمهاجمة القوات البريطانية فقتلوا بعضهم كما سقط من البدو أكثر من ٤٠٠ شهيد وجريح ، وقد اعترفت قيادة القوات البريطانية بقتلاها فذكر فى بيان لها فى صيغة انذار لأهالى الفيوم قالت فيه « فى الأيام الأخيرة اطلق البدو النار على الجنود البريطانية وقتلوا بعضهم فاذا أطلق البدو النيران على الجنود البريطانية مرة أخرى ، اتخذت فى الحال وسائل شديدة وقاهرة لابد أن تفضى الى ضياع أرواح كثيرة من الأبرياء ، وهذا آخر انذار »[١٤٤] .

وعلى الرغم من هذا الانذار فقد قام البدو بمهاجمة القوات البريطانية

واحـــداث اضرار للســـلطات انبريطانية ، كما هاجم بعض أهالى الفيوم الجنود البريطانيين واستولوا على اسلحتهم .

وفى مدينة الفيوم طـالب زعماء البدو بالاستقلال وعزل المــدير ، ولكن تنــازل بعضهم عن هذا انطلب بعد مناقشـــات طويلة وبوســـائل الاقنـــاع ، أما من أصروا على مطلبهم فقد غـــرقتهم الســـلطة بالمــدافع الرشـــاشة (١٤٥) .

وفى مركز اطسا حـــاصر الأهالى مركز البوليس وحــدثت معـــركة استولى البدو فى أثرها على مبنى مركز اطســـا وحاصروا المدينـــة (١٤٦) ونتيجة لذلك التـــوتر لم يجد موظفو جميـــع مـــراكز الفيـــوم بدا من أن ينسحبوا الى عاصمة المــديرية ليكون افرادها بمأمن من هجمـــات البدو وكانت انبـــاء هذه المعـــارك تصل الى انقاهرة عن طريق الهجـــانة لأن جميع المواصلات فى انحـــاء مديرية الفيـــوم كانت قد دمرت (١٤٧) ونتيجة للتلاحم القتالى بين أبناء الفيوم من البدو والفلاحين وبين القوات البريطانية وصـــل عدد الشهداء من ابناء الفيوم اربعمائة شخص ، والواقـــع أن دور الفـــلاحين فى المعارك كان بســـيطا اذ كان المهاجمون كلهم من البدو تقريبا (١٤٨) وقد تزايدت أعمال العنف فى الفيوم ، وانتشرت الى المـــراكز والقرى المجـــاورة لها .

ونتيجة لتطـــور المعـــارك قام شقيق حمد باشا الباسل بارســـال بعض رجاله الى السنوسيين فى ليبيـــا لحثهم على الحضور الى الفيوم ، كما قامت القوات البريطانية بالقـــاء منشورات عن طريق احدى الطـــائرات تقول ان جنـــودا بريطانيين قد قتلوا ، وتحذر الســـكان من أن تكـــرار ذلك ســـوف يؤدى الى الانتقام الجمـــاعى من أهالى الفيوم (١٤٩) .

هذه نبذه عن كفـــاح ابناء الفيوم ضد القوات البريطانية فى ثورة ١٩١٩ أما عن دور حمـــد باشا الباسل ابن الفيـــوم فى هذه الثورة فقد كان ضمن المعتقلين الذين نفتهم الســـلطات البريطانية الى مالطـــة نظـــرا لدوره فى تحريك الثورة ضد الانجليز ذلك لأنه جعل منزله منتديا للوفـــد يعقـــد فيه الاجتمـــاعات العـــامة التى يحضرها ذو الـــرأى من مختـــلف

الطبقـــات [١٥٠] ، وتلقى فيـــه الخطب التى تثير النفـــوس ، وتنشر فى الصحف [١٥١] .

ونتيجة للضغط الشعبى فى مصر أعلن الفيلد مارشـــال اللنبى قراره بالافراج عن المعتقلين فى مالطـــة فى ٧ ابريل ١٩١٩ ، وقد جاء فى اعـــلانه هذا ما نصـــه « بالاتفـــاق مع حضرة صاحب العظمة السلطان أعلن انه لم يبق حجر على السـفر ، وان جميع المصريين الذين يريدون مبارحة البـــلاد تكون لهم هذه الحرية ، وقد قررت علاوة على ذلك أن كلا مـــن سعد زغلول واسماعيل صدقى باشا ومحمد محمود باشا وحمد الباســـل باشا يطلقون من الاعتقـــال ويكون لهم كذلك حق السفر » [١٥٢] .

وبعد اطـــلاق سراح حمد الباسل ســـافر مع الوفد المصرى الـــى باريس فى ١٩ ابريل ١٩١٩ لحضـــور مؤتمر الصلح والدفاع عن القضيـــة المصرية والمطـــالبة بالجلاء ، وقد مكث الوفد بباريس دون التوصل الى نتـــائج ايجابية أو اعتراف من بريطـــانيا بالغـــاء الحماية على مصر ومنحها استقلالها ، وهنـــاك بدأت بـــوادر الانشقاق تظهر على زعمـــاء حـــزب الوفد ، واختلف حمد الباســـل مع سعد زغلول واحتدم النقاش بينهما ، ورغم أن حمد الباســـل كان من المقربين الى سعد زغلول فكريا ووجدانيا ، ويؤيـــده فى كل رأى يـــدلى به فقد اختلف معه ، ففى حين رأى ســـعد مقـــاطعة لجنة ملنر ، رأى حمد البـــاسل بأن من الأفضل لمصر تشكيـــل جبهـــة من الوفد تقبـــل التفاوض مع لجنة ملنر عسى أن تخرج بفـــائدة لصـــالح البلاد ، وعندما تصلب ســـعد زغلول فى رأيه ولم يتمكن حمـــد البـاســـل من اقناعه بوجهة نظره انفصل حمد البـــاسل عن سعد زغلول واستقال من الوفـــد ، وعلى الرغم من ذلك فان حمد الباسل لم يبتعد عن مزاولة الحياة الســـياسية أو يعتزل العمل السياسى ، وعندما ناشده ســـعد زغلول العودة الى صفـــوف الوفد ، وأن ينسى الخلاف بينهـــما وافق حمد البـــاسل على ذلك وقابل ســـعد زغلول قائلا له انت زعيـــم الأمة وأنـــا أضع نفسى تحت تصرفك ، وعـــاد حمد الباسل الى صفـــوف الوفد بصفته وكيلا له ، وبجـــانب ذلك اختير وكيلا للبرلمان فى سنة ١٩٢٤ فاصبح يجمع بين وكالة الوفد ووكالة مجلس النـــواب وقد ذكر حمـــد

الباسل فى حديث له نشر فى مجلة الهلال اننى كوطنى ووكيل الوفد « ليس لى مطمع فى الحياة غير استقلال مصر التام » فاذا حصلت على هذا المطمع فاننى اقول بعده كما قال القائل :

«لأن تأتنى الدنيا بيومى فانها   تجدنى وقد قضيت منها مآربى»[١٥٣]

وهكذا كان دور الفيوم فى ثورة احمد عرابى وثورة ١٩١٩ التى قادها سعد زغلول فقد اتضح من ثنايا هذا البحث أن الفيوم لم تشترك فى هاتين الثورتين بالنفس والنفيس فحسب بل ان بعض الزعامات والعقول المؤثرة فى هاتين الثورتين كانت من ابناء الفيوم .

٨ — سيناء فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر

ان كلمة سيناء لو جردناها من الذكريات لبقى لها التذكير بانها حامية مصر والمدافعة عن كرامتها على مر العصور فهى المفتاح الشرقى لمصر الذى تحطمت أمامه كل الغزوات وانصهرت ، وكانت منذ القدم مسار للجيوش فيما بين وادى النيل والشرق ، والتاريخ يحدثنا عن حملات عديدة لجنود مصر عبر سيناء منها على سبيل المثال اخضاع الحيثيين ، وطرد الهكسوس يضاف الى ذلك أن طرد التتار تم عبر سيناء كذلك حملات صلاح الدين ضد الصليبيين تم بعضها عبر سيناء وتنقسم شبه جزيرة سيناء بحسب طبيعة أرضها الى ثلاثة اقسام بلاد الطور فى الجنوب ، وبلاد التيه فى الوسط ، والعريش فى الشمال والطور هو الجبل الموجود فى سيناء والذى ورد اسمه فى القرآن الكريم مرات متعددة منها ما ذكر فى سورة التين « والتين والزيتون وطور سينين ، [١٥٤] ، وهذا البلد الأمين لقد خلقنا الانسان فى احسن تقويم » .

وفى سفح جبل موسى بمنطقة الطور يوجد أقدم الأديرة فى العالم وهو دير طور سيناء (دير القديسة كاترين) وسيناء فبها الوادى المقدس الذى ذكر فى القرآن فى سورة طه عندما خاطب الله سبحانه وتعالى سيدنا موسى « انى أنا ربك فاخلع نعليك انك بالوادى

المقدس طوى » وهذا أمر لموسى بأن يخلع نعليه تعظيما للمكان لأنه الوادى المقدس « طوى » والذى نزل فيه الوحى على موسى فى سيناء .

كما وصف القرآن الكريم شجرة الزيتون التى نبتت فى سيناء بعد الطوفان بأنها شجرة مباركة فقال تعالى « الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كانها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونه لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ، ولو لم تمسسه نار ، نور على نور يهدى الله بنوره من يشاء » .

وعندما تم الفتح الاسلامى لمصر فى عهد عمر بن الخطاب ، دخل عمرو بن العاص البلاد مارا برفح والعريش .

وعندما جاء العثمانيون الى مصر دخلوها عن طريق غزة والعريش ولما تولى محمد على حكم مصر كانت سيناء فى جملة ما دخل فى حوزته من املاك مصر ، وكان عرب سيناء فى جملة عاداتهم يحكمهم قضاة منهم بحسب عرفهم وعاداتهم ، وكانت مدينة الطور تابعة فى الادارة لمحافظة السويس ، ومنطقة العريش تابعة رأسا للداخلية ، وقد شهدت سيناء مسيرات حربية خلال حملة ابراهيم باشا على سوريا حيث اتخذ من اقليم العريش مسارا .

وبعد محمد على وتولى عباس الأول حكم مصر اهتم بسيناء فزارها وشرع فى بناء مصيف له هناك ، كما مهد الطريق من دير سانت كاترين الى قمة جبل موسى ، وشرع فى بناء قصر فخم له على قمة هذا الجبل لكن الحياة لم تمهله طويلا فعاجلته المنية قبل أن يتم أعماله وخلفه سعيد باشا ، وفى عهده تم البدء فى حفر قناة السويس ١٨٥٦م وتأسيس محجر للحجاج بسيناء عام ١٨٥٨م .

أما فى عهد اسماعيل فقد ازداد النفوذ الأجنبى فى مصر ، وارسل الانجليز لجنة علمية برئاسة « هنرى بالمر » للتنقيب فى بلاد الطور فاقامت فيها حوالى ستة شهور ، وفى أثنائها رسمت خرائط

لسيناء ، وبدأت فى التنقيب عن ثرواتها ، كما تم انشاء مدينة القنطرة شرق على الساحل الشرقى لقناة السويس .

ولما قامت الثورة العرابية ، وتطاير خبر معاداة الانجليز للعرابيين انقض أهالى سيناء على لجنة بالمر وفتكوا باعضائها .

وقد اهتم الانجليز بسيناء ، وعزلوها عن باقى أجزاء مصر مستغلين فى ذلك قناة السويس كمانع مائى يفصل بين الوادى وسيناء ، ومنعوا دخولها على اى مصرى الا بتصريح خاص واستمرت سيناء تابعة لمصر حتى تولى الخديو عباس الثانى اريكة الحكم وفى عهده حاول السلطان العثمانى عبد الحميد اخراج سيناء من حدود مصر خاصة بعد شق قناة السويس ، وظهور أهميتها الاستراتيجية لذلك فحين صدر فرمان تولية عباس الثانى خديويا على مصر عام ١٨٩٢ اخرج السلطان سيناء من مصر الا أن رد الفعل المصرى والبريطانى

كان شديدا ، فقد اعترض العديد من المصريين على ذلك ، كما احتج المعتمد البريطانى فى مصر كرومر ، واوقف قراءة الفرمان رسميا حتى جاء التصحيح من الاستانة بترك سيناء الى مصر ، وبناء على ذلك أصبحت سيناء كما يحدها الخط الممتد من شرقى العريش الى رأس خليج العقبة تحت ادارة مصر [(١٥٥)] وقد أعقب هذه الازمة زيارة الخديو عباس الثانى لبعض المواقع فى سيناء تأكيدا للسيادة المصرية عليها فزار الطور عام ١٨٩٦ والعريش عام ١٨٩٨ ، ووصل الى الحدود الغربية عند رفح ، ونظرا للظروف الدولية التى تهيأت للدولة العثمانية فى عام ١٩٠٥ لكى تحاول استرداد نفوذها فى مصر خصوصا بعد أن اتخذ مصطفى كامل من فكرة الالتفاف حول الخلافة الاسلامية أساسا لجهاده حاولت الدولة العثمانية أن تقتطع سيناء من مصر فاعتزمت فى مايو ١٩٠٦ مد سكة حديدية من معان الى العقبة ، ولما كان ذلك يعنى وجود قوة جديدة لتركيا على حدود مصر بما يهدد مركز بريطانيا فى مصر فقد اهتم الانجليز بالأمر وارسلوا ضابطا كبيرا عهدوا اليه بوضع نقط عسكرية على طول الخط من العريش الى العقبة باعتبار انها من املاك مصر ، ولكن الجنود التركية احتلت موقع طابة ، وهو

على بعد ثمانية أميال غربى العقبة (١٥٦) ونتيجة لذلك حدث خلاف شديد بين الدولة العثمانية وانجلترا ظهرت فيه انجلترا بمظهر الدولة الحامية لمصر اذ طالبت تركيا باسم مصر أن تجلو عن طابة ، وارسلت لها انذارا تطالبها بالجلاء عن طابة فى ظرف عشرة أيام والا ستكون النتائج وخيمة ، ونتيجة لذلك أبرق السلطان الى الخديو يطلب منه التفاهم مع مختار باشا فى المسألة ، وكان رد عباس بأنه شديد التمسك بحدود رفح — العقبة ، وبعد اسبوع من الانذار اخذت قوات بريطانيا البحرية تستعد للتحرك الى طابة مما جعل الدولة العثمانية تسلم بمطالب الانجليز فقررت الجلاء عن طابة ، ولم يمض وقت طويل حتى تشكلت لجنة تركية مصرية أخذت فى تخطيط الحدود بين البلدين (١٥٧) وفيها تراجع الاتراك عن موقفهم .

وعلى كل حال فان الانجليز اثناء احتلالهم لمصر أوجدوا اطارا من العزلة بين سيناء وباقى مصر فتحكموا فى انتقال سكان مناطق سيناء الى داخل مصر ، وكذلك انتقال المصريين من غير مواليد سيناء الى تلك المناطق حتى استقر فى الاذهان أن سكان سيناء يمكن اعتبارهم مصريين من الدرجة الثانية أو حتى غير مصريين ، وكادت غالبية الناس تفهم أن مناطق الحدود يسكنها قوم غرباء لا يربطهم بأهل مصر نسب أو وشيجة منذ أقدم العصور .

وقد دعم اللورد كرومر سياسته هذه عمليا بانشاء ما سمى فى وقته « مصلحة الحدود » ووضع على رأسها ضباط انجليز استطاعوا ان يحققوا ما ترمى اليه سياسة اللورد حتى أصبحت سيناء جزءا غريبا عن مصر فلا يدخلها المصرى الا بتصريح خاص ، ولا ينقل ساكنها تجارته منها واليها الا بقيود ونظم لا مثيل لها ، ومن يقرأ الحكايات أو التقارير الانجليزية حول هذا الموضوع يلاحظ عبارات غريبة مثل « من سيناء الى مصر » أو « من داخل القطر الى سيناء » كما لو كانت سيناء شيئا آخر تماما عن مصر ، كما عمل الانجليز على الا يقوم فى سيناء أى نوع من العمران الاستقرارى الذى يؤهل هذه الرقعة من مصر والتى تبلغ مساحتها اكثر من واحد وستين ألف كيلو متر مربع لكى تستوعب أى زيادات من السكان الذين تزدحم بهم بقية المحافظات

المصرية حتى لا يلتصق المصرى بهذه الأرض التصاقا عميقا ، كما عملوا على أن يتم النفور بين سكان شبه الجزيرة من البدو والحضر ، فكان الحاكم البريطانى يشجع البدو على عدم التعلم ولا يساعدهم على الاستقرار وينشر بينهم فكرة أن البداوة شيء وسكنى المدن شيء آخر ، وانه من العار أن يتزوج البدوى امرأة من الحضر أو يزوج ابنته لساكن المدينة .

ولعل أهم ما يحرص الاستعمار عليه كثمرة لعزلة سيناء هو ثروتها المعدنية والبترولية .

وقد أخذت المطامع الاستعمارية فى سيناء تتحرك بجانب المطامع الصهيونية حيث وضع اليهود فى خططهم أهمية سيناء بالنسبة لهم ، فبعد أن لوحوا للسلطان العثمانى ببريق الذهب اذا منحهم امتيازا فى فلسطين ورفض السلطان طلبهم ، استقر رايهم على توطين اليهود أما فى قبرص أو شبه جزيرة سيناء أو أوغندا ، ونتيجة لرفض اليهودى هرتزل اوغندا وصعوبة استغناء الانجليز عن قبرص لليهود أثير موضوع سيناء كوطن لليهود ، وارسلت لجنة فنية لدراسة صلاحية منطقة سيناء لانشاء مستعمرات سكانية لليهود ، ولكن هذا الموضوع كان مصيره الاهمال نتيجة لرفض الحكومةالمصرية التنازل عن اى جزء يتعلق بسيادتها ، ورفض اللورد كرومر لهذا المشروع .

وظلت سيناء مطمعا لليهود وفى خلال العدوان الثلاثى على مصر حدث الغزو الاسرائيلى لسيناء عام ١٩٥٦ حيث هاجمت قوات اسرئيل حدود مصر ودخلت الكونتله وراس النقب ولم يكد يبدأ الهجوم الاسرائيلى حتى ظهرت نيات بريطانيا وفرنسا الاستعمارية تجاه مصر ففى الساعة السادسة والنصف من مساء الثلاثاء ٣٠ أكتوبر ١٩٥٦ وجهت بريطانيا وفرنسا انذارا الى مصر واسرائيل بايقاف جميع العمليات الحربية على أن تقبل مصر احتلال القوات البريطانية والفرنسية للمواقع الرئيسية فى بور سعيد والاسماعيلية والسويس [١٥٨] وبهذا الانذار انكشفت المؤامرة بين الحكومات الثلاث بريطانيا وفرنسا واسرائيل * واتفاقها على العدوان على مصر .

وقد رفضت مصر الانذار ، وطلبت عقد مجلس الأمن فورا للنظر فى هذا العدوان ، كما استقر رأى القيادة المصرية على ضرورة الانسحاب السريع من سيناء الى منطقة القناة للدفاع عن القناة وعن مصر ، فانسحب الجيش المصرى من قطاع غزة ، ومن سيناء وكان هذا الانسحاب عملية ضخمة شاقة ، وخلال هذا العدوان صمدت بور سعيد ، وكسبت مصر عطف معظم الدول والشعوب فى مشارق الأرض ومغاربها ، وصدر قرار الأمم المتحدة بوقف القتال وجاء الانذار الروسى ، وامتناع أمريكا عن مشاركة حلفائها فى الحملة .

ونتيجة لذلك تم انسحاب القوات الانجليزية والفرنسية من بور سعيد وبور فؤاد خلال ديسمبر ١٩٥٦ ، كما اضطرت اسرائيل الى الانسحاب من سيناء وقطاع غزة .

وفى ٥ يونيو ١٩٦٧ قامت اسرائيل بهجومها المفاجىء على مصر واستولت على سيناء باكملها واقامت فيها العديد من المستعمرات الزراعية والسكنية بهدف توطين الاسرائيلين فيها مستغلة فى ذلك كل الامكانيات المتاحة فى شتى المجالات ، وكانت الأرض المنزرعة فى هذه المستعمرات تروى باستخدام مياه الأمطار ، ومياه الآبار والاستعانة بمياه بحيرة طبرية عن طريق مواسير ، وكان يتم دفع المياه من خلال خزانات المياه الى مواسير تنتهى بمواسير بلاستيك مثقوبة بثقوب صغيرة بعدد من الاشجار المزروعة المطلوب ريها لتسقط المياه قطرة قطرة على جذع الشجرة طول الليل والنهار ، وكانت الآبار يتم حفرها خصوصا فى المناطق القريبة من شاطىء البحر لتصل اعماقها الى حوالى ٤٠ متر، ويتم السحب منها بواسطة ماكينات لمدة ساعتين فقط يوميا (١٥٩) كما اهتمت اسرائيل منذ عام ١٩٦٧ بتنشيط السياحة العالمية فى سيناء خصوصا فى دير سانت كاترين الذى له منزلة خاصة لدى السياح فى امريكا واوربا .

وفى السادس من اكتوبر ١٩٧٣ عبرت القوات المصرية قناة السويس فى اتجاه سيناء ، وحررت الساحل الشرقى لقناة السويس بأرض سيناء كاملا ، وتبع ذلك الحاجة الى تسوية سلمية لأزمة الشرق

الأوسط[١٦٠] وبعد محاورات ومشاورات ومناورات عقدت اتفاقية السلام بين مصر واسرائيل فى مارس ١٩٧٩ وقد نصت مادتها الأولى على أن تسحب اسرائيل كافة قواتها المسلحة والمدنيين من سيناء الى ما وراء الحدود الدولية بين مصر وفلسطين تحت الانتداب ، وتستأنف مصر ممارسة سيادتها على سيناء كما نص الملحق العسكرى المرفق بالمعاهدة فى مادته الأولى على أن يتم الانسحاب الاسرائيلى على مرحلتين الأولى الانسحاب المرحلى الى الخط الممتد شرق العريش راس محمد والثانية يتم فيها الانسحاب الاسرائيلى النهائى من سيناء الى ما وراء الحدود الدولية كما نص الملحق العسكرى فى مادته الأولى أيضا على أن يتم تشكيل لجنة مصرية اسرائيلية مشتركة للاشراف على عمليات الانسحاب وعقب معاهدة السلام قرر الجانب الاسرائيلى أن يوسع الاقاليم التى تحيط بميناء ايلات التى ليست لها شواطىء فتقرر بناء فندق سياحى فى وادى طابا ، وقد سمحت اسرائيل للراسمالى الاسرائيلى « رافى نيلسون » باقامة هذا الفندق الكبير ، وفى الوقت ذاته انتهزت الفرصة لاقامة شاطىء خاص قرب الفندق يأتى اليه الاسرائيليون المقيمون فى ايلات ، وقد تم ذلك بعد توقيع الاتفاقية ودون ابلاغ الحكومة المصرية مما يدل على سوء نية الجانب الاسرائيلى.

وفى اكتوبر ١٩٨١ وخلال احدى الاجتماعات المستمرة بين الجانبين المصرى والاسرائيلى لترتيب الانسحاب النهائى ، واستلام وتسليم المناطق والأراضى والمنشئات كانت اللجنة تحاول أن ترسم الخط الفاصل للحدود الدولية من رفح على البحر المتوسط الى خليج العقبة ثم الاتفاق على وضع كل العلامات على الحدود ما عدا العلامة رقم ٩١ الخاصة بطابا فوقع خلاف بين الجانبين .

وفى مارس ١٩٨٢ أعلن اللواء محسن حمدى رئيس الجانب المصرى فى اللجنة العسكرية ان هناك خلافات بين مصر واسرائيل على بعض النقاط وان هذه الخلافات يتم بحثها ، وان الموقف المصرى محدد وواضح فى مسألة نقاط وعلامات الحدود بحيث أن كل شىء يتم وفقا للخرائط والوثائق التاريخية التى توضح بلا أدنى شك حدود مصر الدولية .

وقد اعترف كمـــال حسن على نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية المصرى فى ذلك الوقت بعد لقـــائه فى ابريل مع ايريل شارون وزير الدفاع الاسرائيلى بأن هنـــاك خـــلافا فى وجهـــات النظر حول طابا وان مصـــر لن تفرط فى سنتيمتر واحد من أراضيها ، ونظرا لذلك رأت مصر أن هـــذا الخـــلاف يجب أن يحل وفقـــا للمادة السابعة من معـــاهدة الســـلام المصرية الاسرائيلية ، والتى تنص على أن تحـــل الخلافات بشأن تطبيق أو تفســـير هذه المعاهدة عن طريق المفـــاوضة ، واذا لم يتيسر حـــل هذه الخلافات عن طريق المفـــاوضة تحل بالتوفيق أو تحال الى التحـــكيم وهكذا تحدد هذه المادة ثلاث وسائل لحل اى خلاف :

١ — مزيد من المفاوضات .

٢ — التوفيق عن طريق وسيط ثالث .

٣ — التحـــكيم الدولى .

وقد ابدت مصر رغبتهـــا فى اللجوء الى التحكيم حيث أن الخلاف لم يتم حـــله عن طريق المفـــاوضات ، ورفض الجـــانب الاسرائيلى رغبـــة مصر فى اللجـــوء الى التحكيم بحجـــة انه لم يتم بعد استنفاذ وســـيلة المفاوضة أو وســـيلة التوفيق التى تنص عليها المادة السابعة ، وحسما للخـــلاف ، وحتى لا تعرقل أزمة طـــابا عمليـــة الانسحـــاب الاسرائيلى النهائى من سيناء عن موعده تقدمت مصر بالمقترحات التالية :

١ — أن تنســـحب اسرائيل عن المناطق المتنازع عليها فى طـــابا الى خط الحدود الذى تراه مصر .

٢ — أن تتقـــدم الســـلطة المصرية الى خط الحـــدود الذى تـــراه اسرائيل فى هذه المنـــاطق .

٣ — أن تجمد الحياة فى طـــابا ، وتدخلها قوات حفظ السلام حتى يتم التوصل الى اتفاق حولها .

ويرجع الاهتمام بطابا انها ليست موقع على الحدود الدولية فقـــط

ولكنها منعطف طبيعى على ساحل خليج العقبة ، ومنها يرى الانسان بوضوح ميناء العقبة الاردنى ، كذلك يمكن منها رؤية اضواء ميناء ايلات الاسرائيلى فى الليل .

وبينما يرى الجانب المصرى ادخال الجانب الامريكى كطرف شريك فى الأزمة سعى الجانب الاسرائيلى الى عدم اشراك الجانب الامريكى حتى لا يأخذ النزاع على طابا طابعا دوليا يبعده عن الطابع الثنائى . وانتهى الأمر بعرض القضية على محكمة العدل الدولية فى لاهاى التى قررت اعادة منطقة طابا الى مصر .

هذا عن تاريخ سيناء السياسى أما عن ثرواتها واهميتها الاقتصادية بالنسبة لمصر ، فهى أرض بكر بها ثروات كثيرة ومتعددة تحتاج الى العديد من المشروعات على سبيل المثال انه يمكن الاستفادة من شواطئها الطويلة التى تبلغ ٧٠٠ كيلو متر بانشاء قرى سياحية على طول هذا الساحل ، كذلك يمكن استغلال سيناء صناعيا لأن بها كميات كبيرة من خام الاسمنت يمكن استخراجه بسهولة ، ويكفى مستلزمات مصر ، ويزيد عن حاجتها وهذا لا يتطلب سوى انشاء ميناء بحرى على شاطىء العريش لاغراض النقل البحرى كما أن خام المنجنيز يتوافر فى سيناء بكثرة وهناك اشجار الخروع التى تغل ربحا كبيرا من زراعتها ، كما يمكن تصنيع بلح سيناء المشهور وتحويل عنبها الذى يزرع فى شمال شرق سيناء الى زبيب ، وفى سيناء النحاس والفيروز والرمال البيضاء والزلط وخام الكبريت كما أن البترول يعتبر أهم معادن سيناء وتتركز حقوله على الساحل الشرقى لخليج السويس فيما بين منطقة سدر شمالا ومنطقة الطور جنوبا أى على امتداد الخليج كله .

وتعتبر سيناء سياحيا ذات وضع ممتاز فى كل فروع السياحة خاصة الدينية منها فعبر طريقها الشمالى دخل الاسلام مصر ، وفى جنوبها سار المسيح عليه السلام ومعه السيدة العذراء قاصدا منها ، وفيها أرض التيه حيث قضى اليهود أربعين عاما ، وفيها عيون موسى وكذلك دير سانت كاترين هذا بالاضافة الى انه يمكن تحقيق

أهـداف السياحة العلاجية لوجـود حمـامات فرعـون بها والتى ثبت بالفحص الطبى أن مياهها تفـوق كثيرا مياه حمامات حلوان المعدنية مـن الناحية العلاجية أما من الناحية الترفيهية فتمتاز سيناء بشواطئها النظيفة، ومـياهها النقية وشواطىء النخيل وكل هذا حقق لها مركزا سـياحيا ممتـازا (١٦١) .

وهـكذا يتضـح أن سـيناء تعتبـر جـزءا من مستقبل مصـر الاقتصادى ، ومصدرا من مصادر رفاهيتها المستقبلية اذا وجدت التخطيط السـليم والعمل النـابع من الايمان الوطنى نحـو حيـاة افضـل لمصر المسـتقبل .

مراجع الفصل العاشر

(١) مجلس النواب : مجموعة مضابط دور الانعقاد الأول مضبطة الجلسة الافتتاحية للبرلمان فى ١٥ مارس ١٩٢٤ ص ٣ .

(٢) مارسيل كولومب : تطور مصر ١٩٢٤ — ١٩٥٠ — ترجمة زهير الشايب — القاهرة ، الطبعة الاولى ١٩٧٢ ص ٤٤ .

(٣) محمد حسين هيكل : مذكرات فى السياسة المصرية ج ١ من سنة ١٩١٢ الى ١٩١٧ القاهرة ، النهضة المصرية ١٩٥١ ص ١٨٣ — ١٨٤ .

(٤) دار الوثائق : ديوان جلالة الملك ، تلغراف فى ٢٥ يونية ١٩٢٤ يشكو فيه أهالى شنوان منوفية من عزل عمدتهم وتعيين عمدة غير مرغوب فيه .

(٥) هيكل : المرجع السابق ص ١٤٥ .

(٦) عبد الخالق لاشين : سعد زغلول ودوره فى السياسة المصرية ، القاهرة ١٩٧٥ ص ٣٧٣ .

(7) Youssef, A. Independent Egypt London, 1940 p. 291 .

(٨) رجاء النقاش : عباس العقاد ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ص ١٠٤ .

(٩) عبد المنعم الجميعى : طه حسين والجامعة المصرية ، القاهرة ، الطبعة الأولى: ١٩٨١ ص ٤٨ .

(١٠) دار الوثائق : ديوان جلالة الملك ، ملف رقم ٦٩٤ التماسات محالة الى الداخلية عام ١٩٤٢ .

(١١) الاحرار الدستوريون : اليد القوية — خطب واحاديث محمد محمود باشا منذ أن اسندت اليه رئاسة مجلس الوزراء بالاسكندرية ص ٣.

(١٢) الرافعى : فى اعقاب الثورة ج ٣ ، القاهرة ، النهضة المصرية ١٩٥١ ص ١٣ .

(١٣) مجلس النواب : مجموعة مضابط دور الانعقاد الأول ١٥ مارس ١٠ يوليو ١٩٢٤ .

(١٤) على شلبى : الانقلابات الدستورية فى مصر ٢٣ — ١٩٣٦ (مخطوط) .

(١٥) البلاغ فى ٨ ديسمبر ١٩٣٧ .

(١٦) عبد العظيم رمضان : الصراع بين الوفد والعرش ص ٢٣ .

(١٧) مضابط مجلس النواب : مضبطة الجلسة السبعين لمجلس النواب فى ٢ يونية ١٩٢٧ ص ١١٩٢ .

(١٨) مضابط مجلس النواب : مضبطة الجلسة السادسة والأربعين فى ١٤ ابريل ١٩٢٧ ص ٧٦٩ . الاستجواب المقدم من عبد الحميد افندى سعيد لرئيس مجلس الوزراء .

(١٩) على شلبى : مرجع سابق .

(٢٠) عبد العظيم رمضان : مرجع سابق ص ١٧ — ٢١ .

(٢١) كولومب : مرجع سابق ص ١٣٨ .

(٢٢) لتفاصيل ذلك انظر احمد زكريا : حزب الاحرار الدستوريين ٢٢ — ١٩٥٣ القاهرة ، دار المعارف ١٩٨٣ .

(٢٣) كولومب : المرجع السابق ص ٥٦ .

(٢٤) محمد شفيق غربال : تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية ١٨٨٢ — ١٩٣٦ ، ج ١ ، القاهرة ، النهضة المصرية ١٩٥٢ ، ص ١٦٢ .

(25) Marlowe, J : Anglo Egyptian Relations 1800 - 1953, London 1954 p. 271 .

(٢٦) ديوان جلالة الملك : تلغرافات ، تلغراف بتاريخ ١٦ يوليو ١٩٢٥ .

(٢٧) حزب الأحرار الدستوريين : اليد القوية ، المذكرة الوزارية بشأن حل مجلسى النواب والشيوخ ص ٣٦ .

(٢٨) عبد العظيم رمضان : تطور الحركة الوطنية ص ٧٤٢ .

(٢٩) الرافعى : فى أعقاب الثورة ج ٢ ، القاهرة ، النهضة المصرية ١٩٤٩ ص ٥٠ — ٥٣ .

(٣٠) احمد شفيق : حوليات مصر السياسية ، الحولية السابعة ص ١٤٢١ .

(٣١) الرافعى : المرجع السابق ج ٣ ص ٦٠ — ٦١ .

(٣٢) رمضان : المرجع السابق ص ٥٧٦ .

(٣٣) كولومب : المرجع السابق ص ٦٢ .

(٣٤) رمضان : المرجع السابق ص ٥٨٦ .

(٣٥) الرافعى : المرجع السابق جـ ١ ص ٦٩ .

(٣٦) خلت هذه الوزارة من الوفديين ، يضاف الى ذلك انها لم تضم أحدا من اعضاء البرلمان ، لذلك فهى وزارة غير دستورية لأنها الفت ضد ارادة الاغلبية كما أن جميع وزرائها كانوا من غير أعضاء البرلمان . أحمد شفيق : حوليات مصر السياسية ، الحولية السابعة ١٩٣٠ ص ٧١٠ .

(٣٧) الفلاح المصرى : العدد الأول من السنة الرابعة فى ٢٤ ديسمبر ١٩٣٠ .

(٣٨) دار الوثائق : محاضر جلسات لجنة الدستور ، الدستور المصرى وقانون الانتخاب فى ٢٢ أكتوبر ١٩٣٠ .

(٣٩) أمر ملكى رقم ٧٠ لسنة ١٩٣٠ بوضع نظام دستورى للدولة المصرية . المادة ٢٤ ص ٤٩ .

(٤٠) دار الوثائق : محافظ عابدين محفظة رقم (٢) احزاب سياسية .

(٤١) الاتحاد : العدد ١٩٤١ فى ١١ يناير ١٩٣١ تحت عنوان « مهزلة استقالة » .

(٤٢) ديوان جلالة الملك : التماسات جماعية والواقع ان انضمام حزب الأحرار الدستوريين الى جانب الوفد فى معارضة حكومة صدقى رغم الصداقة والصلة التى تربط بينهم وبين صدقى انما يرجع الى رغبتهم فى انتقال الوزارة اليهم .

(٤٣) دار الوثائق : محاضر جلسات لجنة الدستور ، الدستور المصرى وقانون الانتخاب ص ١٢ .

(٤٤) فاطمة اليوسف : ذكريات ص ١٥٥ .

(٤٥) مضابط مجلس النواب : محضر الجلسة الثالثة لدور الانعقاد غير العادى فى ٨ نوفمبر ١٩٣٧ ص ٤٦ .

(٤٦) الوقائع المصرية فى ١٧ يوليو ١٩٣٠ ، ٥ فبراير ١٩٣١ .

(٤٧) الشعب : العدد ٩٩ فى الأول من ابريل ١٩٣١ .

(٤٨) مضابط مجلس النواب : مجموعة مضابط دور الانعقاد غير العادى ١٩٣٧ ص ١٥٧ . الاستجواب الموجه الى وزير الحقانية من النائب السيد سليم بشأن التزويرات التى حدثت فى انتخابات ١٩٣١ .

(٤٩) البلاغ فى ٤ ابريل ١٩٣٢ تحت عنوان الدكتور طه حسين وقضيته ضد الحكومة .

(٥٠) دار الوثائق : محافظ عابدين — احزاب سياسية ، محفظة رقم (٣) تقارير أمن عن الأحزاب المختلفة — ملف حزب الشعب .

(٥١) اليد القوية ص ٦ — ٧ .

(٥٢) القى هذا البحث فى سمنار كلية البنات جامعة عين شمس عام ١٩٨٣ ونشر بالعدد الثانى من حولية كلية التربية بالفيوم ١٩٨٥ .

(٥٣) الظاهر العدد ١١٤٩ فى ١٠ سبتمبر ١٩٠٧ تحت عنوان « جامعة النساء » .

(٥٤) اللواء : العدد ٣٣٧٤ فى سبتمبر ١٩١٠ تحت عنوان « جامعة النساء الشرقيات » .

(٥٥) الظاهر : العدد ١١٤٩ فى ١٠ سبتمبر ١٩٠٧ تحت عنوان « جامعة النساء » .

(٥٦) للتفاصيل انظر تقويم جامعة القاهرة ١٩٦٩ — ١٩٧٠ .

(٥٧) الجريدة : فى ١٧ ابريل ١٩١٠ تحت عنوان « فى الجامعة المصرية » .

(٥٨) مجلة فتاة الشرق : القاهرة ١٩١٠ — ١٩١١ ص ١٦٩ ، المحاضرة الأولى التى القتها صاحبة المجلة فى الجامعة المصرية فى ٣١ يناير ١٩١١ .

(٥٩) الجريدة : العدد ٩٤٤ فى ١٨ ابريل ١٩١٠ ، مقال : للكاتبة لبيبة هاشم تحت عنوان « الجامعة المصرية والمحاضرات النسائية » .

(٦٠) الجامعة المصرية : تقرير مجلس الادارة فى ١٥ مارس ١٩١١ ص ١٢ .

(٦١) تقرير عن المالية والحالة العمومية فى مصر والسودان ١٩١٠ من جورست الى جراى ص ١٠١ .

(٦٢) وزارة التعليم العالى . المراة المصرية فى التعليم العالى ١٩٧٥ ص ١٩ .

(٦٣) الجريدة : العدد ٩٤٨ فى ٢٣ ابريل ١٩١٠ تحت عنوان « فى الجامعة المصرية . محاضرات للسيدات » .

(٦٤) د. اجلال خليفة : الحركة النسائية الحديثة قصة المرأة العربية على أرض مصر ، القاهرة ١٩٧٣ ص ٨٤ .

(٦٥) الجريدة : العدد ٩٧٤ فى ٢٤ مايو ١٩١٠ تحت عنوان « خطاب مفتوح الى باحثة البادية »

(٦٦) صحيفة العفاف . أول ابريل ١٩٢١ .

(٦٧) العفاف : ٢ ديسمبر ١٩٢٢ مقال تحت عنوان « مكانكم يا غربان السفور » .

(٦٨) الجريدة : العدد ٩٧٥ فى ٢٥ مايو ١٩١٠ تحت عنوان « باحثة البادية لم تجد منصفا يذكى آراءها » .

(٦٩) أحمد شوقى : الشوقيات ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٥٠ ص ٢١٤ — ٢١٦ .

(٧٠) الجريدة : العدد ٩٨٥ فى ٦ يونيو ١٩١٠ تحت عنوان حديث الكنار الى أحمد بك شوقى .

(٧١) د. اجلال خليفة : المرجع السابق ص ٨٨ ، جريدة العفاف : ١٩٣٠ .

(٧٢) الجريدة : العدد ٩٨٥ فى ٦ يونية ١٩١٠ مقال للكاتبة لبيبة هاشم تحت عنوان « الى باحث فى الخيال ردا على باحثة البادية » .

(٧٣) الجامعة المصرية : تقرير مجلس الادارة المقدم للجمعية العمومية بجلستها المنعقدة فى ٢٩ ابريل ١٩١٣ ص ١٣ .

(٧٤) د. عبد المنعم الجميعى : طه حسين والجامعة المصرية . القاهرة دار الكتاب الجامعى ١٩٨١ ص ٥٠ .

(٧٥) أحمد لطفى السيد : قصة حياتى . القاهرة — كتاب الهلال العدد ٣٧٧ مايو ١٩٨٢ ص ١٨٣ .

(٧٦) للتفاصيل انظر كتابنا طه حسين والجامعة المصرية .

(٧٧) وزارة التعليم العالى : المرأة المصرية فى التعليم العالى ص ٤٤ .

(٧٨) المركز القومى للبحوث التربوية : المرأة والتعليم فى جمهورية مصر العربية . مايو ١٩٨٠ ص ٤٩ .

(٧٩) الاهرام : العدد ١٦٩٥٩ فى ٢٣ فبراير ١٩٣٢ تحت عنوان « حفلة الشاى التى اقامتها طالبات وطلبة كلية الآداب وخريجوها فى دار نادى الجامعة برئاسة عميدهم د. طه حسين » .

(٨٠) مضابط مجلس النواب : دور الانعقاد العادى الثانى — الجلسة التاسعة عشرة فى ٧ مارس ١٩٣٢ ص ٢٥٨ .

(٨١) دار الوثائق : ديوان جلالة الملك — تلغراف بتاريخ ١٧ يناير ١٩٤٧ ، وفيه يحتج شباب محمد على ادارة الجامعة لما سجلته الجرائد والمجلات من صور فاضحة للطالبات فى لعبة الهوكى مما يبرأ منه الاسلام وتنفطر له قلوب المسلمين .

(٨٢) صحيفة الجامعة المصرية . السنة الثانية — العدد الرابع ابريل ١٩٣١ ص ٥٦ — ٥٨ .

(٨٣) المقتطف : الجزء الأول من المجلد التسعين عدد أول يناير ١٩٣٧ ص ٢٤ تحت عنوان حديث للدكتور طه حسين عميد كلية الآداب .

(٨٤) وزارة التعليم العالى : المرأة المصرية فى التعليم العالى القاهرة ١٩٧٥ ص ٤٩ .

(٨٥) الدستور : العدد ٣٨٨ فى ٩ ابريل ١٩٣٩ مقال لهاشم ابراهيم تحت عنوان « الفتاة مكانها البيت » .

(٨٦) الدستور : العدد ٣٩٣ فى ١٦ ابريل ١٩٣٩ مقال لمحمد مصطفى حسن تحت عنوان « الفتاة فى ميدان العمل » .

(٨٧) كل شىء والدنيا عدد ٩ يوليو ١٩٣٢ .

(٨٨) الدستور : العدد ٤٠٥ فى ٣٠ ابريل ١٩٣٩ ، رأى للدكتور محمود سامى جنينة أستاذ القانون الدولى تحت عنوان « الفتاة فى ميدان العمل » .

(٨٩) الدستور : العدد السابق تحت عنوان رأى الدكتور السيد صبرى أستاذ القانون الادارى .

(٩٠) الدستور : العدد ٣٨٨ فى ٩ ابريل ١٩٣٩ مقال لنظمى بطرس تحت عنوان « الفتاة مكانها فى الجامعة » .

(٩١) دار الوثائق : ديوان جلالة الملك . محفظة رقم ٦ التماسات . ٢٦ فبراير ١٩٣٠ .

(٩٢) د. محمد سلامة آدم : المرأة بين البيت والعمل . القاهرة — دار المعارف . الطبعة الأولى ١٩٨٢ ص ٨٥ ، ١٨٧ .

(*) القى هذا البحث فى سمنار بنات عين شمس فى الثلاثاء ١١ ديسمبر ١٩٨٤ .

(٩٤) محمد صالح الشنطى : الرواية العربية فى مصر من عام ١٩٥٢ الى عام ١٩٧٦ ، رسالة دكتوراه غير منشورة ص ٢٣ ، والشعب فى ٥ مايو ١٩٥٩ مقال للاستاذ أحمد عباس صالح تحت عنوان « فى الرواية العربية » .

(٩٥) جهاد عبد الجبار : ثلاثية نجيب محفوظ . رسالة ماجستير غير منشورة ص ٦ — ٨ .

(٩٦) غالى شكرى : المنتمى . دراسة فى آدب نجيب محفوظ . القاهرة — دار المعارف الطبعة الثانية ١٩٦٩ ص ٦٤ .

(٩٧) نجيب محفوظ : بين القصرين . القاهرة — مكتبة مصر .د.ت ص ١٢٨ — ١٢٩ .

(٩٨) نجيب محفوظ : بين القصرين . ص ٤٠ .

(٩٩) نجيب محفوظ : قصر الشوق ص ٢٩٩ .

(١٠٠) نفسه ص ٢٥٥ .

(١٠١) الجمهورية فى ٦ فبراير ١٩٥٧ تحت عنوان « بين القصرين » لطه حسين .

(١٠٢) سيزا أحمد قاسم : الواقعية الفرنسية والرواية العربية فى مصر ١٩٤٥ — ١٩٦٠ دراسة مقارنة تطبيقا على ثلاثية نجيب محفوظ ، رسالة دكتوراه غير منشورة نوقشت بأداب القاهرة عام ١٩٧٨ .

(١٠٣) نجيب محفوظ : السكرية ص ٨٣ .

(١٠٤) على الراعى : دراسات فى الرواية المصرية . القاهرة — المؤسسة المصرية العامة للتأليف ص ٢٥٠ .

(١٠٥) نجيب محفوظ : بين القصرين ، ص ٣٩٨ — ٤٠٠ .

(١٠٦) الجمهورية : العدد ١١٣٤ فى ٦ فبراير ١٩٥٧ تحت عنوان « بين القصرين » لطه حسين .

(١٠٧) نجيب محفوظ : السكرية ص ٧٨ .

(١٠٨) نجيب محفوظ : السكرية ص ٨٧ .

(١٠٩) نجيب محفوظ : السكرية ص ١٤١ .

(١١٠) نفســـه : ص ١٤٩ .

(١١١) الآداب . يونيو ١٩٦٠ حديث لنجيب محفوظ مع فاروق شوشة

(١١٢) الكاتب : العدد الثانى والعشرون فى يناير ١٩٦٣ مقال للدكتور غنيمى جلال تحت عنوان « أزمة الوعى السياسى فى قصـــة الســـمان والخـــريف .

(١١٣) الرســـالة الجديدة : العدد التاســـع والعشرون فى أغسطس ١٩٥٦ ص ٤٤ تحت عنوان حول كتاب فى الثقافة المصرية للدكتور عبد العظيم أنيس .

(١١٤) جهاد عبد الجبار : ثلاثية نجيب محفوظ : رسالة ماجستير غير منشورة ص ١٩ .

(١١٥) الهلال : محاكمة نجيب محفوظ ص ٤١ .

(١١٦) نجيب محفوظ : السكرية ص ١٢٦ .

(١١٧) نفســـه ص ١٢٩ .

(١١٨) جهاد عبد الجبار : المرجع السابق ص ٢٢ .

(١١٩) روزاليوسف : العدد ١٥٣١ فى ١٤ اكتوبر ١٩٥٧ تحت عنوان « الكاتب والطبقة التى يعبر عنها » .

(١٢٠) نجيب محفوظ : اتحدث اليكم . بيروت .د.ت ص ٣٢ .

(١٢١) الكاتب : فى يناير ١٩٦٣ ص ١٨ لقاء لنجيب محفوظ مع فؤاد دواره تحت عنوان « رحلة الخمسين مع نجيب محفوظ » .

(١٢٢) انظر : أحمد عرابى : كشف الستار عن سر الأسرار . مخطوط بدار الكتب المصرية ص ٣٣٤ .

(١٢٣) دار الوثائق : محافظ الثورة العرابية . محفظة رقم ١٠ بـــح دوسيه ١٠١ الثورة العرابية وقضايا المتهمين . استجواب حسان فراج من عربان الفيوم .

(١٢٤) محافظ الثورة العرابية . محفظة رقم ٧ دوسيه ١٧ .

(١٢٥) دار المحفوظات العمومية : محافظ الداخلية عربى — محفظة رقم ٤٤ عين ٧٩ مخزن ٥٠ ملف ١٠١ سجل رقم ٢ مكاتبة من ناظر الداخلية الى مدير الفيوم .

(١٢٦) محافظ الثورة العرابية . محفظة رقم ٣١ دوسيه رقم ٥ .

(١٢٧) د. محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان — تاريخ وحدة وادى النيل السياسية فى القرن التاسع عشر ص ١٨٠ .

(١٢٨) الياس زاخورة : مرآة العصر فى تاريخ ورسوم أكابر الرجال بمصر ج ١ القاهرة . المطبعة العمومية ١٨٩٧ ص ١٠٣ .

(129) Public Record office. F. O. 407/21 In Closure in No 931 Extract from the « observer » of July 23, 1882 .

(١٣٠) والجدير بالذكر أن الوزارة الأوربية هى التى الفها نوبار باشا عام ١٨٧٨ واشترك فيها وزيران أوربيان انجليزى للمالية وفرنسى للاشغال وكان من نتيجة مظاهرة الضباط فى ١٨ فبراير ١٨٧٩ اسقاط هذه الوزارة .

للتفاصيل انظر : دكتور عبد المنعم الدسوقى الجميعى : عبد الله النديم ودوره فى الحركة السياسية والاجتماعية ص ٢٩ .

(١٣١) الرافعى : الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى ص ٢٦٧ .

(١٣٢) محافظ الثورة العرابية . محفظة رقم ١٨ ملف ٤٠ تقرير اسماعيل باشا أيوب عن الاجتماعات التى كانت تعقد بوزارتى الداخلية والجهادية .

(١٣٣) محافظ الثورة العرابية : محفظة رقم ١٠ ملف ١٢٥ محضر استجواب حسين باشا الدرملى وكيل نظارة الداخلية .

(١٣٤) محافظ الثورة العرابية : محفظة رقم ١٩ دوسيه ٨٣ تقرير مقدم من رستم بك وسيم وكيل الدائرة البلدية بمصر .

(١٣٥) محافظ الثورة العرابية : محفظة رقم ٢٠ ملف ٣٤ تلغراف من أحمد عرابى الى وكيل الجهادية بتاريخ ١١ اغسطس ١٨٨٢ .

(136) Broadley : How We Defended Arabi and his friends Astory of Egypt and Egyptians. London 1884 p. 137.

(١٣٧) عن استجواب على الروبى انظر : محافظ الثورة العرابية — محفظة رقم ١٣ قضايا المتهمين دوسيه ٢٤٩ .

(١٣٨) محافظ الثورة العرابية : محفظة رقم ١٣ ملف ٢٤٩ .

(١٣٩) الرافعى : المرجع السابق ص ٤٧٥ .

(١٤٠) الوقائع المصرية عدد ٢٦ ديسمبر ١٨٨٢ .

(١٤١) الوقائع المصرية فى أول يناير ١٨٨٣ .

(١٤٢) الوقائع المصرية فى ٣٠ ديسمبر ١٨٨٢ .

(١٤٣) عبد الرحمن الرافعى : ثورة ١٩١٩ جـ ١ . القاهرة — النهضة المصرية الطبعة الثانية ١٩٥٥ ص ٢٢٧ .

(١٤٤) محمد صبيح : « اليقظة » مواقف حاسمة فى تاريخ القومية العربية كفاح شعب مصر فى القرنين التاسع عشر والعشرين . القاهرة الطبعة الثانية ١٩٦٦ .

(١٤٥) مؤسسة الأهرام : ٥٠ عاما على ثورة ١٩١٩ ص ٢٢٢ — ٢٢٣ .

(١٤٦) د. عاصم دسوقى : ثورة ١٩١٩ فى الاقاليم من الوثائق البريطانية القاهرة — دار الكتاب الجامعى ١٩٨١ ص ٦٥ .

(١٤٧) محمد صبيح : المرجع السابق ص ٥٩٦ — ٥٩٧ .

(١٤٨) عاصم دسوقى : المرجع السابق ص ٧٠ .

(١٤٩) د. عاصم دسوقى : المرجع السابق ص ٦٩ — ٧٠ .

(١٥٠) الرافعى : المرجع السابق ص ١٤٥ .

(١٥١) دار الوثائق : مذكرات محمد على علوبة ص ٦٩ .

(١٥٢) محمد كامل سليم : ثورة ١٩١٩ كما عشتها وعرفتها . القاهرة كتاب اليوم . العدد ٢٦٥ مايو ١٩٧٥ ص ١٢٣ .

(١٥٣) الهلال : الجزء السابع من السنة الثامنة والثلاثين عدد أول مايو ١٩٣٠ ص ٧٩٠ حديث لحمد باشا الباسل تحت عنوان « اهم حادث اثر فى مجرى حياتى » .

وقد ظل حمد الباسل يحمل لواء الكفاح حتى اختاره الله الى جواره يوم الاثنين ٩ فبراير ١٩٤٠ .

(١٥٤) جبل الطور بسيناء .

(١٥٥) الرافعى : مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية ص ٣٠٦ .

(١٥٦) د. عبد المنعم الجميعى : الخديو عباس الثانى والحزب الوطنى ص ١٩٤ .

(١٥٧) الأهرام فى ١٩٧٩/٧/٢٠ مقال للدكتور يونان لبيب تحت عنوان «قراءة تاريخية فى حادثة تعيين حدود مصر الشرقية » .

(١٥٨) الرافعى : ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ — تاريخنا القومى فى سبع سنوات ١٩٥٢ — ١٩٥٩ ص ٢٤٣ .

(١٥٩) جمهورية مصر العربية . الهيئة العامة للاستعلامات . سيناء فى ظل الاحتلال ٦٧ — ١٩٧٩ ص ٩ — ١٠ .

(١٦٠) جمهورية مصر العربية : المجلس الأعلى للشباب والرياضة .

(١٦١) المجلس الأعلى للشباب والرياضة . مصر سيناء .

الفصل الحادى عشر

من رجالات النهضة المصرية

فـــى العصر الحـــديث

١ ــ على باشا مبـــارك

٢ ــ عبد الله النـــديم

٣ ــ الشيخ محمد عبده

٤ ــ مصطفى كامـــل

٥ ــ الخديو عباس حلمى الثانى

من رجالات النهضة العلمية والتعليمية فى مصر

١ — على باشا مبارك (١)
١٨٢٤ — ١٨٩٣

فى تاريخنا القومى شخصيات فذة تعتبر أركانا للنهضة القومية، لما لها من الأثر البالغ فى توجيهها وتطورها .

وعلى مبارك ولد فى برنبال الجديدة مركز دكرنس دقهلية عام ١٨٢٤ وبعد أن تلقى تعليمه الأولى دخل مدرسة المهندسخانة وهو فى السادسة عشرة من عمره ومكث بها خمس سنوات أظهر فيها تفوقا وبعدها التحق بالبعثة المصرية التى أرسلت الى فرنسا فى عام ١٨٤٤ لتلقى الفنون الحربية .

وكان أول مركز شغله على مبارك بعد عودته الى مصر هو تعيينه مدرسا بمدرسة طرة الحربية ثم تدرج بعد ذلك فى وظائف عديدة منها نظارته لمدرسة المهندسخانة . وفى عهد سعيد باشا كلف على مبارك بالاشتراك فى حرب القرم ١٨٥٤ ، وبعد عودته الى مصر عين معاونا بوزارة الحربية ، ثم عهدت اليه وكالة المحكمة التجارية ثم عين مفتشا لهندسة نصف الوجه القبلى ، ولما تولى اسماعيل الحكم الحق على مبارك بمعيته ثم جعله ناظرا على القناطر الخيرية وفى عام ١٨٦٧ عين وكيلا لديوان المدارس (وزارة المعارف) ثم اسند اليه ادارة مصلحة السكك الحديدية ، ووزارة المعارف والاشغال وبعدها ضمت اليه نظارة ديوان الأوقاف وهنا يبدأ العصر الذى حفل بالأعمال الهامة التى مازال صداها يتردد فى النهضة العلمية بمصر حيث وجه على مبارك معظم جهوده لترقية شئون التعليم فى البلاد ، فوجه عنايته الى اصلاح التعليم فى المكاتب وتحويل ما يمكن تحويله من الكتاتيب الى مدارس ابتدائية نظامية فوضع لذلك لائحته المشهورة بلائحة ١٠ رجب

التى نظمت المدارس وانشىء فى عهده كثير من المدارس الابتدائية النظامية فى القاهرة وعواصم الاقاليم

ولما كان وضع نظام صالح للتعليم يقتضى توفير العدد الكافى من الأساتذة الاكفاء فقد أنشأ على مبارك دار العلوم لتخريج أساتذة اللغة العربية والآداب ، واختار تلاميذها من طلبة الأزهر واشتمل برنامج التعليم فيها على العلوم التى لا تدرس فى الأزهر كالحساب والهندسة والجغرافيا والتاريخ والطبيعة والخط مع اتقان العلوم الأزهرية . واختار على مبارك للتدريس فى دار العلوم جماعة من خيرة الاكفاء من العلماء ، وجعل التعليم فيها بالمجان وقد اثمرت هذه المدرسة ، وتخرج منها اساتذة اللغة والآداب العربية الذين سدوا فراغا كبيرا بالمدارس المصرية .

دار الكتب المصرية :

اسست ١٨٧٠ وترجع فكرة تأسيس دار الكتب الى الخديو اسماعيل الذى رأى انشاء مكتبة عامة تجمع شمل الكتب المتفرقة فى مخازن الحكومة والمساجد ومكاتب الأوقاف ، ومن هنا طلب من على مبارك تحقيق فكرته واخراجها الى حيز النور ، فحقق الفكرة، وانشأ دار الكتب فى سراى درب الجماميز .

وقد فتحت هذه الدار ابوابها لطلاب المعارف والعلوم وسهلت لهم الاطلاع على كتب ومؤلفات ومخطوطات نادت ولا تزال تؤدى اجل الخدمات للعلماء والمثقفين .

مجلة روضة المدارس

رأى على مبارك الذى كان جل مرغوبة تعميم العلوم وتتميم المعارف وانتشار الفنون ، والذى كان يعتبر التعليم وسيلة من وسائل التوجيه ، وتكوين الرأى العام المستنير ضرورة انشاء مجلة تربوية تعليمية تتبناها وزارة المعارف فأسس مجلة عنونت باسم « روضة المدارس » أسند رئاستها الى رفاعة الطهطاوى ناظر الترجمة بديوان المعارف (٢) كما اسند تحريرها الى على بك فهمى رفاعة وكان يعمل مدرسا للانشاء بمدرسة الادارة والألسن .

وقـد صدر العدد الأول من روضة المدارس فى ١٧ أبـريل ١٨٧٠ كمجلة أدبية علمية تصدر مرتين فى الشهر [٣] .

ولما كانت المهمة الأساسية لهذه المجلة هى نشر العلم والعرفان فقد جعل شعـارها :

تعـلم العـلم واقـرأ	تحـز فخـار النبـوة
فاللـه قـال ليحيـى	خـذ الكتـاب بقـوة

وقد توقفت روضـة الدارس بعد أن صدر العدد السادس عشـر من سنتهـا الثامنة دون أن تذكر السبب الذى دفعها الى هذا التوقف .

ومع أن شـهرة على مبارك تقوم فى الغـالب على خدماته الجليلة للتعليم فان له مآثر اخرى فى أعمـال العمران التى تمت فى عهد اسماعيل منها ما يختص بالرى ، ومنها ما يتعلق بتنظيم القاهرة والمدن الأخـرى ولما تولى توفيق باشـا الحكم عهد الى على مبارك وزارة الأشغـال فبذل فيها جهـودا كبيرة ، ولما قامت الثورة العرابية لم يكن على مبارك من انصارها بل كان يميل الى الاعتدال [٤] .

مؤلفات على باشا مبارك

لعلى مبـارك مؤلفات عديدة أهمها « الخطط التوفيقية لمصر القاهرة ومدنها وبـلادها القديمة والشهيرة » وهى دائرة معـارف لخطط مصـر وآثارها وجغرافيتها وتاريخها فى عصورها القديمة والحديثة وتقع الخطط التوفيقية فى عشرين مجـلدا أفرد المؤلف الأجزاء الستة الأولى للقاهرة ، والجزء السـابع للاسكندرية والأجزاء الأخرى لبقية القطر المصرى مدنه وقراه ، وخصص الجزء الثامن عشر لقيـاس النيل ، والتـاسع عشـر لترع مصر ومنشئات الرى فيها ، أما عن الجـزء العشرين فقـد خصص للنقود المصرية القديمة والحديثة .

هذه هى أهم أعمال على مبارك ، وهذا هو عطاؤه وفى ١٤ نوفمبر ١٨٩٣ نطفأ المصباح المضيىء الذى انعش الحركة العلمية والثقافية فـى مصر ما يقرب من أربعين عاما .

٢ — عبد الله النـديم
١٨٤٣ — ١٨٩٦

ولد عبد الله النديم — وحقيقة اسمه عبد الله بن مصباح بن ابراهيم الحسنى — فى عام ١٨٤٣ فى احـدى حارات حى الجمرك بالاسكندرية فى أسرة فقيرة ، فكان والده يعمل خبـازا ويحصل من ذلك على الكفاف من العيش . وتعلم النديم فى كتاب الحى مبادىء القراءة والكتابة ، وحفـظ القرآن الكريم قبـل أن يبلغ التاسعة من عمره ، كمـا درس الفقـه والأصول والتوحيد والمنطـق والعلوم اللسانية والنحو الصرف فى الجامع الأنور فى الاسكندرية ، ولكنه لم يصبر طويلا عـلى هذه الدراسة اذ وجد فى نفسـه ميلا واستعدادا للادب فارتاد المقـاهى والمنتديات والمجالس الأدبية وسـمع الحكايات والأمثال من شـعراء الربابة ونوادر الظرفاء، وقد سـاعد ذلك على تكوين النديم الأدبى ، فبرزت قدراتـه الخطابيـة والكتابية حتى سـار معروفا بين أدباء الاسكندرية أما لقب النديم فيرجع الى منادمته للامراء والكبراء .

وفى بدء حيـاة النديم تعلم صنـاعة التلغراف لكى يكتسب رزقه، وعمل بمكتب التلغراف بينها ، ولما ظهرت كفـايته فى عمله نقل الى مكتب القصر العـالى بالقـاهرة الذى كانت تقيم فيه الأميرة « خوشيار خانم » والدة الخديو اسـماعيل ، فعرف هنـاك حياة القصـور وما بها مـن بذخ وقارن بينها وبين حيـاة الشعب الفقير مما اثر على تكوينه السياسى فوقف نصيرا للطبقات الكادحة فيما بعد .

أخـذ النديم يتردد على المجـالس وحلقات العلم بالأزهر ولما سمع عن جمال الدين الافغـانى حضر مجـالسه ، واستهوت النديم افكـار جمال الدين الجريئـة ، فانخرط فى سـلك تلامذته ، الا أن ذلك أدى الى فصـل النديم من عمله بالقصر العـالى فأخذ يجوب القرى والمدن مبتغيا كسـب عيشـه حتى تعرف على شـاهين باشا كنج مفتش الوجـه البحرى الذى قـربه اليه ، ومن خلاله تعرف النديم على أحد رجـال الحاشـية الخديوية وهو تتونجى بك الذى عينـه وكيلا لدائرته مما أتاح للنديم فرصـة التردد على القاهرة ، فعـاود مجالس استاذه جمال الدين

لكن النـديم وجـد أن لهجته فى الحديث قد تغيرت ، فأصبح يتحـدث عن ضرورة التخلص من الظـلم الاجتماعى والحـكم الفـردى والتدخـل الأجنبى ، والاستبداد الواقـع على أعناق المصريين ، وقد مسـت هذه الكلمـات قلب النـديم وساهمت فى اكتمـال نضجه السياسى ، ومن هنا بـدأت حياته السياسية . وبدأت أولى الخطوات العملية فى حياة النديم السـياسية بانضمـامه الى الجمعيات ذات الصفـة السرية ، فدخـل الحركة الماسونية ، كما دخـل جمعية مصر الفتـاة السرية ، ولمـا أحس ان هذا العمـل لا يتفق مع طبيعته الشـعبية لجأ الى العمل الوطنى العلنى ، واستخدم فى ذلك وسائل ثـلاث : الصحافة حيث كتب فى صحف مصر والتجـارة والمحروسة والعصر الجديد ثم أسس صحيفـة التنكيت والتبكيت الذى صدر العدد الأول منها فى السادس من يونيو ١٨٨١ ثم استبدل اسـمها بالطائف بعد انضمـامه الى العرابيين فى محاولة منه لتكوين رأى عام ونجـح فى ذلك الى حد كبير لدرجة أن لقبه البعض بصحفى القرن التاسع عشر بلا منـازع ولقبه البعض الآخر بأنه أذكى ناقد لأوربـا فى مصر وقد نـالت مقـالاته اعجـاب الناس لانها كانت جـديدة عليهم من ناحيـة الأفكار والجرأة فى التعبير كمـا كانت جديدة عليهم من ناحيـة الأسـلوب الذى تنـاول فيه النديم الاحوال السيـاسية التى مرت بهـا مصر بأسـاوب رمزى اتخذ فيه من بعض الكـائنات غـير الانسـانية ستـارا لبث أفكاره ومبادئه حيث لم تتح له ظروف مصر السياسية بما يريد أن يقوله بطريق مباشر .

واستخدم النديم المسرح فى توعية مواطنيـه فكتب روايتين مثلهمـا مع تلاميذه وهما « الوطن وطالع التوفيق » و « النعمان » كما استخـدم الخطـابة فى توصيل أفكاره الى مواطنيه . وبينمـا كان النديم يقـوم بدوره فى تعبئة الشـعور الوطنى اتصـل به الزعماء العسكريين ودارت بينهم وبينه مشـاورات سرية من أجل أن ينضم اليهم ، ويكون لسـان حالهم ، وقد تردد النديم فى ذلك أول الأمر ولكنـه بعد أن أحس أن هدفهم هو العمل من أجـل حرية الوطن وقف بجـانبهم فانتعشت حركة الضباط بانضمـامه اليهـا ، واختاره عرابى مستشـارا له ، وفى أعقاب حادث قصر النيل أشـار النديم على عرابى بطبـع منشـور يطلب فيـه مـن

الشعب أن يفوضه فى المطالبة بحقوقه ، وقد وافق عرابى وكلف النديم بتوزيع المنشور ، فقام بتوزيعه ثم اخذ فى جمع التوقيعات من الأهالى مما كان له أكبر الأثر فى تقوية العزائم ، كما جاءت الوفود لمبايعة عرابى ، وبهذا تحولت الحركة العرابية من ثورة عسكرية الى ثورة شعبية بفضل ارشادات وتوجيهات النديم .

وفى اثناء مظاهرة عابدين (٩ سبتمبر ١٨٨١) طلب عرابى من النديم رفع معنويات مؤخرة قواته حتى لا يصيبها الضعف والخذلان ، فأخذ النديم يلهب مشاعر الجند بخطاباته الوطنية والحماسية ، وبعد استجابة الخديو توفيق لمطالب العرابيين قام النديم بتأسيس جمعية الشبان بالاسكندرية حتى تكون ركيزة شعبية للثورة .

ولقد وقف النديم بجانب الثورة ، وهاجم الخديو توفيق واتهمه بالخيانة والخداع ، وعندما ارسلت انجلترا وفرنسا المذكرة المشتركة الى الخديو وجاء الوفد العثمانى لتقصى الحقائق فى مصر سافر النديم الى الاسكندرية لكى يهيىء الناس لاستقبال الوفد العثمانى والاحتجاج على المذكرة المشتركة .

وفى اثناء المعارك بين العرابيين والانجليز نظم النديم اسلوب الدعاية للمعركة فكان له تاثير كبير على عقول المواطنين ، وبعد الهزيمة أعد النديم خطته للاختفاء عن اعين السلطة ، وقد نجح فى ذلك واستمر مختفيا حوالى تسع سنوات حتى قبض عليه فى الثالث من أكتوبر ١٨٩١ ، فنفى الى يافا وعندما اعتلى عباس الثانى أريكة الخديوية أصدر عفوه عن النديم واباح له العودة الى مصر ، فوصلها فى التاسع من مايو ١٨٩٢ واستأنف جهاده الوطنى باصدار مجلة الاستاذ فى ٢٣ من اغسطس ١٨٩٢ وكانت مقالاته على صفحاتها تحدد المعارضة القوية ضد الاحتلال ، كما تحمل النديم مهمة ايقاظ الشعور الوطنى فوضع أمله فى الجيل الجديد وخصوصا مصطفى كامل الذى تتلمذ عليه ونشأ فى مدرسته ، واقتبس بعض اساليبه ، فكان النديم استاذا مباشرا له فى مجال الصحافة والخطابة وفى ميادين السياسة ، كما كانت نصائحه وتوجيهاته خير هاد له ، فأصبح

النديم بذلك حركة الوصل بين جيل الثورة العرابية وجيل الشباب الجديد بزعامة مصطفى كامل .

ولما أحس كرومر بخطورة النديم طلب من الخديو نفيه خارج مصر ، وتحت الحاح كرومر نفى النديم الى يافا للمرة الثانية ، ولكنه لم يستقر بها طويلا فرحل الى الاستانة ، وهناك التقى باستاذه جمال الدين الأفغانى ، كما حدث بينه وبين أبى الهدى الصيادى مبارزة فكرية ، فهجاه النديم فى كتابه المسامير ، ورد عليه الصيادى بكتاب « صوت الهزار وزيق العذار » ومرة أثناء تواجد النديم فى الاستانة أيضا طلب منه الخديو عباس الثانى الوساطة فى أمر مصاهرته من احدى بنات الخلافة ، غير أن وساطته لم تنجح .

— أما عن أثر النديم السياسى ، فان أفكاره سبقت افكار ابناء وطنه ، فكانت جديدة عليهم ، اذ نبه عقولهم الى موضوعات جديدة ، فتحدث عن مفهوم القومية ومبدأ مصر للمصريين واهمية الوحدة الوطنية وفكرة الجامعة الشرقية واهمية الديمقراطية كاساس للحكم فى مصر والدستور كنظام له وتكلم عن الاحزاب والاهتمام بالراى العام وفكرة الجمهورية ، كما أن دعوة النديم للاصلاح الاجتماعى قد سبقت انشغاله باحداث البلاد السياسية ، ثم مزج بينهما وسارا جنبا الى جنب فانشغل بما أصاب قومه من جهل وانحلال وانكباب على الرزائل والموبقات وحاول أن ينبههم الى مضارها ، ويزيل الخرافات والجهل المطبق عليهم وتحدث عن أهمية العدالة الاجتماعية ، وعن ضرورة انشاء الجمعيات الخيرية كوسيلة لتعليم ابناء الشعب فقيره وغنيه ، كما طالب باصلاح المهن والحرف المصرية .

وفى مجال الثقافة والتعليم طالب النديم باصلاح نظم التعليم فى الأزهر وحث الاغنياء على انشاء مدارس أهلية ليتعلم فيها ابناء الشعب كما دافع عن اللغة العربية ، وجدد الدعوة الى انشاء مجمع اللغة العربية حتى يحول دون ضياع اللغة الفصحى .

أما عن مؤلفات النديم التى تفتقت عنها قريحته فقد الف « كان ويكون » اثناء الاختفاء داخل قرى مصر ونجوعها حوالى عشر سنوات والف

« تاريخ مصر فى هذا العصر » كما الف المسامير فى هجاء « أبو الهدى الصيادى » أثناء وجوده فى منفاه بالاستانة هذا بالاضافة الى ما قام شقيقه عبد الفتاح نديم بجمعه تحت عنوان « سلافة النديم فى منتخبات السيد عبد الله النديم » .

وقد توفى النديم بالآستانة فى الثالث عشر من اكتوبر ١٨٩٦ دون أن يترك أولادا حيث ماتوا جميعا فى طفولتهم .

٣ — الشيخ محمد عبده من واقع ملف خدمته(٥)

تعتبرملفات وربط المعاش الموجودة فى دار المحفوظات العمومية بالقلعة ، من المصادر الأصلية والهامة فى دراسة تاريخ مصر الحديث والمعاصر ، فبعضها يعرض للرواد الذين لعبوا ادوارا بارزة فى التاريخ المصرى ، وتبرز أهمية هذه الملفات فى معرفة التسلسل الوظيفى للشخصيات التاريخية ، اذ تصور حياة كل منهم الوظيفية كما تعرفنا بمؤهلاتهم العلمية وظروفهم الاجتماعية التى مروا بها قبل الوصول الى منصب الزعامة أو الريادة .

والملف الذى نعرض له فى هذا الصدد هو ملف خدمة وربط معاش الشيخ محمد عبده ، أحد أعلام الثورة العرابية الذى تدرج فى عدة وظائف هامة أبرزها وظيفة مفتى الديار المصرية .

* ولد الشيخ محمد عبده فى أواخر عام ١٢٦٦ هـ (١٨٤٩ م) فى قرية محلة نصر بمركز شبراخيت بحيرة طبقا لاقراره الشخصى بذلك(٦) .

* وكانت أول وظيفة التحق بها فى أواخر عام ١٢٩٥ هـ (١٨٧٨م) هى وظيفة مدرس بمدرسة الألسن ومدرسة دار العلوم ، واستمر بها حوالى ثمانية شهور ثم رفت بالاستغناء عنه فى رمضان ١٢٩٦ هـ .

* وفى جمادى الأولى ١٢٩٧ هـ (١٨٨٠ م) عين (محررا ثالثا فى الجريدة الرسمية بمرتب الف وثلثمائة قرش شهريا ، وفى ذى القعدة ١٢٩٧ هـ رقى رئيسا بقلم ادارة المطبوعات العربية والتركية بمرتب

الفين قرش) ثم زيد الى ثلاثة آلاف قرش فى ربيع الثانى من السنة المذكورة [٧] .

* ونتيجة لانضمام الشيخ محمد عبده الى رجال الثورة العرابية وتزويده جريدة الوقائع المصرية بالافكار الثورية حتى أصبح كاتبا ومنشئا ومقرئا للعرابيين فى المحافل والمجامع ومحررا للمحاضر المتفقة مع اغراض الثوار ، نتيجة لذلك كله فصل من وظيفته وقدم للمحاكمة وحكم عليه بالتجريد من « الرتب والنياشين والعنوانات وعلامات الشرف والامتيازات » [٨] وتقرر نفيه الى خارج القطر المصرى وملحقاته لمدة ثلاث سنوات قضاها فى بيروت . ارتحل بعدها الى باريس حيث دعاه استاذه جمال الدين الأفغانى واصدرا سويا جريدة العروة الوثقى من هناك ، ثم عاد الى بيروت حيث تزوج للمرة الثانية رحل بعدها الى مصر .

* وعين الشيخ محمد عبده عقب عودته الى مصر فى وظيفة نائب قاضى بمحكمة بنها حسب الأمر العالى الصادر فى ٢٨ يوليو ١٨٨٩م ، ثم نقل الى محكمة المنصورة الابتدائية الأهلية فى اول يناير ١٨٩١م فى وظيفة قاضى ومنها نقل الى محكمة مصر الابتدائية الأهلية [٩] .

* ظل الشيخ محمد عبده يعمل فى القضاء حتى سنة ١٨٩٩م ثم صدر أمر عالى فى ٣ يونية بتعيينه مفتيا للديار المصرية بمرتب سبعين جنيها فى الشهر وضمنت له الحكومة « الرجوع الى وظيفة قاض بمحكمة الاستئناف الأهلية فى حالة استقالته أو اقالته من وظيفة افتاء الديار المصرية » [١٠] .

* والتمس الشيخ محمد عبده من الخديو ضم المدة التى قضاها بالمنفى الى مدة خدمتة حتى تحتسب له فى المعاش ، وقد اجابه الخديو الى طلبه ففى ١٨ يونيه ١٩٠٥ صدر أمر عالى رقم ٣ باحتساب فترة النفى التى قضاها الشيخ محمد عبده ضمن مدة خدمته [١١] .

* واشتدت وطأة المرض على الشيخ محمد عبده منذ اكتوبر ١٩٠٥

فعـزم على السفر الى خـارج البلاد للعلاج (١٢) بعد أن اختلف الاطباء المصريون فى تشخيص مرضـه ، ولكن حالته الصحية حالت دون ذلك .

* وتوفى الشـيخ محمد عبده بالاسكندرية فى ١١ يولية ١٩٠٥ عن عمر يناهز السادسة والخمسين ودفن بالقاهرة تاركا وراءه زوجة ، واربع بنـات ، كانت الصغرى من الزوجة الثانية .

* ومع أن الشـيخ محمد عبده قدم اقرارا فى نوفمبر ١٨٩٦م بأنه يمتلك منزلا يقـع بالشـارع الاسماعيلى بالسيدة زينب ، واربعا وعشرين فدانا وثـلاثة عشر قيراطا بالاضـافة الى سبعة فدادين اخرى بطـريق الرهن وتقـع كلها فى مركز شبراخيت بحيرة (١٣) فان زوجتـه طلبت من وزارة المـالية زيادة معـاشها هى وبناته نظرا لأنه لم يتجـاوز سـبعة جنيهـات لا تكفى لقضـاء حاجات معيشتهم الضرورية ، وان زوجهـا قد شغل نفسه طيلة حياته بتفضيل منافع الناس العمومية على شئـونه الخاصة مما جعله لا يترك لهم شيئا يعيشون منه (١٤) .

٤ — مصطفى كامل

١٨٧٤م — ١٩٠٨م

ولد مصطفى كامل بحـارة درب المبيضـة بشارع شيخون بالصليبة بحى الخليفـة بمدينة القـاهرة فى ١٤ — ٨ — ١٨٧٤م وشـاهدت طفولته السنوات الأخيرة من عصر الخديو اسماعيل حيث كانت الأزمـة المـالية والتدخل الأوربى ثم سـقوط اسمـاعيل وتوليـة توفيـق ودوى صوت جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وعبد الله النديم ثم ثورة عرابى وانحيـاز الخديو للانجليز والاحتـلال ، ونتيجة لما انتهت اليه الثـورة العرابية من اخفـاق وهزيمة شب مصطفى كامل بين شعب تملكه اليأس والقنوط والقلق .

حصـل مصطفى كامل على الشهادة الابتدائية عام ١٨٨٧ من مدرسة القربية بالقـاهرة وتلقى دراسـته الثانوية فى مدرسة الخديوية ، ونـال الشـهادة الثانوية فى صيف ١٨٩١ ثم تلقى دراسته العـالية فى مدرسـة

الحقوق الخديوية ثم التحق بمدرسة الحقوق الفرنسية فى اكتوبر ١٨٩٢م حيث حصل على شهادة الحقوق من تولوز عام ١٨٩٤م .

وقد كان لاتصال مصطفى كامل بعلى باشا مبارك وعبد الله النديم اكبر الأثر فى تكوين شخصيته وفى تشكيل وضعه السياسى ، فقد وجد مصطفى كامل من على باشا مبارك تشجيعا اذ افسح له المجال فى مجالسه كما شجعه على قراءة الصحف على مسمع من الناس ولما وجد فيه الفصاحة والشجاعة وقوة العارضة تنبأ له بمستقبل عظيم ، ولقبه « امرؤ القيس » كما وجد مصطفى كامل فى عبد الله النديم المدرسة الثورية التى تلقن فيها دروس الوطنية ، فكان لاتصاله به أكبر الأثر فى تكوينه الثورى حيث تتلمذ عليه ونشأ فى مدرسته واقتبس بعض اساليبه ، واطلع منه على اسباب فشل الثورة العرابية والقواعد التى يتبعها حتى يكون وطنيا ناجحا وكانت نصائح وتوجيهات النديم لمصطفى كامل خير هاد له فقد شرح له اهمية الصحافة ودورها فى تنوير الرأى العام ، وكانت جريدته «الاستاذ» هى الاستاذ الصحفى لمصطفى كامل ، كما اختص النديم مصطفى كامل بالرعاية لما وجد فيه من الاستعداد الثورى ، وتبينت له قدراته الخطابية ، وامارات الزعامة ، فشحن عواطفه بما فى نفسه من الأفكار المكبوتة فى صدره والتى لم يستطع هو الافصاح عنها بعد عودته من المنفى وقد ظهر ذلك واضحا فى خطب مصطفى كامل واسلوبه ، فقد اقتبس من النديم بعض عباراته البلاغية وقلد طرق مخاطبته الجماهير .

وليس من شك فى أن النديم قد غرس فى مصطفى كامل آراءه وكان همزة الوصل بين جيل الثورة العرابية والجيل الجديد الذى تسلم الراية بعده .

وعندما تولى الخديو عباس الثانى واظهر ميلا الى جانب المصريين ، توثقت روابط الود والتعاون بينه وبين مصطفى كامل فى السنوات الأولى من حكمه وعلى وجه خاص بعد الأزمة الوزارية ١٨٩٣، فقاد مصطفى كامل مظاهرة وطنية تأييدا للخديو ضد الاحتلال كما هاجم جريدة المقطم لموقفها العدائى منه .

لقد حمل مصطفى كامل علم الجهاد منذ أن كان طالبا ، فقد راسل الصحف وانشأ مجلة المدرسة التى ظهر العدد الأول منها فى ١٨ — ٢ — ١٨٩٣م .

ولما عزم مصطفى كامل على اتمام دراسة الحقوق فى أوربا سافر الى تولوز بتعضيد من الخديو ونال درجة الليسانس فى القانون عام ١٨٩٤م ، ومع ذلك لم يتجه للعمل فى المصالح الحكومية او ممارسة مهنة المحاماة لكنه نذر نفسه لقضية مصر ، فعاش حياته يدافع عنها .

وقد استلهم مصطفى كامل خطوط كفاحه من دراسة واقع مصر السياسى ، فقد رأى ان الاحتلال لا يستند على أساس شرعى فطرق كل باب يوصله للمطالبة باستقلال مصر ، ورأى أن اليأس قد استحوذ على نفوس ابناء وطنه ، فنفخ فى الأمة روحا جديدة ، وبعث فى الناس أملا بعد اليأس .

واعتمد مصطفى كامل فى كفاحه على كل القوى الخارجية والداخلية المعارضة للاحتلال وهى الخديو والسلطان وفرنسا ، كما اتجه الى الشباب المثقف من الشعب المصرى ، ووضع مصطفى كامل فى اعتباره هدفا واحدا وهو الجلاء ، اذ لم ير لمصر عدوا واحدا آنذاك سوى الاحتلال .

لقد تعاون مصطفى كامل مع الخديوى طالما وجد فيه تأييدا للحركة الوطنية ، وتعاون مع الدولة العثمانية بهدف توثيق الروابط بينهما وبين مصر ، حتى يتخذ من ذلك وسيلة لمقاومة الاحتلال الانجليزى ، فقد احس مصطفى كامل أن مصر بمفردها لا تستطيع بوسائلها المحدودة أن تجبر الانجليز على الخروج منها ، فاستغل مصطفى كامل مركز مصر الدولى وحركة الجامعة الاسلامية آنذاك فى المطالبة باستقلال مصر استقلالا ذاتيا طبقا لما جاء بمعاهدة لندن ١٨٤٠ — ١٨٤١ ، وكان مصطفى كامل يدرك أن مصر اذا استطاعت أن تتخلص من الاحتلال الانجليزى أصبح من السهل عليها التخلص من التبعية للدولة العثمانية .

وعن تقرب مصطفى كامل الى فرنسا ، فيرجع ذلك ، الى تلاقى أهداف سياسة فرنسا فى ذلك الوقت مع أهداف الحركة الوطنية المصرية ، فتعاون فى أثناء وجوده فى فرنسا مع الصحفى الفرنسى « دلونكل » ، ولكنه سرعان ما تبين له ان دلونكل لا يرضى عن وجود شاب مصرى يعمل من أجل قضية بلاده ويسحب منه الاضواء مما دفع مصطفى كامل الى الاتصال بمدام جوليت آدم الصحفية والاديبة الفرنسية ، فتعاطفت معه وفتحت صفحات مجلتها
الفرنسية ، فتعاطفت معه وفتحت صفحات مجلتها La Nouvelle Revue « لا نوفل ريفو » لكى ينشر ما شاء من مقالات . ولم يقتصر نشاط مصطفى كامل فى أوربا على فرنسا فحسب ، بل واصل نشاطه فى ألمانيا والنمسا وفى داخل انجلترا نفسها .

ورأى مصطفى كامل أن يمد جذور نشاطه الى الطبقات الكادحة فى المجتمع المصرى ، فلم يكتف بكتابة المقالات والخطب الحماسية ، بل طالب أيضا بانشاء المدارس ليتعلم فيها أبناء الفقراء والأغنياء على السواء ، وأدار مدرسة باسمه لتثقيف الناشئين ، كما أنشأ جريدة اللواء لتكون مدرسة يتعلم فيها المصريون حقوقهم وواجباتهم ، وبوقا ينادى بجلاء الانجليز ، وقد ظهر العدد الأول منها فى الثانى من يناير ١٩٠٠ ، وظل مصطفى كامل يواصل نشاطه السياسى معتمدا على كافة القوى حتى جاء ابريل سنة ١٩٠٤ فصدمت الحركة الوطنية فى مصر بابرام الاتفاق الودى بين انجلترا وفرنسا ، اذ بمقتضاه أقرت فرنسا الاحتلال الانجليزى على مصر ، ورغم ذلك فقد واصل مصطفى كامل كفاحه ، ولم يفت فى عضده موقف فرنسا وأخذ يعتمد على الرأى العام ، وعندما انحاز الخديو الى الاحتلال علانية بعد الاتفاق الودى قطع مصطفى كامل علاقته به ، واعلن فى اللواء عن عزمه الابتعاد عنه ، ثم ارسل له خطابا عقب عودته من أوربا يعلن فيه تحمله وحده مسئولية مقاومة الاحتلال والمحتلين .

نادى مصطفى كامل بتأسيس نادى للمدارس العليا ، وبتأثير دعوته افتتح هذا النادى فى ٥ ابريل ١٩٠٦ فكان تتمة لجهده فى التنظيم الطلابى ، وكان هذا النادى بمثابة معهد وطنى علمى اخلاقى تكون فيه جيل من خير الشباب المصرى وفيه ظهرت حركة فكرية قومية ،

فالتقى اعلام الفكر والعلم المحاضرات فى مختلف العلوم والفنون ، وبذلك اتصل الطلبة بالخرجين ، وعن طريق هذا النادى أيضا تكونت الجمعيات السرية المناهضة للاحتلال .

وعندما وقع حادث دنشواى فى يونية ١٩٠٦ استغل مصطفى كامل ذلك الحادث فى التشهير بالسياسة الانجليزية واثارة الرأى العام الأوربى ضد كرومر ، فكتب فى جريدة الفيجارو « مقالا تحت عنوان « الى الأمة الانجليزية والعالم المتمدن » هاجم فيه المحكمة المخصوصة وما اصدرته من احكام ، كما استنكر الطريقة التى نفذت بها الأحكام مما اثار دويا قويا ، وهز الضمير العالمى ، ونقل مصطفى كامل المعركة الى قلب لندن ، واستطاع أن يهز الضمير البريطانى حتى بدت الأرض تميد من تحت كرومر .

ولكى تظل قضية مصر فى أذهان أوربا اسس مصطفى كامل فى عام ١٩٠٧ جريدتين يوميتين احداهما بالفرنسية وهى (ليتندار اجبسيان) L'Etendard Egyptien والأخرى بالانجليزية (ذى اجبشيان استاندارد) The Egyptian Standard (اللواء المصرى) .

وبعد استقالة كرومر فى ابريل ١٩٠٧ وتولية جورست ازداد انحياز الخديو تجاه الانجليز وظهر موقفه مكشوفا عندما اعلن فى حديثه مع المستر « ديسى » والذى نشرته جريدة الديلى تلجراف فى مايو ١٩٠٧ انه مستعد للتعاون مع المعتمد البريطانى الجديد ، وعندئذ بادر مصطفى كامل بنقد ذلك الحديث نقدا حازما اظهر فيه تراجع الخديو وتخليه عن القضية المصرية وبعد تأسيس حزبى الأمة والاصلاح على المبادىء الدستورية اضطر مصطفى كامل الى اعلان تأسيس الحزب الوطنى فى ٢٢ اكتوبر ١٩٠٧ برغم انه كان لا يود انشاء احزاب لاعتقاده بأنها تؤدى الى انقسام الأمة .

وعلى الرغم من الأحداث العديدة الضخمة التى عايشها مصطفى كامل واشترك فيها لم يزد عمره عن اربعة وثلاثين عاما عندما توفى فى ١٠ فبراير ١٩٠٨ بعد أن قدم لمصر من الأعمال الجليلة التى خلدته

فى سجل تاريخه الطويل وبموته تأثرت الحركة الوطنية فى مصر تأثيرا بالغا حتى حمل لواءها من جديد محمد فريد أما عن أهم مؤلفات مصطفى كامل فهى حسب تواريخ ظهورها :

— الجواهر السنية فى نظام الهيئة الاجتماعية (١٨٩٣) .

— اعجب ما كان فى الرق عند الرومان (١٨٩٣) .

— رواية فتح الاندلس (١٨٩٤) .

— اخطار الاحتلال الانجليزى لمصر (١٨٩٤) .

— رسالة الى الجمعية الوطنية الفرنسية (١٨٩٥) .

— المسألة الشرقية (١٨٩٨) .

— الشمس المشرقة (١٩٠٤) .

— المصريون والانجليز (١٩٠٥) .

٥ — الخديو عباس الثانى

١٨٧٤م — ١٩٤٤م

أكبر الأبناء الذكور للخديو توفيق بن اسماعيل بن ابراهيم بن محمد على ، وهو سابع من تولى حكم مصر من أسرة محمد على .

ولد عام ١٨٧٤ بمدينة الاسكندرية ، ولما شب دخل مدرسة عابدين ثم سافر الى النمسا والتحق بكلية الترزيانوم ، ولما بلغه نبأ وفاة والده وهو بفينا بادر بالعودة الى مصر فوصل الى الاسكندرية فى ١٦ يناير ١٨٩٢ .

وفى بداية حكمه — حاولت مختلف القوى المؤثرة على الوضع السياسى فى مصر الضغط عليه حتى تضمه الى صفها ، فاتخذت انجلترا من حداثة سنه ذريعة لتسويغ بقاء الاحتلال ، كما اتخذت تركيا من ذلك فرصة للسيطرة على الخديو الصغير فحاول السلطان احتواءه وطلب منه زيارته ، ولكن عباس تجنبا للضغط عليه سافر

الى مصر مباشرة مما أغضب السلطان وجعله يلجأ الى تأخير فرمان ولايته واقتطاع شبه جزيرة سيناء من مصر .

وحين بدأت اجراءات تولية عباس حلمى اريكة الخديوية ، ظهرت مشكلة عويصة ، فسن الأمير ينبغى أن يكون ثمانية عشر عاما حتى يمكنه اعتلاء الخديوية ، وبما أن عباس الثانى ولد فى ١٤ يولية ١٨٧٤ فانه لم يبلغ سن الرشد الا فى ١٤ يولية ١٨٩٢ بينما كانت وفاة والده المفاجئة فى السابع من يناير ١٨٩٢ ، وظهر شبح تشكيل مجلس وصاية وتفاديا لذلك اتفق على حساب سن الأمير بالحساب الهجرى الذى يقل عن الحساب الميلادى فاتضح انه بلغ سن الرشد فى ٢٤ ديسمبر ١٨٩١ .

اضطلع عباس الثانى بمهام الخديوية ، وتملكه فى الفترة الأولى من حكمه شعور وطنى ، فاستبدل رجال المعية التى كانت على أيام والده بآخرين كما اتجه الى الأمة فاصدر أوامره بالعفو عن عدد كبير ممن اشتركوا فى احداث الثورة العرابية ومنهم عبد الله النديم ، ثم صار يستقبل طوائف الناس مرتين فى كل شهر ، وساءه أن يرى الانجليز قد وضعوا ايديهم على وزارات الحكومة ومصالحها فاعتزم وضع حد لهذا التدخل غير المشروع ورسم لنفسه فى أول عهده بالحكم سياسة مقاومة التدخل البريطانى ، ولما رأى فى رئيس نظاره مصطفى فهمى خضوعا كاملا للانجليز طلب منه أن يقدم استقالته بحجة مرضه ، ولكن مصطفى فهمى نصحه بأخذ رأى اللورد كرومر قبل الاقدام على هذا العمل ، مما ضايق الخديو فاصدر أمرا باقالته ، وكلف حسين فخرى بتاليف الوزارة الجديدة فشكلها فى ١٥ يناير ١٨٩٣ وكان لهذا التغبير صدى قويا فى كافة الأوساط المحلية والعالمية ، فذهب اللورد كرومر لمقابلة الخديو وابلاغه بأن الحكومة الانجليزية لها الحق فى اختيار الوزراء وفقا لمنشور جرانفيل فى الثالث من يناير ١٨٨٣ فرد عليه الخديو بأن الفرمانات السلطانية تمنحه حق اختيار وزرائه بنفسه ، فهدده كرومر بأنه اذا قاوم انجلترا فمعنى ذلك الاطاحة بعرشه ، وتعكر الجو وحدثت الأزمة التى يطلق عليها فى التاريخ « بالأزمة الوزارية » وقد سويت هذه الأزمة على أساس الا يصر كرومر على عودة مصطفى

فهمى ولا يتمسك الخديو بوزارة حسين فخرى ، ويعين مصطفى رياض باشا كحل وسط يرضى الطرفين أما عن اثر هذه الأزمة فى نفسية الشعب المصرى فقد التفت الأمة المصرية حول الخديو وشجعته على موقفه ، كما هاجم مصطفى كامل وزملائه جريدة المقطم لموقفها العدائى من الخديو ، وأعتلى مصطفى كامل منصة الخطابة فى ٢٠ من يناير ١٨٩٣ بين جموع الطلبة الذين احتشدوا للتعبير عن سخطهم على المحتل ، ووجه مصطفى كامل نداءه الى المصريين بالتكتل والوقوف بجانب الخدبو والاستعداد للكفاح .

وقد وجد الخديو عباس الثانى فى مصطفى كامل الشباب الذى يستطيع حمل راية الكفاح برغم حداثة سنه ، فاعجب بشخصيته ووافقت اتجاهاته ميوله فى بداية حكمه فامده الخديو بالمال والتأبيد ، وتوثقت اواصر الود والتعاون بينهما .

وشكلت وزارة رياض فى ١٩ يناير ١٨٩٤ ، وفى عهدها حدثت أزمة الحدود سنة ١٨٩٤ فعندما سافر الخديو الى الصعيد لتفقد احوال الجيش المصرى هناك بعد ان اشتكى له الضباط المصريين من سوء معاملة رئيسهم الانجليزى لهم ، فقام الخديو باستعراض قوات الجيش فى وادى حلفا ومعه ماهر باشا وكيل وزارة الحربية وعند مروره على الاورطتين الثانية والحادية عشر أبدى بعض الملاحظات والانتقادات التى تمس كفاية الضباط الانجليز ، كما القى خطبة على مسامع الانجليز انتقد فيها طريقة التعليم التى ينتهجونها فى تدريب الفرق المصرية ، مما كان له وقع سىء على الاوساط الانجليزية فقدم كتشنر استقالته معلنا أن الكرامة الانجليزية قد امتهنت ولما سمع اللورد كرومر بالحادث هالته خطورته ورأى فيه الفرصة التى يمكنه بها تلقين الخديو درسا قاسيا ، فطلب منه نقل ماهر باشا من نظارة الحربية واصدار أمر عسكرى يثنى فيه الخديو على الضباط الانجليز ويعتذر عما بدر منه ، ولما وجد الخديو أن الموقف فى غير صالحه اذعن لمطالب كرومر وبذلك اصيب نفوذه من جراء هذه الأزمة بضربة شديدة وتصدعت هيبته أمام الجيش والشعب .

وقد تميزت الفترة التى تلت حادث الحدود وحتى نهاية فتح السودان ١٨٩٨ بالحذر الشديد من جانب الخديو فى تصرفاته تجاه الاحتلال ، فسلك طريق المقاومة السرية كما شجع العناصر المناوئة للاحتلال وازداد تقربه من الأمة فأخذ يدعو المثقفين اليه من ابناء البلاد والعلماء امثال الشيخ محمد عبده والشيخ حسونة النواوى وادار الخديو من داخل قصره اللجنة الفرنسية السرية التى قامت بالدعاية لقضية استقلال مصر فى أوربا ثم انضم اليها بعد ذلك جمعية احياء الوطن السرية .

أخذ الخديو يساير الحركة الوطنية حينا ويتراجع عنها حينا آخر حينما تعارض مصالحه معها ، وكان شديد الحذر فى تعامله مع الاحتلال ، يظهر الوفاق ويبطن المقاومة ومع ذلك فان الظروف اضطرته الى المقاومة الصريحة للاحتلال وبوجه خاص فى الفترة التى عاصرت وزارة مصطفى فهمى والتى تغطى فتح السودان ، فقد اعترض الخديو على قرار انجلترا اعادة فتح السودان عام ١٨٩٦ ثم اضطر الى التزام الصمت نظرا لتهديدات كرومر له .

ومن المعتقد أن الخديو عباس لم يكن على استعداد للسير فى صرامة ضد المعتمد البريطانى كرومر الى حد التفكير فى تصفية الاحتلال نهائيا بل كانت معارضته المترددة لسياسة كرومر تستهدف المشاركة فى السلطة حتى فى ظل الاحتلال ، كما أن موقف الخديو عباس الثانى من الاحتلال كان ينصب فى الهجوم على السياسة الكرومرية وليس على الاحتلال من أساسه وكان تعاطفه نحو الحركة الوطنية أسلوبا من أساليب الضغط على سياسة كرومر ، وقد نجحت محاولات كرومر فى تجريد الخديو من سلطاته شيئا فشيئا نظرا لأنه كان يعتبره شابا صغير السن قليل الخبرة عديم الادراك بشئون البلاد السياسية والادارية كما اعتبره مسئولا عن كل الحركات المعادية للانجليز ، ونتيجة لضغوط كرومر فقد الخديو الكثير من سلطاته مما دفعه الى البحث عن مصدر يعوضه ما فقده فبدأ فى جمع الأموال من كل مورد مفتوح بين يديه ، وكان أهم هذه الموارد خزائن الأوقاف والتركات .

ولما حاول الخديو تخفيف وطأة كرومر عليه سافر الى لندن عدة مرات وكانت زيارته موضع الترحيب والحفاوة ، وفيها سعى لدى الحكومة البريطانية للحصول على وعد منها بأن يكون الدون جورست خلفا لكرومر فى مصر .

وعندما وقع حادث دنشواى فى يونية ١٩٠٦ وحدث الاجماع الوطنى الرائع الذى تزعمه مصطفى كامل ضد استبداد الانجليز فى دنشواى عاد الخديو عباس الثانى الى صف الحركة الوطنية وخصوصا وانه لم يتحقق له فى اثناء تقربه من الاحتلال ما كان يوده من المشاركة فى الحكم .

ولما استقال كرومر وخلفه جورست وحدثت سياسة الوفاق والمسالمة مع الخديوى تخلى الخديو عن الحركة الوطنية تماما بل اعتبرها خطرا عليه وشجع على اضطهادها .

وبعد أن حل كتشنر محل جورست واستعمل سياسة الشدة مع الخديو اراد الأخير العودة الى الحركة الوطنية ولكن محمد فريد رفض طلبه .

وفى ١٢ يونية ١٩١٤ سافر الخديو الى الاستانة فلاحقه شاب مصرى يدعى محمود مصطفى باطلاق الرصاص عليه فى ٢٥ يوليه ١٩١٤ فاصابه فى ذراعه وفكه ونقل الخديو الى المستشفى حتى قامت الحرب العالمية الأولى .

وفى ١٩ من ديسمبر ١٩١٤ اعلنت الحكومة البريطانية خلع الخديو عباس الثانى عن منصب الخديوية وارتقاء حسين كامل عرش السلطنة المصرية . وقد ظل عباس الثانى متمسكا بحقوقه الشرعية فى مصر حتى عام ١٩٣١ حتى تنازل عنها للملك فؤاد عام ١٩٣١ مقابل مبلغ من المال وفى عام ١٩٤٤ توفى الخديو عباس الثانى بجنيف عن عمر يناهز الحادية والسبعين شهد خلاله حربين عالميتين ، ونقلت جثته الى مصر ، وقد دون مذكرات مطولة نشرتها جريدة المصرى عام ١٩٥١ وقد تناول فيها حياته وسنوات حكمه كما تناول الحديث عن زعماء الحركة الوطنية وعلاقته بهم .

مراجـــع الفصـــل الحادى عشـــر

(١) اعتدنا فى بيان سيرة على مبارك واعماله على ما استخلصناه من عبد الرحمن الرافعى فى كتاب : عصر اسماعيل .

(٢) د. عبد المنعم الجميعى : على مبارك وروضة المدارس ، دراسة غير منشورة .

(٣) روضة المدارس : العدد الأول من السنة الأولى بتاريخ السبت ١٥ محرم ١٢٨٧ .

(٤) الرافعى : المرجع السابق جـ ١ ص ٢٥٢ .

(٥) دار المحفوظات العمومية : ملف خدمة ومعاش الشيخ محمد عبده ، دولاب ٤٢ عين ٤ محفظة ٨٧٣ دوسيه ٢٢٦٧٩ .

(٦) نفس الملف : مذكرة بقلم المستخدمين ، ويتضح من المذكرة أيضا أن هذه السنة لم يكن بها دفتر مواليد .

(٧) نفس الملف : تعريفه باسم الشيخ محمد عبده المستخدم بوظيفة نائب قاضى بمحكمة بنها الأهلية وردت من المحكمة الى الحقانية بتاريخ ١٨ مارس ١٨٩٠ تحت رقم ٤٥ .

(٨) ملف الخدمة السابق الذكر . قضية رقم ٦٣ باسم الشيخ محمد عبده .

(٩) نفس الملف : صورة افادة من نظارة الحقانية لمحكمة مصر الابتدائية الأهلية بمقتضى الدكريتو الصادر فى ٢ يناير ١٨٩٢ .

(١٠) نفسه : صورة ما ورد من رياسة مجلس النظار بضمانة الحكومة للشيخ محمد عبده بالعودة الى وظيفة قاض بمحكمة الاستئناف الأهلية فى حالة استقالته او اقالته .

(١١) نفسه : افادة بخصوص احتساب مدة الشيخ محمد عبده المفتى .

(١٢) نفسه : توكيل الشيخ محمد عبده للشيخ حسن البنا فى القيام بالرأى فى الأحكام الجنائية فى حالة سفره الى أوربا .

(١٣) الملف السابق : اقرار ذمة مالية مقدم من الشيخ محمد عبده .

(١٤) نفس الملف : التماس مقدم من حرم المرحوم الشيخ محمد عبده وابنتاه القاصرة والعاجزة الى نظارة المالية .

الفصل الثانى عشر

أبرز المتاحف في جمهورية مصر العربية

١ ــ المتحف المصرى .

٢ ــ متحف الفن الاسلامى .

٣ ــ المتحف اليونانى والرومانى .

٤ ــ المتحف القبطى .

٥ ــ متحف التعليم .

٦ ــ المتحف الحــربى .

٧ ــ متحف المثال محمود مختار .

٨ ــ متحف دار الكتب المصرية .

ابرز المتاحف فى جمهورية مصر العربية

ظلت الآثار المصرية مشتتة فى بقاع عدة لم يهتم بها أحد من السلاطين أو الحكام حتى أواخر عصر محمد على . ونتيجة لمحاولات شمبليون الفرنسى ، وبورنج الأمريكى فى اقناع محمد على بانشاء مصلحة خاصة للمحافظة على الآثار انتهى الأمر بانشاء هذه المصلحة ، ثم تطورت الأمور فى عهد خلفاء محمد على الى انشاء المتحف المصرى ، ودار الآثار العربية ، والمتحف اليونانى والرومانى ، والمتحف القبطى ، والعديد من المتاحف الأخرى فى محافظات مصر وذلك ما سنعرض له فى هذا الفصل .

أولا : المتحف المصرى — ميدان التحرير بالقاهرة انشىء المتحف المصرى فى بداية الأمر فى عام ١٨٥٧ [١] بمنطقة بولاق على شاطىء النيل بالقاهرة [٢] بفضل جهود العالم الفرنسى أوجست ماريت Maiette الذى مهد سبل البحث عن الآثار ، ونجح فى منع العبث بها وجمع ما تفرق منها هنا وهناك فى هذه الدار ، حتى كون فى بولاق متحفا لا مثيل له فى العالم ادخر فيه — كما ذكر البعض — من «التماثيل والمكتوبات البردية والنقوش ، وموميات كبار الفراعنة ، ما لا يعرف له قيمة ، ولا يمكن لكنوز الدنيا باسرها مشتراه » .

وقد اقدم الخديو اسماعيل على دعوة ذوى المنزلة الرفيعة من زائريه لزيارة هذا المتحف[٣] .

وكان من الطبيعى أن يكون أول مدير للمتحف هو « ماريت » وكان من الطبيعى أيضا أن يكون ضمن رجال هذا المتحف بعض المصريين وقد نبغ من هؤلاء اكثر من واحد فى مقدمتهم أحمد كمال باشا .

وفى عام ١٨٩٠ نقلت محتويات هذا المتحف الى سراى الخديوى اسماعيل بالجيزة على الضفة الغربية للنيل فى مواجهة جزيرة الروضة

وكانت هـــذه السراى ذات طـــابقين أرضى وعلوى ، وكل طـــابق مكون من تســـعين صالة تقريبا مما يوضح أن مقتنيات هذا المتحف كانت كثيرة ، يضـــاف الى ذلك انه تم تقســـيم مقتنيات المتحف من التحف تقسيما علميا بحسب العصـــور من اقدم الأزمنة الى العصر القبطى [(٤)] .

وقد وصف المويلحى ما شـــاهده فى هذا المتحف بقوله « واقمنـــا هناك نتنقل بين الأصنـــام والتماثيل ، ونتأمل فى التصـــاوير والتهاويل . ونتفكر فى هـــذه العظـــام المنشرة والرفات المنظرة بمـــا عليها من الحلى والزينة ، وتلك الأحجار الثمينة . كيف كانت ملوكا للامم ، ثم بقيت على بلى الرمم ، وتوالى القدم ، فى حال الوجود مع العدم » [(٥)] .

كمـــا وصف تهـــافت الأوربيين على مشـــاهدة هذه التحف بقـــوله « كنت أرى تهـــافت الغربيين عليها ... لعل شأنها عندهم وعلو قيمتها لديهم هـــو لأجل توغلها فى البلى والقـــدم ومحلها من التاريخ ، وما تحمله منقوشـــا عليها من أســـاطير الأولين .. زد على تلك حبهم للاقتنـــاء وولوعهم بالاختصاص بالنـــادر ولذلك علت قيمتها عندهم وارتفع قدرها بينهم » [(٦)] .

ثم قـــارن بين اهتمـــام الأوربيين بالآثار المصرية ، وعدم اهتمـــام المصريين بهـــا فقال « ولو أنـــك عرضت أهل مصر على هذه الآثار واحدا واحدا لما استفـــادوا منها شيئـــا ، ولا أفادوك عنها شيئـــا ولما وجدوا لهـــا قيمة تذكر سوى النذر اليسير من المقلدين للغربيين » [(٧)] .

وقد ظـــل هذا المتحف فى سراى الخديو بالجيزة حتى التاسع مـــن مارس ١٩٠٢ ، وفى ١٣ يوليو من نفس العـــام نقل المتحف الى مبنـــاه الحـــالى بميدان التحرير بالقاهرة فى بنـــاء فخم وفتح أبوابه للجمهـــور فى الخامس عشر من نوفمبر [(٨)] . وقد حضر الخديو عبـــاس حلمى الثـــانى حفل الافتتـــاح وأعرب عن رغبته فى متابعة آثـــار أجداده ، وأثنى على العلمـــاء الذين قاموا بتنظيمه وجمع آثاره .

ويضم المتحف آثـــار مصر منذ اقـــدم عصورها الى نهـــاية عصـــر الوثنيـــة ويحوى أكبر مجموعة للاثار الفرعونية فى العـــالم . ويتكون من

طابقين : الطابق الأرضى يحوى الآثار الثقيلة كالتوابيت والتماثيل واللوحات الحجرية وهو مرتب ترتيبا زمنيا حسب العصور [٩] .

أما الطابق الثانى فيشمل مقبرة توت عنخ آمون ، والآثار الخفيفة الوزن كالآلات والجهاز الجنائزى والتماثيل الصغيرة والحلى والتوابيت الخفيفة هذا بالاضافة الى أوراق البردى [١٠] ومن اهم أوراق البردى التى يقتنيها المتحف وثيقة على جانب كبير من الاهمية، مكتوبة بالهيراطيقية من عصر رمسيس الثانى من ملوك الأسرة التاسعة عشرة ، والكتابة واضحة فى مجموعها باللونين الأسود والأحمر فى صفحات تشبه أعمدة الجرائد يبلغ عددها أربع وخمسين صفحة . والبردية تعد من أطول البرديات فى العالم فطولها حوالى سبعة أمتار وعرضها حوالى عشرين سنتيمترا . وهى تتناول موضوعات مختلفة : دنيوية ودينية وفلكية وسحرية كلها مرتبطة بالطالع السعيد أو النحس فى أيام السنة . وتحتوى البردية على تعاويذ سرية لحماية الفرد وما يعمله من تمائم [١١] .

وقد سجلت هذه البردية فى المتحف تحت رقم ٨٦٦٣٧ والى جانب ذلك فقد اضاف المتحف الى مقتنياته البردية مجموعة فى بابها وهى « أوراق طره البردية » [١٢] .

ومما يفخر به المتحف مجموعة آثار توت عنخ آمون [١٣] آخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة — وهى المقبرة الفرعونية الوحيدة التى عثر عليها سليمة وبالحالة التى وضعها عليها قدماء المصريين [١٤] ويستلفت النظر منها التابوت الذهبى الذى كانت بداخله مومياء توت عنخ آمون، ومجموعة الأوانى المرمرية والخزفية ، والعصى والأقواس ، وكرسى العرش ، وتماثيل الآلهة التى تتولى حراسة الملوك فى العالم السفلى ، وتماثيل الملك .

ويكفى أن يكون هذا المتحف هو المكان الوحيد الذى يستطيع الزائر أن يتتبع فيه حضارة نبتت وتطورت خلال ما يزيد على ستة آلاف عام [١٥] كما يستطيع أن يقف بين بقايا آلاف السنين فيرى أمامه

مومياء الفراعنة « امنتحتب الأول » و « تحوتمس الرابع » ، و « رمسيس الثانى » ، و « مفتاح » و « سيتى » و « رمسيس الثالث » وغيرهم ويقف أمام التماثيل المملوءة بالأسرار ، ويشاهد عادات وأعمال وفنون وصنائع هؤلاء المصريين العظام مما يشهد على أن مصر كانت أما للمدنية والحضارة القديمة .

وعلى الرغم من كل ذلك فالسؤال المطروح ، هل تمكن هذا المتحف من استيعاب عرض كل التحف الأثرية الموجودة به والتى ترد اليه احيانا بعد الحفريات ، وهل هو مجهز بأجهزة التقنية المتقدمة التى يمكن عن طريقها صيانة الآثار المحفوظة وحفظها أم لا ؟

الواقع أن المتحف فى مكانه الحالى بميدان التحرير بالقاهرة وبظروفه الحالية فى حاجة الى اعادة نظر وذلك للاسباب الآتية :

١ — ان تواجد المتحف فى منطقة اصبحت مزدحمة بالسكان وشديدة التلوث من عادم السيارات وغيره أصبح خطرا على الآثار المعروضة داخل المتحف ومن هنا يجب نقله الى منطقة هادئة فى احدى ضواحى العاصمة ، وفى تصورى أن ذلك هو ما تفكر فيه مصلحة الاثار ووزارة الثقافة جديا الان .

٢ — ان المتحف لم يعد به متسعا لعرض الاثار المصرية المكدسة فى مخازنه والتى لم تر النور بعد لضيق المكان به ، لذلك فان انشاء متحف جديد يكون اكثر اتساعا وتجهيزا افضل للمحافظة على آثارنا الخالدة .

٣ — ان عدم تجهيز المتحف بوسائل التقنية الحديثة والمتقدمة يجعلنا دائما فى قلق دائم على آثارنا خشية عليها من التلف والتآكل .

ونتيجة لكل ذلك فقد فكرت وزارة الثقافة المصرية فى الآونة الأخيرة فى بناء متحف آخر بالقرب من منطقة الأهرام بالجيزة يقام على مساحة ٧٧ فدانا مما يجعله أكبر متحف للاثار فى العالم .

وقد عرضت العديد من الدول وأبرزها اليابان وايطاليا المشاركة فى هذا المشروع الحضارى حيث تقوم اليابان ببناء المتحف وتقوم ايطاليا بترميم مجموعة اللوحات النادرة بمتحف الجزيرة ، ٧٤٥ لوحة أخرى ترجع الى القرن التاسع عشر لكبار فنانى المدرسة التأثيرية (١٦) .

وفى النهاية يمكن القول ان المتحف المصرى ذلك المحراب الفنى الزاخر بمختلف الكنوز ، لهو أمانة فى أعناق أحفاد الفراعنة العظام . وانى لأرجو أن يهتم المصريون بتراث جدادهم اهتمام العالم الاجنبى به حتى يصبحوا جديرين بالانتساب اليهم .

ثانيا — متحف الفن الاسلامى

دار الآثار العربية سابقا

فى عام ١٨٦٩ أمر الخديو اسماعيل بانشاء دار للاثار العربية ، وعهد بانفاذ المشروع الى « المسيو فرانس » كبير مهندسى الأوقاف وكلفه باختيار بناء حكومى لهذا الغرض ليجمع فيه ما كان مبعثرا فى المساجد من الآثار العربية والاسلامية فاختار الديوان الشرقى فى جامع الحاكم بالجمالية بجوار باب الفتوح .

وعلى الرغم مما بذل من أجل اقامة هذا المشروع فى عهد اسماعيل فان دار الآثار لم تتسع اتساعا حقيقيا الا فى عهد الخديو توفيق وخاصة بعد أن استصدر شريف باشا مرسوما فى الثامن عشر من ديسمبر ١٨٨١ بتأليف لجنة عهد اليها العناية بالآثار العربية وكانت برئاسة محمد زكى باشا مدير الأوقاف العام وقتئذ ، ومن أعضائها محمود سامى باشا ومحمود الفلكى باشا (١٧) وقد جاء فى مواد الأمر العالى ما يلى :

١ — اجراء اللازم لجرد وحصر الآثار العربية القديمة التى تكون فيها فائدة صناعية .

٢ — ملاحظة وصيانة تلك الآثار ، ورعاية حفظها من التلف واجبار نظارة الأوقاف بالتصليحات والترميمات المقتضى اجراؤها فيها مع ايضاح المهم منها .

ولما ضاق الديوان الشرقى فى جامع الحاكم رات اللجنة ضرورة البحث عن مكان آخر أكثر اتساعا لحفظ ما كان يرد على الدار من آثار وتحف [(١٨)] وانتهى الأمر بتخصيص مبنى آخر فى صحن جامع الحاكم فى عام ١٨٨٣ [(١٩)] .

ولما زادت مجموعات الآثار الواردة على الدار زيادة مضطردة راى الخديو أن يهيىء لهـا مكانا يليق بمكانتها فبنيت دار جديدة للاثار العربية ، واحتفل بافتتاحها فى الثامن والعشرين من ديسمبر ١٩٠٣ فى حفل كبير حضره الخديو عباس الثانى ، واللورد كرومر المعتمد البريطانى فى مصر ونقل اليها التحف الفنية الاسلامية .

ويضم المتحف مجموعة من أنفس المجموعات الأثرية الاسلامية فى العالم والتى يختلف تاريخ صناعتها منذ بداية العصر الاسلامى حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى .

وقد نمت هذه المجموعات بفضل الحفائر التى قام بها المتحف فى المناطق الأثرية حتا بلغت محتويات المتحف نحوا من ٧٥ الف تحفة .

وقد عرضت التحف الأثرية بالمتحف فى ٢٤ قاعة بطريقة تمتاز باتصال حلقات الفن والعمارة فيها فبعضها مخصص للطراز الفنى كالطراز الأموى والعباسى والفاطمى والأيوبى والمملوكى والايرانى والتركى ، وبعضها مخصص لمادة التحف كقاعة الخشب المعادن والخزف وفنون الكتابة التى تنسب الى مختلف العصور الاسلامية ، كما يمتلك هذا المتحف أعظم مجموعة من المنسوجات ، والسجاد الاسلامى التى تثبت براعة الفنانين المصريين فى نسج الأقمشة ، وعمل السجاد [(٢٠)] .

وقد تغير اسم دار الآثار العربية الى متحف الفن الاسلامى منذ عام ١٩٥٢ .

وهكذا كان تأسيس هذه الدار خدمة كبرى للحفاظ على التراث الاسلامى والحضارة الاسلامية ، ومن الانصاف أن نشيد بجهود العلماء الذين ساهموا بجهودهم فى ابراز التراث الاسلامى فى هذا المتحف ، ومن

هؤلاء العالم الفرنسى « جاستون فيت » فبعد أن عين فيت مديرا للمتحف فى عام ١٩٢٦ انكب حوالى ربع قرن من الزمان على دراســة الكثير من الكنوز النفيسة التىيحتويها المتحف فى كافة المجالات الفنية ، وقد ساعده على ذلك قدرته على قراءة الكتابة العربية التى استخدمت كعنصر من عنــاصر الزخرفة فى الفن الاسلامى ، هذا بالاضافة الى المامه بالتاريخ الاسلامى .

وقد تميز عمله بالتعمق فى دراسة الفنون الاسلامية فى مجالاتها المختلفة ، ودراسة المجموعات الفنية التى يضمها المتحف من منسوجات وحراير وسجاجيد وخزف وتحف معدنية نحاسية وبرونزية وتصاوير واوانى زجاجية ، مشكاوات مموهة . كان نتاج ذلك عمل دليل فى عام ١٩٣٠ للتعريف بمحتويات المتحف ، واخراج العديد من الدراسات والمقالات عنه ومن أهمها :

١ — المشكاوات والأوانى الزجاجية .

٢ — التحف النحاسية والبرونزية ذات النقوش التاريخية .

٣ — التصاوير الفارسية والهندسية والتركية .

٤ — حراير فارســية .

٥ — النقوش العربية فى مصر ، ج ٢ .

٦ — مجموعة شواهد القبور الموجودة بمتحف الفن الاسلامى .

٧ — النقوش العربية فى مكة والمدينة[٢١] .

والى جانب ذلك فان هذا المتحف يقتنى عددا قيما من أوراق البردى العربية التى جلبت من حفائر الفسطاط .

والحق أن الفن العربى فى عهوده الوضاءة غنى بالأنواع والأشكال ، مترع بالاحساسات والمعانى ولا سبيل الى كشف هذا الا من طريق التصفح والتأمل . ونتيجة لذلك هيأت الدار المعارض المتعددة لعرض نفائســها على الجمهور .

ثالثا : المتحف اليونانى والرومانى بالاسكندرية

انشىء هذا المتحف فى عام ١٨٩٠ — ١٨٩١ ، ويشمل مجموعات أثرية رائعة يرجع تاريخها الى القرن الثالث قبل الميلاد حتى القرن الثالث الميلادى وهى منسقة تنسيقا يتمشى مع تتابع العصور ومعروضة على الوجه التالى :

نقوش يونانية ولاتينية ثم شواهد جنائزية اما محفورة أو ملونة ثم مجموعة من ورق البردى ، ثم بعض الآثار الفرعونية التى عثر عليها بالاسكندرية ثم قلة من المومياء اليونانية والرومانية ، وبعض تماثيل تبين فن النحت اليونانى الرومانى ، كما تعرض بعض نواحى فن المعمار يلى ذلك تماثيل رومانية ، وقطع كاملة من الفسيفساء كما توجد بعض التحف الزجاجية الملونة ، والتحف العاجية كذا هناك مجموعة من التوابيت ، ومجموعة ضخمة من التماثيل الفخارية الصغيرة والمسارج ، ومجموعة من الأوانى الجنزية لحفظ رماد الجثث المحروقة ، ومجموعة من العملة البطلمية والرومانية ، وبعض الحلى ، كما توجد بعض الآثار التى ترجع الى العصر المسيحى هذا بالاضافة الى أنه يوجد بحديقة المتحف معبد التمساح المقدس الذى عثر عليه باقليم الفيوم ونقل الى المتحف فى عام ١٩١٣ .

ومما يسترعى الانتباه مجموعة التماثيل الفخارية الصغيرة والملونة التى يرجع تاريخها الى أوائل العصر الهلينستى حوالى عام ٣٥٠ ق . م والتى تعد احدى المجموعات الأثرية النادرة[٣٢] .

رابعا : المتحف القبطى
القاهرة — مصر القديمة

أسس هذا المتحف فى عهد الخديو عباس حلمى الثانى فى عام ١٩٠٨ حيث قام مرقس باشا سميكة بوضع نواته بمساعدة نخبة من محبى الفنون والآثار القبطية من مصريين وأجانب وذلك بتخصيص غرفة بجوار الكنيسة المعلقة[٣٣] بمصر القديمة لعرض الآثار القبطية بها ، ثم شرع فى جمع شتات هذه الآثار التى عثر عليها فى الكنائس والأديرة بالوجهين القبلى والبحرى وذلك بموافقة بطريرك الأقباط الارثوذكس وقتئذ[٣٤] .

وفى عهد الملك فؤاد ، وبعد زيارته للمتحف فى ٣١ ديسمبر ١٩٣١ تقرر ضم هذا المتحف الى أملاك الدولة واعتباره متحفا قوميا .

وفى عهد الملك فاروق تمكن المتحف من زيادة مجموعاته الأثريـــة عن طريق شراء نخبة من الآثار المختلفة مما عرض بمعـــرض جمعية الآثـــار القبطية فى ديسمبر ١٩٤٤ وأيضا عن طريق ما نقل اليه من المتحف المصرى .

ويرجع الفضل فى تكوين النواة الأولى لمقتنيات المتحف القبطى الى العالم الأثرى « جاستون ماسبرو » الذى يعد بحق أول من شمل الفن والعاديات القبطية بعناية واهتمام جديرين بالذكر فانه لم يكن يعين فى وظيفة مدير عام الآثار المصرية فى عام ١٨٨١ حتى عقد العزم على أن يضم الى منهاج عمله الأماكن والآثار القبطية .

كما بدأ بتخصيص احدى قاعات المتحف المصرى لآثار العصر القبطى ، وكون بذلك نواة تلك المجموعة النفيسة النادرة التى تزدان بها الآن قاعات كثيرة من قاعات المتحف القبطى مما جعل منه مركزا رئيسيا لدراسة آثار مصر التاريخية فى العصر المسيحى[٢٥] .

ويعد هذا المتحف نسيج وحده بين المتاحف فى فنون العهد القبطى حيث يضم فى قاعاته المختلفة مجموعة تعتبر من اندر واعظم المجموعات العالمية فيحتوى على العديد من المجموعات الأثرية التى تربط بين العصرين اليونانى والرومانى والعصر العربى ومن أهم هذه المجموعات نذكر :

١ — مجموعة من الآثار الحجرية والرخامية والجرانيتية وبقايا توابيت المـــوتى .

٢ — مجموعة من الفخار المنقوش والخزف المصقول والزجاج المدهون .

٣ — مجموعة من المصنوعات الخشبية تتالف من مذابح قديمة واحجاب وأبواب للهياكل وصناديق ومقاعد وغيرها يرجع تاريخ بعضها للجيل الرابع للمسيح عليه السلام من الواح منقوشة نقوشا بارزة تمثل حياة الســـيد المسيح وصـــور القديسين والحياة المنزلية وصـــور طيـــور وحيـــوانات وبعض هذه النقوش مطعم بالسن ، وبعضها قد أنزل فيه الصدف ، وآيات مقدسة بالقبطية والعربية .

٤ — مجموعة من الأدوات المعدنية كالصناديق الفضية المنقوشة بالنقش البارز لحفظ الكتاب المقدس والمزخرفة بالكتابات الجميلة البارزة أيضا ، وبعضها مرصع بالحجارة الكريمة ، وفى هذه المجموعة عدد من آنية الخدمة الدينية وعكاكيز البطارقة والصلبان الكبيرة والصغيرة ذهبية وفضية ونحاسية .

٥ — مجموعة من الملابس الكهنوتية الحريرية المطرزة بخيوط الذهب والحرير الملون ، وقد وشيت برسوم الشهداء والصلبان فضلا عن أستار الهياكل والاعلام الخاصة بالاحتفالات .

٦ — مجموعة من الايقونات التى تمثل حياة السيد المسيح وصور القديسين أيضا .

٧ — مجموعة من المؤلفات الدينية المكتوبة بخط اليد على ورق قديم جدا وبعضها رسمت عليه بماء الذهب والألوان المختلفة اشكال هندسية وصور الشهداء[٢٦] .

وقد نسقت معروضات المتحف تنسيقا روعى فيه الترتيب الزمنى وفقا لأنواعه المختلفة .

كما يضم المتحف مكتبة تشمل معظم ما كتب عن الأقباط وتاريخهم ولغتهم بسائر اللغات .

والى جانب هذه المتاحف توجد متاحف محلية فى عواصم المحافظات المصرى تحوى آثار مكتشفة بها ، كما تحوى ايضا بعض الآثار المكتشفة فى جهات اخرى والتى تزيد عن حاجة المتحف المصرى .

ولا يخفى ما فى وجود هذه المتاحف من فوائد ، اذ انها توجه انظار سكان كل محافظة الى تاريخها القديم ، وتبعث نشاطا وتنافسا فى الاقبال على الحفائر والمحافظة على الآثار .

هذا بالاضافة الى المتحف الحربى ، والمتحف الزراعى ومتحف النيل وغيره .

وهكذا يتضح أن تأسيس المتاحف فى مصر كان ثمرة من ثمرات الوعى القومى ، ومظهرا من مظاهر الرغبة فى المحافظة على تراث الأجداد ودراسته بطريقة علمية سليمة .

٥ ـ متحف التعليم

مقره : ٢ شارع اسماعيل أباظة . ديوان وزارة التربية والتعليم .

تاريخ الانشاء : انشيء فى عام ١٩٣٧ بمناسبة مرور مائة عام على انشاء ديوان المدارس ليكون تجسيدا لحركة التعليم فى مصر وتطورها على مر الأيام .

رسالته :

(أ) العرض التاريخى لتطور التعليم فى مصر بدءا من العصر الفرعونى وحتى اليوم .

(ب) ابراز نوعيات التعليم فى مصر ومدى ما حققته من نمو ، وذلك من خلال عرض صور ونماذج ولوحات وبيانات وافية .

(جـ) توثيق تاريخ التعليم فى مصر وانواعه المختلفة بوثائق ومخطوطات نادرة .

اقسام المتحف :

المدخل : يعطى صورة شاملة عن رسالة المتحف ويضم لوحات ملونة ومجسمة تمثل مراحل التعليم المختلفة .

الوزراء وكبار رجال التعليم : يعرض صورا نادرة لوزراء التعليم طوال تاريخ مصر الحديث منذ عصر محمد على حتى اليوم ولمحة عن أهم منجزات كل منهم .

قدماء المصريين : يبرز حضارة مصر العريقة ، فيعرض لأول جامعة فى تاريخ البشرية « جامعة أونو » كما يعرض لأول مبادىء اللغة المصرية القديمة ، والتطور الذى سجله الفراعنة فى كافة العلوم .

التعليم عند العرب : يعرض لمصر الاسلامية وما انجزه العرب من اختراعات وتطوير لجوانب كثيرة من حياة مصر ، مع صور ملونة لاعلام العرب المبرزين الذين اسهموا فى اثراء العلوم والفنون فى مصر والعالم .

القرن التاسع عشر : به احصاء للمدارس التجهيزية العليا وبيان بالبعثات التعليمية الأولى التى توجهت الى أوربا وصور نادرة لأصحابها .

التعليم العام وتعليم الفتاة : يعرض بالصور والأرقام لمراحل التعليم العام من التحضيرى حتى الثانوى ، ويتعرض قسم تعليم الفتاة لتاريخ وتطور مراحل تعليمها .

الوثائق والبحوث والمكتبة : يعاون الباحثين وأساتذة الجامعات بما يوفره من وثائق ومخطوطات ومراجع نادرة عن التعليم فى مصر .

التعليم الفنى : يضم نماذج من انتاج التعليم الفنى بأنواعه الصناعى والتجارى والزراعى كما يعرض مراحل تطوره .

الجامعات والمعاهد العليا : تسجيل لتاريخ الجامعات المصرية بالاحصاءات النماذج المجسمة والبيانات الخاصة بكل جامعة .

الخط العربى : يعرض نماذج عديدة للخطوط العربية ، والزخرفة ، والتذهيب وتطورها منذ أقدم العصور .

الأزهر الشريف : يضم كثيرا من المعلومات عن نشأته منذ عام ٩٧٢ والقوانين الخاصة بتنظيمه كما يعرض نموذجا مجسما للجامع الأزهر ، وصورا لأبرز علمائه .

الوسائل التعليمية : تضم مجموعة نماذج مجسمة ، ومصورة لبعض الوسائل التعليمية التى تستخدم فى المدارس المصرية .

الصحافة المدرسية : يعرض نماذج لمقالات كتبت بأقلام شابة من طلاب وطالبات المدارس فى مناسبات مختلفة .

التربية الخاصة : يعرض بعض وسائل تعليم الطلاب المعاقين (مكفوفين — صم وبكم)[٢٧] .

٦ ـ المتحـف الحـربى

مقـــره : قلعة صلاح الدين بالقاهرة .

تاريخ الانشـــاء : انشىء فى عام ١٩٣٧ م وتم افتتاحه عـــام ١٩٤٩ واعيد تجديده وافتتاحه فى عام ١٩٨٢ .

رسالته : العرض التاريخى لتطور تاريخ مصر العسكرى ، وارتباط ذلك بالتاريخ السياسى .

اقســام المتحــف :

١ ـ **قاعة المجـد :** وهى القاعة الرئيسية للمتحف ، وبها صـــور وتماثيل لعظماء التاريخ المصرى والاسلامى والعربى .

٢ **قسم الملابس العسكرية :** ويضم تماثيل بالحجم الطبيعى لبعض الجنود وضباط الجيش وطلبة المدارس والكليات الحربية بملابس الميدان والتشريفة .

٣ ـ **قاعة ملابس كبار القادة :** وتضم نماذج لملابس كبار القـــادة والملابس العسكرية المختلفة للملك السابق فاروق ورؤساء الجمهورية .

٤ ـ **قاعة المدفعية :** وتحتوى هذه القاعة على نماذج ولوحات ومدافع مختلفة الأعيرة والصنع فى العصر الحديث .

٥ ـ **قاعة المدرعات :** وتحكى تطور سلاح المدرعات .

٦ ـ **قاعة الذخيرة :** وتمثل نماذج للذخائر المتنوعة عبر العصـــور المختلفة وتطور هذه الذخائر ونوعياتها .

٧ ـ **قاعة محمد على :** وهى قاعة نادرة النقوش والرسوم تتوسطها نافورة مياه ، وبها ديوراما بالحجم الطبيعى لمحمد عـــلى فى مجلس عمـــل يشمل كبار ضباطه وهيئة العلماء من مستشاريه وحرسه الخاص .

٨ ـ **قسم الأسلحة البيضاء :** ويشمل مختلف أنواع هذه الاسلحة من سيوف وخناجر مختلفة العصور والمناطق والصنع .

٩ ــ **قسم الأسلحة النارية** : وبه مسدسات وطبنجات وبنادق قصيرة وبنادق من مختلف العصور منها بندقية خاصة للخديو اسماعيل .

١٠ ــ **الجناح الفرعونى** : وبه نماذج من الحصون المصرية وتشكيلات من الجيش المصرى وتنظيمه ولوحات جصية منقولة عن المعابد عليها كتابات هروغليفية سجلت انتصارات الجيش المصرى كما ان به نماذج للعجلات الحربية المستخدمة آنذاك .

١١ ــ **الجناح الاسلامى** : ويحتوى على نماذج القلاع والحصون وأبواب القاهرة وأسوارها ، وخريطة توضح اشهر الآثار الاسلامية فى القاهرة .

١٢ ــ **قاعة الأندلس** : تبرز الحملات العربية على الأندلس ، وانتشار الحضارة العربية هناك .

١٣ ــ **القاعة الاسلامية** : وتحتوى على خرائط تبين الفتوحات الاسلامية وتوسعاتها عبر القرون من الدولة الأموية حتى نهاية الحكم العثمانى .

١٤ ــ **صالة اسلامية** : وتبدأ بصلاح الدين الأيوبى ، وايقافه للمد الصليبى كما يوجد بها حجرة تمثل قصة أسر لويس التاسع بدار ابن لقمان بالمنصورة ، وحجرة أخرى بها نماذج لملابس الجيوش الايوبية ونموذج لبئر صلاح الدين وصور زيتية **أخرى** .

١٥ ــ **القرن التاسع عشر** : ويبدأ بالحملة الفرنسية ، ويوجد بها صور تمثل الاسكندرية والقاهرة وصور وخرائط تبين المعارك التى دارت بين المماليك والفرنسيين .

١٦ ــ **محمد على وخلفاؤه** : ويبدأ بتمثال محمد على وتماثيل القادة فى عصره ، وحجرة خاصة بالبحرية فى عصره ، وقاعة بها خرائط بالمعارك التى قادها ابراهيم باشا ، كما أن بها تماثيل لسليمان باشا الفرنساوى وغيره ، وصور تمثل حكم مصر من محمد على الى فاروق .

١٧ ــ **قسم اسماعيل باشا** : ويمثل الامبراطورية المصرية فى عصر اسماعيل وقصة حفر قناة السويس وغيرها .

١٨ — جناح السـودان : ويحتوى على معارك الجيش المصـرى بالسودان منذ عهد محمد على ونماذج للاسلحة السودانية وغيرها .

١٩ — جناح الثورة العرابية : ويعرض لتماثيل أحمد عرابى وزملائه الذين قاموا بالثورة وصورا زيتية لهم لمظاهرة عابدين وللمعارك الحربية التى خاضها الجيش المصرى ضد الانجليز .

٢٠ — جناح حرب فلسـطين : ويضم صورا فوتوغرافية تمثل سـير المعارك الحربية والوثائق التى صدرت من مجلس الوزراء بشأن الحـرب ، وتمثال للبطل أحمد عبد العزيز وأبطال الفالوجا .

٢١ — جناح ثورة ١٩٥٢ : ويشتمل على تماثيل لرجال الثورة والبيانات التى اذيعت خلال هذه الفترة ، وصور لوثيقة تنازل الملك عن العـرش وصور فوتوغرافية تمثل رحيل الملك ، وماكيت حصار لقصر عابدين وديوراما تمثل توقيع اتفاقية الجلاء وغيرها .

٢٢ — قسم حرب ١٩٥٦ : ويمثل صورة العدوان الثلاثى على مصر وبيان تأميم قناة السويس ، والمقاومة الشعبية فى بورسعيد .

٢٣ — قسم اليمن : ويصور تطور ثورة اليمن ، ونماذج للأسـلحة وملابس الشيوخ اليمنيين ، ويوضح أعمال القوات المصرية هناك .

٢٤ — جناح ٦ أكتـوبر : ويشمل هذا الجناح تماثيل قادة حـرب اكتوبر ، وديوراما تمثل عبور القوات المصرية للقناة وتحطيم خط بارليف ولوحات ونماذج لسيناء وللطائرات المشتركة فى حرب اكتوبر ونمـاذج للأسلحة المصرية التى شاركت فى المعركة وبعض الأسلحة والمعدات التى غنمها الجيش المصرى[٢٨] .

٧ ـ متحـف المثـال محمود مختـار

مقـره :

تاريخ الانشـاء : ٢٤ يوليو ١٩٦٢ .

رسـالته : ابراز دور الفنان المصرى محمود مختار فى ارساء قواعد فن النحت فى مصر واتخاذه من حضارة بلاده اللمسات الفنية التى واكبت روح العصر واستوعبت الثقافة الحديثة .

— تشجيع حركة فن النحت فى مصر ، فبعد موت المثال مختار فى عام ١٩٣٤ تحركت مشاعر أصدقاء فنه وتكونت جمعية أصدقاء مختار التى نقلت جائزة باسم المثال مختارتمنح سنويا للمثالين من اجـل استمرارية النهضة التى بدأها ، وقد اهتمت الحكومة بهذا المتحف بعد أن تنازل ورثة مختـار عن آثاره للامة فاقامت له جناح مؤقت بمتحف الفن الحديث عام ١٩٥٢ حيث عرضت فيه أعماله الى أن قامت وزارة الثقافة والارشـاد القومى باعداد متحف مختار فى بقعـة من اجمل بقاع مصر .

اهم مقتنيات المتحـف :

١ ـ تمثال نهضة مصر :

وهو تعبير عن اليقظة الوطنية ، وتعددت فيه عناصر التعبير عن المعنى .

٢ ـ تمثال رياح الخماسـين :

وهو تمثال من الحجر يعتمد على عنف المقاومة وعصف الريح .

٨ ـ متحـف دار الكتب المصرية (الوثائق والمخطوطات)

مقـره : كورنيش النيل بالقاهرة . الدور الأول بمبنى الهيئة العامة للكتاب .

أهم مقتنيـاته : يضم هذا المتحف العديد من المصاحف التى يبدأ تاريخ كتابتها من القرن الأول وحتى القرن الثالث عشر الهجرى ، ويتضـح منها مراحل تطور الخطوط العربية ، ومن أهم هذه المصاحف مصحف شريف مكتوب بالخط الكوفى على ورق غزال وفى آخره كتابات تفيد أن هذا المصحف كتب بخط الامام جعفر الصادق بن الامام محمد الباقر بن على زين العابدين ابن الامام الحسين .

ومصحف شريف آخر مكتوبا على طريقة « أبى الاسود الدؤلى » وقد اهتم كاتبه بوضع حركات النطق خوفا من اللحن ومصحف شريف آخر كتب بقلم مغربى مضبوط الحركات رسم المولى الشريف على نجل أمير المؤمنين ، وجميع أوراق هذا المصحف محلاه بالذهب والياقوت بطريقـة أندلسـية رائعـة .

وفى هذا المتحف أيضا مخطوطات فى الطب والفلك وفى مجالات عديدة .

واللافت للنظر وجود مجموعة من حبوب القمح موضوعة تحت عدسة صغيرة على كل حبة قمح كتابات مختلفة فهناك حبة قمح مكتوب عليهـا سورتان من القرآن الكريم (الاخلاص وقريش) وحبة قمح أخرى مكتوب عليها أسماء من تولوا حكم مصر منذ عهد عمرو بن العاص وحتى الملك فاروق الى جانب ذلك فهناك بيضة مفرغة من الداخل مكتوب عليهـا كل الأعمال التى تمت فى مصر فى عهد الخديو اسماعيل .

مراجـــع الفصـــل الثانى عشـــر

(١) تذكر بعض المراجع أن المتحف انشىء فى عام ١٨٥٨ م .
انظر : المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة — المعالم الأثرية فى البلاد العربية ج ٣ ص ٢٥١ .

(٢) كانت مبانى هذا المتحف فى حالة سيئة ، فقد كانت مســـجدا مهجورا ، مبانيه نصف عارية وبجانبه بعض حظائر قذرة ومسكنا موبوءا بالحشرات ، وقد تسبب ارتفاع النيل فى عام ١٨٧٨ فى اغراق صالات هذا المتحف .

للتفاصيل انظر جيمس بيكى : الآثار المصرية فى وادى النيل ج ١ ، ترجمة لبيب حبشى وشفيق فريد — القاهرة ، الألف كتاب ، العدد ٤٩٥ ، ص ٩٠ — ٩١ .

(٣) الياس الأيوبى : المرجع السابق ص ٢٣٥ — ٢٣٦ .

والجدير بالذكر انه كان يسمح للسائحين الأوربيين بشراء بعض الآثار بأثمان باهظة .

ومما يذكر حول ذلك الموضوع أن احمد عرابى باشا بعد أن آلت اليه الأمور فى مصر أثناء ثورته فى عام ١٨٨١ قد رغب فى بيع ذلك المتحف دفعة واحدة ، ليسدد به ديون مصر الرسمية .
انظر الياس الأيوبى : المرجع السابق ص٢٣٥ .

(٤) المقتطف : الجزء الخامس من المجلد الســـابع والثمانين فى أول ديسمبر ١٩٣٥ ، مقال الدكتور حسن كمال السابق الذكر ، ص ٦٠٠ .

(٥) محمد المويلحى : حديث عيسى بن هشام أو فتـــرة من الزمن ، القاهرة ، مطبعة السعادة ١٩٢٣ ، ص ٤٣٦ .

(٦) ، (٧) نفسه ، ص ٤٤٠ .

(٨) انظر مقدمة دليل متحف القاهرة لعام ١٩٠٣ م .

(٩) ينقسم التاريخ المصرى الى الدولة القديمة ، والوسطى ، والحديثة والعصر المتأخر ثم العصر الاغريقى الرومانى وآثار بلاد النوبة .

(١٠) من أهمها أوراق الفيوم والبهنسا .
لتفاصيل ذلك انظر عبد العزيز الدالى : البرديات العربية ، القاهرة ، مكتبة الخانجى ، ١٩٨٣ ص ٧٣ — ٧٤ .

(١١) المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الأول ، مايو واكتوبر ١٩٤٨ ، دراسة للدكتور عبد المحسن بكير تحت عنوان أهم المقتنيات الحديثة فى المتحف المصرى ، ص ١٩٧ — ١٩٨ .

(١٢) عن تفاصيل ذلك انظر : المجلة التاريخية المصرية ، المجلد السابق ، ص ٢٠١ — ٢٠٩ .

(١٣) توت معناها صورة ، وعنخ معناها حية ، وهذا يعنى أن اسم الملك هو « صورة آمون الحية » .

(١٤) اكتشفها عالم الآثار الانجليزى هوارد كارتر فى نوفمبر ١٩٢٢ بمساعدة اللورد كارنارفون .

(١٥) المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة : المرجع السابق ج ٣ .

(١٦) الأهرام فى ١٩٩١/٨/١٥ .

(١٧) عبد الرحمن الرافعى : الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى ، القاهرة ، النهضة المصرية ، الطبعة الثانية ، ١٩٤٩ ، ص ١٦١ .

(١٨) المقتطف : الجزء الثالث من المجلد الثامن والسبعين فى مارس ١٩٣١ تحت عنوان : « دار الآثار العربية — أنفس ما فيها من الآثار والتحف » ص ٣١٩ .

(١٩) شغلت هذا المكان فيما بعد مدرسة السلحدار الابتدائية .

(٢٠) المعالم الأثرية ، ج ٣ ، ص ٢٥٤ — ٢٥٦ .

(٢١) للتفاصيل انظر : المجلة التاريخية المصرية ، المجلد التاسع عشر ١٩٧٢ ، دراسة للدكتور أحمد دراج تحت عنوان جاستون فيت وأعماله العلمية ، ص ١٠٥ — ١٠٧ .

(٢٢) المعالم الأثرية ، ج ٣ ، ص ٢٥٧ — ٢٥٨ .

(٢٣) عرفت هذه الكنيسة بالمعلقة لبنائها فوق الحصن الرومانى الشهير الذى شيده الامبراطور تراجان ، ولم يزل جزءا منها وقد بنيت على الأرجح فى أواخر القرن الرابع أو أوائل القرن الخامس الميلادى .

للتفاصيل انظر : المعالم الأثرية فى البلاد العربية ، ج ٣ ، ص ١٣٣ — ١٣٧ .

(٢٤) دار الوثائق القومية بالقلعة : محافظ ابحاث ، محفظة رقم ١٣٣ ، بحث تحت عنوان مذكرة تاريخية موجزة عن المتحف القبطى منذ نشأته الى الآن .

(٢٥) المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الأول ، مايو واكتوبر ١٩٤٨ ، دراسة للاستاذ طوجو مينا تحت عنوان : « المقتنيات الجديدة بالمتحف القبطى » .

(٢٦) مركز الاهرام للترجمة والنشر : شهود العصر ، مقال لمرقس سميكة باشا تحت عنوان متحف الآثار القبطية ، ص٧١ — ٧٢ .

(٢٧) وزارة التربية والتعليم : الادارة العامة للانشطة التربوية . دليل متحف التعليم .

(٢٨) دليل المتحف الحربى بالقلعة . الطبعة الأولى ١٩٨٢ .

الخاتمة

ومما سبق يتضح أن لمصر سحرا خاصا وهو ليس فقط سحر تاريخها وحضارتها العريقة وآثارها الخلابة ، ولكنهأيضا سحر شعبها الطيب الذى أقام مجتمعا متجانسا ومتآلفا وهو مجتمع تسوده المودة والتعاطف ، انصهر عبر تاريخها الطويل فى شخصية واحدة ذات عمق روحى واحد وفلسفة تفاؤلية، وهى شخصية ودودة وسمحاء لا تعرف العنف أو التعصب أو العنصرية ومع ذلك فأنها قابلة للانفعال ومع أن الشعب المصرى عاش منذ زمن طويل على مفترق الطرق الدولية ، وكانت بلاده مسرحا لأعظم أحداث التاريخ فقد ظل صامدا لا يقبل الاستكانة وان صبر عليها فترة من الزمن ، فقد أثبتت الوطنية المصرية تواجدها على مر العصور التاريخية التى عاشتها مصر ، واستطاعت اثبات حق الانسان المصرى فى الحياة كريما على أرضه واجبار المعتدين على التخلى عن أطماعهم ونواياهم العدوانية .

فهرست

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥ — ٧

الفصل الأول

الحملة الفرنسية على مصر والشام	٩ — ٣٨

الفصل الثانى

عصر محمد على	٣٩ — ٨٢

الفصل الثالث

عصر خلفاء محمد على	٨٣ — ١١١
١ — عباس الأول وعصره	٨٥ — ٨٧
٢ — سعيد باشا وعصره	٨٨ — ٩١
٣ — عصر اسماعيل	٩١ — ١٠٦

الفصل الرابع

الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى لمصر	١١٣ — ١٥٩

الفصل الخامس

حركة البعث الوطنى بعد الاحتلال (مصطفى كامل ومحمد فريد)	١٦١ — ٢٣٢

الفصل السادس

مصر من ثورة ١٩١٩ حتى معاهدة ١٩٣٦	٢٣٣ — ٢٥٨

الفصل السابع

مصر من الحرب العالمية الثانية حتى ارهاصات ثورة ١٩٥٢	٢٥٩ — ٢٧٢

الفصل الثامن

ثورة ٢٣ يوليو وأبرز التطورات السياسية فى مصر حتى انتصار اكتوبر ١٩٧٣ . . . . ٢٧٣ — ٣٢٠

الفصل التاسع

من انجازات مصر الحضارية . . . . . ٣٢١ — ٣٥٦
١ — القناطر الخيرية . . . . . ٣٢٣ — ٣٢٦
٢ — قناة السويس . . . . . . ٣٢٦ — ٣٣٧
٣ — بنك مصر . . . . . . ٣٣٨ — ٣٣٩
٤ — مديرية التحرير . . . . . . ٣٣٩ — ٣٤٠
٥ — الوادى الجديد . . . . . . ٣٤١ —
٦ — السد العالى . . . . . . ٣٤٢ — ٣٤٨
٧ — المطبعة الأميرية . . . . . ٣٤٨ — ٣٤٩
٨ — مجمع اللغة العربية . . . . . ٣٥٠ — ٣٥١

الفصل العاشر

بحوث ودراسات فى تاريخ مصر قبيل ثورة ١٩٥٢ . . ٣٥٧ — ٤٣٢
١ — الأحزاب والممارسة الديمقراطية . . . ٣٥٩ — ٣٧٦
٢ — المرأة المصرية والتعليم الجامعى . . . ٣٧٦ — ٣٨٨
٣ — مجتمع القاهرة من خلال ثلاثية نجيب محفوظ . ٣٨٨ — ٤٠٤
٤ — الفيوم بين ثورتى عرابى وسعد زغلول . ٤٠٤ — ٤١٢
٥ — سيناء فى التاريخ الحديث والمعاصر . . ٤١٢ — ٤٢١

الفصل الحادى عشر

من رجالات النهضة المصرية فى العصر الحديث . . . ٤٣٣ — ٤٥٤
١ — على باشا مبارك . . . . . ٤٣٥ — ٤٣٧
٢ — عبد الله النديم . . . . . . ٤٣٨ — ٤٤٢
٣ — الشيخ محمد عبده . . . . . . ٤٤٢ — ٤٤٤
٤ — مصطفى كامل . . . . . . ٤٤٤ — ٤٤٩
٥ — الخديو عباس الثانى . . . . . ٤٤٩ — ٤٥٣

الموضوع | الصفحة

الفصل الثانى عشر

أبرز المتاحف فى جمهورية مصر العربيــة . . . . ٤٥٥ — ٤٧٦
١ ـــ المتحف المصـــرى . . . . ٤٥٧ — ٤٦١
٢ ـــ متحف الفن الاســـلامى . . . . . ٤٦١ — ٤٦٣
٣ ـــ المتحف اليونانى والرومانى ٤٦٤
٤ ـــ المتحف القبطى . . . . ٤٦٤ — ٤٦٦
٥ ـــ متحف التعـــليم . . . . ٤٦٧ — ٤٦٨
٦ ـــ المتحف الحـــربى . . . . ٤٦٩ — ٤٧١
٧ ـــ متحف المثـــال مختبـــار ٤٧٢
٨ ـــ متحف دار الكتب المصريـــة ٤٧٣

خاتمـــــة ٤٧٧

مطبعة الجبلاوى
٣٠٢ شارع الترعة البولاقية

رقم الايداع بدار الكتب ٨٥١٢ /١٩٩٢
I. S. B. N. 977 — 00 — 4214 — 5